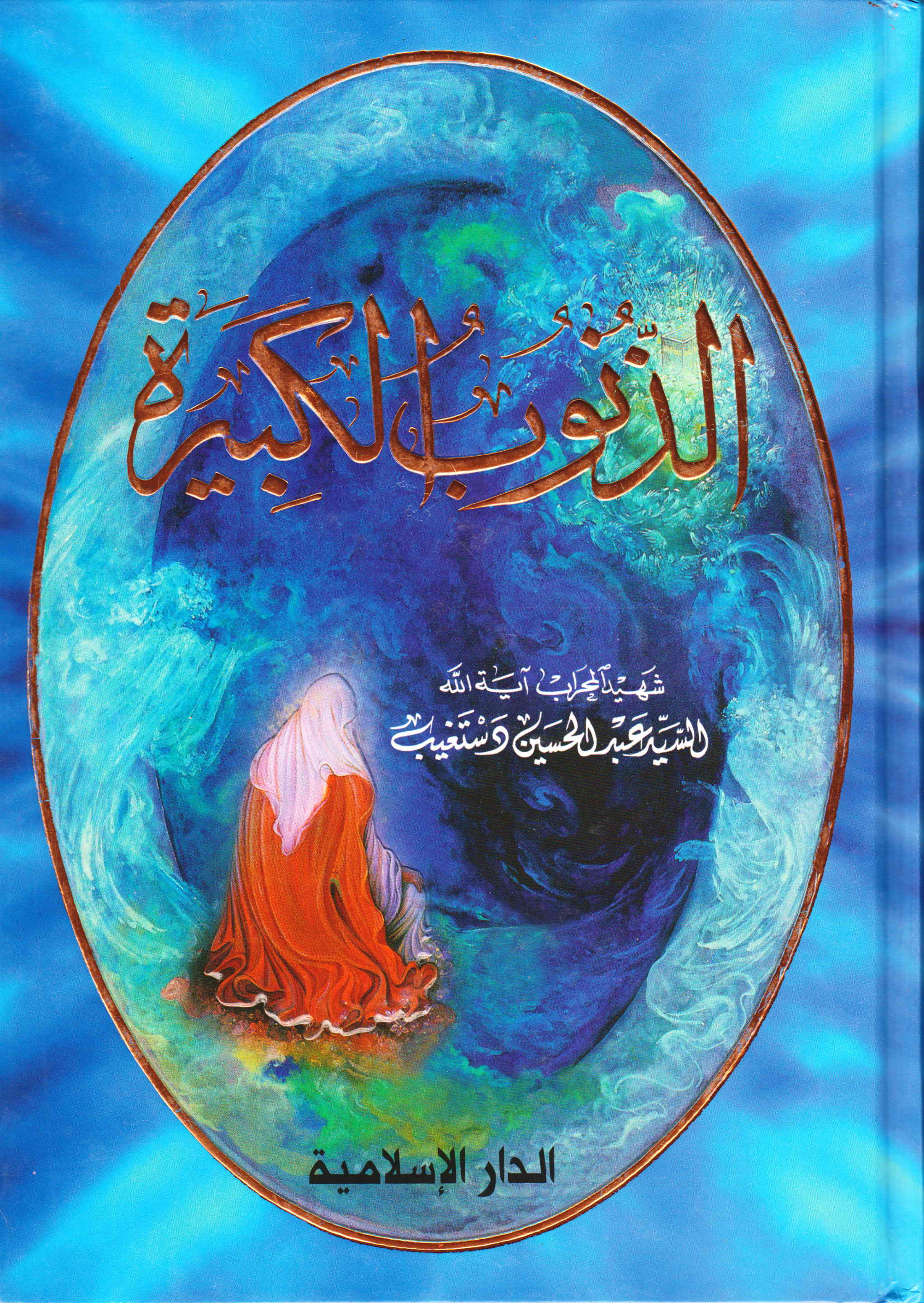

الذنوب الكبيرة
شهيد المحراب آية الله
السيد عبد الحسين دستغيب
الدار الإسلامية



١





شهيد المحراب آية الله

السيد عبد الحسين دستغيب

الجزء الأول

ترجمة

صدر الدين القبانجي

الدار الاسلامية

الطبعة الرابعة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



حارة حريك - شارع دكاش - مقابل مدرسة الليسيه أميكال مودرن
هاتف: ٠١/٥٥٣٨٦٣ - ٠٣/ ٣٨٩١٦٦ - ص.ب: ١٤/٥٦٨٠
WWW-DARALISLAMIA.COM INFO@DARALISLAMIA.COM

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحة عن حياة الشهيد المؤلف

كنت أشعر وأنا مشغول بترجمة الكتاب بضرورة التقديم له بلمحة عن حياة مؤلفه العظيم، خصوصاً وأن في حياته دروساً تربوية وأخلاقية تنفع القارئ الكريم.

ولم أكن شخصياً أعرف الشيء الكثير عن حياته رضوان الله عليه، بل لم يحالفني التوفيق للّقاء به ولو مرة واحدة لأكتب خاطراتي عن تلك اللحظات السعيدة!

ورغم أني عشت معه مدة انشغالي بترجمة كتابه، فقرأت روحه، وشممت نسيمه، وكنت أزداد يوماً بعد آخر تعلقاً به، وشوقاً إليه، خصوصاً حين وفقت لمطالعة جوانب من حياته، كتبها نجله العزيز سماحة السيد محمد هاشم دستغيب، إلا أن كل ذلك لم يكن يقنعني بأن أكتب أنا شخصياً عنه، بل كان يدفعني أكثر لأطلب من يكتب عنه من قريب، تقديم الكتاب.

وأخيراً قدم لي أخ عزيز هو فضيلة الشيخ علي نقي أوراقاً هي ترجمة لما كتبه نجل الشهيد (السيد محمد هاشم دستغيب) عن حياة والده.

وإني مع شعوري البالغ بحاجة القارئ للاطّلاع على ذلك، أتقدم بالشكر والثناء لأخي الشيخ علي نقي أولاً، وأقدم تلك الأوراق للقارئ العزيز، راجياً لي ولسائر إخواني الاتعاظ والتوفيق. والحمد لله رب العالمين.

الشهيد في سطور:

الشهيد آية الله دستغيب هو نجل المرحوم العلامة السيد حكيم دستغيب،

ولد الشهيد في عام ١٣٣٣ هجري بمدينة شيراز من عائلة دينية يرجع قدمها إلى ٨٠٠ سنة، وبعد أن أتمّ دراسة مرحلة السطوح من دراسات الحوزة العلمية غادر مسقط رأسه متوجهاً إلى النجف الأشرف لإكمال دراسته الدينية هناك، وبعد إحراز درجات رفيعة في تحصيل العلوم الدينية وبلوغه درجة الاجتهاد عاد إلى شيراز.

لقد تتلمذ الشهيد على أيدي أساتذة العلوم والفضيلة آنذاك، فتلقى درس النحو العربي عند العلامة الشيخ إسماعيل في مسجد نصير الملك، والفلسفة والحكمة عند الشيخ أحمد الدارابي وآية الله الشيخ علي أكبر آخوند الذي كان من المراجع المعروفين في محافظة فارس. ثم تلقى الفقه على يد الأستاذ الشيخ عبد الكريم، وحضر بحوث الخارج على يد الشيخ محمد كاظم. ولقد كان الشهيد دستغيب حائزاً على ثمان إجازات في الاجتهاد صدرت جلّها من قبل علماء كبار نذكر منهم:

السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمد كاظم القاضياني العراقي، والسيد ميرزا الأصطهباناتي. ومنذ أن عاد الشهيد إلى مدينة شيراز، بدأ بتنفيذ خدماته الدينية والسياسية، فنفث روح التدين في نفوس قاطبة سكان محافظة فارس، وبدأ بترويج تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، فأشعل في نفوسهم حماساً دينياً، وجعل من مسجد الإمام الباقر (ع) منطلقاً لنشاطاته فشرع بإقامة الصلاة هناك.

ونظراً لتهافت الناس اضطر للانتقال إلى مسجد تباليون الذي كان أوسع من سابقه، ثم انتقل إلى المسجد الجامع بعد تعميره. ولقد طرق سمعه آنئذ بأن رجلاً عارفاً ذا فضيلة في مدينة همدان يدعى الشيخ محمد الأنصاري، فسارع إلى لقائه من أجل الاغتراف من معين علومه.

نضال الشهيد:

وفي عام ١٣٨٢ هجري بدأ الشهيد دستغيب نضاله السياسي ضد النظام

الشاهنشاهي المقبور، حيث تزامن ذلك مع نضال الإمام الخميني، بل وواكبه.

ومنذ ذلك الحين فصاعداً كانت له اتصالات مع الإمام، حيث كان يتلقى الإرشادات من حضرته في كافة الأمور والشؤون. وبعد وقوع حوادث ١٥ خرداد عام ١٣٨٣ هجري ألقي القبض عليه من قبل جلاوزة نظام الشاه الأمريكي واعتقل، غير أنه لم تمض فترة وجيزة حتى أطلق سراحه بصورة أشبه بالمعجزة. لكن سرعان ما ألقي القبض عليه مجدداً في عام ١٣٨٤، وعند ما خيم الظلم والطغيان على الشعب الإيراني وألقى الاختناق بظلاله الواسعة عليه، هب الشهيد بكل همة واقتدار ورجولة مؤذناً بالنضال ضد النظام فتزعم المسلمين في نضالهم، وخاصة أهالي محافظته الشرفاء.

ولم يعد ما قام به الشهيد من نضالات سرية وعلنية في جميع أدوار حياة الطاغوت خافياً على أحد، ولدى قيام السلطات بنفي إمام الأمة إلى خارج البلاد، كان الشهيد دستغيب يضع نظام الشاه العميل أمام تساؤلات عديدة. ومن جهة أخرى فإن المسجد الجامع العتيق قد أدخل عليه الإصلاح والتعمير بهمة وجهود الشهيد، وأصبح مؤهلاً لهداية وإرشاد عامة الناس وبالأخص الشباب المثقف للاطلاع على المعارف الإسلامية، فأقبل عليه الكثيرون للارتشاف من مناهل هذه العلوم.

ولقد زاول الشهيد دستغيب نشاطاته في هذا الخندق طيلة (٤٠) عاماً، وبذل قصارى جهده في بث بذور العقيدة والجهاد والنضال، واليقظة الفكرية والأخلاق الإسلامية في الصدور المستعدة للإنبات، فأنبتت وأثمرت فعلاً، ومدت جذورها حيث وجدت أرضاً صالحة، وعندما أحست السلطة بتهافت الشباب المسلم الجامعي والكسبة وسائر أفراد الناس من كل الطبقات على هذا المركز الفكري الإسلامي، بادرت بإيذاء الشهيد دستغيب فسجنته في بيته، ومنع الالتقاء به، وكان ذلك في عام **١٣٨٩** هجرية وحاصرت بيته ووضع تحت الإقامة الجبرية، ولكن سرعان ما جوبهت هذه الإجراءات بردود

فعل شديدة من قبل أبناء الشعب، فتراجعت السلطة عن فعلتها النكراء تجر أذيال الخيبة والخذلان، ولقد كان لشهيدنا الدور المشرف عبر سنوات النضال المستمرة إلى حين نضوج الثورة واقتراب انبثاقها. فثابر وجاهد وأيقظ الناس من سباتهم، وأجج نيران الغضب الجماهيري ضدّ السلطة الجائرة الحاكمة، وساهم مساهمة جادة في الإطاحة بنظام الشاه المقبور.

وبعد انتصار الثورة الإسلامية المباركة في ربوع إيران، انتخب الشهيد من قبل أهالي محافظة فارس عضواً في مجلس المشرعين للدستور، وبعدها عيّن إماماً لصلاة الجمعة في مدينة شيراز، وذلك بناءً على طلب خطي من قبل الأهالي، وبأمر صادر من قبل إمام الأمة.

خدمات أخرى:

وكان من جملة خدماته التي حملت إمام الأمة على القول بشأنه: «أنه بحق معلم الأخلاق ومهذب النفوس».ما قام به من إحياء المدارس الدينية وتوسيعها، فالمدارس الدينية التي أفرغت من طلبة العلوم الدينية، جرّاء سياسة النظام الشاهنشاهي المقبور. وأصبحت خرائب متروكة، عادت إليها الحياة وهيئت للتدريس فيها، ومن جملة هذه المدارس نذكر ما يلي.

(مدرسة خان، مدرسة قوام، مدرسة حكيم، مدرسة هاشمية، مدرسة آقابابا خان) التي كانت تدار بإشرافه المباشر، وكان يلقي بعض الدروس فيها. وكذلك أنشئت مدرسة علمية حديثة بفضل جهوده، وتحتوي هذه المدرسة على (٨٠) غرفة. وقد اشتهر رحمه الله بدرجاته العلمية الرفيعة والأخلاق والتقوى والجهاد والفضيلة بين الناس، لا في مدينة شيراز فحسب، بل في محافظة فارس. ناهيك عن الكتب العديدة التي طبعت له، فكل كتاب من تلك الكتب هو نبراس لكل إنسان، بل مشعل ينير دروب الثقافة والعلم ويصل بالإنسان الى حيث الفلاح والكمال الخلقي.

وعلى سبيل المثال نذكر البعض منها:

النبي والقرآن، آداب من القرآن، تفسير سورة الحديد، تفسير سورة ياسين، قلب القرآن، الاستعاذة، فاطمة الزهراء وزينب الكبرى، سلام الله عليهما، الخطبة الشعبانية، اثنان وسبعون سؤالاً، العبودية سر الخليقة، صلاة الخاشعين، القلب السليم، الذنوب الكبيرة، المعاد، المعراج، خصائص من القرآن، معارف من القرآن، القصص العجيبة، جنة الخلود، النفس المطمئنة، النهضة الحسينية (ع)، النبوة، الدار الآخرة، الأخلاق الإسلامية، الإمامة، القيامة، المظالم، التوحيد، العدل.

يقع منزل الشهيد آية الله دستغيب في أقصى الجنوب بمدينة شيراز، وفي حي قديم جداً ورثه عن أجداده، وكان في أيام حياته ملجأً ومأوى لمختلف الطبقات من الناس، يقبلون عليه لحل مشاكلهم ومسائلهم.

وبعد استشهاده تبدل إلى مدرسة دينية، يتلقى الطلاب فيها علومهم، وكان رحمه الله يحبه حباً جماً، وكان يرفض طلب الأصدقاء عندما يطلبون منه تبديل هذا البيت ببيت آخر، في منطقة أكثر أمناً من هذه، ويجيبهم: أود أن أكون بين الناس وفي هذه الأزقة لأنظر في أمور الناس.

ولما لم يكن المنافقون قادرين على تحمّل رجل تقي بالمعنى الصحيح، متصفٍ بالأخلاق الفاضلة ونموذج للعلم والتقوى والفضيلة والجهاد والعرفان، أقدموا على اغتياله وهو ذاهب إلى المكان المقدس الموعود لإقامة صلاة الجمعة في جموع المؤمنين الملتزمين، وذلك في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠١ هجرية. وبهذا أضافوا ورقة سوداء أخرى إلى سجلهم الأسود المقيت، نعم، استشهد هذا الإنسان المجاهد العارف الكريم فانتقل إلى جوار ربه في أعلى علّيّين. وكما قال إمام الأمة «إن نصر الإسلام باستشهاده».

سيّد من أهالي شيراز:

نبدأ حديثنا بالرسالة التي وجهها صديقه الحميم وخلّه الوفي، وهو الحاج السيد عبد الحسن المؤمن الشيرازي أحد العلماء الأعلام في طهران. فقد كان هذا الإنسان العظيم يحظى بمكانة مرموقة عند الشهيد السعيد دستغيب، وكان يذكره بكل احترام، وكان أيضاً رفيقاً له في أسفاره المتعددة، وكذلك جاء ذكره في كتاب (القصص العجيبة) الذي ألفه الشهيد ونقل عنه عدداً من القصص.

والآن ألفت أنظاركم إلى القصة رقم ٣٤ من كتاب (القصص العجيبة) تأليف الشهيد دستغيب رضوان الله عليه، وهي تخص الحاج مؤمن الشيرازي الذي كانت لي معه وشائج صداقة. وقد سمعت القصة منه بصورة مفصّلة، وكذلك بيّن لي عدة موضوعات لا توجد في كتاب القصص العجيبة، ولعل السبب في ذلك هو عدم رغبته في إفشائها. لذلك فقد سمعت القصة كاملة من المرحوم الحاج مؤمن. وبودي نقل مفادها إلى إخوتي المؤمنين ليكونوا على بينة منها، يقول الحاج مؤمن:

«انتابني شوق شديد لزيارة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه، وخالجني وجد لا مثيل له، وصرت بكيفية لا أستطيع معها الصبر ولا القرار ولو لحظة واحدة، ولا أشتهي طعاماً ولا شراباً وكنت أنساهما، وبلغ بي الأمر إلى حد صممت معه على ألا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أتشرف بخدمة الإمام عليه السلام أو أموت، وحققت ما عزمت عليه. وفي اليوم الثالث عندما كنت في مسجد (سردزك) الذي كان لي الشرف في القيام بخدمته ردحاً، اعترتني حالة من الضعف والإغماء، سمعت في حينها نداءً رحيماً داعب روحي بكل لطف وحنان، قائلاً:

(انهض يا حاج مؤمن، وكل من هذا الطعام الذي جلبوه لك، ألم تعلم بأن ما قمت به من هذا القبيل هو حرام في الشريعة الإسلامية السمحاء؟ فابتعد عن تكرار أمثاله من الآن فصاعداً). وبمجرد أن سمعت هذا النداء

أحسست بقوة وقدرة تدبان في وجودي، فنهضت دونما إرادة، فوجدت وجهاً مشرقاً منيراً أمامي (جعل الله ذلك نصيباً لكل أصدقائه وعشاق دربه) كأنه القمر المنير فقال لي: (أيها الحاج؛ إن السيد هاشم إمام جماعة مسجد (سردزك) عازم على السفر إلى مشهد فاذهب معه، وسوف تواجه شخصاً في مدينة قم عليك أن تنصاع لأمره). ثم سلمني مقداراً من النقود وبعدها غاب عن نظري، وفجأة شممت رائحة الطعام، ورأيت إناء مليئاً بالطعام لم يسبق لي أن ذقت مثله قبلاً، ولما فرغت من تناوله، شعرت بنشاط مفرط، فنهضت وأسرعت بإنجاز الأعمال اليومية في المسجد، فانتصف النهار وجاء السيد هاشم ليقيم صلاة الظهر والعصر في الناس، وبعد انتهاء الصلاة تقدمت نحوه مخاطباً إياه: إنك ذاهب إلى مشهد وسوف أسافر معك. فسألني: من الذي أخبرك بذلك إذ أني أخفيت الأمر حتى عن عائلتي؟

وعندما ألح علي في معرفة الموضوع أخبرته، ولكن أخفيت عنه موضوع لقائي المرتقب برجل في مدينة قم. ثم طلب مني أن أسلمه تلك النقود على أن يعطيني أضعافها فرفضت، وعلى أية حال... فقد سافر إلى مشهد المقدسة بعد أيام مع عائلته وكنت أنا في خدمته أيضاً، فوصلنا إلى مدينة قم ومكثنا هناك عدة أيام، وبينما أنا في زيارة المرقد المطهر للسيدة معصومة (سلام الله عليها) شعرت فجأة بيد توضع على كتفي. ورأيت رجلاً بزي ذلك الزمان مرتدياً قباءً وعلى متنه عباءة نائينية، وعلى رأسه قلنسوة مصنوعة من الصوف، خاطبني قائلاً: (يا حاج مؤمن، إنني أنتظرك في الصحن، فبعد أن تكمل زيارتك أقبل علي). فأتممت زيارتي على الفور وسارعت إليه، فوجدته رجلاً من رجال الدين ذا وجه صبوح مشرق، فخاطبني ببساطة قائلاً:

(سأقوم بسفر من أجل اللقاء بأبي وأمي وتوديعهما في مدينة تبريز، أما أنت فستبقى عشرة أيام في طهران وبعدها سوف ألاقيك عند بوابة المدينة يوم مغادرتها، غير أنك ستواجه مشاكل في طهران لا تلبث أن تزول).

وهكذا استطرد الحاج مؤمن قائلاً: فودعني ذلك الرجل وانصرف.

ومكثنا نحن عشرة أيام في طهران، ولدى مراجعتي لمركز الشرطة من أجل أخذ جواز الخروج من المدينة ـ كما كانت العادة وقتئذ ـ ألقي القبض علي وأرسلت الى مديرية الشرطة من أجل تغيير ملابسي باللباس البهلوي. فشاهدت هناك أناساً كثيرين جلبوا لغرض خلع ملابسهم وتبديلها بسترة وبسروال ووضع القبعة البهلوية على رؤوسهم، ولكني لم ألاق نفس المعاملة، أي أنهم لم يخلعوا ملابسي بل سلموني السترة والسروال والقبعة وصرفوني، وما إن خرجت من هناك حتى أعطيت السترة والسروال إلى شحاذ رأيته، وقذفت بالقبعة جانباً، وبعد انتهاء المدة المقررة استأجر السيد هاشم أبطحي سيارة خاصة من أجل راحة عائلته، فلما وصلنا بوابة طهران ووقفت السيارة لغرض إراءة الجوازات المذكورة للشرطة سمعت رجلاً من خارج السيارة يناديني، فلما التفت إليه رأيت ذلك الرجل الوقور الذي شاهدته في قم، فطلب مني أن أخبر السيد هاشم برغبته في الذهاب معنا إلى مشهد، وأخبرني بأن السيد هاشم سوف يقبل بذلك. فأتيت الى السيد هاشم وأخبرته بالموضوع فقبل، وجاء الرجل وجلس جنبي وقال:

(عليك أن تسمع ما أقول، وتعمل بما أطلب منك خلال هذه الأيام التي سوف نقضيها سوية، ولا تشاكسني في ذلك. عليك أولاً ألا تأكل من طعام هذا الرجل، بل تأكل من الغذاء الذي أنا آتيك به). فقبلت. ولما حان الظهر وصلنا إلى مقهى في محل يسمى شاه آباد لكي نصلي ونتناول الغداء، فبدأ السيد هاشم بتناول الطعام مع أفراد عائلته وطلب مني أن أشاركهم في ذلك فلم أقبل، ولدى إصراره استحييت منه، ولما رفعت اللقمة الأولى بيدي رأيت ذلك الرجل الوقور قادماً من باب المقهى، وناداني مخاطباً: (ألم أقل لك بألا تأكل من طعام أحد؟)

فأجبته: بأنني خجلت بسبب إصراره على ذلك، ثم قال لي: (اذهب الآن إليهم، وإن استطعت فكل من طعامهم). فذهبت إلى المائدة فوجدت الأواني مليئة بالقيح والدم، فأحسست باشمئزاز واضطراب في الجوف، فرجعت

وتناولت ما بقي من الطعام من سفرة ذلك الرجل، وكان طعاماً لذيـذاً جداً، وقـد أصبحت لا أفارق الـرجل وأتنـاول غـذائي معـه طيلة الأيـام التي كنت فيها برفقته. وكان في كل مساء يمسك بيدي ويـأخذني معـه، فكنت أشعر بـأن الأرض تدور بنا، إذ لم نكد نسير سوى بضعة أقدام حتى نصل إلى صحراء رحبة فسيحة مليئة بالأنوار والمصابيح، وبها الخيام المنصوبـة، وتقام هنـاك صفوف المصلين. فكان يجعلني في الصف الأخير ويعود هو إلى الصف الأول وبعد الانتهاء من الصلاة كان يأتي فيأخـذ بيدي، وبعـد مسيرة خـطوات كنا نصـل إلى حيث كنا. وفي اليـوم الأخير، وعنـدما وصلنـا إلى مدينـة مشهد خاطبني قائلاً: (يا حاج مؤمن إن هذا اليوم هو اليـوم الأخير من حيـاتي، إذ أنني سأموت اليوم، وإن ما رأيته خلال الأيام السابقة كانت كلها مقدمة لهذا اليوم لكي تتولى غسلي وتـدفنني، وقد وكـل في الأمر السيـد هاشم، فخـذ النقـود اللازمـة لكل هـذه العمليات، وأطلب منـك أن تدفنني قـرب الشباك الفولاذي. ولا حق لأحد أن يتدخل في هذا الأمر، وإن هذا القدر من النقود كاف لذلك). فسألته: كيف يكون مصيري بعدك؟

فأجابني قائلاً: (عليك بمعاشرة ومجالسة سيد من أهل شيراز كان قد أكمل دراسته في النجف، سيعود قريباً إلى شيراز. فصحبته نافعة لـك. والعلامـة الدالة عليـه هي: أنه سيقـوم بمساعـدة عدة من أهـل شيراز بـإزاحة الأتـربة المتراكمة على المسجد الجامـع هناك ويبنيـه مرة أخرى). (ونظراً لأن هـذه العبـارات تخص آية الله دستغيب لـذلك لم يـذكرهـا هو في كتـابه، ونـظراً لعلوّ مقامه الروحي وسمو صفاته لم يرغب في ذكر هذا المقدار من الأمور التي تحكي عن رفعة درجاته رضوان الله عليه).

وهكذا استطرد الحاج مؤمن قائـلاً: لما وصلنـا إلى مقربـة من مشهد، وكانت المسافة بيننا وبين المدينة فرسخاً واحداً، وقفت السيارة لغرض رؤية جوازات الدخول من قبل المسؤولين، وكانت القبة الطاهرة تشاهد من ذلـك المكان، راح هذا الرجل الوقور واسمه غلام حسين إلى حيث يواجه القبلة،

فتمـدد على الأرض وغطى جسمـه بالعبـاءة حتى الرأس ونـام. ولمـا أردنـا الركوب لاستئنـاف السفـر، نادينـاه فلم يجبنا، ثم رأينـاه قد فـارق الحياة. فأخذت أبكي وأولول، وأخبرت السيد هاشم بالأمر فعاتبني على ذلك بسبب عدم إخباره بالموضوع مسبقاً، فأجبته: لم أكن مرخصاً بذلك،ولما أقبل السيد هاشم إلى الرجل وأزاح عن وجهه الغطاء وشاهد وجهه المنيـر أغمي عليه، ولم يكف عن البكاء عليه منذ ذلك الحين وحتى أربـع سنوات. سـواء أكان مرتقياً المنبر أو كان في بيته، وخلاصة القول:فإن النقود التي كانت معي والتي أعطاني إياها ذلك الرجل الوقور كانت كافية لغسله ودفنه، وقـد نفذت طلبـه ودفنته قرب الشباك الفولاذي... وبعد مرور أيام، وعندما عاد السيد دستغيب من النجف وشرع بترميم المسجد الجامع وإزاحة الأتربة عنه وفّقت لمعاشرته ومجالسته».

لقـد سمعت القصـة إلى هنـا من المـرحـوم الحـاج مؤمن. ولكن بعـد استشهاد آية الله دستغيب رضوان الله عليه نقل لي الشيخ محمد علي شفيعي الذي كان من العلماء المقيمين في سامراء نفس القصة التي كان قد سمعها بدوره من المرحوم الحاج مؤمن، غير أنه أضـاف العبارة التالية: «إن الحاج مؤمن قال: بأن هذا الرجل الكبير خاطبني في النهاية: اعلم أنك سوف تموت قبل هذا السيد، وأنه يتولى أمور غسلك ودفنك، ولكنه يستشهـد. وإن هذه العبارة ـ ولكنه سوف يستشهد ـ مفيدة لإثبات حقانية الثورة، وجديرة بالذكر.

إطلاق سراح بدون استجواب:

ومن جملة ما أتذكره من أقوال المرحوم الحاج مؤمن حول الثورة والنضال ضد النظام السابق هو ما سأعرضه الآن:

مما لا يخفى على أهالي شيراز الأماجد أن زعامة الثورة في محافظة فارس كانت مناطة بعهدة الشهيد آية الله دستغيب منذ عام ١٣٨٣ هجري، فخطاباته في ليالي الجمعة في المسجد الجامع العتيق، وأوامر الإضراب

ورفض أي نوع من المفاوضات والمساومة مع السلطة، وأخيراً حوادث الخامس عشر من خرداد ومداهمة الجلاوزة لمسكن الشهيد رغم أنهم لم يجدوه في البيت بفضل من الله ورعايته، حيث عميت عيونهم عن رؤيته، كل هذه دلائل تشير الى زعامته للحركة في محافظة فارس، وفي نفس الليلة ألقوا القبض علي واعتقلوني،ثم أرسلوني في اليوم التالي إلى طهران برفقة أربعة أشخاص آخرين، هم من رجال الدين والعلم، فأودعنا في سجن (عشرت آباد). ثم نقلوني الى زنزانة فردية، ثم سمعت - وعلى حين غرة - صوت الشهيد الغالي وهو في حالة سعال.

وقد سبق لي أن كتبت شرحاً عن هذا الموضوع في الذكرى السنوية الأولى. وهنا أود أن أبين كيفية إطلاق سراحنا:

لقد أطلق سراحي وسراح شخصين آخرين قبل إطلاق سراح الشهيد بيوم واحد أو يومين. وكنا ننتظر ماذا سيحدث؟ كنت في منزل الحاج معين الشيرازي، فدخل علينا والدي المرحوم فسألته:

إلى أين بلغ الأمر؟ فأجاب: قالوا سنرسل إليكم عصراً نفراً من المأمورين لينظر في أمركم، وبعد أن مضى هزيع من الليل أقبلوا إثر مكالمة هاتفية وأخبروني بأن السيد دستغيب قد أطلق سراحه، هيا ارتد ملابسك وتهيأ لركوب السيارة التي ستأتي لنقلكم إلى حيثما شئتم. ولا يخفى عليكم فإن المرحوم لم يستجوب حتى ذلك التاريخ، وبعد مرور بضع ليال جاء بعض المأمورين إلى منزله لإلقاء بعض الأسئلة عليه إكمالاً للملف، ثم انصرفوا إلى سبيلهم، وعلى أية حال...

قدمنا إلى شيراز، ونقل إلينا المرحوم الحاج مؤمن بأننا في تلك الأيام تضرّعنا وتوسلنا إلى ولي العصر والزمان (عج) بكيفية فقدت نفسي وكأني خارج من عالمي هذا على حد تعبيره، فقال لي الإمام الحجة (لقد أنقذنا صديقك دستغيب).

لم تكونوا مدركين عمق الموضوع لحد الآن، ولكن لو اطلعتم على الملف الكبير المليء بعشرات الخطب والبيانات، وكما كان يقول النظام بحقه بأنه يحرك الناس ضد السافاك؛ وهو مصدر وأساس الحركات المضادة للنظام في المنطقة، ومع ذلك يطلق سراحه في زمن ساعة واحدة وبدون استجواب! بالتأكيد سوف تنكشف لكم الحقيقة، وبعد أقوال المرحوم الحاج مؤمن فقد وضح الموضوع، وعلم بأنه لم يتم ذلك إلا بإرادة ولي العصر (عج) ولطفه».

خواطر الحاج أكبر رستمي:

وأما الحاج أكبر رستمي فهو أحد المخلصين المؤمنين ورفيق طريق الثورة للشهيد، ولدى محاصرة منزل الشهيد دستغيب من قبل رجال الشرطة والجيش نقلوه من (مرودشت) إلى شيراز، وسوف تقرأون في السطور التالية خواطر عنه في بيان بعض كرامات شهيد المحراب:

«بعد التحية والسلام أقدم لكم فيما يلي موجزاً عما يجول بخاطري من ذكريات لشهيد المحراب: في الفترة التي لم يكن فيها عن الثورة حديث، وخلال السنوات التي لم يكن يعرف فيها منزلة رجال الله، وفي المجتمع المنكوب بالطاغوت، ألمت وتكالبت علي مكائد الدهر وكلما كنت أتحسس ضيقاً في صدري أذهب إليه وأستفيد من كلماته كل الفائدة، وأنسى الدنيا بلقائه.

وفي أحد الأيام خرجت من بيتي ولم أكن أملك حتى نصف درهم، فقلت في نفسي: أتوجه إلى دار السيد دستغيب كعادتي الدائمة، ولم يدر أحد شيئاً عن حالي إلا أنا وربي، وحتى زوجتي لم تكن لتعلم بالموضوع، وأخيراً وصلت إلى داره ودخلت الغرفة وكان وحده هناك، فسلمت عليه فقام احتراماً لي، وبينما هو في هذه الحال إذ خاطبني قائلاً: أود أن أرجو منك شيئاً (يا رستمي) فهل تقبل أم لا؟ قلت له:

فدتك نفسي، إنك تعلم جيداً بأنني أنفذ ما تأمرني به إن شاء الله، وفجأة خطرت ببالي فكرة وهي: إنه يريد إرسالي إلى مدينة قم لأحمل معي بعض المنشورات وغيرها.

ولكنه كرر علي القول مؤكداً على السؤال نفسه فأجبته بالقبول ثم قال:

قسماً بجدي وبأمي فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) إنك الآن لا تملك حتى نصف درهم وأعلم أنك في ضنك، هيا خذ ما شئت من بيت المال وأرجعه حالما حصلت عليه، فشعرت في حينه أن كل فقرة من عمودي الفقري قد اهتزت، وأظلمت الدنيا بعيني، لأنه بعد كل هذه السنين التي أحظى فيها بلقاء هذا السيد الكريم لم يسبق له ولو لمرة واحدة أن قال لي مثلما قاله في هذا المحضر، بينما لم يعلم بي أحد حتى زوجتي. فبقيت في حيرة من الأمر، كيف عرف ومن الذي أخبره بالأمر...؟!

على أية حال... امتنعت عن أخذ شيء ولكنه ظل يتذكر الموضوع، وكلما كان يراني يقول لي: إنك لم تف بوعدك.

الخلاص من أيدي الجلاوزة:

لقد كنا في زمن الطاغوت نخرج من المدينة مصطحبين معنا الشهيد دستغيب للنزهة والاستجمام وصادف مرة أن كنت وجماعة من الشباب الرساليين والشهيد ذاهبين إلى سيدان، فدخلنا بستاناً تناولنا فيه الغداء كعادتنا الدائمة، ولم تكد تقارب الساعة الرابعة عصراً حتى وجدنا الشهيد تغيرت ملامحه، وأخبرنا عن قصده بالعودة إلى المدينة، فجمعنا حاجياتنا فوراً وتوجهنا نحو شيراز. وقد رأيناه يغطي رأسه بعباءته متمتماً ببعض الأدعية والأوراد، وكنا غارقين في الحيرة لما رأيناه... سائلين أنفسنا ما الذي كدر صفو سيدنا؟

وأخيراً وصلنا إلى شيراز وأردنا إنزاله من السيارة أمام (مدرسة خان) لنوصله إلى مسكنه، ولكنه قال: سوف أنزل أمام مسجد مولى وأذهب لوحدي إلى البيت. فقلت له: لا يمكن ذلك، يجب أن نصطحبك معنا إلى داركم،

فأجابني بشيء من الغضب قائلاً: مثلما قلت لكم، فازداد قلقنا جميعاً وقلت له: فداك نفسي، إن السافاك عدو لك لا نستطيع تركك وحيداً، فأجابني بغضب: اتركوني وشأني، فساعدناه في عبور الشارع ثم تركناه من غير وداعٍ ودخل الزقاق فسرنا خلفه خلسة ولكن وجدناه بانتظارنا في وسط الزقاق. ثمّ أمرنا بالعودة. فرجعنا إلى بيوتنا ونحن متألمون. . وما إن دخلت المنزل حتى ألفيت ولدي في لباس العسكرية، فأخبرني بأن السافاك كان قد اتصل هاتفياً به وسأله: إلى أين ذهب والدك مع السيد دستغيب؟ فقلت: إلى سيدان، وبعد سماعي لهذا النبأ خاطبت صديقين كانا معي وأخبرتهما بأن السافاك قد ألقى القبض على السيد دستغيب، فلنذهب إلى بيته ونتعرف على الموقف. فأسرعنا نحو بيته فرأيناه في بداية الزقاق فتقدمنا إليه وألقينا عليه التحية فأجابنا ضاحكاً ومخاطباً إياي: هل تألمت مني يا رستمي؟

قلت له: فدتك نفسي، لقد تألمت جداً منك. فقال لي: عند ما كنت غاضباً كان منزلي محاصراً، ولو كنتم معي لكانوا يلقون القبض عليكم. أما الآن فانتهت الأمور إلى ما هو خير، ثم دعانا إلى بيته فقلنا لا نريد مضايقتكم فودعناه وانصرفنا.

استشهاد مغمور بالبركات:

إن هذا النموذج وعشرات منه تبين جميعاً بأن الأيدي الأثيمة للمنافقين ذوي الضمائر الميتة والقلوب العمياء قطعت زهرة حياة أي إنسان كريم، ولكن فاتهم بأن بركاته وكراماته لم تقتصر على أيام حياته فحسب، وإنما هي الآن أكثر وأحسن لمحبيه والموالين له.

شوق اللقاء:

يقال عنه عشية استشهاده بأنه لم ينم ولم يغمض له جفن حتى الصباح. وكان يضع كفيه على جبينه ويكرر هذه الآية الشريفة: **﴿لا حول ولا قوة إلا بالله﴾** وفي يوم استشهاده تطيب بالعطر، وقبله بساعة واحدة صار يذكر

المقاتلين في الجبهات بالخير والدعاء مغتبطاً إياهم قائلاً:

بأن بينهم وبين لقاء الله خطوة واحدة، ثم أضاف بأن (الاستشهاد هو غايتنا منذ سنوات).

وخلاصة القول: إن الشهيد الفقيد ما إن وضع قدمه في الزقاق الذي استشهد فيه حتى صار يكرر هذه الآية الشريفة: ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بعث رحمة للعالمين أبي القاسم محمد (ص) وعلى آله الطيبين الطاهرين.

وبعد: لا أستطيع وأنا أقف متواضعاً صغيراً أمام الروح المقدسة لمؤلف هذا الكتاب، معلم الأخلاق والعرفان شهيد المحراب آية الله دستغيب، لا أستطيع أن أخط مقدمة عن الكتاب أو عن المؤلف. فأنا مبهور أمام طهارة القلب الذي خرجت منه كلمات هذا الكتاب، والذي يفيض شفافية وقداسة ونظافة لا يستطيع القلم أن يسطر وصفها. وأكتفي في التقديم بالإشارة إلى مطلبين أحدهما دواعي الإقدام على ترجمة هذا الكتاب، وثانيهما ملاحظات عن الترجمة.

دواعي الترجمة:

هناك العديد من الكتب القيمة التي تستحق الترجمة، كما أن هناك الكثير من المهام والمشاغل التي قد تصرف الإنسان عن الإقدام على ترجمة كتاب، خصوصاً ونحن نعيش مرحلة سياسية وثورية مليئة بالمشاريع العملية والمشاغل الاجتماعية.

إلا أن هذا الأمر بالذات هو الذي دفعني للإقدام على ترجمة هذا الكتاب، واختياره من بين مجموعة كتب هامة، فاعتقادي أننا بحاجة ماسة إلى مراجعة الذات، ومحاسبة النفس وفق الأخلاق الإسلامية الرفيعة.

واعتقادي أننا لا نستطيع تحقيق أي نجاح في طريق ثورتنا الإسلامية من دون الاعتصام بالله تبارك وتعالى، والتخلق بأخلاقه **﴿ومن يعتصم بالله فقد هُديَ إلى صراط مستقيم﴾**.

واعتقادي أن مكتبتنا فقيرة إلى مثل هذا الكتاب في الجوانب الروحية والأخلاقية التي يحملها.

ومن هنا أعتبر ترجمة هذا الكتاب مشاركة ليست علمية فقط، بل تخص أبناء شعبنا الثائر المتحرق المنتظر لساعة الانتصار، والمتلهف ليوم يأتي فيه وعد الله.

وإني من هذا المنطلق أدعو نفسي أولاً وكافة إخواني وأخواتي السائرين في طريق الثورة الإسلامية بالعكوف على مطالعة هذا الكتاب القيم، والتعلم مما جاء فيه، ومحاولة اتخاذه منهجاً لأعمالنا وسلوكنا وعلاقاتنا، وأعود لأقول: إن ما دعاني لترجمة هذا الكتاب هو الشعور الكامل بحاجة حقيقية في أوساطنا لممارسة العمل الأخلاقي وعدم إغفاله أثناء الانغمار في مشاغل الثورة ومهامّها.

ملاحظات عن الترجمة:

هنالك ملاحظتان أود إلفات نظر القارئ إليهما في هذا التقديم:

الملاحظة الأولى: إنني جهدت مهما استطعت في ضبط الترجمة، ومحاولة جعلها ترجمة قريبة جداً من المعنى، وأن لا أتصرف بالعبارة حتى في جوانبها الأدبية، حتى ليمكنني القول إنها ترجمة حرفية بما يحفظ به المعنى المقصود.

والملاحظة الثانية: هي أنني قمت بعملية ترجمة فقط من دون إضافة أو تعليق، أو استشهاد، أو تعريف بالمصادر أو مؤلفيها وما شاكل ذلك مما اعتاد المترجمون على إغناء القارئ به.

وقد أستطيع الاعتذار عن ذلك ببعض المشاغل التي صرفتني عن القيام بتلك الأمور، بل كادت تمنع عن ترجمة الكتاب لولا توفيق الله وتسديده.

وأنا في ختام هذا التقديم أسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا ونوايانا ويجعل أعمالنا خالصة لـوجهه، «اللهم صـلّ على محمد وآلـه وبلغ بإيمـاني أكمل الإيمان واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي إلى أحسن النيـات وبعملي إلى أحسن الأعمال».

وأسأله تعالى أن يغفر لي ولوالديّ ولمن مضى من إخواني الشهداء، وأن يحشرني مع مؤلف هذا الكتاب، ويبعث بثـواب عملي هذا إن تفضـل على عبده الفقير بالقبول إلى روح مؤلفه الشهيد دستغيب، وله الحمد أولاً وأخيراً.

المترجم

٥ جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

التقوى طريق النجاة:

الطريق الوحيد للوصول إلى درجات السعادة، والطريق الوحيد للنجاة من الهلكة والشقاء هو التقوى والورع.

وبالرغم من وضوح هذا المطلب لدى أهل الإيمان، لكن لأجل التذكر نشير وبشكل مختصر إلى بعض خواص التقوى وآثارها العظيمة التي وردت في القرآن الكريم وفي أخبار أهل البيت (ع).

القرآن المجيد والتقوى:

١ ـ التقوى وصية الله تعالى لبني آدم في تمام الكتب السماوية، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ وصَّينَا الَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبلِكُم وإيَّاكُم أنِ اتَّقُوا الله**﴾ السورة ٤ الآية ١٣١.

٢ ـ التقوى مورد مدح الله تعالى وثنائه، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ السورة ٣ الآية ١٨٦.

٣ ـ التقوى سبب الحفظ والحصانة من كيد الشياطين، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً**﴾ السورة ٣ الآية ١٢٠.

٤ ـ التقوى سبب العون والتأييد الإلهي في كل الأمور، كما في قوله تعالى: ﴿**إنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾ السورة١٦ الآية ١٢٨.

٥ ـ التقوى سبب النجاة والرزق الحلال من حيث لا يتوقع الشخص، يقول الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيرزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾ السورة٦٥ الآيتان ٢ ـ ٣.

٦ ـ بسبب التقوى يطهّر الله تعالى عمل العبد من النقص والعيب، كما في

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ السورة ٣٣ الآيتان ٧٠ ـ ٧١.

٧ ـ التقوى سبب مغفرة الذنوب، يقول تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾السورة ٣٣ الآية ٧١.

٨ ـ التقوى سبب محبة الله تعالى، يقول تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ﴾ السورة ٣ الآية ٧٦.

٩ ـ التقوى سبب قبول الأعمال، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾ السورة٥ الآية ٢٧.

١٠ ـ التقوى سبب زيادة العزّ والكرامة عند خالق العالم، يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ السورة ٤٩ الآية ١٣.

١١ ـ التقوى سبب إفاضة نور المعرفة والعلم، بحيث يستطيع المؤمن أن يميّز بين الحق والباطل، يقول تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إن تَتَّقُوا اللهَ يَجعَلْ لَكُم فُرقَاناً﴾ السورة ٨ الآية ٢٩.

١٢ ـ التقوى سبب بشارة الملائكة ساعة الموت، كما يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ السورة ١٠ الآيتان ٦٣ ـ ٦٤.

١٣ ـ التقوى سبب الخلاص من العذاب، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ السورة ١٩ الآية ٧٢.

* * *

وعلى العموم فإن القرآن المجيد مليء بذكر التقوى، والأمر بها، وبيان آثارها، نكتفي بما تقدم.

التقوى في روايات أهل البيت (ع):

الأخبار والأحاديث الواردة عن رسول الله (ص)، وأهل بيته عليهم السلام في هذا المجال كثيرة أيضاً، وقلّ أن توجد خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام

ليس فيها ذكر التقوى والمتقين، ونذكر ـ تبركاً ـ مقطعاً من إحدى خطبه حول التقوى: «إن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب، وينجو الراهب، وتنال الرغائب»(نهج البلاغة).

أوليائي المتقون:

روي عن رسول الله (ص) أنه قال لأصحابه: «لا تقولوا إن محمداً منّا، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون». (بحار الأنوار).

لا يوجد حل سوى التقوى:

وروي عن سيد الشهداء الحسين (ع) قوله: «أوصيكم بتقوى الله، فإن الله قد ضمن لمن اتقاه أن يحوله عما يكره إلى ما يحب، ويرزقه من حيث لا يحتسب، إن الله لا يخدع عن جنته، ولا ينال ما عنده إلا بطاعته»

(سفينة البحار/المجلد الثاني / ص ٦٧٨)

ونكتفي بهذا المقدار، بناء على الاختصار في مقدمة الكتاب، المهم معرفة معنى التقوى وحقيقتها.

حقيقة التقوى

التقوى من الوقاية، بمعنى التحفظ والامتناع، وشرعاً: بمعنى عقل النفس ومنعها عن كل ما تسوء عاقبته، وذلك بالامتناع عن مخالفة الخالق تبارك وتعالى في الأوامر والنواهي، كما ورد عن الإمام الصادق (ع) أنه سئل عن تفسير التقوى فقال: «أن لا يفقدَك حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك» (سفينة البحار/ المجلد٢/ ص ٦٧٨).

بمعنى امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب ما نهى عنه.

وعلى ذلك فإن للتقوى جهتين:

الجهة الأولى:

اكتساب الطاعات وامتثال الأوامر الإلهية والسعي أن لا يترك الواجب، (والواجب عبارة عن الأمر الذي يستوجب عدم الإتيان به سخط خالق العالم وغضبه).

وفي المرتبة الثانية السعي لأن لا يترك المستحبات مهما استطاع، (والمستحب هو العمل الذي يثاب على الإتيان به ولا يعاقب على تركه).

الجهة الثانية:

اجتناب المحرمات، وترك ما نهى عنه الخالق تعالى، والامتناع عن كل ما يوجب الإتيان به غضبه وسخطه، (الحرام هو العمل الذي يعاقب على الإتيان به)، وفي المرتبة الثانية السعي لترك المكروهات (المكروه هو العمل الذي يحسن عدم الإتيان به، ويطلب الشارع المقدس تركه، غاية الأمر أنه لا توجد عقوبة في الإتيان به).

والشخص الذي يطلب السعادة، ومقام التقوى الشامخ، يجب أن يعطي اهتماماً أكثر للجهة الثانية في التقوى، وهي الامتناع عن المحرمات والذنوب، لأنه إذا امتنع عن المحرمات فإن عمله الصالح مهما كان قليلاً وصغيراً سيكون مقبولاً، ويقربه إلى الله تعالى **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾**.

وقال رسول الله (ص): «يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح» (عدة الداعي).

بمعنى أنه يكفي ـ ليكون الطعام مقبولاً ـ قليل من الملح، كذلك يكفي ـ ليكون الدعاء مستجاباً على اختصاره ـ أن يكون الشخص متّقياً.

الذنب يحبط الأعمال الصالحة:

وأيضاً فإن بعضاً من الذنوب الكبيرة تبطل الأعمال الصالحة، وفي محله من هذا الكتاب سنذكر ذلك.

والخلاصة أن الامتناع عن الذنوب أهم من الأعمال الصالحة، ولأجل إثبات هذا المطلب ننقل بعض الروايات.

أهمية ترك الحرام في الروايات:

١ - قال رسول الله (ص) «ترك لقمة الحرام أحبّ إلى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعاً» (عدة الداعي).

٢ - قال الإمام الصادق (ع): «رد دانق حرام يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة» (عدة الداعي).

٣ - وقال أيضاً: «جدّوا واجتهدوا، وإن لم تعملوا فلا تعصوا فإن من يبني ولا يهدم يرتفع بناؤه وإن كان يسيراً، ومن يبني ويهدم يوشك أن لا يرتفع بناؤه» (عدة الداعي).

شجر الجنة والنار التي تحرقها:

٤ - وقال رسول الله (ص): «من قال سبحان الله غرس الله له شجرة في الجنة، فقام رجل من قريش وقال: إن شجرنا في الجنة لكثيرة، قال (ص) نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا إليها نيراناً فتحرقوها» (عدة الداعي).

٥ - «الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب» (أصول الكافي وعدة الداعي).

أكل الحرام يحرق العبادات:

٦ - وفي الحديث الشريف عن رسول الله (ص): «ليجيئن أقوام يوم القيامة لهم من الحسنات كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى النار.

قيل: يا رسول الله (ص) أمصلون؟

قال: كانوا يصلون ويصومون ويأخذون وهناً من الليل، لكنهم كانوا إذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا إليه».

حق الناس يمنع القبول:

٧ ـ عن رسول الله (ص): «أوحى الله إلي أن أنذر قومك: لا تدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منكم مظلمة، فإني ألعنه ما دام قائماً يصلي بين يدي حتى يرد المظلمة». (عدة الداعي).

٨ ـ وأيضاً قال (ص): «إن لله ملكاً ينادي على بيت المقدس كل ليلة: من أكل حراماً لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً». يعني لا واجباً ولامستحباً (عدة الداعي).

العمل إنما يقبل مع التقوى:

٩ ـ «لو صليتم حتى تكونوا كالأوتاد، وصمتم حتى تكونوا كالحنايا لم يقبل الله منكم إلا بورع حاجز» (عدة الداعي).

الذنب يَمنع استجابة الدعاء:

١٠ ـ وعنه (ع) «مر موسى (ع) برجل من أصحابه وهو ساجد وانصرف من حاجته وهو ساجد فقال: لو كانت حاجتك بيدي لقضيتها لك. فأوحى الله إليه: يا موسى لو سجد حتى انقطع عنقه ما قبلته أو يتحول عما أكره إلى ما أحب» (عدة الداعي).

العبادة الحقيقية ترك الذنب:

١١ ـ «أصل الدين الورع، كن ورعاً تكن أعبد الناس، كن بالعمل بالتقوى أشد اهتماماً منك بالعمل بغيره، فإنه لا يقل عمل يتقبل، لقول الله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (عدة الداعي).

يعني إذا ابتعدت عن الذنب، مهما يكن عملك قليلاً هو مقبول، والعمل الذي يقبل لا يكون قليلاً ولا صغيراً.

يجب الامتناع عن الذنب:

وعلى هذا فإن أهل الإيمان يجب أن يخافوا كثيراً، ويراقبوا أنفسهم كثيراً

حتى لا يكون العمل الصالح منهم ـ الذي يجب أن يوصلهم إلى الدرجات العالية، ومقام القرب والجوار لآل محمد (ص) ـ باطلاً بسبب ارتكاب الذنوب.

إنه لخسران، وشقاء أن يهدر الإنسان بيده رأس ما له.

الأعمال الحسنة تتفرق كالغبار:

عن الإمام الصادق (ع) أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً**﴾.

قال (ع): أما والله وإن كان أعمالهم أشد بياضاً من القباطي[1] ولكن كانوا إذا عرض لهم حرام لم يدعوه» (عدة الداعي).

يعني أن أعمالهم النظيفة بسبب عدم الورع، وارتكاب الحرام، مثل الهباء الذي يتفرق في الهواء ولا قيمة له.

يقول العلامة المجلسي في شرح هذا الحديث: هذا الحديث يدل على أن الطاعات والعبادات تحبط بسبب الذنب.

المتقون يدخلون الجنة بغير حساب:

عن الإمام الصادق (ع): «أوحى الله تعالى إلى موسى (ع): إن عبادي لم يتقربوا إليّ بشيء أحب إليَ من ثلاث خصال:

قال موسى: يا رب وما هن؟

قال تعالى: يا موسى الزهد في الدنيا، والورع عن معاصيّ والبكاء من خشيتي.

قال موسى (ع): يا رب ما لمن صنع ذا؟ فأوحى الله إليه:

أما الزاهدون في الدنيا ففي الجنة.

---

(١) القباطي: ثياب الكتان، منسوبة إلى القبط.

وأمـا البكاؤون من خشيتي ففي الـرفيع الأعلى، لا يشـاركهم فيه أحـد غيرهم.

وأمـــا الـورعـون عن معـاصيّ فـإني أفتش النـاس ولا أفتشهم» (عــدة الداعي).

تقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة:

إذا تورع الإنسان عن الذنوب الكبيرة، لا يؤاخذ على الصغيـرة، ويعفو الله تبارك وتعالى بفضله عنها، كما في سورة النساء قوله: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً**﴾السورة ٤الآية **٣١**.

أبواب الجنة مفتحة بوجه المتقين:

روي عن رسـول الله (ص) قولـه: أقسم بـالله الـذي روحي في قبضـة قدرته، ما من عبد يُصلي الصلاة الواجبة خمس مرات في وقتها، ويصوم شهر رمضان المبارك، ويبتعد عن الذنوب الكبيرة، إلا فتحت بوجهه أبواب الجنة، ثم تلا قوله تعالى:

﴿**إِنْ تَجْتَنِبُـوا كَبَـائِـرَ مَـا تُنْهَـوْنَ عَنْـهُ...**﴾[(١)] الآيـة. (تفسيـر منهـج الصادقين).

الشفاعة:

الشخص الذي يرتكب الـذنب الكبير ثم لا يتـوب هو فـاسق، لا يصح الاقتـداء به في الصـلاة، ولا تقبل شهـادته، ويستحق العقـوبة الإلهيـة بعـد الموت، إلا إذا شمله اللطف الإلهي الذي من جملتـه شفاعـة محمد (ص) وآله عليهم السلام، كما قال (ص): «ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» (بحار الأنوار).

---

(١) هذا الحديث الشريف منقول بالمعنى لا باللفظ.

وقال (ص): «إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل» (بحار الأنوار).

الشفاعة لا ينبغي أن تجرئنا على المعصية:

بالأصل لا شك في أن الشفاعة إنما هي لأن يظهر الله عظمته تبارك وتعالى وجلالة قدر الرسول (ص) والأئمة الأطهار، وسائر الشافعين، بحيث يتوسل بهم أصحاب الذنوب الكبيرة،لعله ببركة شفاعتهم ترتفع درجة أوليائهم.

وهذا المطلب واضح ومسلّم من القرآن الكريم والأخبار الصحيحة المتواترة التي يدعونا ذكرها للخروج عن وضع الكتاب.

الشيء الذي يلزم تذكره هو أن الشفاعة لا ينبغي أن تدعونا للجرأة على المعصية أو المسامحة في التوبة.

يقتل نفسه بأمل النجاة:

مثل من لا يتوب، أو يرتكب الذنب بأمل الشفاعة مثل شرب السم، أو وضع اليد في فم الأفعى بأمل وصول الطبيب، والتداوي، وهو عمل على خلاف حكم العقل، إذ لا يقين بعد شرب السم من الوصول إلى الطبيب، ووجود الدواء، هذا أولاً، وثانياً فإن أثر الدواء ليس قطعياً فلعل السم قد سرى في دمه، وعطل القلب عن عمله، كذلك الذي يرتكب الذنب من أين له اليقين بأنه سيصل إلى شفاعة الشافعين بعد الموت مباشرة؟

الموت بأحد أمور ثلاثة:

قيل لأمير المؤمنين (ع): صف لنا الموت.

فقال (ع): على الخبير سقطتم، هو أحد ثلاثة أمور يرد عليه إما بشارة بنعيم الأبد، وإما بشارة بعذاب الأبد، وإما تحزين وتهويل،وأمره مبهم لا يدري من أي الفرق هو. فأما وليّنا المطيع لأمرنا فهو المبشر بنعيم الأبد، وأما

عدونا المخالف علينا فهو المبشر بعذاب الأبد، وأما المبهم أمره الذي لا يدري ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه لا يدري ما يؤول إليه حاله، يأتيه الخبر مبهماً مخوفاً ثم لن يسويه الله بأعدائنا لكن يخرجه من النار بشفاعتنا، فاعملوا وأطيعوا ولا تنكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله عز وجل، فإن من المسرفين من لا تلحقه شفاعتنا إلا بعد ثلاثمئة ألف سنة». (بحار الأنوار).

أخاف عليكم من البرزخ:

قال عمرو بن يزيد: قلت لأبي عبد الله (ع) إني سمعتك تقول كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم.

قال (ع): صدقتك، كلهم والله في الجنة.

قلت: جعلت فداك إن الذنوب كثيرة، كبائر.

قال (ع): أما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي المطاع، أو وصي النبي، ولكن والله أتخوف عليكم في البرزخ،

قلت: وما البرزخ؟

قال: «القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة» (أصول الكافي).

غداً تدمع العيون دماً:

في وصية الرسول (ص) لأبي مسعود يقول (ص): «لا تحقرن ذنباً، ولا تصغرنه، واجتنب الكبائر، فإن العبد إذا نظر إلى ذنوبه دمعت عيناه دماً وقيحاً» يقول الله تعالى يوم القيامة ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً**﴾ (بحار الأنوار).

وروي عنه (ص): «إن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام» (أصول الكافي).

الشفاعة لا تنال المستخف بالصلاة:

وبعض الذنوب الكبيرة ـ كما صرحت بعض الروايات ـ تحرم صاحبها من الشفاعة، مثل الاستخفاف بالصلاة، فقد روي عن الإمام الصادق (ع): «**لا تنال شفاعتنا من استخف بصلاته**» بحار الأنوار/ المجلد ٣/ باب الشفاعة.

وروي عن رسول الله (ص) قوله: «**ليس منّا من استخف بالصلاة، لا يرد علي الحوض لا والله**» (بحار الأنوار).

بناء على هذا أصبح واضحاً أن عدم الخوف من الذنوب، والجرأة عليها، وتأخير التوبة بأمل الشفاعة، ناشئ من الجهل والغرور.

الذنوب الكبيرة تسلب الإيمان:

ثم إن ما ذكر عن الشفاعة إنما يتعلق بمن يخرج عن الدنيا وهو مؤمن، وأحياناً بسبب الذنوب الكبيرة، وتأخير التوبة، يذهب نور الإيمان من القلب، ويبتلى بظلمة الشك والحيرة، بل الجحود والإنكار، ثم يموت على هذا الحال، كمن شرب السم وأثر فيه إلى درجة أهلكه قبل وصول الطبيب، فماذا يستطيع الطبيب أن يصنع بالميت؟

إذن شفاعة الشافعين لا تنفع مثل هذا الإنسان ﴿**فَمَا تَنفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾.

ولأجل إثبات هذا المطلب نكتفي بذكر آية واحدة وروايتين، في سورة الروم المباركة يقول تعالى: ﴿**ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ**﴾. سورة الروم الآية ١٠.

الذنب يسود القلب:

عن الإمام الباقر (ع): «ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج من النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في

الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى الخير أبداً، وهو قوله تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (أصول الكافي).

الموعظة لا تؤثر:

يعني أن قلوب هؤلاء المذنبين بسبب ظلمة الذنب تكون صماء مظلمة ومحجوبة عن رؤية الحق ومعرفته، ويغلق عليها طريق الخير، وقبول النصيحة.

فقد ورد عن الإمام الصادق (ع) قوله: «من هم بسيئة فلا يعملها؛ فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب فيقول تعالى: «وعزتي وجلالي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً» (أصول الكافي).

يعني بسبب ارتكاب هذا الذنب يكون مستحقاً للحرمان من ألطاف الحق، ولا يوفق للتوبة، وبالنتيجة لا يغفر له.

العلامة المجلسي رحمة الله عليه في شرح هذا الحديث قال: «في كلام الإمام هذا أمر بالتخوف من جميع الذنوب، لأن كل ذنب يحتمل أن يكون من هذا القسم».

الخوف من الماضي:

يجب على أهل الايمان أن يبكوا لماضيهم ويخافوا، إذ لا اطمئنان بأنه لم يقع فيه شيء من تلك الذنوب، والإمام عليه السلام لم يعين ذلك القسم من الذنوب الذي يحرم صاحبه من لطف خالق العالم، وعفوه ومغفرته.

إن علامة هذا القسم من الذنوب أن لا يحصل للإنسان حالة التوبة والإنابة، إذن يجب علينا أن نكون بمحضر الله تعالى في حالة التضرع والمناجاة، ونتوب إلى الله من ذنوبنا التي نعلمها، وذنوبنا التي لا نعلمها، ونرجو أن يغفرها الله لنا ويتلافاها، وسوف نشرح فيما بعد طريق التوبة من الذنوب إن شاء الله.

الشفاعة توجب الأمل وليس الغرور:

مما مضى نعرف أن الشفاعة ليس فقط لا توجب الغرور، والجرأة على المعصية، وإنما هي سبب قوة الرجاء، وتشويق الشخص إلى التوبة والإنابة، وأن يسعى من طريق التوبة والإنابة والأعمال الصالحة مع رجاء شفاعة أهل بيت العصمة والطهارة، ليصل إلى الدرجات الرفيعة، ومقامات القرب من رب العالمين.

مرة أخرى يجب أن نكون خائفين:

ومن جهة أخرى فإن هذه المطالب لا ينبغي أن تجعلنا من غير البكائين، وهي لا تنافي الخوف، وبعبارة أوضح: كما أن الإنسان يجب أن يكون راجياً ومؤملاً بالشفاعة ولطف خالق العالم، في الوقت عينه يجب أن يكون خائفاً من أن تتأخر عنه الشفاعة إلى مدة طويلة، يعني تصله الشفاعة بعد أن يبقى معذباً في البرزخ لمدة طويلة. ثم إن هذا الخوف يوجب زيادة التوسل بأهل البيت (ع).

شيعة أهل البيت:

بالنسبة إلى الروايات التي وردت عن مقام الشيعة ونجاة محبي أهل البيت (ع)، والتي من جملتها أنهم لا يعذبون بالنار، هذه الروايات توجب قوة الرجاء، والاطمئنان لمحبة هؤلاء السادة (ع)، لا الغرور والجرأة على المعصية.

الشيعي والمحب:

ألا إن موضوع هذه الأخبار عنوانان، أحدهما الشيعي، والآخر المحب لأهل البيت (ع).

وعنوان (الشيعة) له مقام شامخ، يطلق على أولئك الذين يسبقون في ميدان العلم والعمل، ومع ذلك لا يرون أنفسهم من المقبولين.

مثال ذلك محمد بن مسلم الثقفي وهو من أجلة أصحاب الإمام الباقر (ع) والإمام الصادق (ع)، وأمثاله من العظماء الذين عرفوا بأنهم مراجع الشيعة في المسائل، ويذكر في علم الرجال بأنه لا يوجد لدى الشيعة من هو أفقه من محمد بن مسلم.

مكالمة محمد بن مسلم مع شريك القاضي:

في وقت ما حضر هذا الرجل الكبير وكان معه أبو كريبة الأزدي عند شريك القاضي، فنظر لهما شريك نظرة حادة وقال: جعفري وفاطمي، يعني من شيعة أهل البيت (ع)، فبكى هذان الرجلان، فسأل القاضي عن سبب بكائهما فقالا:

نسبتنا إلى أمر عظيم «يعني جعفر بن محمد الصادق (ع)»الذي لا يرضى أن يكون من شيعته من هو قليل الورع، فلو قبلنا بلطفه لكان صاحب المنة علينا.

الشيعة الحقيقيون هم أتباع الإمام:

طبعاً، فإن الشخص الذي نستطيع أن نسميه شيعياً هو ذلك الذي يتبعهم (ع) في جميع أعماله وسلوكه، فقد ورد عن الإمام موسى بن جعفر (ع): «إنما شيعتنا من شيعنا واتبع آثارنا واقتدى بأعمالنا». (بحار الأنوار).

خطاب أمير المؤمنين لبعض الشيعة:

بينما كان أمير المؤمنين (ع) خارجاً من المسجد ليلاً وكان الجو مقمراً، سار خلفه جماعة، فالتفت إليهم وقال: من أنتم؟ قالوا: نحن شيعتك. فنظر عليه السلام في وجوههم وقال: مالي لا أرى فيكم علامة الشيعة؟

قالوا: يا أمير المؤمنين، وما هي علامة الشيعة؟

فقال: «صفر الوجوه من السهر، عمش العيون من البكاء، حدب الظهور من القيام، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، عليهم غبرة

الخاشعين» (بحار الأنوار).

ولأجل مزيد الاطلاع نكتفي بذكر ثلاث روايات:

لا يكفي ادّعاء التشيع:

١ ـ عن جابر عن الإمام الباقر (ع): أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه». (أصول الكافي).

الشيعة أورع الناس وأخوفهم من الله:

٢ ـ عن مفضل بن عمر، قال أبو عبد الله (ع): «إذا أردت أن تعرف أصحابي فانظر إلى من اشتد ورعه وخاف خالقه ورجا ثوابه، وإذا رأيت هؤلاء فهؤلاء أصحابي». (أصول الكافي).

٣ ـ وعن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «ليس منا ولا كرامة من كان في مصرٍ فيه مئة ألف أو يزيدون وكان في ذلك المصر أحد أورع منه». (أصول الكافي).

يعني أن شيعة أهل البيت (ع) يجب أن يكونوا أفضل من الجميع في الإيمان والعمل والتقوى والورع، كما عبر الله عنهم بأنهم خير البرية ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾.

وروي عن رسول الله (ص) أن خير البرية هم شيعة علي: «تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين». تفسير الطبري وغيره.

الولاية:

لا شك في أن كل من لديه ولاء لأهل البيت (ع) هو من أهل النجاة بل هو مع الأنبياء الأطهار، فقد ورد عن الإمام الرضا (ع): «حق على الله تعالى أن يبعث ولينا مشرقاً وجهه نيراً برهانه، ظاهرة عند الله حجته، حق على الله تعالى أن يجعل ولينا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً». (بحار الأنوار).

لكن يجب أن نعرف معنى الولاية ما هي؟

جاء في كتاب مجمع البحرين (من كتب اللغة): «الولاية بالفتح محبة أهل البيت (ع) واتّباعهم في الدين وامتثال أوامرهم ونواهيهم، ، والتأسي بهم في الأعمال والأخلاق».

إذن الولاية هي عبارة عن المحبة والطاعة.

والشاهد على هذا المعنى حديث زرارة عن الإمام الباقر (ع) حيث عبر عن الولاية بإطاعة الإمام:

«ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للإمـام بعد معرفته».

ولاية علي (ع) حصن الله المنيع:

هذا المعنى يستفاد من حديث سلسلة الذهب الـذي رواه الصدوق عن الإمام الرضا (ع).

«ولايـة علي بن أبي طالب حصني فمن دخـل حصني أمن من عذابي» عيون أخبار الرضا.

لا شك أن الدخول في حصن ولاية أهل بيت العصمة والطهارة عبارة عن الفرار من الشيطان، والفرار من اتّباع النفس والهـوى، والابتعاد عن التبعيـة لأعدائه، واللجوء إلى هذا العظيم، والخلاصة اتباعه في كل الأفعال.

ومن البديهي أن التحصن ليس أمراً لفظياً، وإنما هو عملي وفعلي، فكل من يتبع أحداً يكون متحصناً بحصنه يقيناً.

إذن، فالشخص حينما يعصي فهو في حال المعصية، خارج عن حصن علي (ع) وداخل في أحضان الشيطان والنفس.

الأسد المفترس واللجوء إلى الحصن:

لذا يقول بعض الأكابر: مثل من يقول بلسـانه «أعـوذ بالله من الشيـطان

الرجيم» ثم يتبع الشيطان في عمله مثل من يواجه أسداً في الكمين، وإلى جنبه حصن قريب فيقول: أيها الأسد إذا جئت فإني سوف أتحصن بهذا الحصن، لكنه يبقى ثابتاً في مكانه ولا يذهب إلى الحصن، فإن مثل هذا الإنسان يقيناً لا أثر لكلامه، وسوف يعمل الأسد عمله، اللهم إلا إذا دخل الحصن وتحصن.

يجب أن ندخل الحصن:

إذن من يريد أن يكون محفوظاً من جميع المخاطر، يجب أن يدخل في الحصن الإلهي المحكم، وهو متابعة أمير المؤمنين (ع).

أما إذا كان بحسب العمل واقعاً في فخ الشيطان فمهما قال أنا أوالي علياً فإن ذلك لا نتيجة فيه.

هل يكفي القول فقط؟

وعن الإمام الباقر (ع) في ذكره لوصف الشيعة أنه قال: «يا جابر لا تذهبن بكم المذاهب، حسب الرجل أن يقول أحب علياً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعالاً، فلو قال إني أحب رسول الله (ص) فرسول الله (ص) خير من علي، ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته.

يا جابر، والله لا يتقرب إلى الله إلا بطاعته، وما معنا براءة من النار، ولا على الله على أحد من حجة، من كان مطيعاً لله فهو لنا وليّ، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع». (أصول الكافي).

كلام المجلسي في أقسام التقوى:

يقول العلامة المجلسي: الورع على أربعة أقسام:

١ - ورع التابعين، وهو الامتناع عن المحرمات.

٢ ـ ورع الصالحين، وهو الامتناع عن المشتبهات حتى لا يقع في الحرام.

٣ ـ ورع المتقين، وهو ترك المباحات حتى لا يقع في الحرام.

مثل ترك السؤال عن حال الناس لئلا يقع في الغيبة.

٤ ـ ورع السالكين، وهو الإعراض عن غير الله تعالى خوفاً من ضياع العمر العزيز في الأعمال غير المفيدة، حتى وإن لم تنجرّ إلى الحرام.

المحبة:

هناك بشائر كثيرة وردت عن طريق أهل البيت (ع) وكذلك عن طريق العامة، لمحبي علي (ع)، وهي سبب الرجاء وقوة الأمل لكل صاحب إيمان. حتى أنه ببركة هٰذه المحبة يبتعد الإنسان عن عبادة الهوى، ومتابعة الشيطان، لأن من أحب عظيماً فإن لازم تلك المحبة أن يحب أحباءه، ويعادي أعداءه.

ومحبة الشيطان، ومتابعة هوى النفس مانعة عن عبادة الله تعالى، ومحبة أهل البيت (ع) تبعد المحبين عن الشيطان.

بناءً على ذلك أصبح معلوماً أن المحبة كالولاية لا تكون سبباً للجرأة على المعصية، بل العكس من ذلك، فإن المحب الصادق والحقيقي لا يتبع الهوى.

ومن أجل توضيح هذا المطلب نكتفي بالإشارة إلى بعض الأحاديث المختصرة.

المحبة تعطي ثبات القدم:

عن الإمام الباقر (ع): «ما ثبت الله حب علي في قلب أحد فزلت له قدم إلا ثبتها الله وثبت له قدماً أخرى». (بحار الأنوار).

كلام جابر الأنصاري:

وفي وصية جابر لعطية الكوفي يقول: «إن تزل لهم ـ يقصد شيعة أهل

البيت ومحبيهم ـ قدم بكثرة ذنوبهم ثبتت لهم أخرى بمحبتهم» سفينة البحار/ المجلد/١ .

استغفار الملائكة لمحبي علي (ع) :

وفي روايات كثيرة أن الملائكة تستغفر لمحبي علي (ع)، كما ورد في كتاب بحار الأنوار عن طريق العامة عن أنس عن رسول الله (ص) :

«خلق الله من نور وجه علي بن أبي طالب سبعين ألف ملك يستغفرون له ولمحبيه إلى يوم القيامة» .

محبة علي تغسل الذنوب:

وبصريح الروايات أن محبة علي (ع) ذاتياً تطهر الذنوب، كما ورد عن رسول الله (ص) قوله: «حب علي بن أبي طالب يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب» وفي رواية أخرى: «حب علي يحرق الذنوب كما تحرق النار الحطب» . (بحار الأنوار) .

تطهر الذنوب بالبلاء :

وفي روايات أن الله تبارك وتعالى يبتلي محبي أهل البيت (ع) المذنبين بأنواع البلاء حتى يطهروا قبل الموت، وإذا كثرت ذنوبهم يشدد عليهم في قبض أرواحهم، وإذا كانت أكثر طهّرهم منها بالعذاب في عالم البرزخ قبل أن يردوا إلى المحشر، وإن كانت أكثر من ذلك بحيث لم تطهر حتى هذا الوقت، دخل الجحيم وخرج بعد أن يطهر، ولا يبقى فيها من كان في قلبه ذرة إيمان ومحبة لأهل البيت (ع)، إنما البقاء الدائمي في الجحيم مخصوص بالكفار وأعداء أهل البيت عليهم السلام .

الاستفادة بمقدار المحبة :

ويلاحظ ضمناً أن قصر مدة البقاء في العذاب أو زيادتها تابع لشدة أو ضعف المحبة لأهل البيت (ع) .

فإذا كانت المحبة كثيرة سرعان ما يصل إلى شفاعتهم، بل يصل إليها في حالة الاحتضار عند الاستغاثة بهم، كما حدث لحضرة السيد الحميري[1].

الشهوات مانعة للمحبة:

أحياناً بسبب زيادة حب المال والشهوات وضعف أو فقدان المحبة لأهل البيت (ع) ينساهم الإنسان حين الموت، ولا يتذكر سوى ما كان له به علاقة شديدة[2].

---

(١) قصة السيد إسماعيل الحميري عليه الرحمة...

السيد إسماعيل الحميري هو شاعر أهل البيت (ع) توفي سنة ١٧٣ للهجرة، وله في كل فضيلة من فضائل علي (ع) قصيدة شعرية، وما جلس في مجلس إلّا ذكر فضيلة من فضائل آل محمد، في حال وفاته ظهرت له كرامة عظيمة نقلتها كتب الشيعة والسنة، ، كما في الغدير المجلد الثالث، وكتاب الأغاني، ومناقب السروي، وكشف الغمة، وأمالي الشيخ، وبشارة المصطفى، ورجال الكشي، وخلاصتها أنه حين حضرته الوفاة اجتمع عنده جماعة من جيرانه من غيرالشيعة،وكان السيد الحميري حسن المنظر، في ذلك الحال تحسر كثيراً، وظهرت فجأة في وجهه نقطة سوداء، وبدأت تزداد حتى أصبح وجهه كالقير الأسود، ففرح أعداؤه وشمتوا به، حتى إذا أفاق السيد لم يتكلم، واتجه بعينيه إلى النجف الأشرف وقال: يا أمير المؤمنين.. هكذا تعامل من يحبك؟ كرر هذه الجملة ثلاثاً، يقول الراوي: أقسم بالله ظهر في وجهه نور أبيض وازداد حتى شمل وجهه فأصبح كالبدر في ليلة الرابع عشر، فرح السيد الحميري وضحك، وأنشد هذه الأبيات:

كذب الزاعمون أن علياً ... لن ينجّي محبّه من هنات

قد وربّي دخلت جنة عدنٍ ... وعفا لي الإله عن سيئاتي

فابشروا اليوم أولياءَ عليٍّ ... وتولُّوا عليَّ حتى الممات

ـن بعده تولُّوا بنيه ... واحداً بعد واحدٍ بالصفات

ونقل في كتاب الغدير أن الكميت وهو شاعر أهل البيت قال ساعة وفاته: اللهم آل محمد اللهم آل محمد (ص). وفارق الدنيا. وفي كتاب بحار الأنوار ورد أن عبد الله بن عباس في حال الاحتضار قال: إلهي أتقرب إليك بحب علي بن أبي طالب.

(٢) ينقل الشيخ البهائي عليه الرحمة أن شخصاً في حال الاحتضار كان كلما يقال له قل لا إله إلا الله يجيبهم شعراً:

يا رب قائلة وقد تعبت ... أين الطريق إلى حمّام منجاب

وخلاصة القصة أن امرأة جميلة خرجت من منزلها للذهاب إلى حمام باسم (حمام-

والشواهد على هذا المطلب كثيرة نكتفي بهذا المقدار، ففي سردها جميعاً خروج عن وضع الكتاب، وإطالة للكلام.

والنتيجة المستخلصة من هذا المطلب أن أهل الإيمان يجب أن يعملوا للاستزادة من محبة أهل البيت (ع)، وإزالة محبة الأشياء الأخرى من قلوبهم، والتورع عن كل ذنب خصوصاً الذنوب الكبيرة، حتى يصانوا من سوء العاقبة إن شاء الله تعالى.

لا تستعمل النعمة في المعصية:

كتب الإمام الصادق (ع) لأحد مواليه: «إن أردت أن يختم عملك بخير حتى تقبض وأنت في أفضل الأعمال فعظم الله حقه أن تبذل نعماءه في معاصيه، وأن تغتر بحلمه عنك. وأكرم كل من وجدته يذكرنا أو ينتحل مودتنا. ثم ليس عليك صادقاً كان أو كاذباً، إنما لك نيتك وعليه كذبه». (بحار الأنوار).

ظلمة الذنب ونور التوبة:

في تفسير آية ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ روي عن الإمام الصادق (ع) قوله: «يعني من ظلمات الذنوب إلى نور التوبة والمغفرة، لولايتهم كل إمام عادل من الله عز وجل، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ

= منجاب)، ثم أضاعت الطريق إلى الحمام، وكان هذا الشخص واقفاً بباب الدار فسألته المرأة أين حمام منجاب؟

فدلها الرجل على بيته وخدعها بأنه هو الحمام، وبمجرد أن دخلت المرأة أغلق عليها الباب، فأحست بأن هذه خدعة ففكرت في الخلاص منها، فأظهرت الارتياح والموافقة وقالت له: اشتر من السوق عطراً جيداً وطعاماً وارجع سريعاً لنقضي يوماً سعيداً، وصدّقها الرجل في ذلك فخرج من البيت، وسرعان ما فرت المرأة وخرجت سالمة.

انظر كيف أن ذنباً واحداً منع من الإقرار بالشهادتين في ساعة الموت، آه من ذلك اليوم الذي سألت فيه المرأة عن حمام منجاب، مع أن هذا الشخص لم يزن بها، بل مجرد أن امرأة أجنبية دخلت بيته، ومارس معها العمل الحرام السابق ذكره.

الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ إنما عنى بهذا أنهم كانوا على نور الإسلام فلما أن تولوا كل إمام جائر ليس من الله خرجوا بولايتهم من نور الإسلام إلى ظلمات الكفر، فأوجب الله لهم النار مع الكفار». (أصول الكافي).

معنى الكبيرة والصغيرة:

من المطالب السابقة اتضح أن الذنب على قسمين كبير وصغير، وقد عرفنا آثار اجتناب الذنوب الكبيرة، أو ارتكابها.

والآن ننتقل إلى بيان المراد من الذنوب الكبيرة وعددها.

في هذا الموضوع للعلماء أقوال مختلفة، التعرض لها ونقضها والإشكال عليها يدعونا للخروج عن وضع الكتاب، لأن غرضنا الاختصار والنفع العام، وعلى الراغبين مراجعة كتاب شرح الكافي، وأربعين الشيخ البهائي.

وسوف نكتفي بما ذكر المرحوم السيد اليزدي في العروة الوثقى، في باب شرائط إمام الجماعة، فإن ما ذكره هو القول الجامع الموافق لتحقيق العلماء الأعلام ومراجع التقليد.

وخلاصة ما ذهب إليه السيد اليزدي أنه يوجد لتعيين الذنوب الكبيرة أربعة طرق:

ما هو الذنب الكبير:

١ - كل ذنب ورد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة التصريح بأنه ذنب كبير (وهذا القسم يتجاوز أربعين ذنباً) صرح به في أخبار أهل البيت (ع) وطبقاً لهذه الروايات سنشرحها إن شاء الله.

٢ - كل معصية ورد في القرآن الكريم والسنة المعتبرة الوعيد عليها بالنار[1].

(١) الوعيد الصريح مثل ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾. السورة ٤ الآية ٩٣.

ويدخل ضمن ذلك مثل قول الرسول (ص): «من ترك الصلاة متعمداً فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله».

حيث ورد الوعيد بالعذاب في هذه الرواية بالكناية لا بالتصريح، والدليل على دخول هذا القسم في الكبائر روايات كثيرة، فقد ورد عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام القول: «الكبائر كل ما أوعد الله عليه النار». (الكافي).

ويعلم من صحيحة حضرة عبد العظيم التي سنذكرها بعد، أنه لا فرق بين الوعيد بالعذاب في القرآن الكريم أو في السنة والأخبار.

٣ ـ كل ذنب اعتبر في القرآن الكريم أو السنة المعتبرة أكبر من ذنب ثبت بالاتفاق أنه من الكبائر. مثال ذلك: إن قتل النفس من جملة الذنوب الكبائر بكلا الطريقتين السابقتين؛ فقد صرح الحديث الشريف (صحيح ابن محبوب) بأنه من الكبائر، وفي القرآن الكريم ورد الوعيد عليه بالعذاب، وحينئذ إذا ورد في القرآن الكريم أو السنة المعتبرة تصريح بأن الذنب الفلاني هو أكبر من قتل النفس، فسوف يثبت إذن أنه من الذنوب الكبيرة، مثال ذلك: الفتنة؛ فقد جاء في القرآن الكريم قوله ﴿**وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ**﴾. فبالتأكيد سيثبت أن الفتنة هي الأخرى من الكبائر.

٤ ـ كل ذنب عد بحسب نظر المتشرعة وأهل التدين كبيراً، بحيث يعلم أن هذا الاعتبار لديهم ممتد تاريخياً إلى زمان المعصوم.

من قبيل تنجيس المسجد عن علم وعمد وبقصد هتك احترام بيت الله، أو إلقاء القرآن الكريم ورميه بقصد هتكه، وأمثال ذلك.

* * *

بناء على ما تقدم فإن الكبائر الأولى هي (المنصوصة)، يعني ما ورد التصريح باعتبارها كبيرة، وبعدما ثبت بالطرق الثلاث المتقدمة أنها من الكبائر.

وعبارة السيد اليزدي في العروة الوثقى هكذا: «المعصية الكبيرة هي كل معصية ورد النص بكونها كبيرة، كجملة من المعاصي المذكورة في محلها، أو ورد التوعيد بالنار عليها في الكتاب أو السنة صريحاً أو ضمناً، أو ورد في الكتاب أو السنة كونه أعظم من إحدى الكبائر المنصوصة، أو الموعود عليها بالنار، أو كان عظيمة في أنفس أهل الشرع».

ولأجل التبرك ـ وهكذا بيان المدرك فيما سنذكره من الذنوب الكبائر ـ نستعرض بعض الروايات التي يأتي شرحها في فصول الكتاب.

قال الصدوق في عيون الأخبار:

(١) عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني (ع) قال: حدثني أبو جعفر الثاني قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي موسى بن جعفر (ع) يقول: دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله (ع) فلما سلم وجلس تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ﴾ ثم أمسك، فقال له أبو عبد الله (ع): ما أمسكك؟قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله تعالى. فقال: يا عمرو أكبر الكبائر:

(١) الشرك بالله، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ﴾.

(٢) وبعده الإياس من روح الله تعالى، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مَنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾.

(٣) ثم الأمن من مكر الله، لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾.

(٤) ومنها عقوق الوالدين، لأن الله سبحانه جعل العاقّ جباراً شقياً.

(٥) وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾.

(٦) وقذف المحصنات، لأن الله تعالى يقول: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(٧) وأكل مال اليتيم، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾.

(٨) والفرار من الزحف، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾.

(٩) وأكل الربا، لأن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَايَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ﴾.

(١٠) والسحر، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

(١١) والزنا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً. يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾.

(١٢) واليمين الغموس الفاجرة، لأن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾.

(١٣) والغلول، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾.

(١٤) ومنع الزكاة المفروضة، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

(١٥) وشهادة الزور.

(١٦) وكتمان الشهادة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

(١٧) وشرب الخمر، لأن الله تعالى نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان.

(١٨) وترك الصلاة متعمداً.

(١٩) أو شيئاً مما فرض الله عز وجل، لأن رسول الله (ص) قال: «من ترك الصلاة متعمداً فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله».

(٢٠) ونقض العهد.

(٢١) وقطيعة الرحم، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم. انتهى.

٢ ـ وفي صحيح ابن محبوب قال: كتب معي بعض أصحابنا إلى أبي الحسن (ع) يسأله عن الكبائر كم هي وما هي، فكتب (ع) الكبائر: من اجتنب ما وعد الله عليه النار كفّر عنه سيئاته إذا كان مؤمناً. والسبع الموبقات: قتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا والتعرّب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف، انتهى. وسائل الشيعة/ كتاب الجهاد.

٣ ـ وفي رواية أبي الصامت عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «أكبر الكبائر الشرك بالله العظيم، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل أموال اليتامى، وعقوق الوالدين، وقذف المحصنات، والفرار من الزحف، وإنكار ما أنزل الله عز وجل».

وفي رواية عبد الرحمن بن كثير عنه (ع): «وإنكار حقنا».

وفي رواية أبي خديجة عنه (ع) قال: «الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأوصياء من الكبائر».

وفي مرسلة الصدوق عدّ منها الحيف في الوصية، وفي مرسلة كنز الفوائد عدّ منها استحلال بيت الله الحرام. وسائل الشيعة ـ كتاب الجهاد.

٤ ـ وفي عيون الأخبار بأسانيده عن الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (ع) فيما كتب إلى المأمون: «واجتناب الكبائر وهي: ١ ـ قتل النفس

التي حرم الله تعالى. ٢ ـ والزنا. ٣ ـ والسرقة ٤ ـ وشرب الخمر. ٥ ـ وعقوق الوالدين. ٦ ـ والفرار من الزحف. ٧ ـ وأكل مال اليتيم ظلماً ٨ ـ وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به من غير ضرورة ٩ ـ وأكل الربا بعد البينة ١٠ ـ والسحت ١١ ـ والميسر وهو القمار ١٢ ـ والبخس في المكيال والميزان ١٣ ـ وقذف المحصنات ١٤ ـ واللواط ١٥ ـ واليأس من روح الله ١٦ ـ والأمن من مكر الله ١٧ ـ والقنوط من رحمة الله ١٨ ـ ومعونة الظالمين ١٩ ـ والركون إليهم ٢٠ ـ واليمين الغموس ٢١ ـ وحبس الحقوق من غير عسر ٢٢ ـ والكذب ٢٣ ـ والكبر ٢٤ ـ والإسراف ٢٥ ـ والتبذير ٢٦ ـ والخيانة ٢٧ ـ والاستخفاف بالحج ٢٨ ـ والمحاربة لأولياء الله ٢٩ ـ والاشتغال بالملاهي ٣٠ ـ والإصرار على الذنوب».

وشرح هذه الأخبار وهكذا سائر الروايات سنذكره إن شاء الله تعالى ضمن حديثنا عن الكبائر.

حل إشكال:

هناك موضوع يخطر في بعض الأذهان وهو:

(١) لماذا لم يبين هذا المطلب المهم في القرآن الكريم، ولم يتصد القرآن الكريم لتعيين هذه الكبائر؟

(٢) ولماذا تختلف الأخبار في هذه المسألة؟

ففي بعضها عدد الكبائر خمسة، وفي بعضها سبعة، وفي قسم آخر تسعة، وفي بعضها إحدى وعشرون، وفي قسم آخر إحدى وثلاثون، حتى ورد في رواية عن ابن عباس أن الكبائر إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبعة.

جواب السؤال الأول:

وفي الإجابة على السؤال الأول يوجد جوابان:

(١) الحكمة الكثيرة:

هناك حكمة عظيمة ولطف كبير من خالق العالم تعالى بعباده في إبهام الذنوب الكبائر، وعدم تعيينها في القرآن المجيد. فإنه لو عينها لسعى الناس في تركها فقط، وتجرأوا على الذنوب بتخيل أنها لا تضرهم، وفي ذلك مفاسد كثيرة؛ من جملتها الجرأة على مخالفة النواهي الإلهية.

ما أسوأ ذلك العبد الذي يتجرأ على مولاه، ويخالف ما أمره بتركه، بل إن هذه الجرأة والوقاحة تكون سبباً للجرأة على الكبائر أيضاً، فإن من يستخف بنواهي خالقه عن الصغائر فإنه قليلاً قليلاً سوف لن يطهر من الذنوب الكبائر.

الإصرار على الصغيرة كبيرة:

ومن جملة ذلك الابتلاء بتكرار المعصية الصغيرة الذي يوجب تحويلها إلى كبيرة، فمن المسلّم به أن المعصية الصغيرة عند تكرارها تصبح كبيرة، وفي بحث الإصرار على الصغائر سنذكر ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى.

إذن فالحكمة والرحمة الإلهية هي في إبهام الكبائر، فلعله بسبب هذا الإبهام والإجمال يمتنع العباد عن سائر الذنوب خوفاً من التورط في الكبائر.

ومن جملة ذلك الابتلاء باستحقار الذنب الصغير الذي يحوله إلى كبيرة من الكبائر، كما سنذكر ذلك بعون الله تعالى.

الوقوع في المفسدة والحرمان من الثواب:

ومن جملة ذلك الوقوع في مفاسد كثيرة موجودة في الصغائر، والحرمان من خيرات كثيرة موجودة في ترك الصغائر، لأن أي عمل نهى عنه الله تعالى إنما هو بسبب وجود مفسدة في ارتكابه، وحينما يرتكب العبد ذنباً صغيراً فإنه وإن عفي عنه ببركة ابتعاده عن الكبائر إلا أنه سيتورط بمفسدة ذلك الذنب، وبذلك المقدار سيسودّ قلبه، اللهم إلا إذا تداركه بعد ذلك وتلافاه. وأيضاً فإن كل من ترك الصغيرة لأنها مورد نهي الله تعالى فإنه يستحق بذلك الثواب.

إذن أصبح معلوماً أن مرتكب الصغيرة يتورط في مفسدتها من ناحية، ويحرم من ثواب تركها أيضاً، ولعل هذا المطلب هو مقصود ذلك العظيم الذي قال: «هب غفر الله ذنوب المسيئين فقد فاتهم ثواب المحسنين».

(٢) يجب أن نرجع إلى أهل البيت (ع):

ثم إن هذا المطلب (الذنوب الكبائر) مثل مطالب كثيرة ذكرت بالإجمال في القرآن الكريم، وحوّل شرحها وتفصيلها إلى الرسول الأكرم (ص) والأئمة الأطهار الذين قلوبهم خزينة العلم، ومهبط الوحي، وأرجع الخلق إليهم، كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾**. السورة ١٦/الآية ٤٤.

وكما يقول تعالى في لزوم رجوع الخلق إلى أهل البيت (ع) في بيان القرآن وشرح: **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾** السورة ١٦/الآية ٤٣.

لماذا أهل الذكر هم أهل البيت؟

لدينا أخبار كثيرة في هذا المورد تفيد أن المراد من أهل الذكر هم أهل البيت (ع)، من جملتها حين كان الإمام الرضا (ع) في مجلس المأمون وقال: «نحن أهل الذكر»، فقال علماء العامة الحاضرون في المجلس: بل أهل الذكر هم اليهود والنصارى، والمراد من الذكر التوراة والإنجيل، فأجاب الإمام (ع) بالقول: «سبحان الله هل يجوز ذلك؟ إذاً يدعونا إلى دينهم ويقولون إنه أفضل من دين الإسلام» عيون أخبار الرضا.

فقال المأمون: لو أقمت برهاناً على ما تقول من القرآن!

فقال (ع): «نعم، الذكر رسول الله (ص) ونحن أهله، وذلك بيّن في كتاب الله تعالى حيث يقول في سورة الطلاق: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾**. عيون أخبار الرضا.

والشهرستاني وهو من علماء العامة ينقل عن الإمام الصادق (ع) وعن أمير المؤمنين (ع) قوله: «نحن أهل الذكر».

وورد في بعض الروايات أن الله تبارك وتعالى أجمل ذكر بعض المطالب في القرآن الكريم،وأرجع الخلق في شرحها إلى أهل البيت (ع) ليعرفوا أنهم لا يستغنون عن أهل البيت (ع) وليتمسكوا بهم، وينالوا سعادة موالاتهم.

جواب الإشكال الثاني:

بعد مراجعة الأخبار المذكورة وسائر الروايات الواردة في هذا المورد يعلم أن أئمتنا عليهم السلام لم يكونوا بصدد إحصاء الذنوب الكبائر، يعني لم يكن مقصودهم في جواب السائلين تعداد تمام الكبائر، للحكمة التي ذكرناها، ولذا أحياناً يكون جوابهم بشكل مجمل كما في صحيحة الحلبي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «الكبائر كل ما أوعد الله عليه النار». (أصول الكافي).

أكبر الكبائر:

وأحياناً في جواب السائل يذكرون الذنوب التي هي أكبر من غيرها، مثل رواية أبي بصير عن الإمام الصادق (ع) حيث قال: «أكبر الذنوب الكبيرة الشرك بالله... إلى آخره...».

وأحياناً يذكرون الذنوب التي ليست بنظر السائل كبيرة، ليمتنع عنها السامع.

دخول الذنب الكبير في عنوان آخر:

وأحياناً يمتنع الإمام (ع) عن ذكر بعض الذنوب الكبيرة لدخولها في عنوان آخر مذكور، أو مسلّم أنه من الكبائر، مثل رواية عبيد بن زرارة عن الإمام الصادق (ع): «هن في كتاب علي (ع) سبع: الكفر بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا بعد البينة، وأكل مال اليتيم ظلماً،

والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة». قال: قلت فهذا أكبر المعاصي؟

قال: نعم.

قلت: فأكل درهم من مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة؟

قال (ع): ترك الصلاة.

قلت: فما عددت ترك الصلاة في الكبائر.

فقال: أي شيء أول ما قلت؟ قلت: الكفر ـ قال (ع): فإن تارك الصلاة كافر يعني من غير علة. (الكافي ـ وسائل الشيعة).

بناء على هذا يعلم أن الأخبار الواردة ليست بصدد ذكر تمام الكبائر، ولا تفيد الحصر إطلاقاً، بحيث تنفي غيرها.

ومن التأمل في صحيحة عبد العظيم التي نقلناها سابقاً، يلاحظ أن الإمام بعد ذكر إحدى وعشرين معصية كبيرة من القرآن المجيد، لم يطق عمرو بن عبيد الاستماع لأكثر من ذلك، وخرج من عند الإمام ناحباً، ولعله لو أطاق وصبر لذكر له الإمام أخريات.

لم يبق ما يقال؛ غرضنا في هذا الكتاب شرح الذنوب التي ثبت أنها من الكبائر، لا حصر الكبائر بها.

وبعبارة أخرى: إن سائر الذنوب التي لم نشر في هذا الكتاب إلى أنها كبيرة تبقى في حالة الإبهام والإجمال، ولا دلالة على أنها صغيرة، ويلزم على أهل التقوى والورع الابتعاد عنها جميعاً، لعلها في الواقع ذنوب كبيرة ولم تثبت لنا.

بعد معرفة هذه المقدمة، نشرع بالبحث حول الذنوب الكبيرة التي صرح بأنها كبيرة.

الباب الأول

الكبائر المنصوصة



(١) ـــــــــــ الشرك بالله

أول الذنوب الكبيرة الشرك بالله تعالى. وقد صرح باعتباره كبيراً الرسول (ص)، والإمام أمير المؤمنين والصادق والكاظم والرضا والجواد عليهم السلام، بل روي عن الإمام الصادق (ع) قوله: «أكبر الكبائر الشرك بالله». (أصول الكافي).

والدليل على أنه من أكبر الذنوب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. السورة ٤ الآية ٤٨.

وأيضاً قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ السورة ٥ الآية ٧٢.

وأيضاً قال تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ السورة ٣١ الآية ١٣.

وأيضاً قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ السورة ٤ الآية ٤٨.

وحيث إن اعتبار هذا الذنب من الكبائر لدى كل مسلم هو أمر بديهي، أغنانا ذلك عن ذكر سائر الآيات الشريفة والروايات الواردة في ذلك، الشيء المهم هو معرفة معنى الشرك ومراتبه، حتى نتورع عن جميع مراتبه، كما قال خالق العالم في القرآن المجيد: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾. السورة ٤ الآية ٣٦.

المشرك في مقابل الموحد وضده، وكما أن التوحيد الذي هو ركن الدين وأصله له مراتب، كذلك الشرك له مراتب وأقسام:

١ ـ التوحيد والشرك في مقام الذات.

٢ ـ التوحيد والشرك في مقام الصفات.

٣ ـ التوحيد والشرك في مقام الأفعال.

٤ ـ التوحيد والشرك في مقام الطاعة.

٥ ـ التوحيد والشرك في مقام العبادة.

وسوف نتناول كل واحد منها بالشرح بتوفيق الله تعالى.

(١) التوحيد في مقام الذات:

التوحيد في مقام الذات عبارة عن الاعتقاد بوحدانية ذات رب الأرباب المقدسة، القديم الأزلي، ومبدأ وعلة إيجاد جميع العوالم الممكنة من المحسوس وغير المحسوس.

والشرك في هذا المقام عبارة عن الاعتقاد بتعدده، كما تقول طائفة (الثنوية) أن العالم له مبدآن متساويان وكلاهما قديم وأزلي، أحدهما مبدأ الخيرات وهو (يزدان) والآخر مبدأ الشرور وهو (أهريمن)، وبطلان عقيدتهم السخيفة واضح من القرآن الكريم ﴿**قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾ السورة ٤ الآية ٧٨.

وفي الجواب نكتفي بذكر جملة واحدة، وهي أنه لا يوجد شر محض في العالم، كل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون إما خير محض، أو أن خيره غالب، وجهة الشر مغلوبة ومقهورة، وشرح هذا المطلب خارج عن حدود هذه الرسالة.

والنصارى مشركون:

وأيضاً مثل طائفة النصارى القائلين بأصول ثلاثة قديمة، والقائلين بالأقانيم الثلاثة (الأب، الابن، روح القدس)، والمعتقدين بأن لكل واحد منها آثاراً وخواص.

في سورة المائدة يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ**

﴿وَمَا مِن إلهٍ إلاَّ إلهٌ واحِدٌ﴾.

وعقيدة التثليث هذه هي مذهب البراهمة والبوذيين أيضاً[1].

عبادة الصنم شرك بالله:

وأيضاً من هذا القسم من الشرك ما ينقل عن بعض فرق عبّاد الأصنام، أنهم قرروا لكل نوع من المخلوقات ربّ النوع، ويقولون للماء خالق مستقل، وللهواء خالق مستقل وهكذا[2].

(٢) التوحيد في مقام الصفات:

والتوحيد في مقام الصفات هو الاعتقاد بأن الصفات الحقيقية الذاتية الإلهية مثل الحياة والعلم والقدرة والإرادة وأمثال ذلك هي عين الذات الأحدية، وأما في غيرها فهي زائدة وعارضة بمعنى أن كل واحدة من هذه الصفات في غيره جل وعلا هي من مواهبه وإفاضاته.

الشرك في المقام قسمان:

أحدهما الاعتقاد بأن صفاته تعالى زائدة على ذاته، ويلزم ذلك تعدد القدماء، وهذا مذهب منسوب للأشاعرة، وبطلان هذا القول ثابت في محله، وبيانه خارج عن محل البحث.

صفات الخلق الحسنة كلها من الله:

إذا اعتقد بوجود أية مرتبة من مراتب الصفات الحسنة في المخلوق، ولكن اعتقد بأن هذه الصفة إنما هي من الله تعالى فذلك عين التوحيد. كذلك فإن عقيدتنا بالنسبة لمراتب المعرفة والقدرة وسائر الصفات الكمالية لأئمة الهدى وسائر الأنبياء هي ذلك. يعني أنها جميعاً من الله، ونعتقد أنها

---

(١) تفصيل هذه العقيدة وبيان بطلانها موجود في كتاب (أنيس الأعلام) على الطالبين مراجعته.

(٢) ﴿أأرْباب مُتَفرِّقُون خَيرٌ أم الله الواحِدُ القَهَّارُ﴾ سورة ١٢ الآية ٣٩.

من إفاضاته، لا أحد بحسب الذات لديه شيء من نفسه، وبالجملة فإن جميع الموجودات كما أنها في أصل الوجود ممكنة وحادثة ومحتاجة لخالق العالم الذي يخلقها، كذلك هي في اتصافها بالصفات الحسنة التي هي كمالات ثانوية، محتاجة أيضاً إلى ربّ الأرباب الذي يجعلها متصفة بتلك الصفات، طبعاً كل أحد حسب الإرادة والمصلحة.

تزكية النفس من الغفلة:

وهذا المطلب، وهو انحصار الصفات الكمالية بذات الخالق تعالى، لكل عاقل موحد ومنصف بديهي وواضح.

دائماً بعض الموحدين ـ طبعاً في مواقع الغفلة عن هذا المعنى ـ يتفوهون ببعض كلمات الشرك، كما في حالة مدح النفس، حيث يقول علمي، قدرتي، إرادتي، غناي، فهمي، وغير ذلك. نعم لو قال علمي الذي أعطانيه الله، وقدرتي التي أعطانيها الله، وهكذا لكان صحيحاً وعين التوحيد، طبعاً حينما يكون صادقاً في قوله، يعني حاله مثل لسانه، وعلامة ذلك شدة التواضع لله الحق تعالى، والخوف من زوال النعمة بسبب الكفر، وعلامته الثانية أن لا يفرح بمدح أحد.

المتقون يخافون أن يحمدوا:

كما قال أمير المؤمنين (ع) في صفات المتقين في خطبة همام: «إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له. فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي مني بنفسي! اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون».

الله لا شريك له في صفاته:

كيف يجعل الشخص الموحد نفسه أو شخصاً آخر شريكاً لله في استحقاق الحمد والثناء، في الوقت الذي يقول مراراً ليلاً ونهاراً: سبحان

الله، يعني أعتقد بنزاهة **الله** من الشريك، وأيضاً يقول مكرراً: الحمد **لله**، يعني جنس الحمد والثناء وتمام مصاديقه مختص ومنحصر بخالق العالم، ولا يستحق أحد غيره الحمد والثناء.

وبالجملة لأن الموحدين يعلمون يقيناً أن كل أحد ـ سوى الله ـ ليس له شيء من عنده، وكل ما لديه هو منه تعالى، والكل محتاج إليه ذاتاً وصفة، ولذا فهم يحذرون أن يحمدوا. كما قال أمير المؤمنين (ع) في صفاتهم، بل يمتنعون عن الألفاظ والكلمات التي توهم استقلالهم واستغناءهم وذاتيتهم، مثل: إن لدى فلان صفة كمالية، لدي الكمال الفلاني.

قول الرسول الأكرم (ص):

جاء رجل إلى رسول الله (ص) وطرق بابه، فسأله الرسول من داخل الدار: من أنت؟

فقال أنا،

فغضب (ص) من قوله أنا، فخرج (ص) وهو يقول: «من القائل أنا وهي لا تطلق إلا بالله الذي يقول: أنا الجبار، وأنا القهار». الأنوار النعمانية/ للسيد الجزائري.

قارون أصبح مشركاً:

ولذا قالوا إن قارون صار مشركاً حين قال: «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي».

وقال رب العالمين في جوابه: **﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾** سورة ٢٨ الآية ٧٨.

فإذا كان لديهم شيء من عند أنفسهم فلماذا لم يدفعوا عن أنفسهم الهلاك؟

بديهي أن كل ما نعرف وما نقدر، وهكذا كل الكمالات هي من الله تعالى[1].

(٣) التوحيد والشرك في الأفعال:

حقيقة التوحيد في الأفعال أن يعتقد بأن المالك والمدبر والمتصرف في جميع عوالم الملك والملكوت هو الله تعالى، ويعلم يقيناً بأنه لا شريك له ـ تعالى ـ في جميع شؤون الربوبية والألوهية، وربوبيته مستوية في السماء وأهلها، والأرض وأهلها، وسائر العوالم.

ويعرف بأنه تعالى هو خالق السماوات، وهو خالق النجوم التي لم يعرف البشر عددها لحد الآن، وما كشف لحد الآن بالآلات والأجهزة الحديثة مائة ألف ميليون نجم، وكل واحد منها عالم مستقل، وذات نور خاص بها، وكل واحد منها يدور في مدار معين بدون أن يتصادف أحدها مع الآخر[1]. أحدها الشمس التي يبلغ حجمها مائة ميليون وثلاثمائة ألف مرة بحجم الأرض، وأعطيت نوراً بحيث يصل الأرض من مسافة سبعة وثلاثين ميليون فرسخ في مدة ثمان دقائق، وذلك هو العامل في إضاءة الأرض، وتربية موجوداتها.

---

(١) ومن هذا يتضح ما قيل إن كلمة (الحمد لله) هي الكلمة المباركة الكبيرة. وهكذا يتضح ما يترتب على هذه الكلمة المقدسة من الثواب العظيم، من قبيل ما ورد عن رسول الله (ص) أنه قال: من قال الحمد لله غرست له شجرة في الجنة، ومن قال مائة مرة الحمد لله أفضل ممن أعتق مئة عبد في سبيل الله، وأيضاً قال (ص): «الحمد لله» أثقل من السماوات السبع والأرضين السبع في ميزان الأعمال.

ومن قال: الحمد لله كما هو أهله قال كتّاب الأعمال ـ الملائكة ـ ربنا لا نعرف ثوابه وأجره فيقول تعالى: ثبّتوا له هذه الكلمة المباركة على أجره.

وأيضاً قال (ص): من قال (سبحان الله وبحمده) كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة.

ولا شك أن اختلاف الروايات في مقدار الثواب باعتبار حالات المتكلمين بهذه الكلمات الشريفة، ونسبة إلى مراتب الإيمان واليقين والتوحيد، وهكذا الاتصاف بآثارها.

ملاحظة: الأحاديث المنقولة أعلاه ليست نصاً.

(١) ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ السورة ١٦ الآية ١٢

مائة ألف لون من الماء عديم اللون:

ذلك الله الذي يشق الأرض ويخرج منها أنواع الورود والرياحين ذات العطور المختلفة، كما أنه هو خالق القوة الشامّة في الإنسان التي تشم تلك العطور، وأيضاً جعل فيها أنواع الألوان وأقسامها، كما خلق في الإنسان القوة المبصرة لكي يراها، كما يرى الله واحداً كبيراً.

-خالق الحب والنوى:

وهو الله الذي يفلق النواة، ويغرس نصفها في الأرض جذراً، ويخرج النصف الآخر ويربيه ويخرج منه أنواع الفواكه ذات الأطعمة المختلفة، مع اتحاد الأرض والماء، كما أعطى للإنسان القوة الذائقة ليتذوق مختلف تلك الأطعمة،ويعرف عظمة وحكمة الخالق وجميع الموجودات.

في ظلمات ثلاث:

وهو الله الذي خلق الحيوانات المختلفة من نطفة عفنة، وخلق الإنسان في ظلمات البطن والرحم والمشيمة، ثم ركبه بقدرته تركيباً عجيباً، كما أعطاه بصيرة العقل ليرى آثار صنعه، ثم ربّاه وسائر الموجودات بيده.

اللبن اللطيف من الدم الخبيث:

وهو الله الذي أخرج اللبن النظيف السائغ من بين فرث ودم، ثم يوصله إلى حلقوم الرضيع من الحيوان والإنسان عن طريق الثدي، في وقت لا يقدر فيه على تناول باقي الأطعمة.

هو الذي يحيي ويميت.

وكل خير ونفع يصل لأي أحد فهو منه.

وكل شر وضرر يصدر من أي أحد وعلى أي أحد فإنما بإذن الله ومشيئته «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ».

يرزق ويجيب:

وهو الله الذي يرزق جميع المخلوقات، وبيده قسمة الرزق ونقصانه وزيادته.

هو الذي يجيب دعوة الداعين، ويعطيهم مطاليبهم، ويدفع السوء عمن يشاء.

في الحقيقة إن التوحيد في الأفعال هو أن تعتقد وتعلم علم اليقين بأن لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا المعنى المشتق من معنى كلمة لا إله إلا الله.

المؤثر هو الله:

كما أن حياة كل موجود هي من الله، كذلك آثار حياته هي من الله تعالى، وظهور تلك الآثار أيضاً من الله كمّاً وكيفاً.

وعلاوة على جهة حدوث وإمكان الأشياء، فإنه قد ثبت بالتجربة والوجدان أن الكثير من المؤثرات لم يترتب عليها آثارها، ولم تصدر منها، بل لوحظ صدور ضد ذلك[1].

بعد هذا تكون قد اتضحت هذه المطالب في أقسام الشرك في الأفعال.

شؤون الربوبية غير متناهية:

... هو المغيث لكل مسكين والمنجي لكل مبتلى، وغير ذلك من الصفات الحميدة، بل كل حسن وجيّد هو منه «هو الله الخالق البارىء المصوّر الرازق المحيي المميت النافع الضار المجيب المعطي المنعم» وغير ذلك من أسمائه وأفعاله الشريفة جلا وعلا، والتي هي كل شؤون ربوبيته، ومرجع كل ذلك إلى كلمة «رَبِّ العَالَمِينَ» المباركة **﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾** سورة ١٨ الآية ١٠٩.

---

(١) استشهد المؤلف هنا ببيت شعر باللغة الفارسية أعرضنا عن ترجمته.

قدرة الانسان:

أصل وجود الإنسان، من الله، والقدرة الموجودة في أفعاله هي أيضاً من الله، يعني أن الله أعطاه القدرة على أداء فعل الخير وفعل الشر، من خلال المعرفة والقدرة والإرادة[٢].

قدرة الإنسان مقيدة بمشيئة الله (تعالى):

لكن هذه القدرة محدودة بمشيئة الله، فما أكثر الأمور التي يقدر الإنسان على تحقيقها ويريدها، لكن بسبب فسخ إرادته، أو إزالة قدرته لا يتحقق ذلك الأمر.

كما قال أمير المؤمنين (ع) في خطبته في (نهج البلاغة): «عرفت الله بفسخ العزائم، ونقض الهمم».

* * *

والحقيقة أن الوصول إلى هذه المرتبة من التوحيد بحيث يرى أن الله ـ تعالى ـ هو وحده منشأ الآثار، وأنها جميعاً منه، هو مقام عزيز، ولقليل من الناس تتحقق هذه المرتبة من التوحيد.

ولازم اليقين ـ بأنه لا يوجد مؤثر في عالم الإمكان، المحسوس وغير المحسوس سوى الله تعالى ـ عدة أمور نشير إلى بعضها: ومن جملتها مقام الخوف.

الخوف من الله:

لا بد أن لا يخاف المؤمن من أي شيء سوى عظمة خالقه، والذنوب التي ارتكبها، لأنه يعلم أنه جميع الخلائق من الطيور، والمجترات والزواحف، وبني آدم مع اختلاف مراتبها هي جيش الله، وبدون إذنه ـ جلّ وعلا ـ لا يصل منها نفع وضرر لأحد، إذن مم يخاف الغيرَ[١]؟

(٢) استشهد المؤلف هنا ببعض الأبيات الشعرية باللغة الفارسية أعرضنا عن ترجمتها.

(١) استشهد المؤلف ببيتين من الشعر الفارسي أعرضنا عن ترجمتهما.

وفي الحديث: «حدّ اليقين أن لا تخاف مع الله شيئاً» وفي دعاء سجدة الرسول (ص): «إلهي إن لم يكن غضبك علي فلا أبالي» (بحار الأنوار).

الرجاء من الله:

ومن جملتها مقام الرجاء.

المؤمن الموحّد لا ينبغي أن يأمل بأحد أو شيء سوى إلهه.

يقول أمير المؤمنين (ع): «لا يرجونّ أحد منكم إلا ربّه» نهج البلاغة، وهذا كما أشير إليه.

فكما أن أصل وجود أي فرد من الله تعالى، وهكذا تحقق أن أي خير هو أيضاً من الله تعالى، كذلك فإن وصول أي خير من أي شخص هو أيضاً من الله تعالى فقط، كما قال في القرآن الكريم «بيده الخير» فإن تقديم الجارو والمجرور في قوله: (بيده) يفيد الحصر.

وفي آخر سورة يونس قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾.

وفي مكان آخر قال: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ السورة ١٦ الآية ٥٣.

وبعد أن أصبح معلوماً أن كل شيء في عالم الملك والملكوت هو مخلوق عاجز لله تعالى[1]، فلو أمل أحد في عمله بغير الله تعالى قطع الله أمله لطفاً وكرماً حتى يأمل بربه، كما ورد في الحديث الشريف: «لأقطعن أمل كل مؤمل غيري» (عدة الداعي).

شكر المنعم:

ومن جملتها ـ أي الأمور اللازمة لليقين بأن لا مؤثر سوى الله ـ مقام مدح المنعم وثنائه وشكره.

---

(١) ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّموات وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً﴾ السورة ١٩ الآية ٩٣

فبعد اعتقاد الموحد بأن جميع الموجودات ذاتاً «وصفة» هي مخلوقة للذات الأحدية، فإنه سيعتقد بأن أي خير من أي أحد كان إنمّا هو من الله، وهو وحده الذي يوصل الخير للآخرين. إذن فهو يعرف أن الله جدير بالمدح والثناء، وعلى أساس المعرفة بذلك يقول: الحمد لله.

شكر الوسائط لازم أيضاً:

وحين نمدح ونشكر الوسائط فبالتأكيد ليس على أساس استقلالها، واعتبارها مصدراً للخير، وإنما من جهة أنها مجرى للخير الإلهي، خصوصاً وأن ذلك مورد أمر رب العالمين. «من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق». (بحار الأنوار).

ولا شك أن الاعتقاد باستقلالية موجود في إيصال الخير هو بمرتبة من المراتب ابتلاء بالشرك.

الشرك الخفي في مدح الخلق:

الإمام الصادق (ع) في تفسير الآية الشريفة **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾** قال: «من ذلك قول الرجل لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي، ولا بأس بأن يقول لولا أن من الله علي بفلان لهلكت» (بحار الأنوار).

الإمام الصادق (ع) والسائل الشكور:

روي عن مسمع بن عبد الملك أن الإمام الصادق (ع) كان في منى، واقترب منه سائل، فأمر الإمام بإعطائه عنقوداً من عنب.

فقال السائل: لم أكن بحاجته، لو أعطيتني مالاً.

فقال الإمام: وسع الله عليك، ولم يعطه شيئاً.

ثم جاءه سائل آخر فأعطاه الإمام ثلاث حبات من العنب، فأخذها السائل وقال: الحمد لله رب العالمين الذي رزقني.

فقال الإمام: مكانك، وأعطاه كفين من العنب، فأخذها السائل وشكر الله ثانية.

فقال الإمام: مكانك، وقال لغلامه: كم لديك من المال؟

ثم أعطاه قريباً من عشرين درهماً.

أخذها السائل وقال: الحمد لله رب العالمين، هذا منك وحدك لا شريك لك.

فقال الإمام: مكانك، ثم أحضر ثوباً وأعطاه إياه، وقال: البسه.

لبسه السائل وشكر الله على ما ألبسه وفرح به ثم توجه إلى الإمام وقال: يا عبد الله جزاك الله خير الجزاء، ثم انصرف.

قال مسمع: ظننت لو لم يلتفت إلى الإمام، وحمد الله فقط، لواصل الإمام له العطاء.

التوحيد والتوكل:

الأسباب بيد مسبب الأسباب؛ يجب أن يعتمد الشخص الموحد في جميع الأمور من جلب المنفعة وإلى دفع المضرة على ربه، ويأمل منه فقط، يجب أن يعلم أن جميع الأسباب مسخرة لإرادته، حتى لو أن جميع أسباب الخير تهيأت له ولكن الله لم يرد استحال أن يصل إليه خير، كذلك لو أن جميع تلك الأسباب انقطعت عنه وأراد الله لوصل إليه كل خير، ولو وجدت جميع أسباب الضرر ولكن الله لم يرد لما وصل إليه أي شر.

من هو المتوكل؟ وما هو التوكل؟

التوكل يعني العلم اليقيني بأن المخلوق لا يستطيع بذاته أن يضر أحداً أو ينفع أحداً، ولا يستطيع أن يعطي أحداً أو يمنع عطاء أحد، وأن ييأس من جميع الخلق.

كل عبد كان كذلك لا يؤدي عملاً لغير الله، ولا أمل له بغير الله لا خوفاً

ولا طمعاً، فذاك هو المتوكل.

والخلاصة: إذا أمل الشخص في الوصول إلى نفع أو النجاة من ضرر بمخلوق، ظاناً أنه مستقل في التأثير، واعتمد عليه، فإنه يكون قد اتخذ ذلك السبب ـ المخلوق ـ شريكاً لله في الربوبية، وإذا اعتقد بأن ذلك السبب هو مسخر لله، وإنما تبعه بأمل الله تعالى، وانتظر نتيجة عمله من الله تعالى، فذلك هو التوكل وعين التوحيد.

وقد ورد أن النبي قال لجبرائيل: «وما التوكل على الله؟

فقال: العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، واستعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله، ولم يرج ولم يخف سوى الله، ولم يطمع في أحد سوى الله فهذا هوالتوكل». (عدة الداعي ٨٥).

التوحيد والتسليم:

يجب أن يكون الشخص الموحد مسلماً في قبال جميع المقدرات الإلهية، وغير معترض ولا منكر ـ لا بلسانه ولا بقلبه ـ لأي من الأمور التكوينية: كالعزة والذلة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والموت والحياة. والأمور التكليفية مثل الواجبات والمحرمات، لأنه إذا اعترض في عمل الله وأبدى رأيه فيعين الأصلح، ويقول لماذا صار هكذا، أو يجب أن يكون هكذا فقد أشرك نفسه مع رب العالم في شؤون الربوبية والألوهية، بل افترض أنه هو الأعلم، مثال ذلك أن يقول: لماذا لا ينزل المطر؟ لماذا أصبح الهواء حاراً؟ لماذا لم يعطني الله مالاً، أو ولداً؟

لماذا يموت فلان وهو في سن الشباب، ويبقى فلان وهو في سن الشيخوخة؟ وهكذا..

أو يقـول: لمـاذا أوجب الشيء الفـلاني؟ أو لا ينبغي أن يكـون فـلان شيء حراماً.

يقول الإمام الصادق (ع): «لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شـريك لـه، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وحجوا البيت، وصاموا شهر رمضان، ثم قالوا لشـيء صنعه الله أو صنعه النبي (ص) ألا صنع خلاف الذي صنع؟ أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآيـة: **﴿فَلَا وَرَبِّـكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجـاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾**.

ثم قـال أبو عبـد الله (ع): «فعليكم بالتسليم» (أصـول الكافي ـ كتـاب الإيمان والكفر ـ باب الشرك ـ حديث ٦).

بناء على ذلك يجب على أهل التوحيد حين نزول البلاء أو المصيبة أن يحفظوا ألسنتهم وقلوبهم من الاعتراض على قضاء الله.

نعم، البكاء والنياحة في موت الأقرباء والأصدقاء جائز من أجل فراقهم، بل ممدوح، لكن الاعتراض على صنع الله ـ لماذا صار هكذا، يجب أن لا يكون هكذا ـ حرام.

التوحيد والمحبة:

الشخص المـوحـد الـذي علم يقينـاً بـأن المنعم عليـه وعلى جميـع المخلوقـات هو الله وحـده، وأن أي شيء وصله من أي مخلوق هو من الله والأسباب مسخرة له، يجب أن تكون عـلاقته القلبيـة وحبه لله وحـده، وأي مخلوق لا يحبه بالاستقلال، وحبه لغير الله يجب أن يكون من جهـة أن هذا المخلوق محبوب الله «حبُّ محبوب الله حبُّ لله» وحبـه مورد أمـر الله، مثل الملائكة والأنبياء والأئمة والمؤمنين والدار الاخرة، والجنـة، أو من جهة أن هذا المخلوق هو نعمة وعطاء الرب، وبواسطة شكره يستطيع أن يرضي الرب ويقترب منه، مثل المرأة والأطفال والمال، بـل يحب أصل الحيـاة الدنيـوية

التي يستطيع فيها أن يحصل على المعرفة والعبودية، وفي أي وقت أحب مخلوقاً بالاستقلال ـ يعني لا من أجل الله ـ فقد ابتلي بمرتبة من الشرك.

لكن المستفاد من الآيات والروايات أن حب غير الله إذا كان أشد وأكثر من حب الله ـ بحيث يرجح غير الله عند التزاحم ـ فذاك شرك وحرام، ويستحق لأجله العقوبة، مثل من يحب ماله أكثر من حب الله، بنحو لا يكون مستعداً لصرفها في الموارد التي أوجبها الله.

وهذا المطلب فصّلناه في بحث حب الدنيا من كتاب (القلب السليم). على القارئ العزيز مراجعته.

الشيء الذي يلزم التذكير به في المقام، هو أن طالب السعادة يجب أن يسعى لأن لا يكون في قلبه حب استقلالي لأي مخلوق، وشواهد هذا المطلب كثيرة نكتفي بنقل ثلاث روايات:

١ ـ سئل أبو عبد الله (ع) عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

فقال (ع): «القلب السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه».

وقال (ع): «وكل قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط» (أصول الكافي ـ باب الإخلاص).

٢ ـ قال أبو عبد الله (ع): «لا يمحض رجل الإيمان بالله حتى يكون الله أحب إليه من نفسه وأبيه وأمه وولده وأهله وماله ومن الناس كلهم» (سفينة البحار الجزء ١ ص ٢٠١).

٣ ـ روي أن سليمان رأى عصفوراً يقول لعصفورة: لم تمنعين نفسك مني ولو شئت أخذت قبة سليمان بمنقاري فألقيتها في البحر؟ فتبسم سليمان من كلامه، ثم دعاهما وقال للعصفور: أتطيق أن تفعل ذلك؟ فقال: لا يا رسول الله، ولكن المرء قد يزين نفسه ويعظمها عند زوجته، والمحب لا يلام على ما يقول، فقال سليمان للعصفورة: لم تمنعينه من نفسك وهو

يحبك؟ فقالت يـا نبي الله إنه ليس محبـاً ولكنه مـدَّعٍ ، لأنه يحب معي غيري»[1].

فأثر كلام العصفورة في قلب سليمان (ع) وبكى بكاء شديداً، واحتجب عن الناس أربعين يوماً يدعو الله أن يفرغ قلبه لمحبته، وأن لا يخالطها بمحبة غيره.

٤ ـ التوحيد والشرك في الطاعة:

الشخص المؤمن بعد أن علم يقيناً أن الخالق والرازق والمدبر والمربي له ولسائر المخلوقات واحد لا شريك له في أية مرتبة من مراتب الالـوهية وشؤون الربوبيـة، فبحكم العقل والايمـان لا ينبغي أن يتخذ غيـره في مقام الإطاعة والامتثال آمراً، بل يعتقد أنه وحده لازم الإطاعة، يستوي في ذلك هو وسائر المخلوقات، التي هي جميعاً مخلوقة وعاجزة وضعيفة ولا شيء لها من ذاتها.

﴿وَلاَ يَمْلِكُـونَ لأَنْفُسِهِم ضَرّاً ولاَ نَفْعـاً وَلاَ يَمْلِكُـونَ مَوْتـاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً﴾.

وبما أن المنعم عليه وعلى سائر المخلوقات هو الذات الأحدية فقط، إذن فإن سيده ووليه وولي سائـر المخلوقات هـو الله فقط، لا يرى غيـره حاكمـاً والولاية له لا غير.

نعم، كل من عينه الله وأعطاه الولايـة وأمر الخلق بـالرجـوع إليه، فهـو واجب الإطاعة قهراً، لأن الله عينه.

ولاة الأمر الإلهيون:

ينحصر أصحاب الولاية الإلهية بسلسلة الأنبياء، وأئمة الهدى، والنواب بالنيابة الخاصـة في الدرجـة الأولى، والنواب بـالنيابـة العامـة في زمن غيبة الإمام (ع)، كما قال في القرآن الكريم ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَـد أطَاعَ اللهَ﴾ السورة ٤ ـ الآية ٨٠.

---

(١) سفينة البحار ـ ج ٢ ـ ص ٢٠٠

وقال أيضاً: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ السورة ٥٩ ـ الآية ٧.

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم﴾ السورة ٤ ـ الآية ٥٩.

من هم أولو الأمر؟

في بيان المراد من أولي الأمر للعامة أقوال متعددة، من جملتها أنهم يقولون: المراد هم الحكام، وهذا قول بدون علم، وادعاء بدون حجة ودليل، فعلاوة على ما يترتب عليه من المفاسد الكثيرة التي نخرج بها عن محل البحث، يلزم منه اجتماع الضدين أو النقيضين.

المتعة حلال بحكم الرسول (ص) وحرام بحكم عمر:

مثلاً عمر بن الخطاب يقول: «متعتان كانتا في عهد رسول الله وأنا أحرمها» (بحار الأنوار).

وعلى ذلك فمن يعتقد بأن عمراً من أولي الأمر يجب أن يعتقد أن المتعة هي حلال بحكم رسول الله (ص) واعتراف الشخص المذكور، وهي حرام أيضاً بحكم عمر.

حب علي (ع) بأمر الرسول (ص) أم بنظر معاوية:

أو مثلاً، معاوية رأى أن الحرب ضد أمير المؤمنين (ع) واجبة، في وقت حرمها رسول الله (ص) قائلاً: «حرب علي حربي».

وأيضاً أمر معاوية ببغض علي (ع) في وقت أوجب رسول الله (ص) حبه، بل جعل الله تعالى أجر الرسالة مودتهم[1].

إذن، فلازم إطاعة الله والرسول محبة الإمام، والسلم معه، ولازم كون معاوية من أولي الأمر بغض هذا الإمام ومحاربته.

---

(١) ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى﴾ السورة ٤٢ الآية ٢٣.

التخصيص في أولي الأمر:

وتخصيص أولي الأمر ببعض الأمراء والحكام خلاف الآية الشريفة، لأن الله تعالى ذكر إطاعتهم في الآية عقيب إطاعته وإطاعة الرسول، بل عين إطاعة الرسول، كما يستفاد هذا المعنى من عدم تكرار قوله «أطيعوا» وإنما ذكره معطوفاً بالواو، يعني أن الاثنين واحد، إذن فكما أن إطاعة الرسول (ص) غير قابلة للتخصيص، وهي عامة نسبة لجميع أوامره، كذلك أطاعة أولي الأمر هي الأخرى واجبة في جميع أوامرهم.

هذا أمر لا يصح عقلاً إلا إذا كان أولو الأمر مثل رسول الله (ص) في العصمة والنزاهة من أي خطأ، حتى لا يرد محظور في إطاعتهم.

هل المراد بأولي الأمر العلماء؟

ومن المطالب التي قيلت يتضح بطلان قول بعض آخر من العامة، وهو قولهم: المراد من أولي الأمر العلماء، والحال أنه لم يكن أحد من العلماء معصوماً، بل الجميع جائز الخطأ، من حيث إن أقوالهم مختلفة، علاوة على محظورات أخرى.

وبالجملة بما أن العصمة أمر باطني، مخفي عن الخلق، لا بد من تعيين هؤلاء المعصومين من قبل الله والرسول (ص)، الذي يعلم باطن أولئك الأشخاص أكثر من أنفسهم.

أولو الأمر هم أئمة الشيعة الاثنا عشر:

وفي أحاديث كثيرة من طريق العامة والخاصة ورد تعيين أولي الأمر في الأئمة الاثني عشر وحصرهم بهم.

الرسول (ص) يبين أولي الأمر:

عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: سألت رسول الله (ص): عرفت الله ورسوله، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال (ص): هم

خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين من بعدي، أولهم علي بن أبي طالب ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر، ستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه مني السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سميّي وكنيّي حجة الله في أرضه، وبقيته في عباده، ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح الله ـ تعالى ذكره ـ على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبته، لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان.

قال جابر: فقلت له يا رسول الله، فهل يسع الشيعة الانتفاع به في غيبته؟ فقال (ص): أي والذي بعثني بالنبوة، إنهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولايته في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلاها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سر الله ومخزون علمه، فاكتمه إلا عن أهله».

من هذا يعلم أن إطاعة أهل البيت (ع) إطاعة الله[1].

إطاعة المجتهد العادل:

الذي نقوله إن الفقيه الجامع للشرائط لازم الإطاعة في زمن غيبة الإمام (ع). وإطاعته إطاعة الإمام، لأنه منصوب من قبل الإمام، كما ورد في توقيع الإمام الحجة (ع) أنه ـ الفقيه ـ حجته على الخلق[2].

وروي عن الإمام الصادق (ع) قوله: «انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فارضوا به حكماً فإني قد

(١) تفسير منهج الصادقين. ولأجل مزيد الاطلاع يمكنك الرجوع إلى كتاب (غاية المرام) فقد نقل في باب ٥٩ أربعة أحاديث من طريق العامة، وأربعة عشر حديثاً عن طريق الخاصة، في إثبات أن أولي الأمر هم الأئمة الاثنا عشر. وفي باب (١٤٠) في إثبات إمامة الإمام الثاني عشر المهدي (ع)، وسائر الأئمة، نقل ١٦٠ حديثاً عن طريق العامة و٢٧ حديثاً عن طريق الخاصة.

(٢) «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فإنهم حجتي عليكم» بحار الأنوار/ الجزء١٣.

جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما بحكم الله استخف وعلينا رد، والراد علينا الراد على الله، وهو على حد الشرك بالله». كتاب الكافي .

الفقيه الحر جدير بالاتباع:

من جملة شرائط الفقيه أن لا يكون حريصاً على الدنيا، ولا طالباً للجاه والشهرة، ولا متعصباً بالباطل، بحيث إنه يرجع من اتبعه إلى مَن هو أكثر منه تقوى وورعاً، كما ورد هذا الأمر في خبر نقله الشيخ الأنصاري في باب حجية خبر الواحد عن كتاب الاحتجاج، عن الإمام الحسن العسكري (ع).

وبالجملة: متى كان الفقيه - بالإضافة إلى فقاهته - غير متبع لهوى نفسه، ومطيعاً لمولاه بتمام المعنى، فإن إطاعته إطاعة الإمام، وواجبة.

عن الإمام الحسن العسكري: «من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه» الاحتجاج/ للطبرسي.

إطاعة الوالدين هي الأخرى اطاعة الله:

الوالدان من جملة من إطاعته إطاعة لله، فقد حرم في القرآن الكريم أذيتهما، وبعد الأمر بإطاعته أمر بالإحسان إليهما: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾ السورة ١٧ الآيتان ٢٣ - ٢٤.

الأمر بالحرام، والنهي عن الواجب لا يؤثر:

ضمناً يجب أن يعلم أنه ليس جميع أوامرهما ونواهيهما واجبة الإطاعة، بل هي مشروطة بأن لا تكون أمراً بالحرام، ونهياً عن الواجب، ففي هذه الصورة فإن إطاعة الله والرسول مقدمة كما هو صريح القرآن الكريم.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾السورة ٢٩ الآية ٨.

وأيضاً فإن القدر المسلم من وجوب إطاعتهما الموارد التي تكون مخالفتها موجبة لأذاهما وانزعاجهما، فإن أذيتهما حرام بنص القرآن المجيد.

إذن لو أمرا بشيء أو نهيا عن شيء وكان في مخالفتهما أذى لهما، ففي هذه الصورة إطاعتهما واجبة.

الأذى في المخالفة:

أما في صورة الأمر بشيء أو النهي عن شيء،بنحو لو لم يعمل الأولاد به لا يكون فيه أذى لهما، مثل الموارد غير المهمة في نظرهم، في هذه الصورة لا تحرم مخالفتهما.

مثال ذلك: لو منع الوالدان ولدهما من السفر، لكن كان حاله بنحو لو سافر لا ينزعج والداه، في هذه الصورة يكون السفر مباحاً، أما إذا كان بنحو يوجب السفر إيذاءهما فإن السفر حينئذ معصية، والصلاة في مثل هذا السفر تامة والصوم غير ساقط.

إطاعة المرأة لزوجها:

ومن جملة مَن إطاعته إطاعة لله ورسوله، لأنها مورد أمرهما، إطاعة المرأة لزوجها، كما في القرآن الكريم: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ[١] وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ[٢] فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ[٣] بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾ السورة ٤ الآية ٣٤.

روي عن الرسول الأكرم (ص) أنه قال: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» وسائل الشيعة/ كتاب النكاح الباب ١٨١.

---

(١) في زيادة العقل وحسن التدبير وزيادة القوة والفهم وغير ذلك.

(٢) من المهر والطعام والمسكن والملبس.

(٣) في العفة والعصمة وحفظ نفسها من الرجل الأجنبي، وفي ضبط وحفظ مال زوجها.

التمكين في الاستمتاع واجب:

الأخبار الواردة في لزوم إطاعة المرأة لزوجها كثيرة، ولكن يجب أن يعلم أن تحصيل راحة الزوج في جميع الأمور أمر مستحب ومرغوب، ومن أفضل العبادات للمرأة، لكن القدر المسلم من وجوب إطاعة الزوج ما يرجع إلى الاستمتاع، والخروج من المنزل بإجازته، حتى إذا كان لرؤية أو عيادة الوالدين، وإن خرجت من منزلها بدون رضى زوجها فإن ملائكة السماء والأرض وملائكة الرحمة والغضب تلعنها إلى حين رجوعها[٤].

الإنفاق المستحب يجب أن يكون بإذن الزوج:

وأيضاً يلزم تحصيل إذن الزوج في الانفاقات المستحبة من مالها، وفي نذر المرأة يشترط في صحته بشكل عام إذن الزوج، نعم في الانفاقات الواجبة من قبيل الحج الواجب والزكاة والخمس والإحسان للوالدين والأرحام، إذن الزوج غير لازم، بل إذا نهى عن ذلك لا يلزم ترتيب الأثر على نهيه.

وبالجملة في أي وقت أطاعت المرأة زوجها ـ لأجل إطاعة ربها ـ في الأمور المتقدمة واجبة أو مستحبة، فإن ذلك اتباع لله وللرسول (ص) وهو أفضل عباداتها.

لا يجوز مراجعة حاكم الجور:

بعد أن أصبح ما تقدم معلوماً، وأنه يجب أن يطاع الله وحده ومن عينه، وعرضنا الدليل النقلي والعقلي على انحصار الاتباع بالرسول (ص) والإمام (ع) ونواب الإمام مع توفر شرائطهم، وبعض الأفراد الذين اعتبرت اطاعتهم لازمة في الشرع المقدس.

(٤) عن أبي جعفر الباقر (ع) عن النبي (ص) قال: «ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، وإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها» وسائل الشيعة/ كتاب النكاح/ باب ٧٩.

بناءً على ذلك فمن يراجع في الدعاوى والقضاء حكام الجور، ويتبعهم، مثله كمثل من يرجع إلى الطاغوت (الأصنام وعباد الأصنام) وما يأخذه منهم سحت وحرام حتى إذا كان صاحب حق، كما في قول الإمام الصادق صريحاً: «من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقاً ثابتاً له، لأنه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به، قال الله تعالى: يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به». وسائل الشيعة/ كتاب القضاء/ باب ١١.

وفي القرآن المجيد أيضاً أمر في هذه الموارد بالرجوع إلى الله والرسول (ص) لا الرجوع إلى حاكم الظلم:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ السورة ٤ الآية ٥٩.

العالم بدون عمل جدير بعدم الاتباع:

وكذلك من يرجع في التعرف على الأحكام الدينية وتعيين الوظائف الدينية إلى العالم المبتلى بحب الجاه والمال والرئاسة، إذ بالنسبة إلى هذا العالم الفاقد للشرائط المذكورة ورد النهي الصريح عن الرجوع إليه. وكنموذج لذلك نشير إلى روايتين:

العلماء عبدة الدنيا قطاع طريق الله:

روي عن الإمام الصادق (ع): «إذا رأيتم العالم محباً لدنياه فاتهموه على دينكم، فإن محب كل شيء يحوط ما أحب، وأوحى الله إلى داود: لا تجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدك عن طريق محبتي، فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريدين؛ إن أدنى ما أنا أصنع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم» (أصول الكافي).

يجب أن يكون فقيهاً لله فقط:

وأيضاً روي عن الإمام الباقر (ع): «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو

يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فليتبوأ مقعده من النار؛ إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها» (كتاب الكافي).

العوام أيضاً مقصرون:

في الحقيقة أن كل الذين ابتعدوا عن أهل البيت عليهم السلام والعلماء الربانيين المنصوبين من قبلهم، ورجعوا إلى الآخرين تبعاً لهوى أنفسهم، هؤلاء هم المصداق الحقيقي للآية الشريفة التي تقول: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ**﴾ سورة الجاثية الآية ٢٣.

٥ ـ التوحيد والشرك في مقام العبادة:

رب العالمين من أجل إظهار فضله العظيم دعا عباده للاقتراب من بساطه، والاستفادة من البركات والآثار العظيمة لجواره ونيل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ السورة ٣٢ الآية ١٧.

أين البشر الترابي وقرب رب العالمين:

ولأن العباد ـ تبعاً لمضمون «ما للتراب ورب الأرباب» ـ بدون واسطة وبدون الاستعداد لا يستطيعون أن يضعوا أقدامهم على بساط قربه، جعل الله تعالى ـ بحكمته البالغة ـ خاتم الأنبياء وأئمة الهدى واسطة، وشرع العبادات بوسيلتهم. فكما جعل الله الكيمياء (التفاعلات الكيمياوية) مؤثرة في تغيير النحاس إلى ذهب، كذلك جعل هذه العبادات مؤثرة في تزكية النفوس من الكدر، ومنورة للقلوب المظلمة، حتى ترد بعد التزكية وبعد تحصيل جميع مراتب الطهارة والنورانية ببركة العبادات إلى بساط قربه ـ تعالى ـ وتستفيد منه.

الإخلاص في النية:

ذكرت للعبادات عدة شروط، أهمها وأعظمها الإخلاص في النية، بل اعتبر الإخلاص مقوماً للعبادات، بحيث إن العمل بدون اخلاص ليس فقط لا

يوجب قرب الشخص من الله ـ تعالى ـ بل هو مبعد وموجب للبعد عن بساط القرب الربوبي جلَّ وعلا، والآيات القرآنية الشريفة في هذا الموضوع كثيرة، من جملتها قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[1] السورة ٩٨ الآية ٥.

المرائي مشرك:

والمستفاد من الروايات أن الشخص المرائي مشرك ومنافق ومغضوب رب العالمين، ومن أهل العذاب، سواء الرياء في الواجبات أم المستحبات، وبنحو الاستقلال أو بنحو التشريك، يعني أن العبادة التي يؤديها يريد منها تحصيل القرب والمنزلة والكرامة عند الخلق فقط، أو يريد منها امتثال الأمر الإلهي، وتحصيل رضاه وقربه، وكذلك تحصيل الكرامة والمنزلة عند الخلق.

ولأجل مزيد الاطلاع نشير إلى بعض الآيات الواردة: من جملتها قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إلاَّ قَلِيلاً مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلِكَ لاَ إلَى هٰؤُلاَءِ وَلاَ إلَى هٰؤُلاَءِ﴾ السورة ٤ الآيتان ١٤٢ ـ ١٤٣.

وقال تعالى في سورة الماعون: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ والَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾ السورة ١٠٧ الآيات ٤ ـ ٦.

الرياء شرك أصغر:

قال رسول الله (ص): «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قيل وما الشرك الأصغر؟فقال (ص): الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاز

(١) ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ السورة ٧ الآية ٢٩.
﴿قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ السورة ٣٩ الآية ١٤.
﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ السورة ١٨ الآية ١١٠.

العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون لهم في الدنيا، هل تجدون عندهم ثواب أعمالكم» (بحار الأنوار).

المرائي يخدع نفسه:

سئل رسول الله (ص) فيما النجاة غداً؟ فقال: «إنما النجاة أن لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان، ونفسه يخدع لو يشعر. فقيل له: وكيف يخادع الله؟ قال: يعمل بما أمر الله به ثم يريد غيره. فاتقوا الله واجتنبوا الرياء فإنه شرك بالله، إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، حبط عملك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له» (بحار الأنوار).

جهنم تعج من نار المرائين:

روي عن الإمام الباقر (ع) والإمام الصادق (ع): «لو أن عبداً عمل عملاً يطلب به وجه الله والدار الآخرة، ثم أدخل فيه رضا أحد من الناس كان مشركاً» (بحار الأنوار).

وروي عن الرسول الأكرم (ص): «إن النار وأهلها يعجون من أهل الرياء؛ فقيل يا رسول الله: كيف تعج النار؟ قال (ص): من حر النار التي يعذبون بها» سفينة البحار/ جزء ١.

وعن أمير المؤمنين (ع): «إن الله بعث محمداً (ص) ليخرج عباده من عبادة العباد إلى عبادته» (سفينة البحار).

العبادات التي تجر صاحبها إلى النار:

عن أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله (ص) يقول: يجاء بالعبد يوم القيامة قد صلى، فيقول يا رب قد صليت ابتغاء وجهك، فيقال له: بل صليت ليقال ما أحسن صلاة فلان، اذهبوا به إلى النار». ثم ذكر مثل ذلك في القتال وقراءة القرآن والصدقة. (وسائل الشيعة).

وفي أخبار كثيرة بل متواترة أن المرائي يكون مشركاً؛ ويكفي هذا المقدار من الروايات.

فضيلة الإخلاص ورذيلة الرياء:

يستفاد من روايات كثيرة أن المرائي علاوة على الخسارة الأخروية والحرمان من الأجر والثواب الإلهي، والاحتراق بالنار، في الدنيا أيضاً لا يصل إلى مقصوده، يعني لا يحصل على التقدير عند الناس الذي كان مقصوده، بل يفتضح ويهتك في أكثر الأوقات.

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا والآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ سورة الحج الآية ١١.

وبعكس ذلك الشخص المؤمن، فإنه علاوة على الأجر الأخروي، يكون محترماً عند الناس، كما يقول الإمام الصادق (ع) في تفسير قوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّه﴾: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس، ويشتهي أن يسمع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة الله، ثم قال:

ما من عبد ستر خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهره الله تعالى له خيراً، وما من عبد يستر شراً فذهبت الأيام حتى يظهر الله له شراً» (الكافي).

العمل الخالص يتجلى:

يقول الإمام الصادق (ع): «من أراد الله عز وجل بالقليل من عمله أظهره الله له أكثر مما أراد، ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله أبى الله إلا أن يقلله في عين من سمعه»[1] (الكافي).

---

(١) روي أن رجلاً من بني إسرائيل قال: لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فمكث مدة مبالغاً في الطاعات، وجعل لا يمر بملأ من الناس إلا قالوا: متصنع مراء، فأقبل على نفسه وقال: قد أتعبت نفسك وضيعت عمرك في لا شيء، فينبغي أن تعمل لله سبحانه، فغير نيته وأخلص عمله لله تعالى، فجعل لا يمر بملأ من الناس إلا قالوا: ورع تقي (عدة الداعي).

الرياء من وجهة نظر فقهية:

إذ ابتلي شخص بهذا الذنب الكبير، يعني الشرك في العبادة، ثم أراد التوبة، فيجب عليه بعد الندم الحقيقي والتصميم على تركه والسعي في تحصيل إخلاص النية ما يأتي:

أولاً: الاستغفار من ربه والاعتذار مما مضى.

ثانياً: إعادة تمام العبادات التي كان فيها رياء، سواءً كان الرياء كل الداعي لها أو جزء الداعي، يعني كان الداعي للعمل فقط غير الله، أو كان قصد الله موجوداً أيضاً.

مثل ما لو أعطى الزكاة لامتثال الأمر الإلهي من ناحية، ولجلب منفعة من الأخذ أو دفع مضرته، أو أراد تعظيم وتكريم آخذ الزكاة، ففي ذلك يجب عليه بعد التوبة أداء الزكاة ثانية خالصاً لوجه الله.

وأيضاً لا فرق في وجوب الإعادة بين أن يكون الرياء في تمام العمل أو في جزء من أجزائه، وكذلك ـ بناءاً على الاحتياط ـ في ما لو كان الرياء في جزء مستحب، كما لو أتى بالقنوت رياءً، وحتى إذا لم يكن الرياء في أصل الصلاة وإنما كان في كيفيتها، مثل ما لو كان الرياء في أداء الصلاة جماعة، أو في المسجد، أو في الصف الأول ونظائر ذلك، فإن الصلاة في الجميع باطلة.

الرياء في غير العبادات:

في الأمور الدنيوية التي لا تحمل جُنَبَة عبادية لم يرد تصريح بحرمة الرياء فيها، ولهذا لم يفت الفقهاء بحرمة ذلك، إلا أن طريق الاحتياط هو أن يحتاط أهل الإيمان بالامتناع من جميع مراتب الرياء، حتى في الأمور الدنيوية والمباحة، لأن منشأ الرياء حب الجاه والدنيا، ومن خلال ممارسة الرياء في الأمور الدنيوية تقوى هذه الملكة الرذيلة، وتشتد، وقليلاً قليلاً يصبح الإنسان مبتلى بالرياء في العبادات.

قال المرحوم (الفيض الكاشاني) في المحجة البيضاء، في بيان الرياء في العبادات وغيرها:

المراءى به - أمور - كثيرة تجمعها خمسة أقسام، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس فهو البدن، والزي، والقول، والعمل، والاتباع، والأشياء الخارجة. . .

القسم الأول:

الرياء في الدين من جهة البدن، وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين، وغلبة خوف الآخرة، وليدل بالنحول على قلة الأكل، وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر، وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور، فارتاحت النفس لمعرفتهم، فلذلك تدعو النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة. . . .

وأما أهل الدنيا فيراؤون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة، وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسبها.

القسم الثاني:

الرياء بالزي والهيئة بتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب، وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود وغلظ الثياب، ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من نصف الساق وتقصير الأكمام، وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً، كل ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه، ومقتد فيه بعباد الله الصالحين.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة، وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت ووفرة الخيل، وبالثياب المصبغة والطيالس النفيسة، وذلك ظاهر بين لناس.

الثالث:

الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ وبالتذكير والنطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة؛ إظهاراً لغزارة العلم، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي . . .

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالقول، بحفظ الأشعار والأمثال، والتفاصح في العبارات، وحفظ النحو الغريب للإغراب على أهل الفضل، وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

القسم الرابع:

الرياء بالعمل، كمراءاة المصلي بطول القيام ومد الظهر، وتطويل السجود والركوع وإطراق الرأس، وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون، وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصوم والغزو والحج، وبالصدقة وإطعام الطعام.

أما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبختر والاختيال، وتحريك اليدين وتقريب الخطا، والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين، ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

القسم الخامس:

المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، . . . وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليري أنه لقي شيوخاً كثيرين واستفاد منهم، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال، ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراؤون بالأسباب التي ذكرناها.

الرياء مرتبط بالقصد:

غير خفي أن الرياء من العناوين القصدية، يعني أن أي عمل يقصد منه رؤية الناس، وتحصيل المنزلة لديهم فذلك هو الرياء، سواءً كان ذلك العمل دنيوياً أو أخروياً، ومثال ذلك الأمور الخمسة التي ذكرت. فإن نفس تلك الأعمال ليست رياء، بل تصبح رياء تبعاً لنية وقصد العامل، مثلاً:

تنظيف البدن بقصد امتثال أمر الشارع عبادة، وبقصد رؤية الناس رياء، وهكذا اللباس الحسن، والمسكن الحسن، فإنه بقصد اتباع أمر الشارع، وإظهار النعمة الإلهية عبادة، وأما إذا كان بقصد عرضه على الناس فإنه رياء، وهكذا[1].

* * *

(1) لأجل التعرف على سائر المطالب الراجعة إلى الشرك راجع كتاب (القلب السليم) - بحث الشرك.

(٢) اليأس:

الثاني من كبائر الذنوب اليأس من رحمة الله (اليأس من روح الله) والروح في اللغة يطلق على النسيم الذي يلتذ به الإنسان ويرتاح.

وذلك لأن سبب اليأس من رب العالمين هو فقدان الاعتقاد بقدرته وكرمه ورحمته اللامتناهية، وفي القرآن الكريم عد اليأس من صفات الكفار وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة ١٢ الآية ٨٧.

وقد اعتبر الإمام الصادق والإمام الكاظم والإمام الرضا والإمام الجواد (عليهم السلام) اليأس من الذنوب الكبيرة، كما ورد في الأحاديث الشريفة التي ذكرت في أول هذا الكتاب.

أكبر من كل الذنوب:

لا يوجد بعد الشرك ذنب أكبر من اليأس، ذلك أن أي ذنب يصدر من شخص ما يمكن أن يعود معه إلى التوبة، ويمحى عنه بالاستغفار ما لم يصل إلى حد اليأس، أما الشخص المأيوس فإنه لا يعفى عنه، لأنه لا أمل له بالعفو والمغفرة الإلهية حتى يتوب. مما تقدم يكون اليأس سبباً للجرأة على جميع الذنوب، لأن اليائس يقول: ما دمت مذنباً فلماذا أحرم نفسي من شهوات الدنيا؟

وبما أن اليأس من أكبر الكبائر كان مناسباً أن نبين أقسامه وكبر ذنبه، وطريق الخلاص منه.

الأسباب ومسبب الأسباب:

الله تعالى بقدرته الكاملة، وحكمته البالغة رتب الأمور الدنيوية والأخروية

الصورية والمعنوية على علل وأسباب، مثل ترتب الشبع على أكل الطعام، وعلاج المرض على مراجعة الطبيب واستعمال الدواء، ودفع الفقر وجلب الغنى على الكسب والسعي، وهكذا الأمور المعنوية مثل ترتب المغفرة والنجاة للشخص المذنب على التوبة والإيمان، والوصول إلى مقام اليقين على تبعية المعصوم والتفكر والسعي في مراتب التقوى، وهكذا جعل الاقتراب منه تعالى وارتفاع الدرجات الأخروية مترتباً على السعي في إخلاص العمل والاستزادة منه، وهكذا.

وبهذا الترتيب أظهر الله تعالى نفسه، وذلك أن الغرض من إيجاد الخلائق هو معرفة الخالق - تعالى - ومن الممكن أن الأسباب تخدع البشر فيخيل له أن الأسباب مستقلة التأثير، وينسى المسبب، وحينئذ يفرح لوجود الأسباب ويحزن لعدمها، غافلاً عن أن الله تعالى إذا لم يرد شيئاً فإن أي سبب لا يؤثر ولاَ يقع مفيداً، وإذا أراد الله شيئاً فإنه سيوجد المعدوم من دون أي سبب.

السبب لا يؤثر:

ولأجل الوقوف أمام هذا الاشتباه، ولأجل أن يفرح العباد - حين توفر الأسباب - بفضل الله لا بتوفر الأسباب، ويتكئون على قدرته تعالى، وفي حالة عدم وجود الأسباب يأملون بكرمه ورحمته، وفي جميع الأحوال لا يسمح لأن يداخله ضيق الصدر - من أجل هذا الغرض - فإن رب العالمين عمل أمرين:

أحدهما: في بعض الأحيان يسلب التأثير عن الأسباب، الموجودة، حتى يعلم المؤمنون أن الأسباب ليست مستقلة في التأثير.

ثانيهما: في بعض الأحيان يوجد المعدوم من دون توفر الأسباب حتى لا ييأس أهل الإيمان ولا يضيق صدرهم.

وقد أجرى الله تعالى كلا هذين العملين في الأمور المادية والدنيوية،

وهكذا في الأمور المعنوية والأخروية.

ومن أجل التوضيح أكثر نذكر مثالاً لكل واحد من هذه الأقسام الأربعة.

(١) النار لا تحرق ـ السكين لا تقطع:

من جملة الموارد التي سلب فيها التأثير عن الأسباب المادية الموجودة نار نمرود التي أشعلت لإحراق إبراهيم (ع)، فقد أعدت بنحو أن الطير لا يستطيع العبور والطيران على بعد فرسخ منها، وقد ألقي في وسطها إبراهيم (ع) بواسطة المنجنيق.

ومع هذه القدرة على الإحراق بالوصف المتقدم، إلا أن الله تعالى ألغى أثرها، بل أعطاها تأثيراً مضاداً وهوالبرودة،بنحو لو لم يقل الله تعالى (وسلاماً) كان يخشى أن تهلك إبراهيم من شدة البرد.

ومثل ذلك السكين الحادة التي من شأنها القطع، حينما أراد إبراهيم أن يذبح ولده إسماعيل، ألغى الله تعالى أثرها حتى ألقاها إبراهيم وسُمع منها صوت تقول فيه «الخليل يأمرني، والجليل ينهاني».

موسى وفرعون:

ومن جملة ذلك موارد كثيرة حاول فيها السلاطين والحكام وأصحاب النفوذ جمع الأسباب لقتل الأنبياء والمؤمنين والقضاء عليهم، ولكن رب العالمين ألغى مفعول تلك الأسباب، كما يلاحظ في قضية موسى (ع) وفرعون من أولها إلى آخرها.

فمنذ البدء أراد فرعون أن لا تنعقد نطفة موسى، وحاول بعدها وبعد ولادة موسى (ع) أن يقتله.

أجل، يصبح معلوماً كيف أن الله تعالى خيب مساعيه، وألغى ما وفره من الأسباب، بل ولد موسى (ع) في بيت فرعون، وتربى في أحضانه، وجعله الله تعالى متكفلاً لموسى (ع).

أبرهة وعدم خراب الكعبة:

وهكذا في سنة ولادة خاتم الأنبياء (ص) حيث تحرك أبرهة باتجاه مكة - مبعوثاً من قبل النجاشي - في جيش مجهز عظيم، مع فيل للركوب بهدف هدم الكعبة.

ولقد كان الجميع مطمئناً بأن هدم الكعبة أمر سيقع بعد أن هيأوا جميع الأسباب، إلا أن الله تعالى ألغى تلك الأسباب، فكلما حاولوا أن يدخل الفيل المسجد الحرام لم يدخل.

ومن جهة أخرى فقد خيمت فوق هذا الجيش طيور صغيرة بحجم الخطاف، يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار صغيرة بحجم العدسة بمناقيرها وأرجلها، ورمت فوق رأس كل واحد منهم واحدة من هذه الأحجار،وثقبت رأسه ودخلت جسمه فوراً حتى خرجت من دبره،وأسقطته أرضاً وهلك تمام العسكر، عدا رجل واحد عاد وأخبر السلطان بالخبر،وبمجرد أن أنهى خبره حلق فوق رأسه واحد من تلك الطيور ورماه بواحدة من تلك الأحجار فهلك.

وتبعاً لأهمية هذه القضية أصبحت مبدأً لتاريخ العرب، كما يقال:

ولادة خاتم الأنبياء (ص) في عام الفيل، وبعثته (ص) في سنة أربعين من عام الفيل،وهكذا سائر الأمور.

الحفاظ على خاتم الأنبياء:

ومن الآيات الإلهية العظيمة حفظ وجود خاتم الأنبياء المبارك في مكة المعظمة، وفي الغزوات، مع أن جميع المشركين ومنذ البداية كانوا بصدد قتله، ومن زاوية الأسباب المادية لم يكن يوجد نقص في نجاحهم، سواء من حيث الأسلحة ومن حيث تجمع القبائل وعددها.

ونكتفي بهذا المقدار، ففي زيادة الشرح خروج عن محل البحث[1].

---

(١) مرض جالينوس في آخر عمره بمرض الإسهال، وكلما حاول علاج هذا المرض ازداد،=

(٢) إيجاد ما لا علّة له:

أما القسم الثاني من الأمور المادية الدنيوية التي أوجدها الله تعالى بقدرته القاهرة، مع عدم وجود أسبابها الصورية فهي كثيرة وخارجة عن حد التعداد؛ مثل أنه خلق آدم أبا البشر من دون أب وأم، وكما حملت مريم بالسيد المسيح (ع) من دون أن يقاربها رجل، وكما وهب لزكريا - وهو في سن الشيخوخة والعجز - يحيى، وكما أعطى إبراهيم الخليل في حال الكهولة، ومن زوجته العجوز العاقر سارة، إسحاق.

العلم المحمدي من دون تعلم:

وقد جعل - تعالى - حضرة خاتم الأنبياء معلماً للبشر، وقرآنه حاوياً للعلوم، في الوقت الذي لم يشهد (ص) معلماً، ولم يذهب لمدرسة تعليم، بل إن تمام معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء هي من هذا القبيل، يعني خرقاً لعادة الطبيعة، حيث يوجد شيء من دون وجود علله المتعارفة.

قضاء الحاجات:

ومن هذا القبيل إجابة الدعوات وكشف الكربات من الله تعالى بالنسبة لعباده. فما أكثر الأشخاص المضطرين، والمنقطعة بهم الأسباب، الذين يصلح رب العالمين أمرهم، ويعطيهم حاجتهم، وما أكثر المرضى الذين

= حتى طعن الناس فيه كثيراً، كيف لا يستطيع أن يعالج نفسه مع أنه طبيب متخصص بهذا المرض، وضاق ذرعاً بطعن الناس وحديثهم فيه، فنعى نفسه ودعا بجرة وملأها ماءً ووضع فيها قليلاً من الدواء ثم أمر بكسرها، وكان الماء قد تماسك وقال:

لقد شربت من هذا الدواء ولم ينفع، اعلموا أنه عند حلول الأجل الإلهي لا ينفع في دفعه شيء، وكان عاقبته أن مات بذلك المرض.

أرسطو مات مدقوقاً ضئيلاً ... وأفلاطون مفلوجاً ضعيفاً
مضى بقراط مسلولاً ذليلاً ... وجالينوس مبطوناً نحيفاً

مع أن كل واحد من هؤلاء الأربعة كان من أكابر الحكماء والأطباء، والعجب أن كل واحد منهم كان متخصصاً بالمرض الذي أصيب به، ذلك ليعلم الخلق أنّ: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ» (بحر الجواهر).

انقطعت عنهم الأسباب العادية، ويئسوا من الشفاء، ثم عوفوا بفعل الصدقة والدعاء.

وما أكثر الفقراء الذين أصبحوا من الأثرياء بدون الأسباب المتعارفة، وما أكثر المبتلين بالبلايا العجيبة ثم ينجيهم رب العالمين بطرق غير متوقعة، وكتب الروايات والسير، والتواريخ، مليئة بهذه القصص[1].

(٣) سوء العاقبة

أما الأمور المعنوية الأخروية التي ألغى الله تعالى تأثير أسبابها مع توفرها، فمثل الأشخاص الذين يصلون إلى الدرجات العالية، ويوفرون أسباب سعادتهم من خلال المجاهدات النفسية، ولكن نتيجة خروجهم عن تبعية الأنبياء،أو ارتكاب بعض الذنوب الكبيرة يبطل سعيهم، وينقلب ما حصلوه من أسباب السعادة إلى سبب الشقاوة والانحطاط في الدركات.

بلعم باعور والشقاء الأبدي:

مثل بلعم باعور، فمع أنه كان صاحب ملكاتٍ وكمالات عالية، إلا أنه بسبب قبوله رجاء سلطان زمانه خالف نبي وقته واتبع هوى نفسه، والتحق في

---

(١) وكم لله من لطف خفي ... يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم يسرٍ أتى من بعد عسر ... وفرّج كربة القلب الشجي
وكم أمر تُساء به صباحاً ... وتأتيك المسرة بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً ... فثق بالواحد الفرد العلي

هذه الأبيات الأربعة منسوبة إلى الإمام أمير المؤمنين (ع).

إن قراءة الأبيات الشعرية في حالات الضيق والمشاكل مؤثر، وذلك ثابت بالتجربة.

وفي شرح ديوان (الميبدي) نقل عن الإمام اليافعي في (روض الرياحين) أن بائع مجوهرات الملك اصطحب معه خادمه، إلا أن طفل هذا الخادم كسر الجوهرة فاضطرب الخادم اضطراباً عظيماً.

فقال له مؤمن: اقرأ هذه الأبيات بصدق وإخلاص.

وما إن قرأها حتى جاء شخص وقال: إن جارية الملك مرضت، وقال الأطباء دقوا الجوهرة وأعطوا الدقيق لها.

ويقول الملك سريعاً اكسروا الجوهرة ودقوها وائتوني بالدقيق.

أسفل الأسفلين، وشبه في القرآن الكريم بالكلب[1].

ولذا فإن أهل المعرفة والإيمان مع ما لديهم من المقامات المعنوية العالية لا يعتمدون في أي وقت على أعمالهم، ودائماً يخافون سوء العاقبة، وتمام توكلهم على الله، ولا يرون ما لديهم من أسباب السعادة مستقلاً في التأثير.

(٤) حسن العاقبة:

أما الأمور المعنوية الأخروية التي يوجدها رب العالم تفضلاً من دون توفر أسبابها، فمواردها كثيرة، فما أكثر الأشخاص الذين توفرت أسباب شقائهم وسقطوا في قعر بالوعة الطبيعة، وكانوا بعيدين عن الله، ولكن في أسوأ حالاتهم شملتهم بارقة اللطف الإلهي، وهبّ عليهم نسيم فضله ورحمته فأنقذهم وقربهم إليه، الأمر الذي يحير كل عاقل.

سحرة فرعون:

مثل سحرة فرعون الذين اشتغلوا في أسوأ الأعمال وهو السحر الذي يكفي لإشقاء صاحبه، فجأة ـ وهم في أسوأ الحالات وهي السحر في مقابل نبي الله حضرة موسى (ع) ـ شمل حالهم اللطف الإلهي، ووضحت لهم الحقيقة، ودفعة واحدة انقلبوا، بحيث لم يعتنوا بوعود فرعون لهم بالمال الكثير والملك والرئاسة إذا هم غلبوا، بل لم يأبهوا بتهديده إذ قال لهم: لأصلبنكم على جذوع النخل، إلا أنهم لم يخافوا وقالوا:

﴿لَا ضَيرَ إنَّا إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. السورة ٢٦ الآية ٥٠.

آسية كانت من أحسن النساء:

وهكذا القضية العجيبة للمخدرة آسية زوجة فرعون، ففي قمة الرفاه والتنعم، فجأة أضاء قلبها الإيمان، وكان لها بالفضل الإلهي من قوة القلب

---

(١) ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ السورة ٧ الآية ١٧٦.

بحيث لم تبك من القتل، ومن أنواع العقوبات التي ابتلاها بها فرعون، وبكامل الجرأة أظهرت الإيمان بالله وموسى (ع)، وفي حال قتلها قالت: «رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ».

أصحاب الكهف:

وهكذا أصحاب الكهف الذين يبلغ عددهم سبعة نفر، وكان ستة منهم على المشهور من وزراء دولة دقيانوس، وكانوا قد وافقوا على ادعائه الربوبية، وفجأة أضاءت عيون قلوبهم، وعرفوا حقارة دقيانوس وفساد عقيدته، وصرفوا النظر عن كل الشهوات، وفروا من تلك المدينة، واتخذوا من الغار مسكناً، وشرح حال هؤلاء موجود في سورة الكهف المباركة، وهي تبقي اسمهم حياً على الدوام.

اليقظة قبل الموت:

وأيضاً ما أكثر المذنبين الذين تجمعت أسباب شقائهم وسوء عاقبتهم بسبب كبائر ذنوبهم، بدرجة لا يأمل أحد في نجاتهم وسعادتهم، وفجأة يشمل حالهم الفضل الإلهي، فيندمون على ذنوبهم، ويفارقون الدنيا بحسن العاقبة، ويحشرون مع السعداء.

يسلم ثم يموت:

من جملة ذلك (مخريق) اليهودي، فقد قال لقبيلته يوم معركة أحد، ألا تعلمون أن محمداً هو النبي الموعود بالحق؟

قالوا: نعم.

قال: إذن لماذا لا تنصرونه؟

قالوا: اليوم يوم السبت.

قال: كان السبت في دين موسى (ع) وقد نسخ.

فلم يقلبوا منه، فأقبل وحده إلى رسول الله (ص) فآمن وسلم ما لديه من

الأموال الكثيرة، ورجع إلى ميدان الحرب، وأخيراً كان من الشهداء، وكان معظم صدقات رسول الله (ص) من مال هذا الشخص.

السعادة الأبدية:

ومثل ذلك الحرّ بن يزيد الرياحي، فمع أنه قطع الطريق على سيد الشهداء (ع)، وأجبره حتى لم يستطع الرجوع إلى مكة والمدينة، ودخل أرض كربلاء مضطراً، ومع هذا الذنب الكبير ظاهراً لم يبق أمل للنجاة، لكنه يوم عاشوراء، في تلك اللحظة التي سمع فيها استغاثة الحسين (ع) شمل حاله الفضل الإلهي فتاب وندم مما ارتكبه، وأخيراً نال السعادة الأبدية وأصبح من الشهداء.

هل يصير العاقل يائساً:

بعد ملاحظة الأشخاص المذكورين وآلاف الأفراد مثلهم، هل يجوز أن ييأس العاقل من ربه الكريم، وييأس من صلاح نفسه أو غيره؟

على هذا الأساس قال العلماء: إن الشخص المسلم لا يصلح أن يقطع بأنه أفضل من الكفار والفساق، ويرى نفسه سعيداً والآخرين أشقياء، بل يجب أن يكون حاله بنحو يفكر أنه إذا استمر عليه اللطف و لتوفيق الإلهي وبالحالة التي هو عليها الآن، أو بأحسن منها يفارق الدنيا. والكافر أو الفاسق الفلاني أيضاً إذا شمله الخذلان الإلهي، وبتلك الحال فارق الدنيا، حينذاك يرى نفسه أفضل من ذلك الكافر والفاسق.

الشيخوخة والرقي في العرفان:

إن فقدان الأمل بالرقي والعلو والسير في معارج الإنسانية مهما كان فإنه ليس من مصاديق اليأس المحرم، إلا أن المؤمن لا ينبغي أن يعتقد بأن رقي الإنسان في مقامات العرفان له أسباب مؤثرة مثل قوة الشباب، والذكاء، والمجاهدة وغير ذلك، وأنه فاقد لها، فما أكثر الأشخاص الذين لم يكن لديهم شيء من هذه ومع ذلك وبفضل الله وصلوا إلى الدرجات العالية، مثل

فضيل بن عياض، وعمران الصابئ وبرهم النصراني، وصاحب الرياض، فهؤلاء جميعاً كان تنبههم عند الشيخوخة والعجز، بينما شملهم اللطف الإلهي.

اليأس أكبر الذنوب:

اليأس من الآثار واللوازم الخبيثة للكفر، ولإنكار شؤون رب العزة، فإن من عرف الله تعالى بالقدرة والكرم والعلم، وأنه خلق جميع العوالم وربّى جميع أطراف عوالم الوجود، وأنه ذو قدرة لا محدودة، وحكمة غير متناهية، وأنه أعطى لكل فرد من الممكنات ما يلزمه.

نظر إلى طفولة الإنسان:

كما هو في رحم الأم حيث أن الله تعالى لم يغفل عن الطفل وأوصل إليه ـ وبعد ولادته، ونظراً لأن معدته ما تزال رقيقة، ولا قادرة على هضم الأغذية المركبة في هذا العالم ـ أوصل إليه من طريق ثدي الأم ألطف أغذية هذا العالم، وما يتناسب بحاله، وبعد أن تحصل له قوة الهضم للأغذية المركبة يخرج له أسنان وهكذا، لأنه في البداية كان هناك عجز، وكان محتاجاً إلى مربين لغرض مراقبته والمواظبة عليه، كما وضع الحنان في قلب الأم حتى لا تغفل عنه في لحظة واحدة، وهكذا وهكذا. .

إذن يجب أن يكون آملاً:

بعد الالتفات إلى هذه الأمور والأمور الأخرى؛ هل يليق أن يقطع الإنسان أمله عن رب العالم، وإلهه الرحيم؟

أم يليق أن يقطع الأمل عن حلّال المشاكل في إصلاح الأمر الفلاني الجزئي، أو تسهيل العمل الفلاني الذي يصعب عليه؟ ما أقبح ذلك وإنه لشر مستطير.

اليأس ناشئ من الكفر أو الجهل:

وفي الجملة: اليأس ناشئ إما من الكفر المخفي الذي يجب على

الشخص السائر في طريق إصلاح ذاته إخراجه، أو من الغفلة وعدم الالتفات إلى شؤون ربوبية الله جل جلاله.

واليأس الذي عد من الذنوب الكبيرة هو كلا القسمين.

والموحّد بعد أن آمن بخالق العالم، إذا أصبح يائساً من فرج الله ورحمته في أمر من الأمور البسيطة، وذلك أثر الغفلة، يكون قد اتصف في تلك الحال بصفة ذميمة من صفات الكفار، وقد قال في القرآن الكريم:

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[1] السورة ١٢ الآية ٨٧.

---

(١) في كتاب (عيون الرضا):

يقول عبد الله البزار النيشابوري: «كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة، فرحلت إليه في بعض الأيام فبلغه خبر قدومي. فاستحضرني للوقت وعلي ثياب السفر لم أغيرها، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر، فلما دخلت عليه رأيته في بيت يجري فيه الماء، فسلمت عليه وجلست، فأتى بطشت وإبريق فغسل يديه، ثم أمرني فغسلت يدي، وأحضرت المائدة، وذهب عني أني صائم، وأني في شهر رمضان، ثم ذكرت فأمسكت يدي فقال لي حميد: مالك لا تأكل؟

فقلت: أيها الأمير. هذا شهر رمضان، ولست بمريض ولا بي علة توجب الإفطار، ولعل الأمير له عذر في ذلك أو علة توجب الإفطار، فقال: ما بي علة توجب الإفطار وإني لصحيح البدن، ثم دمعت عيناه وبكى، فقلت له بعد ما فرغ من طعامه: ما يبكيك أيها الأمير؟ فقال: أنفذ إليّ هارون الرشيد حين كان بطوس في بعض الليل أن أجب، فلما دخلت عليه رأيت بين يديه شمعة تتقد وسيفاً أخضر مسلولاً، وبين يديه خادم واقف. فلما قمت بين يديه رفع رأسه إليّ فقال: كيف طاعتك للأمير؟ فقلت: بالنفس والمال. فأطرق، ثم أذن لي في الانصراف. فلم ألبث في منزلي حتى عاد الرسول إلي وقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: إنّا لله، أخاف أن يكون قد عزم على قتلي وأنه لما رآني استحى مني، قعدت بين يديه فرفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت بالنفس والمال والأهل والولد، فتبسم ضاحكاً، ثم أذن لي في الانصراف، فلما دخلت منزلي لم ألبث أن عاد إلي الرسول، فقال: أجب أمير المؤمنين، فصرت بين يديه وهو على حاله، فرفع رأسه إليّ وقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟ فقلت بالنفس والمال والأهل والولد والدين. فضحك، ثم قال لي خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به الخادم.

قال: فتناول الخادم السيف وناولنيه، وجاء بي إلى بيت بابه مغلق، ففتحه فإذا فيه بئر=

الفطرة مبنية على الأمل:

وما دام الشخص ثابت القدم على الفطرة، ولم تتكدر بصيرة قلبه فإنه لا ييأس من الله، وما دام نور الإيمان مضيئاً في قلبه فإنه بشكل كلّي لا يقطع الأمل من مبدئه، ويجب أن يكون مؤملاً به، وإذا عرض له اليأس غفلة فسرعان ما يندم بعد الالتفات والانتباه ويطلب العفو، ويعود مطمئن القلب

= وفي وسطه ثلاثة بيوت أبوابها مغلقة، ففتح باب بيت منها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والذوائب، شيوخ وكهول وشباب مقيدون، فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، وكانوا كلهم علويّة من ولد علي وفاطمة عليهما السلام، فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه حتى أتيت على آخرهم، ثم رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر، ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلوية من ولد علي وفاطمة عليهما السلام مقيدون، فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر حتى أتيت إلى آخرهم، ثم فتح باب البيت الثالث فإذا فيه عشرون نفساً من ولد علي وفاطمة عليهما السلام مقيدون، عليهم الشعور والذوائب، فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء أيضاً، فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر حتى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم، وبقي شيخ منهم عليه شعر فقال لي:

تباً لك يا ميشوم: أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدنا رسول الله (ص) وقد قتلت من أولاده ستين نفساً قد ولدهم علي وفاطمة، عليهما السلام؟ فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي فنظر إلي الخادم مغضباً وزبرني، فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته ورمى به في تلك البئر؛ فإذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله (ص)، فما ينفعني صومي وصلاتي؟ وأنا لا أشك أني مخلد في النار ص ١٠٩ ـ ١١١.

وقد روي أن الإمام علي بن موسى الرضا (ع) بعد أن ورد خرسان دخل عليه عبد الله النيشابوري وقص له قصة هذا اللعين ويأسه من رب العالمين فقال (ع):

«إن يأسه من رحمة الله أكبر ذنباً من قتله ستين علوياً»(*)

أجل، لئن لم ينقطع عن الله ـ بعد قتله السادة الأبرياء، وبعد ارتكابه تلك الذنوب الكبيرة ـ ولئن ندم على أعماله وأخلص التوبة، ولاذ برحمة الله لقبل الله الكريم توبته. كما قبل توبة وحشي قاتل حمزة سيد الشهداء عمّ النبي (ص)، مع أنه آلم قلب رسول الله (ص) حين مثل بجثمان ذلك العظيم (حمزة)، إلا أنه صلى الله عليه وآله قبل توبته.

وسوف نذكر قريباً إن شاء الله تعالى شواهد أخرى على اتساع باب التوبة.

(*) الرواية ليست نصاً.

بربه، وسوف يعفو الله الكريم الرحيم عنه، ويصلح عمله.

علاج اليأس

الأول: علاج اليأس في الأمور المادية الدنيوية:

١ - قدرة الله:

أن يفكر بأن قضاء حوائج جميع الخلق لا شيء أمام قدرة الخالق اللامتناهية، الله القادر الذي يدير الكرة الأرضية بسعتها، وسائر الكرات السماوية مع عظمتها، وبنظم معين، وفي كل واحدة منها يوجد من آثار العظمة والقدرة ما يحير العقول، هل هو عاجز عن تحقيق حاجة جزئية لعبده؟

٢ - التجارب الشخصية:

أن يتفكر في معاملة الله معه، الله القادر الذي حفظ الشخص في ظلمات ثلاث (المشيمة، والرحم، وبطن الأم) وأخرجه إلى هذا العالم، ولم يغفل لحظة واحدة عن حاله، وفي كل وقت، يهيئ له كل ما يلزم من دون سؤال منه، وكم خطرٍ أنجانا منه، وكم مرضٍ عافانا منه، وكم مشكلة يسّرها لنا، هل أصبح بعد ذلك عاجزاً أم بخيلاً أم جاهلاً بحالنا؟ أستغفر الله العظيم.

٣ - النماذج الخارجية:

ليلاحظ حالات أولئك الذين ابتلوا بمثل بلائه، ولم ييأسوا من الرب الكريم، وحل الله تعالى مشكلتهم، وداوى ألمهم، وقضى حاجتهم، بل ما أكثر المبتلين الذين أغاثهم الله من دون أن يسألوا. فمثلاً إذا كان يائساً من الأولاد لأنه عقيم، أو لأنه كبير السن، فلينظر أولئك الأشخاص الذين رزقهم الله أولاداً وهم في سن الشيخوخة وأواخر العمر.

إبراهيم العجوز والولد:

إن إبراهيم (ع) عمره ١١٢ إلى ١٢٠ عاماً، وكان عمر زوجته ٩٠ أو ٩٩

عاماً، ولحد هذا السن لم يكن له ولد، ولكن الله تعالى أرسل الملائكة فبشروا إبراهيم: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ السورة ٥١ الآيات ٢٨ ـ ٣٠.

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ السورة ١١ الآية ٧٣.

زكريا وابنه يحيى:

وهكذا حضرة زكريا (ع) الذي كانت سنه على أشهر الروايات ٩٩ عاماً، وكان سن زوجته ٩٨ عاماً، وإلى حد هذا التاريخ لم يرزق منها ولداً، إلا أنه لم يكن يائساً من قدرة رب العالم ورحمته. فتوسل إليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً، فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ السورة ١٩ الآيات ٤ ـ ٦.

واستجاب الله دعاءه ووهبه يحيى بتفصيل نقلته كتب التواريخ.

* * *

أما إذا كان مبتلى بمرض، ويئس من الشفاء إثر طول المدة، وعدم العلاج فيجب أن يعلم:

أولاً: أن المرض كفارة الذنوب، وسبب الطهارة منها، وموجب لارتفاع درجته.

وثانياً: أن يتذكر حالات أولئك الذين يئسوا من الشفاء بعد طول المدة، ولكن عوفوا إثر الدعاء أو الصدقة. والالتجاء إلى الله[1].

---

(١) كثير من الأشخاص من هذا القبيل، وكنموذج على ذلك، ولأجل تنويع مطالب الكتاب نستعرض عدداً من تلك القصص.

في كتاب (الفرج بعد الشدة) ينقل عن لبيب العابد: «اتفق لي أني رأيت حية داخلة إلى جحرها فأمسكت ذنبها لأقتلها فانثنت علي فنهشت يدي فشلت، ومضى على ذلك زمن ـ

النبي أيوب وكثرة البلاء:

ومن أجل زيادة البصيرة يكفي أن يطالع الإنسان حالات حضرة أيوب.

بعد سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً من الابتلاء بالفقر والمرض قال: ربي «أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» واستجاب الله دعاءه، وعافى بدنه وأرجع له أمواله كما هو مذكور في القرآن المجيد.

الفقر أيضاً له حكمة:

إذا ابتلي بالفقر، ويئس إثر طول المدة وانسداد أبواب الفرج، فيجب أن

= طويل فشلّت يدي الأخرى بغير سبب أعرفه، ثم جفت رجلاي ثم عميت ثم خرست، فكنت على هذه الحال ملقى سنة كاملة، لم يبق لي جارحة صحيحة إلا سمعي أسمع به ما أكره وأنا طريح على ظهري، ولا أقدر على كلام، ولا إيماء، ولا حركة، أسقى وأنا ريان، وأطعم شبعان، وأترك وأنا جائع، فلما كان بعد سنة دخلت امرأة إلى زوجتي وقالت كيف أبو علي؟

فقالت لها زوجتي:

لا هو حي فيرجى، ولا ميت فيسلى.

فأقلقني ذلك وآلم قلبي ألماً شديداً، وضججت إلى الله عز وجل في سري بالدعاء، وكنت في جميع تلك العلل لا أجد ألماً في نفسي، فلما كان بقية ذلك اليوم ضرب على جسدي ضرب شديد كاد يتلفني، ولم أزل على تلك الحال إلى أن دخل الليل وانتصف، وخف الألم قليلاً فنمت، فما أحسست إلا وقد انتبهت وقت السحر وإحدى يدي على صدري، فتعجبت من ذلك في نفسي وقلت: كيف صارت يدي على صدري ومن رفعها إليه؟ وكانت طول هذه المدة مطروحة على فراشي لا ترفع إلا إن رفعها أحد لي، ثم دفع في قلبي تحريكها فتحركت، ففرحت فرحاً شديداً، وقوي طمعي في فضل الله عز وجل بالعافية، فحركت الأخرى فتحركت، فقبضت إحدى رجلي فانقبضت، فرددتها فرجعت، وفعلت مثل ذلك بالأخرى، ورمت الانقلاب من غير أن يقلبني احد،كماكان يفعل بي فانقلبت بنفسي فجلست، ورمت القيام فأمكنني فقمت، فنزلت من على السرير الذي كنت مطروحاً عليه، وكان في غرفة من الدار، فمشيت أتلمس الحائط من الظلمة لأنه لم يكن هناك سراج إلى أن وقفت على الباب، وأنا لا أطمع في بصري، فخرجت من البيت إلى صحن الدار فرأيت السماء والكواكب مزهرة، وكدت أموت فرحاً، وانطلق لساني وقلت «يا قديم الإحسان لك الحمد». ص ٣١٠ - ٣١٦.

يعلم أن فقره له حكمة ومصلحة بحيث لو علم بها لاختار الفقر، ورضي بهذا البلاء.

وثانياً: أن يتأمل في حالات أولئك الذين كانوا عند الصباح في غاية الفقر والمسكنة، أما حين أمسى المساء أصبحوا في منتهى الغنى والرفاه والراحة، وشواهد هذا الموضوع كثيرة.

الثروة بعد الفقر:

وكمثال على ذلك نذكر قصة عجيبة من كتاب (الفرج بعد الشدة) عن عبد الله بن محمد بن الحسن الصروري قال:

«حدثني أبي أن رجلاً حج وفي وسطه هميان فيه دنانير وجواهر، قيمة الجميع ثلاثة آلاف دينار، وكان الهميان في ديباج أسود، فلما كان ببعض الطريق نزل ليبول فانحل الهميان من وسطه فسقط، ولم يعلم بذلك إلا بعد أن سار عن الموضع فراسخ، فاتفق أن جاء رجل في أثره، فجلس يبول في مكانه، فرأى الهميان فأخذه، وكان عليه دين فحفظه، قال:

وكان الرجل من أهل بلدنا فأخبرني أنه لم يؤثر في قلبي ذهابه، لأني استخلفته عند الله تعالى، وكنت في طريق الله عز وجل، وكانت تجارتي عظيمة وأموالي كثيرة.

قال: فلما قضيت حجتي وعدت، تتابعت المحن علي، حتى لم أملك شيئاً، فهربت على وجهي من بلدي، فلما كان بعد سنين من فقري، وقد أفضيت إلى أن أتصدق على الطريق وزوجتي معي، وما أملك في تلك الليلة إلا دانقاً ونصفاً، وكانت الليلة مطيرة وقد أويت في بعض القرى إلى خان خراب، فضرب زوجتي الطلق فتحيرت، وولدت، فقالت يا هذا: الساعةَ تخرج روحي فاخرج وخذلي شيئاً أتقوى به. فخرجت أخبط في الظلمة والمطر حتى جئت إلى بقال:

قال: فدققت عليه فكلمني بعد جهد، فشرحت له حالي فرحمني

وأعطاني بتلك القطع حلبة وزيتاً وغلاهما، وأعارني غضارة جعلت ذلك فيها، وجئت أريد الموضع، فلما مشيت بعيداً وقربت من الخان زلقت رجلي وانكسرت الغضارة وذهب جميع ما فيها، فورد على قلبي أمر عظيم ما ورد عليّ مثله قط، فأقبلت أبكي وألطم وأصيح، فإذا برجل قد أخرج رأسه من شباك في داره فقال: ويلك مالك تبكي ما تدعنا أن ننام؟

فشرحت له القصة فقال: يا هذا! البكاء كله بسبب دانق ونصف؟! فداخلني من الغم أعظم من الغم الأول فقلت:

يا هذا! والله ما عندي قدر لما ذهب مني، ولكن بكائي رحمة لزوجتي ولنفسي مما قد وقعت إليه، فإن امرأتي تموت الآن وولدي جوعاً، ووالله العلي الأعلى ـ وحلفت أيماناً غليظة ـ لقد حججت في سنة كذا وكذا، وأنا أملك من المال شيئاً كثيراً فذهب مني هميان فيه دنانير وجواهر تساوي ثلاثة آلاف دينار فما فكرت فيه، وهو ذا تراني الساعة أبكي بسبب دانق ونصف فضة، فاسأل الله تعالى السلامة ولا تعايرني فتبلى بمثل بلواي، قال لي: بالله يا رجل، ما كان صفة هميانك؟

فأقبلت ألطم وقلت: ما ينفعني ما خاطبتني به وما تراه من جهدي وقيامي في المطر حتى تستهزئ بي أيضاً، وما ينفعني وينفعك من صفة همياني الذي ضاع منذ كذا وكذا سنة؟ قال: فإذا الرجل قد خرج وهو يصيح، فقال لي صف هميانك وقبض علي، فلم أجد للخلاص سبيلاً غير وصفه له فوصفته.

فقال لي: ادخل، فدخلت فقال: أين امرأتك؟ قلت في الخان الفلاني، قال: فأنفذ غلمانه فجاؤوا بها فأدخلت إلى حرمه، فأصلحوا شأنها وأطعموها كل ما تحتاج إليه، وجاءوني بجبة وقميص وعمامة وسراويل، وأدخلني الحمام سحراً، وطرحت ذلك علي فأصبحت في عيشة راضية، فقال: أقم عندي أياماً فأقمت عشرة أيام، فكان يعطيني في كل يوم عشرة دنانير وأنا متحير من عظم بره بعد شدة جفائه، فلما كان بعد ذلك قال لي: في أي شيء تتصرف؟

قلت: كنت تاجراً. قال: فلي غلات وأنا أعطيك رأس مال تتجر فيه وتشركني، فقلت: أفعل، فأخرج لي مائتي دينار فقال: خذها واتجر فيها ههنا، فقلت: هذا معاش قد أغناني الله يجب أن ألزمه فلزمه، فلما كان بعد شهور ربحنا فجئته وأخذت حقي وأعطيته حقه، فقال لي: اجلس، فجلست، فأخرج إليّ همياني بعينه وقال: أتعرف هذا؟ فحين رأيته شهقت وأغمي علي، فما أفقت إلا بعد ساعة، ثم قلت له:

يا هذا: أملك أنت أم نبي؟ فقال: أنا ممتحن بحفظه منذ كذا وكذا سنة، فلما سمعتك تلك الليلة تقول ما قلته، وطالبتك بالعلامة فأعطيتها، فأردت أن أعطيك للوقت همیانك فخفت أن تنشق مرارتك، فأعطيتك تلك الدنانير التي أوهمتك أنها هبة، وإنما أعطيتكها من همیانك. والدنانير المائتان قرض، فخذ همیانك واجعلني في حل، قال: فشكرته ودعوت له وأخذت الهميان وارتجع دنانيره ورجعت إلى بلدي، فبعت الجواهر، وضممت ثمنها إلى ما معي واتجرت، فما مضت إلا سنتان حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار وصلحت حالي، فأنا أعيش في فضل الله تعالى، وفي فضل تلك الدنانير إلى الآن» ص ٢١٣ ـ ٢١٠.

علاج اليأس عند المشكلات:

إذا ابتلي بحادثة صعبة من حوادث الأيام:

أولاً: يجب أن يعلم أن الحياة الدنيا مرتبطة بالحوادث والابتلاءات، ولا يوجد أحد بعيداً عنها.

ثانياً: أن ينظر في حالات أولئك الذين كان ابتلاؤهم أشد منه، من أجل أن يوفر لنفسه هدوءاً أكثر.

ثالثاً: مهما كان مقداراً ابتلائه ومشكلته فإنه لا ينبغي له أن ييأس من الرحمة الإلهية، فكم من الأشخاص الذين ابتلوا بحوادث الأيام العجيبة، بحيث لم يكن يتصور أن تتوفر لهم أسباب النجاة، إلا أن الله تعالى أنجاهم منها.

في كتاب (الفرج بعد الشدة) تأليف حسين بن سعيد الدهستاني نقل أكثر من خمسمائة قصة من موارد الفرج الإلهي، وهكذا كتب الروايات فهي مليئة بموارد الخلاص من الشدة إثر الدعاء والصدقة والتوسل بعظماء الدين[1].

---

(١) كمثل على ذلك ننقل عدة موارد من كتاب الخزائن للمرحوم النراقي:

(١)

كان شخص مديناً للشاه سليمان الصفوي بمبلغ خمسة آلاف تومان على أن يسلمها في الموعد المحدد، وبالفعل فقد هيّأ المبلغ في نفس الموعد، وسلم المبلغ واستلم بذلك وصل تسليم، إلا أن سند الدين الأول لم يكن موجوداً فعلاً ليسلم إليه.

بعد مدة مات مأمور الوصولات، وعين مكانه شخص آخر، وصادف أن هذا الشخص الثاني عثر على سند الدين وعرضه على الملك.

يقول المدين:

فطلبني الملك فقلت: قد دفعت الدين واستلمت به وصلاً، فقال: أحضر الوصل أو تدفع المبلغ.

ذهبت إلى منزلي، وبحثت عن الوصل مدة أسبوع فلم أعثر على أثر، وطلبت مهلة أسبوع آخر للبحث عنه، وتفحصته في كل مكان احتمله فيه حتى منزل جيراني فلم أجد له أثراً، وفي الأسبوع الثالث عين علي جباة غلاط أشداء ليأخذوا مني المبلغ المطلوب أو يقتلوني، ولم يكن باستطاعتي دفع المبلغ بأي وجه، فأخرجني المأمورون من منزلي ليعذبوني أو أهلك، وفي الطريق توسلت بالخمسة الأطهار عليهم السلام، وكنت معتاداً على استعمال الأفيون، ولم يكن في ذلك اليوم ميسراً لي، فذهبت إلى دكان عطار وطلبت منه قدراً من معجون الأفيون، فأعطاني قليلاً منه على قطعة ورق، وفي الطريق أكلت المعجون ورميت قطعة الورق فلصقت في سروالي، حركتها مرتين وثلاثاً فلم تسقط، وأخيراً فصلتها عن سروالي وأردت أن أرميها ولكن التفت إلى ختم فيها، تأملت فإذا هي نفس ورقة الوصل الذي يطالبوني به، فقفزت من فرحتي وسجدت لله شكراً وسلمتها ونجوت منهم.

(٢)

سنة ١٢٢٩ في كاشان، كان أحد جباة الدولة يطالب سيداً فقيراً بالديون التي عليه، ويشدد عليه الطلب كلما طلب السيد منه مهلة، وشرح له عجزه وفقره، وأخيراً لم يجد بداً أن يقول له: أي رجل، استح من جدّي رسول الله (ص).

فقال له ذلك الملعون: إذا كان جدك يستطيع أن يفعل شيئاً، أو يدفع عنك شرّي. ثم أخذ على السيد شخصاً يضمنه بدفع مبلغ الدين غداً صباحاً عند طلوع الشمس، أو يضع=

الثاني: علاج اليأس في الأمور الأخروية المعنوية:

إذا أصبح إثر الـذنوب الكبيـرة يائسـاً، ومعتقداً أن تـوبته لا نفـع لها،

= القذارة في فمه قائلاً «وقل لجدك ليفعل ما يشاء». ولما صار الليل نام ذلك الرجل في سطح الدار، وفي منتصف الليل قام ليبول وجاء إلى حافة السطح، وحيث كان الليل مظلماً وضع قدمه على الميزاب فسقط مع الميزاب إلى أسفل، ومن حسن الصدف أنه كان تحت الميزاب بالوعة قذارة فسقط فيها، ولم ينتبه في الليل إلى ذلك، فلما أصبح الصباح رأوا أن القذارة غطته من رأسه إلى سرته، ولكثرة ما دخل منها إلى جوفه تورمت بطنه ومات.

(٣)

في نفس هذا الكتاب ينقل أحد عظماء المدينة المنورة، أنه في وقت ما عملت بي الأيام عملها، وأصبحت فقيراً بعد أن كنت صاحب مال وثروة، جئت إلى الإمام الصادق (ع) فرق لحالي وقرأ هذا الأبيات:

فلا تجزع وإن أعسرت يوماً	فقد أيسرت في الدهر الطويل
فإن العسر يتبعه يسار	وقول الله أصدق كل قيل
فلا تيأس فإن اليأس كفر	لعل الله يغني عن قليل
فلا تظنَّنْ بربك ظن سوء	فإن الله أوفى بالجميل
فلو أن العقول تسوق رزقاً	لكان المال عند ذوي العقول
توقع صنع ربك سوف يأتي	بما تهواه من فرج قريب
ولا تيأس إذا ما ناب خطب	فكم في الغيب من عجب عجيب

ولما سمعت هذه الأبيات من الإمام الصادق (ع) أدخل الله تعالى علي من السلوة والبهجة حتى ظننت أنني أغنى الناس، ولم تمض فترة حتى أنقذني الله من محنتي وفرج عني.

وقال آخر:

إذا اشتدت بك العسرى ففكر في «ألم نشرح»	فعسر بين يسرين إذا فكرته فافرح

ملاحظة:

في نفس الكتاب روي عن رسول الله (ص) أنه لأجل دفع الهم والغم يقرأ «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

وأيضاً روي عنه (ص) هذه الجملة «الله لا أشرك به شيئاً» وأدعية أخرى جدير أن يستفيد منها الإنسان حتى لا يضيع عند الشدائد.

ويستبعد العفو عنه، فيجب حينئذ أن يعلم:

١ ـ إن اليأس أسوأ من كل ما صدر منه، ذلك أن اليأس الكلي شاهد على الاحتجاب والانقطاع عن الله، ودليل على أن الفطرة الأولية أصبحت مستورة، نعم، يمكن أن يعرضه اليأس بشكل مختصر أثر الغفلة، لكنه بعد التذكر يصبح آملاً، ومشغولاً بالتوبة والإنابة.

كل الذنوب قابلة للعفو:

٢ ـ الأدلة العامة على قبول التوبة، والتي تواترت في القرآن والسنة، ليست قابلة للتخصيص والاستثناء، حتى قيل: إنه لا توجد ذنوب غير قابلة للعفو بعد التوبة.

وفي القرآن يصف الله تعالى نفسه بقبول التوبة، كما أن من أسمائه الشريفة (تواب) (غفار) (غافر الذنب) (قابل التوب).

وبشكل عام فقد دعا الله تعالى المذنبين للتوجه إليه، وأمرهم بالتوبة، ولأجل معالجة اليأس يكفي مراجعة مفاد الآية ٥٣ في سورة الزمر، وهي قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعَاً، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**.

اللطافة في الخطاب:

في هذه الآية الشريفة عدة إشارات لطيفة:

إحداها: قوله «يا عبادي» ولم يقل «يا أيها العصاة» وذلك يتضمن اللطافة في الخطاب.

والأخرى: قوله «أسرفوا» وهو أيضاً مشتمل على الرفق في الخطاب ولم يقل «أخطأوا».

اليأس حرام:

والثالث: أنه قال «لا تقنطوا» وهو صريح في الدلالة على النهي عن اليأس، وحرمته.

والرابع: أنه أكد ذلك بجملة «إن الله يغفر الذنوب جميعاً».

وعمم القول بغفران جميع الذنوب.

والخامس: أنه قال «جميعاً» ولم يخصص ذلك بالبعض.

والسادس: أنه أكد ذلك مرة ثانية بجملة «إنه هو الغفور الرحيم» (تفسير منهج الصادقين).

تقبل التوبة حتى من قاتل النبي:

عن جابر أنه قال: جاءت امرأة إلى النبي (ص) فقالت: يا نبي الله إن امرأة قتلت ولدها بيدها، هل لها من توبة؟

فقال لها: والذي نفسي بيده لو أنها قتلت سبعين نبياً ثم تابت وندمت، ويعرف الله من قبلها أنها لا ترجع إلى المعصية أبداً لقبل الله توبتها وعفا عنها، فإن باب التوبة مفتوح ما بين المشرق والمغرب وإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له (لآلىء الأخبار باب ٣ ص ٢٣).

اليأس من استجابة الدعاء غلط:

إذا أصبح يائساً وفقد الأمل بتحقيق مقصوده إثر طلبه لحاجة من الحوائج الشرعية، ومطلب من المطالب الأخروية،ورجائه من الله تحقيقها ثم لم تتحقق له، فيجب أن يعلم:

أولاً: أن الوعد الإلهي حق، ولا يتخلف، وبشكل عام أمر تعالى بالدعاء ووعد بالإجابة، ففي القرآن الكريم يقول: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي**﴾ السورة ٢ الآية ١٨٦.

وفي موضع آخر يقول: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ السورة ٤٠ الآية ٦٠.

ثانياً: إن التأخير في الإجابة هو نتيجة وجود حكمة كما أشير إلى بعضها.

الذنب مانع عن استجابة الدعاء:

أحياناً يحجب الدعاء نتيجة الذنوب التي ارتكبها، والدليل على أن تأخير إجابة الدعاء لطف هو التوفيق بالاستمرار في الدعاء، ونفس ذلك نعمة.

وذلك أكبر شاهد على أنه مورد العناية أولاً، وقضاء حاجته ثانياً، ولولا ذلك لم يكن يوفق للاستمرار في الدعاء.

تأخير الاستجابة موجب للقرب:

أحياناً بسبب التأخير في الإجابة يحصل العبد على خيرات كثيرة، ذلك أن الدعاء هو من أكبر العبادات، والاستمرار عليه موجب لزيادة قرب العبد من ربه.

ولذا فإن ذوي العناية واللطف الإلهي، تتأخر استجابة دعائهم أكثر.

يقول العلامة المجلسي في حياة القلوب:

«روي بسند صحيح عن الإمام محمد الباقر (ع) أن إبراهيم الخليل كان يدور في الصحاري والمدن ليعتبر بمخلوقات الله، ويوماً ما رأى شخصاً مشغولاً بالصلاة، مرتفعاً صوته إلى السماء وسرواله من الشعر.

تعجب إبراهيم (ع) من صلاته، وجلس قريباً منه حتى فرغ من صلاته، فقال له إبراهيم: لقد أعجبني عملك، وأحببت أن أكون رفيقاً لك، أخبرني عن منزلك لآتيك متى أحببت.

فقال: إنك لا تستطيع أن تأتي إلى منزلي، لأنه وسط بحر لا تستطيع عبوره.

فقال إبراهيم: وكيف تعبر أنت؟

فقال: إنني أمشي على الماء.

قال إبراهيم: الله الذي مكنك من عبور الماء يستطيع أن يسخره لي، قم

لنذهب ونكون معاً هذه الليلة. فلما وصلا إلى الماء قال ذلك الرجل: بسم الله وعبر على الماء، وقال إبراهيم (ع) بسم الله وعبر على الماء، فتعجب ذلك الرجل حتى وصلا إلى المنزل.

فسأله إبراهيم (ع): أي يوم هو أصعب الأيام؟

فقال العابد: يوم يجازي الله عباده على أعمالهم.

فقال إبراهيم (ع): تعال ندعو حتى يحفظنا الله من شر ذلك اليوم، وفي رواية أخرى: (تعال ندعو لذنوب المؤمنين).

فقال العابد: لا أدعو، لأني سألت الله حاجة ثلاث سنوات فلم يقضهالي، ولا أسال الله حاجة بعدها ما لم يقضهالي.

فقال إبراهيم (ع):

متى أحب الله عبده حبس دعاءه، ليناجيه، ويطلب منه، ومتى عرف الله عداوة العبد استجاب دعاءه سريعاً، أو قذف في قلبه اليأس حتى لا يدعوه.

ثم سأل العابد: ما كانت حاجتك؟

فقال: يوماً في المكان الذي كنت أصلي فيه رأيت طفلاً في غاية الحسن والجمال، حتى ليسطع النور من جبينه، يرعى بضعة أبقار، ومعه بضعة أغنام. فسألته: من أين هذه الأغنام؟

فقال: مني.

قلت: من أنت؟

فقال إسماعيل بن إبراهيم خليل الله.

فدعوت، وسألت الله تعالى أن يريني خليله إبراهيم، فقال إبراهيم: قد أجيب دعاؤك. أنا إبراهيم. ففرح العابد، ووضع يده في عنق إبراهيم وقبله، وشكر الله. ثم دعيا معاً للمؤمنين والمؤمنات».

(٣)ـــــــــــــالقنوط من رحمة الله

الثالث من الكبائر القنوط من رحمة الله. ففي حديث عن الإمام الرضا (ع) في تعداد الذنوب الكبيرة، ذكر (ع) القنوط بعد اليأس. والقنوط هو انعدام الأمل بالرحمة الإلهية، ذلك الانعدام الراسخ في القلب، والذي لا يشعر معه بقبح القنوط.

وفي مقام بيان الفرق بين اليأس والقنوط هكذا قالوا: إن القنوط أخص، ذلك أن اليأس هو مجرد انعدام الأمل في القلب، ومتى ما وصل ذلك إلى درجة شديدة بنحو ينعكس على مظهر الإنسان، حتى لتكون دلالة المظهر على انعِدام الأمل أكبر من دلالة الكلمات، بحيث لو أن شخصاً فطناً لاقاه لأدرك من مظهره حالة اليأس وانعدام الأمل.

هذا المستوى من انعدام الأمل هو الذي يسمى بـ (القنوط). إذن فالقانط هو ذلك الذي تظهر عليه آثار اليأس بنحو أوضح من الكلمات.

اليأس فقدان الأمل بالدعاء:

قال البعض: اليأس هو عبارة عن فقدان الأمل بالدعاء. فلا أمل له بالوصول إلى هدفه مع الدعاء.

والقنوط هو عبارة عن سوء الظن برب العالمين، أن الله لا يرحمه، ولا يقبل توبته وسوف يعذبه، وأن ما نزل عليه من المصائب هو عقوبة منه تعالى. يؤيد هذا المعنى فقرات من الدعاء التاسع والثلاثين في الصحيفة السجادية حيث يقول «لا أن يكون يأسه قنوطاً» يعني أن لا يكون انعدام أملي من النجاة ناشئاً من سوء الظن بك، وإنما من قلة الحسنات وزيادة السيئات، وإلا فأنت أهل لأن لا ييأس منك أحد من المذنبين.

لا شك أن سوء الظن برب العالمين هو من كبائر الذنوب ومن صفات المشركين والمنافقين، كما جاء في سورة الفتح ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾.

سوء الظن سبب للعقوبة:

قال رسول الله (ص)، وهو على المنبر: «والله الذي لا إله إلا هو، ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخره إلا بحسن ظنه بالله ورجائه‌له،وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين».

والذي لا إله إلا هو،لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه وتقصيره من رجائه،وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين. والذي لا إله إلاهو،لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان عند ظنه، لأن الله كريم يستحي أن يكون عبد مؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه» (أصول الكافي).

الأمل بالعفو وإجابة الدعاء:

معنى حسن الظن ـ برب العالمين ـ أن يأمل بأنه إذا استغفر من الذنب فإن الله سيعفو عنه، وإذا دعاه أجاب دعاءه، وإذا عمل خيراً أمل أن يقبله منه، ويعطيه ثوابه.

أما الظن بالمغفرة فإنه نافع على كل حال، بل هو لازم، ولكن الأمل بالثواب الإلهي بدون الإقدام على أعمال الخير جهل وغرور.

فقدان الأمل بالأمر الدنيوي والأخروي:

ذكر بعض في مقام بيان الفرق بين اليأس والقنوط، أن القنوط مرتبط بالرحمات الدنيوية، كما في الآية الشريفة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ السورة ٤٢ الآية ٢٨.

واليأس مرتبط بالرحمات الأخروية كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ﴾.

لكن الوجه الأول في الفرق هو الأقرب.

القنوط أسوأ من اليأس:

القنوط من الرحمة الإلهية علامة زوال الاستعداد لسعادة العبد، والسقوط عن الفطرة الأولية بسبب الانقطاع عن الله، إذ لو بقي لدى العبد شيء من نور الفطرة لبقي أثره وهو الأمل بالله تعالى، مهما بلغ من الإسراف والتفريط، أما اليأس فإنه دليل على أنه محجوب عن الله، وذلك غير السقوط والانقطاع، والحجاب قابل للإزالة.

بناء على ذلك فإن اليأس قابل للمغفرة،ولكن القنوط غير قابل لها وداخل في عنوان الشرك، إذن فالقنوط هو أعظم المصائب[1].

* * *

(١) نقلاً عن تفسير روح البيان وقد ترجمناه من الأصل الفارسي.

(٤) ــــــــــــــ الأمن من مكر الله

الرابع من الذنوب الكبيرة الأمن من المكر الإلهي، بأن يأمن الإنسان من انتقام الله الخفي وقهره، ويجهل سرعة الانتقام المفاجئ، وليس في قلبه خوف من العذاب الذي يستحقه بارتكاب الذنوب.

في الحديث عن الإمام الصادق، والإمام الكاظم، والإمام الرضا، والإمام الجواد عليهم السلام، في بيان الذنوب الكبيرة، عدّ الأمن من المكر الإلهي من جملة تلك الذنوب، كما هو في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائمُونَ﴾**. وقال تعالى: **﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾**. وقال تعالى: **﴿أَفَامِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾**. السورة ٧ الآيات ٩٧ - ٩٨ - ٩٩.

ما معنى مكر الله؟

مكر الله عبارة عن نوع من العقوبة والانتقام والمجازاة في مقابل العمل المنهي عنه، الصادر من العبد، وهي عقوبة خفية يقهر عليها العبد ولا يشعر بها، مثل (الإملاء) يعني إعطاء المهلة للكفار والفجار في الدنيا، والذي يؤدي بالنتيجة وبسوء الاختيار إلى الطغيان وازدياد العصيان واستحقاق عقوبة أكثر.

إذن فطول عمر الكافر والفاجر ووصوله إلى مراده ومقصوده من أنواع الفسق والفجور، مهما كان بحسب الظاهر موجباً للمسرة، إلا أنه في الحقيقة نوع من القهر والانتقام الإلهي، وهو ما يعبر عنه بالمكر، ذلك أن طول العمر هذا، والوصول إلى الآمال هو في الحقيقة شر، وبضرره يتم. إذ أنه يوجب زيادة العذاب.

إمهال المسيئين هو بضررهم:

وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾ السورة ٣ الآية ١٧٨.

وروي عن الإمام الرضا (ع): «والله ما عذبهم الله بشيء أشد من الإملاء» سفينة البحار ٢ ص ٥٥١.

وعن الإمام السجاد (ع) قوله: «وعمِّرني ما كان عمري بذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك». دعاء مكارم الأخلاق.

الاستدراج مكر أيضاً:

والاستدراج من أقسام المكر الإلهي، يعني أن بعض العباد الذين استحقوا نتيجة الطغيان والعصيان غضب الله وقهره، كلما عصوا الله معصية جديدة كلما أنعم الله عليهم نعمة جديدة، وبدل أن يندموا على ما صدر منهم من الذنب، ويخجلوا ويتوبوا، ويشكروا نعمة الله، إذا هم ينسون ذنبهم، بل يزدادوا في معصيته تعالى.

البلاء للمؤمنين نعمة:

كما روي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة، ويذكِّره الاستغفار، وإذا أراد الله بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به، وهو قوله تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾. (سفينة البحارج ١ ص ٤٤٢).

ترك الاستغفار استدراج:

وأيضاً روي عن الإمام الصادق (ع) أنه سئل عن الاستدراج فقال: «هو العبد يذنب الذنب فيملي له ويجدد له عندها النعم فيلهيه عن الاستغفار فهو مستدرج من حيث لا يعلم». وسائل الشيعة ـ كتاب الجهاد ـ باب ٨٨.

وروي عن أمير المؤمنين (ع): «إنه من وسع له في ذات يده فلم ير ذلك إدراجاً فقد أمن مخوفاً» (بحار الأنوار ـ المجلد ١٥ ص ١٦٢).

بماذا يكون الأمن من مكر الله:

كما أن الله تعالى ذو صفات جمالية لطيفة، فهو غفور، حليم، شكور، كريم، كذلك هو ذو صفات جلالية قاهرة، فهو منتقم، ومذل، ومتكبر، وشديد العقاب كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾ السورة ١٥ الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ، وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ العِقَابِ﴾ السورة ٤٠ الآية ٣.

والخلاصة: كما أنه تعالى أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، هو أشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

الخوف والرجاء لازم المعرفة:

من عرف الله بصفاته الكمالية يلزم أن يقوى رجاؤه وأمله بربه، بحيث يثق أنه لو تاب لقبل الله توبته، ولو أطاع لقبل الله طاعته وجزاه جزاءً حسناً، ولو دعاه أجابه لأنه غفور شكور، مجيب الدعوات.

كما أن لازم معرفة صفاته القهرية شدة الخوف، بأن يخاف لو أذنب الوقوع في العذاب، أو تعجيل الانتقام قبل أن يوفق للتوبة.

يجب أن يخاف من ارتكاب الذنب:

وفي أي وقت قصد ارتكاب الذنب يجب أن يخشى كون ذلك الذنب من الذنوب التي تجعله بعيداً عن رحمة الله، كما ورد عن الإمام الصادق (ع). «من همّ بسيئة فلايعملها،فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الربفيقول: وعزتي وجلالي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً». (أصول الكافي).

وبما أن كل ذنب يمكن أن يكون من هذا القسم؛ إذن يجب الخوف من الإقدام على أي واحد منها.

في بعض الروايات عن الإمام الصادق (ع): «اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر».

قلت: وما المحقرات؟

قال (ع): «الرجل يذنب الذنب فيقول طوبى لي أن لم يكن لي غير ذلك». (أصول الكافي).

يجب أن يكون دائماً بين الخوف والرجاء:

وإذا وفق للتوبة بعد الذنب فإنه يجب أن يبقى خائفاً، فلعل توبته لم تتوفر فيها شرائط القبول، أو لعله لا يستطيع أن يفي بعهده إلى آخر عمره ويكسر توبته.

يجب أن يبقى إلى الأخير بين الخوف والرجاء، كما أنه متى ما صدرت منه طاعة يجب أن يكون مؤملاً للقبول، وخائفاً في عين الوقت أن يعامله الله بعدله ويطالبه بحقيقة العبودية.

الخوف عند تحقق الحاجة:

إذا دعا ولم يستجب دعاؤه فيجب أن يخاف من أن تكون ذنوبه هي التي منعت من الاستجابة، وإذا استجيب دعاؤه يجب أن يخاف من أن يكون صوته مبغوضاً ولأجل ذلك أعطي حاجته بسرعة وأبعد عن باب الله، وفي الحقيقة أن هذه الاستجابة مكر به.

ألم الفراق أصعب:

إذا فتحت على الإنسان باب من أبواب المعرفة فيجب أن يحذر الاعتقاد بأن ذلك اعتماداً على فهمه، وبكسبه الشخصي، وينسى اللطف الإلهي في مقام شكره جل جلاله، ويقصر في ذلك، الأمر الذي يؤدي إلى حرمانه من فضل الله، وابتلائه بالخذلان الإلهي، والحجاب عنه تعالى، الذي هو عند أهل المعرفة أشد عذاب.

كما يقول أمير المؤمنين (ع): «وهبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك».

ماذا يكون إلى آخر العمر؟

وأيضاً يجب أن يكون خائفاً من خاتمة العمر، لأن ميزان السعادة والشقاء آخـر العمـل، فكم من الأشخـاص كـانـوا في تمـام عمـرهم ـ بحسب الظاهر ـ من أهل الخير والسعادة، لكنهم ماتوا على الشقاء!

الكل يمتحنون؟

وأيضاً يجب أن يكون خائفاً من عروض الامتحانـات الإلهية الشـديدة، ذلك أن كل أهل الإيمان وفي أية مرتبة كانوا هم في معرض هذا الخطر، كما في قوله تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ**﴾. السورة ٢٩ الآية ٢.

حضرة إبراهيم والنار:

حين وضعوا إبراهيم في المنجنيق وأرادوا إلقاءه في النار قـال: «حَسْبِيَ اللهُ».

وأراد الله تعالى أن يمتحنه في هذا الادعاء الكبير، فأرسل جبرائيل قائلاً له: يا إبراهيم إن كان لك حاجة قل حتى أحضرها، فقال له: أما إليك فلا.

فقال له جبرائيل: اطلب مما أنت فيه؟

فقال: مع علمه بحالي لا أحتاج إلى قول[1].

أثبت نجاحاً في الامتحان:

ما أعظم الشخص الذي هو في غاية الاحتياج، ومع ذلك لم يعتن حتى بجبرائيل، وخرج من دائرة الامتحان.

من هذه الجهة قال الله تعالى: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ أي الذي وفى بقوله.

---

(١) معراج السعادة.النراقي.

إذن العبد المؤمن لا ينبغي أن يغفل في كل الأحوال عن الامتحان والاختبار الإلهي، ولا ينسى عذابه ومؤاخذته، كما أن الأنبياء والملائكة لم يكونوا في أمان.

وأيضاً يجب أن يخاف من طروء الفتن والشدائد والأمور المشتبهة في أوقات الغفلة عن ذكر الحق، لئلا يخرج عن رضى الله تعالى ويقع في خطر عظيم، كما يقول الإمام السجاد (ع) في أول دعاء أبي حمزة الثمالي. «ولا تمكر بي في حيلتك».

قلة الإيمان وزيادة الغفلة:

نعرف مما تقدم أن كل أحد، وفي أي مقام كان، يجب أن يكون خائفاً من المكر والقهر والعذاب الإلهي، ذلك أن عدم الخوف من المكر والعذاب الإلهي ينشأ إما من عدم الإيمان بالله وبيوم الجزاء، كما هو حال الكفار، أو لضعف الإيمان وكثرة الغفلة، والغرور بآيات الرحمة، كما هو حال الفجار وأهل المعاصي من المؤمنين.

أو من الجهل بعظمة الله وغناه، والعجب في العمل، والاتكاء عليه، كما في اطمئنان بعض أهل الطاعة والعبادة، حيث اطمأنوا إلى عملهم جهلاً منهم بعظمة الله وغناه، وعجزهم وحقارتهم، غافلين عن أن كثيراً من الأعمال هي عند صاحبها عظيمة، ولكن عند الله ليس لها مقدار وزن ذرة، لعدم توفر شرائط القبول فيها.

وحتى على فرض القبول يجب أن يخاف من أن يعامله الله تعالى على أساس عدله، لا بمقتضى فضله اللامتناهي.

الحسنات بتوفيق الله:

وأيضاً غافلاً عن أن عمل الخير لا يصدر منه إلا بتوفيق الله وعنايته، ولعله سوف لا يوفقه بعد ئذ لعدم شكره، بل لعله يخذله فتصدر منه الذنوب المحرمات، مما يسبب ضياع الأعمال السابقة.

العارفون يخافون الله:

والخلاصة أن كل من كان أكثر معرفة بعزة الله وعظمته وغناه، وفي المقابل حقارته هو وذلته واحتياجه، يكون أكثر خوفاً من الله.

كما يقول تعالى في القرآن المجيد: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ السورة ٣٥ الآية ٢٨.

وعن رسول الله (ص) روي قوله: «رأس الحكمة مخافة الله» (وسائل الشيعة ـ كتاب الجهاد).

حديث الرسول مع أم سلمة:

عن الإمام الصادق (ع): «كان رسول الله (ص) في بيت أم سلمة في ليلتها، ففقدته من الفراش، فدخلها في ذلك ما يدخل النساء، فقامت تطلبه في جوانب البيت، حتى انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائم رافع يديه يبكي وهو يقول: «اللهم لا تنزع مني صالح ما أعطيتني أبداً، اللهم لا تشمت بي عدواً ولا حاسداً أبداً، اللهم ولا تردني في سوء استنقذتني منه أبداً، اللهم ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً».

قال: فانصرفت أم سلمة تبكي حتى انصرف رسول الله (ص) لبكائها فقال لها: ما يبكيك يا أم سلمة؟

فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ولم لا أبكي وأنت بالمكان الذي أنت به من الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، تسأله أن لا يشمت بك عدواً أبداً، وأن لا يردك في سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينزع منك صالحاً أعطاك أبداً، وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً؟

فقال: يا أم سلمة، وما يؤمنني؟ وإنما وكل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين وكان منه ما كان». (بحار الأنوار ـ باب مكارم الأخلاق).

الأنبياء والأئمة أخوف الناس وأتقاهم:

وفي القرآن المجيد يقول في وصف الأنبياء: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

ويقول في شأن أهل بيت العصمة والطهارة: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾. وتفصيل الحديث في خوف كل واحد من الأنبياء وأئمة الهدى، خصوصاً الغشية التي كانت تعتري أمير المؤمنين (ع) من إدراك عظمة الله تعالى، وهكذا بكاء الإمام السجاد وحنينه في الصحيفة السجادية يوجب إطالة الكلام، والخروج عن وضع هذا الكتاب، لذا نكتفي بهذا المقدار.

المؤمن بين الرجاء والخوف:

يستفاد من عديد من الروايات أن المؤمن يجب أن يكون دائماً بين الخوف والرجاء، يعني يخاف من عذاب الله، ويأمل فضله ورحمته.

يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. السورة ٣ الآية ١٧٥.

وهذا الخوف لازم لكل مسلم حتى يتقي عذاب الله ويعتصم من الذنوب.

ويقول في القرآن الكريم خطاباً لرسول الله (ص).

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. السورة ٦ الآية ١٥.

لا يكن الأمل سبباً للغرور:

وأيضاً يجب أن يأمل بلطف الله وكرمه، ذلك الأمل الذي يدعوه، في سورة فاطر يقول تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ﴾.

وفي سورة الحديد يقول في خطابه للمشركين: ﴿وَغَرَّكم باللهِ الغَرورُ﴾

وفي تفسير (المنهج) ذكر أن الشيطان يخدعكم بقوله إن الله كريم حليم لا يعذبكم.

روي عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران، نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا. (أصول الكافي).

الرجاء والخوف يظهران في العمل:

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق (ع): «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو». (أصول الكافي).

بل من الجدير أن يبلغ الخوف والرجاء عند المؤمن حد الكمال والقوة، كما روي عن الإمام الصادق (ع) أن لقمان الحكيم قال في وصيته لولده: «خَفِ الله خيفة لوجئته ببر الثقلين لعذبك، وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك». (أصول الكافي).

موعظة:

وهنا ليرجع هذا الكاتب والقارئ إلى نفسه، ويعود للتأمل في ذاته.

هل يوجد فينا أثر للخوف الصادق والرجاء الحقيقي، أم لا يوجد سوى الادعاء؟

إذا كنا صادقين في خوفنا من عذاب الله إذن أين فرارنا من الذنوب؟

وأين ذهب أنيننا واضطرا بنا؟

وإذا كان صدقاً أننا نأمل رحمة الله فأين سعينا في تحصيل أسباب المغفرة؟

أين ميلنا ورغبتنا في أنواع الطاعات والعبادات؟

نعم، لدنيا خوف صادق ورجاء حقيقي، إلا أنه في الأمور الدنيوية، كما لو داهمنا مكروه دنيوي، وإزعاج طبيعي، كيف نقلق ونضطرب؟ ونكون دائماً في صدد دفعه؟ مثل خوف الفقر والمرض وغلبة العدو وغير ذلك، ولا نخلد إلى الراحة حتى نأمن منه، كما هو في حالة انتظارنا لمطلوب دنيوي ومطلوب طبيعي، كيف نسعى جهد الإمكان حتى نحصل عليه؟ هل لدينا واحد من مئة من هذا الحال في أمور الآخرة، بحيث لو بدر منا ذنب تراءى لنا العذاب الإلهي، وسلب منا الراحة والاستقرار وأصبحنا في حالة البكاء والأنين دائماً، حتى الساعة التي نسمع فيها نداء رحمة الله أن لا تخافوا ولا تحزنوا؟ طبعاً ذلك النداء يسمع في ساعة الاحتضار، إذن يجب أن تستمر فينا حالة الخوف إلى آخر العمر.

دائماً بين خوفين:

روي عن الإمام الصادق (ع) قوله: «إن المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك، فهو لا يصبح إلا خائفاً، ولا يمسي إلا خائفاً، ولا يصلحه إلا الخوف». (أصول الكافي).

هل لدينا واحد من مئة من السعي والجدية التي نعطيها لأمور الدنيا في عمل الآخرة، أم نقول في أمور الآخرة إن الله كريم، فهل أن الله غير كريم في أمور الدنيا؟؟

يجب أن نسعى للآخرة:

هذا مع أن القرآن المجيد صريح في أن الله تعالى يضمن رزق الحياة الدنيا، أما أمر الآخرة فإنه مربوط بسعي العباد وعملهم، كما يقول تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ السورة ٥٣ الآيتان ٣٩ ـ ٤٠.

يجب أن ينعكس الادعاء على العمل:

يقول أمير المؤمنين (ع) في خطبة في نهج البلاغة: «يدّعي بزعمه أنه يرجو الله، كذب والعظيم ماله لا يُتبين رجاؤه في عمله»؟ (نهج البلاغة).

أجل، إن أثر الخوف والرجاء يظهر على العمل، كما قال الإمام الصادق (ع): «دليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب». (بحار الأنوار).

إذن من لا يهرب من الذنب يعرف أن لا خوف لديه، ومن لا جدّية له في السعي نحو تحصيل أسباب المغفرة يعرف أنه لا رجاء له بالرحمة الإلهية، والكلام الذي يردده بأن (الله كريم) هو كلام يجريه الشيطان على لسانه ويجعله مغروراً.

خف الله كأنك تراه:

يقول الإمام الصادق (ع): «خف الله حتى كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين». (أصول الكافي).

إذ لو كان يراك أحد في حال المعصية لاستحييت وتركتها، أما من الله فإنه لا حياء لك[1].

نموذج كامل للخوف والرجاء:

ومن أجل أن يتضح لنا مدى خراب حالنا لندقق قليلاً في حالات أمير المؤمنين (ع)، الذي هو ميزان الأعمال، «السلام عليك يا ميزان الأعمال». ولإعطاء مثل نموذجي نشير إلى خوفه (ع) ورجائه ونختم المطلب.

فمع أن عباداته (ع) تعادل عمل الجن والإنس، بل إن عملاً واحداً من أعماله (ع) بنص خاتم الأنبياء (ص) أفضل من عبادة الثقلين[2] إلا أنه (ع)

(١) استشهد المصنف ببعض الأبيات الشعرية أعرضنا عن ترجمتها.

(٢) «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين». بحار الأنوار جـ ٩ ص ٣٤٧.

في أوقات توجهه للعظمة الإلهية وملاحظة نفسه وجميع شؤونه مرتبطاً بالله تعالى، وحين ينظر إلى تمام كمالاته، وأعماله الخيرة باعتبارها هبة المبدأ الفياض، ولا يرى شيئاً في نفسه سوى النقص والعجز، في هذه الحال أي أنين وغشية كانت تأخذه، كما ينقل أبو الدرداء عن مناجاته (ع): «إلهي لئن طال في عصيانك عمري فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك، إلهي أفكر في عفوك فتهون علي خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم علي بليتي».

يقول أبو الدرداء: ثم خمد صوت، دنوت منه، حركته فإذا هو كالخشبة اليابسة، فظننت أنه فارقت روحه الدنيا...

وكذلك خبر ضرار بن ضمرة حين قال له معاوية: صف لي علياً..

قال: والله لقد رأيته ليلة من الليالي وقد أسدل الظلام سدوله، وغارت نجومه، وهو يتململ في المحراب تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ولقد رأيته مسيلاً للدموع على خده، قابضاً على لحيته يخاطب دنياه فيقول:

«يا دنيا أبي تشوقت؟ ولي تعرضت؟ لا حان حينك، فقد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعيشك قصير، وخطرك يسير، آه من قلة الزاد، وبعد السفر ووحشة الطريق».

أمير المؤمنين (ع) المثل الصالح:

وبالنسبة إلى رجائه (ع) يعلم الجميع أنه من أول عمره وإلى آخر لحظة لم يكن فارغاً، دائماً كان مشغولاً بعبادة من العبادات، وطاعة من الطاعات، وفي بعض الأوقات يصلي في الليل والنهار ألف ركعة، وحتى آخر عمره الشريف لم يفته صوم شهر شعبان، ولم يترك التهجد في الليل في أي وقت، وحتى في ليلة الهرير في معركة صفين.

ثلاث ليالٍ متتالية أفطر على الماء، وأعطى خبزه للفقير واليتيم والمسكين، وباع نخله الذي غرسه بيده وأنفق ثمنه في سبيل الله، وفي كتاب

(بحار الأنوار) في باب صدقاته وأوقافه (ع) يذكر صورة وصيته (ع) ونحن ننقل بعض الفقرات منها لتأييد المطلب بالنسبة إلى خوف هذا العظيم ورجائه.

فقرات من وصية أمير المؤمنين (ع):

هذا ما أوصى به وقضى به في ماله عبد الله علي ابتغاء وجه الله ليولجني به الجنة، ويصرفني به عن النار، ويصرف النار عني، يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه، أن ما كان مني . . .».

ومع وجود هذه الأعمال الصالحة، حين يرجع من الحرب يرجع باكياً وهو يقول: أخشى أن لا أرزق الشهادة التي ليس فوقها سعادة[1] حتى بشّره رسول الله (ص) بالشهادة.

نقتدي بعلي (ع):

قد يقول البعض: أين نحن من مقام أمير المؤمنين (ع) ومعرفته ويقينه!؟

كيف نبلغ نحن البعيدين درجة أمير المؤمنين (ع) في خوفه من عذاب الله، ورجائه برحمته؟

نعم، إنه لكذلك، لكن الطفل الصغير الذي لم يعرف الأفعى، ولو كان لوحده لخدعه لونها، ونعومة جلدها، وأهلك نفسه بوضع يده في فمها، هذا الطفل لو كان مع أبيه ورأى أباه مضطرباً من رؤية الأفعي ومرتعشاً، وفارّاً منها بلا اختيار، قطعاً سيعرف هذا الطفل أنها خطر كبير، وقهراً سيضطرب ويبكي ويلوذ بالفرار.

فيا من لا خبر له بصعوبة العذاب الإلهي، وشدة الحاجة إلى رحمته، ألست تعرف بأن علياً هو الأب الروحي، والمقتدى الحقيقي لك، وأنت مرتبط ومتصل بولايته؟

---

(١) الترجمة بالمعنى.

لماذا لا تضطرب من قلق مولاك واضطرابه من ذكر القيامة وصعوبة عذاب الآخرة؟؟

لماذا من سعيه (ع) في تحصيل زاد السفر، لا تفكر بنفسك ولا تعمل بجد في الأعمال الصالحة، حتى لا ترد هذا في المحشر فقيراً مستجدياً؟؟

إعلان الخطر:

إذا أعلن رئيس القافلة بأن هناك مسافة فيما يأتي طويلة جداً، وخالية من الماء والعمران، ومليئة بالوحوش، ويجب على الجميع أن يحمل معه ما يستطيع من الماء والطعام، وأن يحذر ويراقب نفسه تماماً، ونهض رئيس القافلة نفسه بتمام الوحشة والاضطراب من المسافة الآتية، واشتغل مسرعاً بجمع الماء والزاد لنفسه، فما يصير حالك وأنت في هذه القافلة؟؟

أفلا تصير مشغولاً بجمع الزاد حين تراه مشغولاً بجمع الزاد؟

رئيس القافلة يخاف:

يا قافلة أهل الإيمان والتقوى! أمير قافلتكم ورئيسها علي بن أبي طالب (ع) كان خائفاً مضطرباً من صعوبة سفر الآخرة، وأعلن الخطر للجميع حين نادى ليلاً في مسجد الكوفة: أيها المسافرون:

«تجهّزوا يرحمكم الله فإن أمامكم عقبة كؤوداً، ومنازل مخوفة، لا بد من الورود عليها والوقوف بها». (نهج البلاغة).

ثم يقول: «آه، من قلة الزاد، وبعد السفر، وعظيم المورد». (نهج البلاغة).

أجل، إن كثرة المشاغل الدنيوية، والغرق في الشهوات الفانية النفسية هو الذي فصل بيننا وبين أئمتنا، وجعل ارتباطنا بهم ضعيفاً، وتأثرنا بحالاتهم الشريفة قليلاً، واستفادتنا من ملكاتهم الفاضلة وأخلاقهم الشريفة قليلاً، لاجعلنا الله من الخارجين عن ولايتهم، والداخلين في ولاية الشيطان، ولا

سمح الله أن تظهر فينا صفة الغرور الخبيثة التي هي من صفات الشيطان، ذلك أن أثر بعض الذنوب إخراج صاحبه من ولاية الله وأهل بيته، وإدخاله في ولاية الشيطان، وبعد ئذ يكون المتحكم فيه هو الشيطان.

التوهين يخرج من الولاية:

عن الإمام الصادق (ع): «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقطه من أعين الناس، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان». (أصول الكافي).

كما يقول القرآن الكريم ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾[1]. السورة ٥٩ الآية ١٦.

* * *

(١) يذكر المحقق الخونساري في شرح فقرة من كلمات أمير المؤمنين (ع) وهي قوله: «من أمن مكر الله بطل أمانه» يقول:

المراد بمكر الله أن الله تعالى يفعل بأهل المكر مثل ما فعلوه من المكر، أو أنه تعالى يفعل مع المذنبين فعلاً على صورة المكر وما يشبهه، حتى وإن لم يكن مكراً في الواقع. مثل أن يزيد النعمة على المسيء ولا يسلبها منه، حتى إذا تجاوز حدوده ابتلاه ببلاء عظيم، أو أن لا يؤاخذه طول عمره ويؤجل مؤاخذته للآخرة، والمراد من الحديث الشريف أن المذنب متى ما رأى نعمة الله عليه غير منقطعة ولا زائلة، رغم أنه يرتكب الذنوب، فيجب أن يخشى أن يكون ذلك مكراً به، ثم يؤاخذ بعد ئذ شديداً في الدنيا والآخرة، أما إذا لم يخف، وظل آمناً مطمئناً معتقداً أن الله تعالى غير قادر على ذلك، أو أنه تعالى سيلطف به مهما أذنب، أو يعتقد أن ذنوبه لا تستحق المؤاخذة والعقوبة، فإن أمانه باطل، يعني أن الله تعالى لا يعطيه الأمان بعد ئذ ويبتليه ببلاء عظيم، ليظهر بذلك بطلان أمانه.

وفي بعض النسخ «بطل إيمانه» بدل «بطل أمانه» والمعنى حينئذ أنه يخرج من الإيمان والعياذ بالله.

الخامس من الذنوب الكبيرة قتل من لم يأذن الله ورسوله (ص) بقتله.

والدليل على أن ذلك من الذنوب الكبيرة التصريح الوارد بذلك في الروايات عن الرسول (ص) وعن أمير المؤمنين (ع) وعن الإمام الصادق والكاظم والرضا والجواد عليهم السلام.

إضافة إلى أنه من الذنوب التي وعد الله تعالى عليها صريحاً بالعذاب، كما جاء في القرآن الكريم حيث يقول: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً**﴾. السورة ٤ الآية ٩٣.

ذكرت هذه الآية الشريفة خمسة تهديدات، وجعلتها جزاء له: جهنم، الخلود فيها، الغضب، اللعنة، العذاب العظيم.

العذاب الأبدي خاص بالكفار:

ولما كان من مسلمات المذهب أن الخلود في العذاب هو من مختصات الكفار، بمعنى أن من يفارق الدنيا وهو مؤمن فإنه لا ينال العذاب الأبدي حتى لو قتل النفس، وارتكب سائر الكبائر، لذا فقد ذكرت عدة وجوه في بيان معنى الآية الشريفة:

أحدها: أن الخلود في العذاب إنما هو لمن قتل مؤمناً لجهة إيمانه، ولا شك أن القاتل في مثل هذا الحال كافر، أو أنه قتل المؤمن معتقداً بأن دمه حلال، مع أن حرمة دم المؤمن من ضروريات الدين، لذا فإنه في هذا الحال منكر لضروري من ضروريات الدين، وهو كافر.

دم المسلم وماله محترم:

في حجة الوداع خطب رسول الله (ص): «أيها الناس لا يحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلّا بطيبة نفسه، فلا تظلموا أنفسكم ولا ترجعوا بعدي كفاراً» (وسائل الشيعة ـ كتاب القصاص ـ باب ١).

والوجه الآخر: أن هذه التهديدات الخمسة، والتي أحدها الخلود، هي عذاب استحقاقي لهذا الذنب الكبير، حتى وإن تفضل الله عليه بعدم تخليده في العذاب إذا مات وهو مؤمن.

ووجه آخر: إن الخلود المذكور في الآية الشريفة هو المدة الطويلة وليس البقاء الأبدي الدائم.

الانتحار أيضاً قتل:

في آيـة أخـرى يقـول تعـالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللهُ إِلَّا بِـالحَقِّ**﴾. إن جميع المؤمنين في الحقيقة هم في حكم النفس الـواحـدة، لذلك قال تعالى: ﴿**لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾، أو المراد لا تقتل نفسك ولا تجعلها ضحية للأصنام، أو لا تنتحر في حالة الغضب ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً**﴾ السورة ٤ الآيتان ٢٩ ـ ٣٠.

قتل جميع الناس:

وفي مـوضع آخـر يقول: ﴿**أَنَّـهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسـاً بِغَيْـرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الأَرْضِ**﴾ ـ مثل قاطع الطريق، أو الزاني بالمحصنة وأمثال ذلك مما لا مانع من قتله ـ ﴿**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً**﴾ السورة ٥ الآية ٣٢.

ذلك لأنه هتك حرمة الدمـاء، وسن سنة سيئـة، وعوّد النـاس على قتل النفس، لذا فإن عذابه يعـدل عذاب قتـل جميع البشـر، وإذا قتل شخصين يضاعف عليه العذاب المذكور.

إحياء جميع الناس:

كما أن من سبب بقاء نفس مابعفو، أو ترك قصاص، أو ممانعة عن قتلها، أو إنقاذها من المهالك، فهو كمن أحيى الناس جميعاً، يعني أنقذ الجميع من المهالك، وله ثواب مثل هذا العمل، والمستفاد من الآية الشريفة السابقة أن قتل النفس من أكبر الكبائر، وهو عظيم جداً عند ربّ العالمين، كما أن حماية النفوس من أكبر العبادات.

القاتل لا يموت مسلماً:

والأخبار الواردة في الدلالة على أن قتل النفس من الكبائر كثيرة، نذكر بعضها كنموذج:

١ ـ عن الإمام الصادق (ع): «في رجل قتل مؤمناً؟ قال (ص): يقال له مت أي ميتة شئت يهودياً، وإن شئت نصرانياً، وإن شئت مجوسياً» (أصول الكافي).

٢ ـ وقال (ع) أيضاً: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً».

وقال (ع): «لا يوفق قاتل المؤمن متعمداً للتوبة» (وسائل الشيعة ـ كتاب القصاص).

كل الشركاء قتلة:

٣ ـ وأيضاً في رواية عن الإمام الصادق (ع)[1]: [أتى رسول الله (ص) فقيل له: يا رسول الله قتيل في مسجد جهينة، فقام رسول الله (ص) يمشي حتى انتهى إلى مسجدهم، قال: وتسامع الناس فأتوه فقال (ص): من قتل ذا؟.

---

(١) هكذا في الكتاب، أما في مصدر الرواية (بحار الأنوار) فالرواية عن أحدهما أي الإمام الباقر (ع) أو الصادق (ع).

قالوا: يا رسول الله ما ندري.

فقال: قتيل من المسلمين بين ظهراني المسلمين لا يدرى من قتله! والله الذي بعثني بالحق، لو أن أهل السماوات والأرض شركوا في دم امرئ مسلم ورضوا به لأكبَّهم الله على مناخرهم في النار، (أو قال على وجوههم)].

الاشتراك في القتل مهما يكن قليلاً:

ومن هذا الحديث الشريف يستفاد أنه لا فرق في حرمة قتل النفس بين القاتل وسائر الشركاء بأي نوع اشتركوا، كما ورد عن الإمام الباقر (ع): «إن الرجل ليأتي يوم القيامة ومعه قدر محجمة من دم فيقول: والله ما قتلت ولا شركت في دم. فيقول تعالى: «**بلى ذكرت عبدي فلاناً فترقى ذلك حتى قتل فأصابك من دمه**». (أصول الكافي).

وأيضاً عنه (ع): «من أعان على مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله». (أصول الكافي).

وعن الإمام الرضا (ع): «لو أن رجلاً قتل بالمشرق فرضي بقتله رجل بالمغرب لكان الراضي عند الله شريك القاتل». (وسائل الشيعة ـ كتاب الأمر بالمعروف باب ٥ ص ٤٩١).

قتل محلم عامراً:

في السنة الثامنة للهجرة أرسل رسول الله (ص) أبا قتادة الأنصاري في ثمانمئة من جند الإسلام إلى جهة (أصنم) وفي الطريق صادفهم (عامر بن أضبط) وبدأهم بالسلام، يعني أظهر الإسلام، واكتفى المسلمون منه بهذا المقدار في الحكم بإسلامه ولم يتعرضوا له، إلا أن (محلم بن جثامة) لعداوة في الجاهلية كانت بينهما، حمل إسلامه على الخوف، وحمل عليه فقتله، وأخذ بعيره وماله، بعد ذلك رجع إلى رسول الله (ص). فنزلت الآية الشريفة فيه ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾. السورة ٤ الآية ٩٤.

فقدم محلم على رسول الله (ص) وجثا بين يديه والتسمه أن يطلب له المغفرة، وكان رسول الله (ص) مغتماً عند سماعه بموقفه من عامر وقتله إياه بدون جرم، فقال له «لارحمك الله» وخرج منه محلم باكياً، يكفكف دموعه بعباءته، ويأسف على ما بدر منه، وفارق الدنيا بعد أسبوع.

الأرض لا تقبل القاتل:

ولما دفن قذفته الأرض، فقيل لرسول الله (ص): إن الأرض لا تقبل محلماً؟

فقال: إن الأرض قبلت من هو أسوأ من محلم. ولكن الله أراد أن يعظكم باحترام عبده المؤمن، وفي رواية أخرى أن يعلمكم أن قتل المؤمن ذنب كبير[1].

الانتحار حرام:

ولا فرق في قتل النفس الذي هو من الذنوب الكبيرة بل من أشد الكبائر بين أن يقتل نفسه أو يقتل غيره.

إذن فمن ينتحر ويقتل نفسه بأحد وسائل القتل يترتب عليه كل العقوبات المترتبة على قتل النفس، كما في الآية الشريفة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث ذكر ذلك أحد وجوهها.

وأيضاً تقدم أن كلمة «عدواناً» إشارة إلى قتل الغير و «ظلماً» إشارة إلى قتل نفسه.

الانتحار بأية وسيلة كان حراماً:

وأيضاً لا فرق بين أقسام الانتحار، سواءً كان بحربة يقتل نفسه، أم بشرب السم، أم بإلقاء نفسه من شاهق، أم بالإضراب عن الطعام حتى يموت، أم بعدم المعالجة إذا كان مريضاً، أو كان يعلم بأن الغير يقصد قتله

---

(١) الرواية بالمعنى.

وهو قادر على الدفاع لكن لا يدافع حتى يقتل.

المؤمن لا يقتل نفسه:

روي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: «إن المؤمن يموت بكل ميتة، غير أنه لا يقتل نفسه. فمن قدر على حقن دمه ثم خلى عن قتله فهو قاتل نفسه». (وسائل الشيعة ـ كتاب القصاص ـ باب ٥).

وعن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «إن المؤمن يبتلى بكل بلية ويموت بكل ميتة إلا أنه لا يقتل نفسه» (أصول الكافي).

وفي صحيحة أبي ولاد عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها» (وسائل الشيعة).

قتل النفس لا فرق فيه بين الصغير والكبير:

لا فرق في حرمة قتل النفس بين الصغير والكبير، كما يقول في القرآن الكريم: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً﴾**. السورة ١٧ الآية ٣١.

وفي موضع آخر يقول: **﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾**. السورة ٨١ الآيتان ٨ ـ ٩.

إسقاط الجنين حرام أيضاً:

حتى أن قتل الطفل في رحم أمه يساوي في هذا الحكم الآخرين، ودية قتله كدية قتل الكبار، مهما كان القاتل أباه أو أمه، مثال ذلك أن تشرب الأم دواءً أو تعمل عملاً يسبب إسقاط الجنين، ففي هذه الصورة تمام العقوبات المذكورة تثبت عليها، ويجب أن تدفع دية قتل النفس، أي ألف مثقال ذهب.

وطبعاً هي بسبب قتلها لهذا الطفل لا ترث من هذا المبلغ، بل يكون لسائر الورثة.

إخراج النطفة أيضاً حرام:

يعلم مما سبق أية قيمة لحياة الإنسان، وأية أهمية أعطاها الشرع الإسلامي المقدس، حتى لم يوص بمثل هذا المقدار في أي موضوع آخر، ولم يؤكد عليه، حتى أنه أعتبر إخراج النطفة بعد استقرارها في الرحم حراماً، وحدد لذلك دية خاصة بالتفصيل الآتي:

إذا كان نطفة فديته (٢٠) مثقالاً شرعياً من الذهب.

وإذا كان علقه فديته (٤٠) مثقالاً.

وإذا كان مضغة فديته (٦٠) مثقالاً.

وإذا اختلط بعظم فديته (٨٠) مثقالاً.

وإذا كان جنيناً، يعني احتوى على اللحم ولم تلجه الروح فديته (١٠٠) وإذا ولجته الروح وكان ابناً فديته ألف مثقال ذهب، وإن كان بنتاً فديتها (٥٠٠) مثقال ذهب.

يجب على المسقط أن يدفع ذلك المبلغ أباً كان أو أماً.

يجب إخراج الطفل من بطن أمه إذا ماتت:

وفي صورة موت الأم الحامل وحياة الطفل، يجب فتح بطنها فوراً وإخراج الطفل، والتسامح في ذلك حرام، وإذا مات الطفل بسبب التأخير في إخراجه فإن ديته واجبة على من كان سبباً في التأخير[1].

---

(١) مع أن إسقاط الجنين، وقتل النفس حرام في الشرع الإسلامي المقدس، وفي حكم قتل الآخرين وقتل الكبار، إلا أننا نجده أثر سراية التوحش الجديد من أوروبا وأمريكا، آخذاً بالازدياد خصوصاً في طبقة الشباب، بسبب ضعف الإيمان وعدم وجود الأساس المعنوي وفقدان الجانب الروحي، حيث يقدمون على الانتحار نتيجة الحرمان أو الانزعاج.

وللوقوف بوجه هذا العمل الفجيع يوجد طريق واحد للعلاج، وهو تقوية الجهات المعنوية والروحية والدينية لدى الشباب، وذلك لا يتحصل إلا من خلال التثقيف في المدارس الابتدائية والإعدادية والجامعات.

توبة القاتل:

إذا أراد القاتل المتعمد أن يتوب يجب أن يسلم نفسه لأولياء المقتول ليختاروا إما القصاص وإما أخذ الدية والعفو عنه، ومتى ما أعرضوا عن القصاص فلم يقتلوه فإنه يجب على القاتل أمور ثلاثة: عتق رقبة، وإطعام ستين مسكيناً، وصيام ستين يوماً متتالية، وإذا لم يحصل على عبد يعتقه فإن الواجبين الآخرين لا يسقطان.

القتل غير العمدي:

إذا كان قتل النفس خطأ أو شبه الخطأ، فإن تسليم الدية إلى أولياء المقتول واجب عليه إلا إذا عفوا عنه، هذا مضافاً إلى الأمور الثلاثة المتقدمة، يعني العتق، والإطعام، والصيام، وتفصيل كل واحد منها مذكور في الكتب الفقهية..

* * *

- مع الأسف إنه لا تصدّ مناشئ هذه المفاسد ومنابعها، مثل عرض الأفلام الإجرامية وغير الأخلاقية في السينمات والتلفزيونات، وانتشار النغمة الشيطانية والمهيجة من الراديو، ونشر مقالات وقصص وحوادث الإجرام في المطبوعات، وإذا استمر الحال بهذا الوضع لا شك أن مجتمعنا سيسير نحو الزوال، وسيصاب بالعواقب الوخيمة، ولأجل توضيح هذا المطلب ومطالب مهمة أخرى راجع كتاب (البلايا الاجتماعية) بقلم عدة أشخاص من الفضلاء.

(٦) ـــــــــــــــــ عقوق الوالدين

السادس من الذنوب الكبيرة عقوق الوالدين، كما ورد التصريح بذلك في الروايات عن رسول الله (ص) وعن الإمام أمير المؤمنين (ع) والإمام الصادق والإمام الرضا والإمام الجواد عليهم السلام، بل ورد عن رسول الله (ص) أن أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين، وهو أيضاً من الذنوب التي جاء في القرآن المجيد والأحاديث الصحيحة الوعيد عليها بالعذاب.

ففي القرآن الكريم حكاية لقول عيسى بن مريم (ع) ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ السورة ١٩ الآية٣٢،والسبب في عدم ذكر الأب أنه (ع) لم يكن له أب، ولذا، قبل هذه الآية وحكاية عن يحيى (ع) جاء: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ السورة ١٩ الآية ١٤.

الأخبار وعقوق الوالدين:

قال رسول الله (ص): «من أدرك والديه ولم يؤد حقهما فلا غفر الله له فقلت آمين». (بحار الأنوار).

وعن الإمام الصادق (ع): «ملعون ملعون من ضرب والديه، ملعون ملعون من عق والديه» (المستدرك ص ٦٣١).

لا تقبل صلاة العاق:

عن الإمام الصادق (ع): «من نظر إلى أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة». (أصول الكافي).

فكيف في صورة الإحسان إليه؟!

الشاب المحتضر وشفاعة الرسول (ص):

روي أن رسول الله (ص) حضر شاباً عند وفاته فقال له: قل لا إله إلا

الله. فاعتقل لسانه مراراً، فقال لامرأة عند رأسه: هل لهذا أم؟ قالت: نعم أنا أمه، قال: أفساخطة أنت عليه؟

قالت: نعم، ما كلمته منذ ست حجج، قال لها: ارضي عنه، قالت: رضي الله عنه برضاك يا رسول الله. فقال له رسول الله: قل لا إله إلا الله قال: فقالها.

فقال النبي (ص) ما ترى؟

فقال: أرى رجلاً أسود قبيح المنظر وسخ الثياب منتن الريح قد وليني الساعة فأخذ بكظمي، فقال له النبي (ص): قل يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير، اقبل مني اليسير واعف عني الكثير، إنك أنت الغفور الرحيم.

فقالها الشاب، فقال له النبي (ص) انظر ما ترى؟

قال: أرى رجلاً أبيض اللون، حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، قد وليني وأرى الأسود قد تولى عني، قال أعد، فأعاد، قال ما ترى؟

قال: لست أرى الأسود وأرى الأبيض قد وليني، ثم قضى على تلك الحال». (بحار الأنوار).

عاق الوالدين والعذاب الأبدي:

يستفاد من هذا الحديث الشريف أن واحداً من آثار عقوق الوالدين سوء الخاتمة وشر العاقبة، فيفارق الشخص الدنيا بلا إيمان، وبالنتيجة يكون في العذاب الدائم.

فمع أن الملقن كان هو رسول الله (ص) إلا أنه لم يستطيع أن ينطق بالشهادة ما دامت أمه غير راضية عنه، وبعد رضا أمه وقراءة تلك الكلمات ببركة رسول الله (ص) رضي عنه الله تعالى وغفر له.

والروايات في هذا المجال كثيرة نكتفي بما ذكر.

وجوب الإحسان للأب والأم:

يستفاد من القرآن المجيد وأخبار أهل البيت عليهم السلام أنه ليس فقط عقوق الوالدين[1] - يعني إيذاءهما وإزعاجهما - حرام، وذنب من الذنوب الكبيرة، بل إن الإحسان إليهما وأداء حقهما واجب، وتركه حرام.

وهنا نشير إلى بعض الآيات:

١ - في سورة البقرة يقول تعالى: ﴿**وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً**﴾. السورة ٢ الآية ٨٣.

٢ - ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً**﴾ السورة ٢٩ الآية ٨.

٣ - ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾. السورة ٣١ الآية ١٤.

حيث ذكر شكر الوالدين تبعاً لشكره، ولا شك عقلاً في وجوب شكر رب العالم، إذن شكر الوالدين واجب أيضاً.

٤ - ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيَّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ[2] وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾. السورة ١٧ الآيتان ٢٣ - ٢٤.

وهنا أردف الإحسان إليهما بعبادته، وكما أن عبادته واجبة كذلك الإحسان إليهما.

تفسير الآية عن الإمام الصادق (ع):

عن أبي ولاد قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿**وبالوالدين إحساناً**﴾ ما هذا الإحسان؟

فقال: الإحسان أن تحسن صحبتهما وأن لا تكلفهما أن يسألا شيئاً مما يحتاجان إليه، وإن كانا مستغنيين. (أصول الكافي).

---

(١) قال المجلسي: المراد بعقوق الوالدين ترك الأدب لهما والإتيان بما يؤذيهما قولاً وفعلاً ومخالفتهما في أغراضهما الجائزة عقلاً ونقلاً.

وقال (ع) في معنى قوله تعالى: ﴿**وقل لهما قولاً كريماً**﴾: إن ضرباك فقل لهما: غفر الله لكما، فذلك منك قول كريم.

وفي قوله: ﴿**واخفض لهما جناح الذل**﴾ قال (ع): لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما، ولا تقدم قدامهما». (أصول الكافي).

أفضل من الجهاد:

وعن الإمام الصادق (ع):

«أتى رجل رسول الله (ص) فقال: يا رسول الله، إني راغب في الجهاد نشيط، قال: فقال له النبي (ص): فجاهد في سبيل الله، فإنك إن تقتل تكن حياً عند الله ترزق، وإن تمت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت رجعت من الذنوب كما ولدت. قال: يا رسول الله إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي، فقال رسول الله (ص): فقرَّ مع والديك، فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة». (أصول الكافي).

وعن رسول الله (ص): «كن بارّاً واقصر على الجنة، وإن كنت عاقّاً فاقتصر على النار». (أصول الكافي).

الإحسان للوالدين كفارة الذنوب:

يعلم من الحديث الشريف أن الإحسان للوالدين كفارة لكثير من الذنوب، كما روي أن رجلاً جاء إلى النبي (ص) فقال:

يا رسول الله، ما من عمل قبيح إلا قد عملته فهل لي من توبة؟

فقال له رسول الله (ص): فهل من والديك أحد حي؟

قال أبي.

قال: فاذهب فبرَّه.

قال: فلما ولّى قال رسول الله (ص): «لو كانت أمه» (بحار الأنوار).

النظر بشفقه للأب والأم:

قال رسول الله (ص): ما من ولد بارّ نظر إلى أبويه برحمة إلا كان له بكل نظرة حجة مبرورة.

فقالوا: يا رسول الله وإن نظر في كل يوم مائة نظرة؟

قال (ص): «نعم، الله أكبر وأطيب». (بحار الأنوار).

رضى الله من رضى الوالدين:

وأيضاً قال (ص): «رضى الله مع رضى الوالدين، وسخط الله مع سخط الوالدين». (بحار الأنوار جـ ١٦ ص ٢٤).

وقال (ص): «بين الأنبياء والبارّ درجة، وبين العاق والفراعنة دركة» (مستدرك الوسائل).

دعاء الملائكة للمحسن لوالديه:

عن أمير المؤمنين (ع): «برّ الوالدين أكبر فريضة». (مستدرك الوسائل).

وعن رسول الله (ص): «إن لله ملكين يناجي أحدهما الآخر ويقول: اللهم احفظ البارّين بعصمتك، والآخر يقول: اللهم أهلك العاقين بغضبك». (مستدرك الوسائل).

الأثر الدنيوي للعقوق:

لا تنحصر عقوبة عقوق الوالدين بالعقوبة الأخروية، بل هو من الذنوب ذات الآثار الدنيوية الوضعية، كما قال رسول الله (ص): «ثلاثة من الذنوب تعجل عقوبتها ولا تؤخر إلى الآخرة، عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان».. (بحار الأنوار).

الإحسان للوالدين وطول العمر:

وعن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «صدقة السر تطفئ غضب الرب، وبرّ

الوالدين وصلة الرحم يزيدان في الأجل». (بحار الأنوار جـ ١٦ ص ٢٥).

وفي حديث آخر قال: «البرّ والصدقة ينفيان الفقر، ويزيدان في العمر، ويدفعان عن سبعين ميتة سوء». (بحار الأنوار جـ ١٦ ص ٢٤).

زيادة الثروة والجاه:

قال الرسول الأكرم (ص): «من يضمن لي بر الوالدين وصلة الرحم أضمن له كثرة المال وزيادة العمر والمحبة في العشيرة». (مستدرك الوسائل).

وعن الإمام الهادي (ع): «العقوق يعقب القلة ويؤدي إلى الذلة». (مستدرك الوسائل).

العقوق يؤدي إلى الفقر والشقاء:

ويروى أن شاباً عق والده وكان شيخاً كبيراً، فلم يعنه من ماله الكثير، فطمست أمواله فصار فقيراً لا يهتدي إلى قوت يومه، فسقم جسده وضني، فقال النبي (ص): «يا أيها العاقون للآباء والأمهات اعتبروا واعلموا أنه كما طمس في الدنيا على أمواله فكذلك جعل بدل ما كان أعدّ له من الجنة من الدرجات معداً له في النار من الدركات». (سفينة البحار جـ ٢ ص ٢١٣).

وقد روي عن الإمام الصادق (ع) أنه لما ورد يعقوب إلى مصر ودخل على يوسف، لم ينزل يوسف من عرشه احتراماً لأبيه، فهبط جبرئيل وقال ليوسف: افتح يدك، فلما فتحها خرج من يده نور صعد إلى السماء، فسأله يوسف: ما هذا النور الذي خرج من يدي؟

فقال جبرئيل: «نزعت النبوة من عقبك عقوبة لمّا لم تنزل إلى الشيخ يعقوب، فلا يكون في عقبك نبي». (الكافي).

سوء العاقبة للعاق:

ومن الآثار الوضعية لعقوق الوالدين سوء الخاتمة، كما أن الإحسان إليهما يوجب حسن الخاتمة، وخير العاقبة.

عن الإمام الصادق (ع): «من أحب أن يخفف الله عنه سكرات الموت فليكن لقرابته وصولاً، ولوالديه بارّاً، فإذا كان كذلك هوّن الله عليه سكرات الموت، ولم يصبه في حياته فقر أبداً». (سفينة البحار جـ ٢ ص ٦٨٧).

دعاء الوالدين مستجاب:

الإحسان للوالدين سبب دعائهما لأولادهما، كما أن الإساءة لهما سبب لعنتهما، ومن الأدعية المستجابة بل سريعة الاستجابة دعاء الوالدين ولعنتهما لأولادهما.

كما وردت في ذلك أخباراً كثيرة.

الشاب العاق ودعاء مشلول:

في باب فضيلة دعاء (مشلول) ورد أن هذا الدعاء علمه أمير المؤمنين (ع) شاباً مأخوذاً بذنبه مشلولاً نتيجة ما عمله من الظلم والإثم في حق والده، فدعا بهذا الدعاء واضطجع، فرأى النبي (ص) في منامه وقد مسح يده عليه وقال: «احتفظ باسم الله الأعظم فإن عملك يكون بخير. فانتبه معافى».

الأم أجدر بالإحسان:

يستحب في الإحسان رعاية جانب الأم أكثر، فقد أوصى رسول الله (ص) ثلاث مرات بالأم، وفي المرة الرابعة أوصى ببرّ الأب. وقد سئل (ص):

أي الوالدين أعظم؟ «قال (ص): التي حملته بين الجنبين وأرضعته بين الثديين وحضنته على الفخذين وفدته بالوالدين».

أداء حق الأب والأم:

وفي الحديث الشريف:

قيل: يا رسول الله ما حق الوالد؟

قال: أن تطيعه ما عاش.

فقيل: وما حق الوالدة؟

فقال: هيهات، هيهات، لو أنه عدد رمال عالج، وقطر المطر أيام الدنيا قام بين يديها ما عدل، ذلك يوم حملته في بطنها». (مستدرك الوسائل).

الشاب والأم المقعده:

وروي أن رجلاً جاء إلى رسول الله (ص) فقال له:

إن والدتي بلغها الكبر، وهي عندي الآن، أحملها على ظهري وأطعمها من كسبي، وأميط عنها الأذى بيدي، وأصرف عنها مع ذلك وجهي استحياءً منها، وإعظاماً لها، فهل كافأتها؟

قال (ص): لا.

لأن بطنها كان لك وعاءً، وثديها كان لك سقاء، وقدمها لك حذاء، ويدها لك وقاء، وحجرها لك حواء، وكانت تصنع ذلك لك وهي تمنّى حياتك، وأنت تصنع هذابها وتحب مماتها». (مستدرك الوسائل).

إجابة الأم في الصلاة المستحبة:

وأيضاً روي عنه (ص) «إذا كنت في صلاة التطوع، فإنْ دعاك والدك فلا تقطعها، وإن دعتك والدتك فاقطعها». (مستدرك الوسائل).

نعم، ذلك قول رسول الله (ص): «الجنة تحت أقدام الأمهات».

لا فرق في الإحسان للوالدين بين المسلم والكافر:

لا فرق في حرمة العقوق، ووجوب الإحسان للوالدين بين كونهما مؤمنين ومن أهل العبادة والطاعة، أم كافرين ومن أهل المعاصي، كما يقول تعالى في سورة لقمان: ﴿**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً**﴾ السورة ٣١ الآية ١٥.

الدعاء للأم والأب السني:

عن معمر بن خلاد: قلت لأبي الحسن الرضا (ع): أدعو لوالديَّ إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قـال (ع): ادع لهما، وتصـدق عنهما، وإن كـانا حيّين لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله (ص) قال: «إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق». (أصول الكافي).

وعن جابر قال: «سمعت رجلاً يقـول لأبي عبد الله (ع): إن لي أبـوين مخـالفين؟ فقال (ع): بـرّهمـا كمـا تبـرّ المسلمين ممن يتـولانـا». (أصـول الكافي).

لا رخصة:

عن الإمام الباقر (ع) «ثلاث لم يجعل الله تعالى لأحد فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر، والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين». (أصول الكافي).

وجاء في كتاب الإمام الرضا (ع) للمأمون حول شـرائع الإسـلام: «وبرّ الـوالدين واجب وإن كـانا مشـركين، ولا طاعـة لهما في معصيـة الخالق». (أصول الكافي).

وصية الإمام الصادق (ع) لزكريا بن إبراهيم:

يقول زكريا بن إبراهيم: كنت نصرانياً فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبد الله (ع):

فقلت: إن أبي وأمي على النصـرانيـة وأهـل بيتي، وأمي مكفـوفـة البصر...

فقال (ع): انظر إلى أمك فبرّها، فإذا مـاتت فلا تكلهـا إلى غيرك، كن أنت الذي تقوم بشأنها.

معاملة زكريا لأمه:

يقول زكريا: فلما قدمت الكوفة ألطفت لأمي، وكنت أطعمها وأفلي ثوبها ورأسها وأخدمها؛ فقالت لي: يا بني ما كنت تصنع بي هذا وأنت على ديني، فما الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية؟

فقلت: رجل من ولد نبينا أمرني بهذا.

فقالت: هذا الرجل هو نبي؟

فقلت: لا، ولكنه ابن نبي.

فقالت: يا بني إن هذا نبي، إن هذه وصايا الانبياء.

فقلت: يا أمّه، إنه ليس يكون بعد نبينا نبي، ولكنه ابنه.

تسلم ثم تموت:

فقالت: يا بني دينك خير دين. اعرضه علي، فعرضته عليها فدخلت في الإسلام، وعلمتها فصلت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم عرض لها عارض في الليل، فقالت يا بني أعد علي ما علمتني فأعدته عليها، فأقرت به وماتت. . . » (أصول الكافي).

الإحسان للوالدين في الحياة وبعد الممات:

لا فرق في حرمة عقوق الوالدين ووجوب الإحسان إليهما بين حال حياتهما وحال مماتهما، يعني أنه لا يسقط حقهما بالموت، ومتى ما نسيهما بعد الموت وترك الإحسان إليهما فإنه يحسب عاقاً، مهما كان قد أدى حقهما حال الحياة، ولم يترك الإحسان إليهما.

حقوق الوالدين بعد الموت:

حق الوالدين بعد الممات هو أن يؤدي عنهما الولد ما فاتهما من الواجبات حال الحياة، من قبيل الحج والصلاة والصيام، وكذلك إذا كانا مدينين فيجب عليه الأداء عنهما.

ثانياً: العمل بوصيتهما.

ثالثاً: أن لا ينساهما إلى آخر عمره، يجب أن يسأل لهما العفو والرحمة، ويتصدق عنهما، ويؤدي الأعمال المستحبة نيابة عنهما، وبالجملة يرسل لهما كل ما يستطيع من الهدايا والتحف المعنوية.

عن الإمام الباقر(ع): «إن العبد ليكون بارّاً بوالديه في حياتهما، ثم يموتان فلا يقضي عنهما دينهما، ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عاقاً. وإنه ليكون عاقاً لهما في حياتهما، وغير بارّ بهما، فإذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما فيكتبه الله باراً». (أصول الكافي).

عمل واحد وثواب متعدد:

عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «ما يمنع الرجل منكم أي يبرّ والديه حيّين وميتين، يصلي عنهما، ويتصدق عنهما، ويحج عنهما ويصوم عنهما، فيكون الذي صنع لهما وله مثل ذلك، فيزيده الله تعالى ببره وصلته خيراً كثيراً». (أصول الكافي).

الاستغفار والدعاء للوالدين:

روي عن رسول الله (ص) في جواب من سأله عن الوالدين بعد الموت هل لهما حق؟

فقال (ص): «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإكرام صديقهما، وصلة رحمهما». (أصول الكافي).

وقال (ص) أيضاً: «من برّ أباه في حال حياته، ولم يدع له بعد وفاته، سمّاه الله تعالى عاقاً». (أصول الكافي).

موارد وجوب إطاعة الوالدين:

أمر الوالدين ونهيهما في الواجبات العينية والمحرمات الإلهية لا أثر له

إطلاقاً، وهو لغو، كما لو أمرا الأولاد بشرب الخمر، أو نهياهم عن الصلاة والصيام الواجب، فإن ذلك لا قيمة له كما صرحت به الآية الشريفة السابقة[1].

وفي الحديث الشريف القائل: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[2] تصريح بما تقدم.

وفي غير هذه الصورة، أي في المستحبات والمكروهات والمباحات بل الواجبات الكفائية، فإن القدر المسلم من وجوب إطاعة أمرهما ونهيهما هو الموارد التي توجب المخالفة فيها إيذاءهما، وإزعاج خاطرهما، وكسر قلبهما، ففي هذه الصورة تكون المخالفة حراماً وذنباً كبيراً، لأنه مصداق حقيقي لعقوق الوالدين.

مثلاً: في أي وقت أراد الولد أن يسافر سفراً غير واجب ولكن الأبوين ـ خوفاً من إصابته بضرر، أو لشدة علاقتهما به وعدم تحملها للفراق ـ نهياه عن هذا السفر بنحو لو خالفهما أوجب إيذاءهما، وإزعاج خاطرهما، ففي هذه الصورة فإن السفر حرام ومعصية، والصلاة في هذا السفر تامة. وإذا كان في شهر رمضان فإن الصوم واجب عليه. وبالجملة: في أي مورد كانت مخالفة الوالدين توجب إيذاءهما وغضبهما وإيلامهما فإنها حرام، إلا إذا كانت طاعتهما موجبة للعسر والحرج على الولد، أو متضمنة لضرر غير عادي، ديني أو دنيوي، مثل ما إذا منعا الولد من الزواج. والحال أن ذلك أمر يشكل حرجاً على الولد، أو نهيا البنت عن الزواج في حال أن ذلك حرج عليها أو ضرر، ومثل ما إذا أمرا الولد بطلاق زوجته وهو أمر مستلزم للضرر الفاحش عليه، ونظائر ذلك، فإطاعتهما في جميع هذه الموارد غير واجبة، أما سائر أوامرهما التي لا تكون مخالفتهما موجبة لإيذائهما فإن حرمة المخالفة ووجوب الطاعة حينئذ ليست معلومة، نعم الأفضل بل الأحوط إطاعتهما مهما أمكن،

---

(١) ﴿وَإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ السورة ٣١ الآية ١٥.

(٢) بحار الأنوار.

والاجتناب عن معصيتهما خصوصاً في الموارد التي يكون الأمر والنهي في مصلحة الولد، لا من جهة مصلحتهما.

تعارض الأمر والنهي بين الوالدين:

في أي وقت وقع التعارض بين أمر الوالدين، كما إذا قال الأب: اعمل العمل الفلاني، وقالت الأم: لا تفعل، ففي صورة الإمكان يجب عليه جلب رضاهما معاً بأن يأتي بالعمل.

أما إذا كانت رعايتهما معاً أمراً غير ممكن، فيجب عليه ترجيح جانب الأم، ذلك أن الأم أكثر من الأب استحقاقاً للإحسان، لأن تعبها ومشقتها على الأولاد أكثر، خصوصاً حال الحمل والولادة والرضاعة، كما تقدم في الروايات السابقة، وثانياً لأن الأم ذات إحساسات وعواطف بمستوى من الشدة واللطافة. بحيث إن أدنى خلاف من أولادها يكسر قلبها، ويؤذي خاطرها، أما الأب فإنه نتيجة القوة العقلية التي لديه - نسبة للأم - يمكن أن لا يتأثر إطلاقاً، خصوصاً إذا لاحظ أن ابنه إنما خالفه رعاية لخاطر أمه، لا من باب العناد والإعراض عن أمر الأب.

لزوم تحصيل إذن الوالدين:

في الشرع الإسلامي المقدس أمر الولد في بعض الأمور بتحصيل إذن الأب أو الأم لأداء بعض الواجبات الكفائية كالجهاد، وبعض المستحبات كالصوم المستحب، وبعض الإيقاعات كالعهد واليمين.

ذكر الشهيد الأول (عليه الرحمة) في كتاب القواعد في بيان حقوق الوالدين عشرة فروع، ولأجل تتميم هذا البحث نذكر خلاصته:

كلام الشهيد في سفر الولد المباح والمستحب:

لا ريب أن كل ما يحرم أو يجب للأجانب يحرم أو يجب للأبوين وينفردان بأمور:

(أ) تحريم السفر المباح بغير إذنهما، وكذا السفر المندوب، وقيل بجواز سفر التجارة وطلب العلم، إذا لم يمكن استيفاء التجارة والعلم في بلدهما كما ذكرناه فيما مرّ[١].

(ب) قال بعضهم: يجب عليه طاعتهما في كل فعل وإن كان شبهة، فلو أمراه بالأكل معهما من مال يعتقد شبهته، أكل، لأن طاعتهما واجبة، وترك الشبهة مستحب[٢].

(جـ) لو دعواه إلى فعل وقد حضرت الصلاة،فليؤخر الصلاة وليطعهما لما قلناه.

(د) هل لهما منعه من الصلاة جماعة؟ الأقرب أنه ليس لهما منعه مطلقاً، بل في بعض الأحيان بما يشق مخالفته؛ كالسعي في ظلمة الليل إلى العشاء والصبح. (أي صلاة العشاء والصبح).

* * *

حقوق الأبناء على الآباء:

وكما أن الأولاد نتيجة ترك أداء حقوق الوالدين يبتلون بآثار العقوق الوخيمة، كذلك الوالدان فإنهما نتيجة ترك حقوق الأولاد يبتلون بالآثار الوخيمة أيضاً، كما ورد عن رسول الله (ص) رواية بهذا المضمون[٣].

ومن جملة الأمور التي يلزم بدرجة بالغةرعايتهاعلى الوالدين أن يجهدا في أن لا يعملا عملاً يوجب ابتلاء الولد بالعقوق، مثل تكليفه بالأمور الصعبة التي يهرب الأولاد حينئذ من ثقل طاعتهما نتيجة صعوبة تلك الأعمال،

---

(١) ولمعرفة فتاوى المراجع المعاصرين راجع رسالة (العروة الوثقى) في صلاة المسافر مسألة (أن لا يكون السفر حراماً).

(٢) هذا المطلب على خلاف نظر الحقير (يقصد نفسه) لأن (قف عند الشبهة) يأمر الوالدين بالامتناع عن المال المشتبه، وكذلك يأمر الأولاد في هذا المورد بعدم إطاعة الوالدين. بل يجب عليه الوقوف عند الشبهة، ذلك لأن إطاعتهما إنما هي في الموارد التي يعلم أن الشارع لم يرد عنه نهي منها.

(٣) قال رسول الله (ص) «يلزم الوالدين من العقوق ما يلزم الولد لهما من عقوقهما». (وسائل الشيعة).

وبالتالي يكون الولد عاقاً، أو كثرة مؤاخذة الولد في قوله وعمله، الأمر الذي ينتهي غالباً إلى أن يترك الولد الأدب أمام والديه، وكذلك ترك محبته الذي ينتهي بالنتيجة إلى أن يقوم الولد برد الفعل المعاكس فيترك محبتهما.

بل وظيفة الوالدين مساعدة الولد في أداء الواجب الإلهي المهم عليه وهو البرّ بالوالدين، وإنقاذه ـ من خلال المحبة والشفقة ـ من العقوق، مثل الإغماض عن ألغازه، وقبول إحسانه وطاعته مهما كانت صغيرة، والتشكر منه، والدعاء له بحضوره وغيابه.

وتفصيل حقوق الولد على الوالدين موجود في الكتب الفقهية، وغرضنا هنا خلاصة لا تتنافى مع وضع الكتاب.

نفقة الابن واجبة على الأب:

منذ ولادة الابن وحتى بلوغه حد الرشد بحيث يستطيع التكسب، فتهيئة معيشته ـ نفقته: أي الطعام واللباس والمسكن، واجبة على الأب، وهكذا البنت حتى ذهابها إلى بيت زوجها، أو استغنائها بما لديها.

السعي في زواج الولد:

من حقوق الولد السعي في تزويجه بعد الرشد والبلوغ، كما أن من حقوق البنت إيصالها إلى بيت الزوج، ولا يستطيع الوالدان المنع من زواجها كما ورد التصريح بذلك في القرآن الكريم: ﴿**فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ**﴾. السورة ٢ الآية ٢٣٢.

التعليم والتربية الدينية:

من حقوق الأولاد السعي في تعليمهم وتربيتهم حتى يعرفوا أصول الدين وفروعه، ويتعلموا بالخصوص قراءة القرآن المجيد، وأن لا يتسامح الأبوان في تأديبهم مع مراعاة شرائط ذلك، وإن استوجب ذلك الضرب، على تفصيل نذكره إن شاء الله تعالى في شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد

وردت روايات كثيرة تأمر بالحنان والمحبة والإكرام للولد، نستعرض بعضاً منها:

يجب العطف على الولد:

قال رسول الله (ص): «أحبّوا الصبيان وارحموهم، وإذا وعدتموهم شيئاً ففوالهم، فإنهم لا يرون إلا أنكم ترزقونهم».

«إن الله عز وجل ليس يغضب لشيء كغضبه للنساء والصبيان» (وسائل الشيعة).

تقبيل الطفل والنظر إليه بشفقة:

عن الإمام الصادق (ع) قال: قال رسول الله (ص): من قبّل ولده كتب الله له حسنة» (وسائل الشيعة).

وفي حديث آخر: «إن لكم بكل قبلة درجة في الجنة». (وسائل الشيعة).

وروي عنه (ص): «إذا نظر الوالد إلى ولده فسره كان للوالد عتق نسمة». (مستدرك الوسائل).

الإحسان للطفل بعد أبويه:

ورد في رواية أن على الأم أن تكرم ولدها ولا تسيء له، فإن ذلك مما يحزنه ويؤذيه لعلاقته بأمه[1].

وفي رواية أخرى: إن رجلاً من الأنصار قال للإمام الصادق (ع): من أبرّ؟

قال (ع): «والديك، قال: قد مضيا، قال: برّ ولدك». (وسائل الشيعة.

البنت أجدر بالإحسان:

حول الإحسان للولد ورد التأكيد على البنت أكثر، فيستحب إذا أتى الأب

---

(١) لم نعثر على الرواية في مصادر الحديث، لذا نقلناها ترجمة.

بهدية للمنزل أن يقدم البنت على الابن، خصوصاً البنت التي سماها فاطمة، وأيضاً ورد النهي عن لعن الأولاد مهما أساؤوا وخالفوا الوالدين، بل عد ذلك من موجبات الفقر.

الأب الروحي أجدر بالاحترام:

ما ذكر من حرمة العقوق ووجوب البر نسبة للأب والأم متعلق بالأبـويين الجسميين،اللذين همـا سبب وجود الـطفل في هـذا العالم، وسبب تـربيتـه ورشده ونموه الجسمي.

أما الأب الروحي فهو سبب أصل خلق الإنسان، ووصولـه إلى السعادة الحقيقية،وتأمين الحياة الباقية له،وهو رسول الله (ص) والأئمة الأطهار عليهم السـلام، الذين من كـان متصلاً بهم وتـابعاً لهم ومـرتبطاً بـروحـانيتهم كـان محفوظاً من جميع الآفات، وينال جميع الخيـرات الباقيـة، كما قـال رسول الله (ص) «أنا وعلي أبوا هذه الأمة».

إن مزية وشرف وأهمية الأب الروحي على الأب الجسمي،كمزية وشرف الروح بالنسبة للبدن، وكذلك مزية الآخرة نسبة للدنيا، وما تقدم من عقوبـة عقوق الوالدين الجسميين وآثاره الوخيمة، فإن أكثر منـه بآلاف المـرات يثبت بالنسبة لعقوق الأبوين الروحيين.

الثواب أكثر والعقوبة أشد:

كما يعطى الثواب على البر بالوالدين الجسميين،يعطى أضعافه بـآلاف المرات للبرّ بالأبوين الروحيين.

ولعل بعض المراتب الشديدة من عقوبة العقوق ـ كتحريـم الجنـة عليه، وعـدم قبول أعمـاله (بتـأييد روايـات واردة تؤكد بـالنسبة لتـاركي الولايـة أن أعمالهم غير مقبولة مهما قاموا الليل وصاموا النهار) ـ ناظرة إلى عقوق الأب الروحي. كما أن بعض المراتب العظيمة من الثواب إنمـا هي للبر بـالوالـد الروحي.

الآيات عامة:

ورد في الأخبار المرتبطة بهذا الموضوع، النهي عن تخصيص الآيات الشريفة المتعلقة بالبر بالوالدين، بالوالدين الجسميين، بل هي عامة، والمراد منها كلاهما: الأب الجسمي والأب الروحي.

والقرينة على ذلك جعل إطاعة الوالدين وشكرهما رديفاً لإطاعة رب العالمين وشكره.

التشكر من محمد (ص) وعلي (ع):

ورد في قوله تعالى: ﴿**أن اشكر لي ولوالديك**﴾ روايات كثيرة تؤكد أن المراد بالوالدين في هذه الآية الشريفة محمد (ص) وعلي (ع)، وليس الأبوين الجسميين، بل هذه الروايات تبين أشرف الأبوين وأفضلهما وأكملهما، كما في (أصول الكافي) في باب صلة الرحم، فقد نقل حديثين عن الإمام الصادق (ع) في الحديث الأول:

قال عمر بن يزيد: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**﴾؟

فقال (ع): «قرابتك».

صلة الأبوين الروحيين والجسميين:

وفي رواية أخرى عن عمر بن يزيد:

قلت لأبي عبد الله (ع): «وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ»؟ قال (ع): نزلت في رحم آل محمد عليه وآله السلام، وقد تكون في قرابتك، ثم قال:

فلا تكونن ممن يقول للشيء: إنه في شيء واحد (أصول الكافي ـ صلة الرحم).

عقوق الأبوين الروحيين:

عقوق الأب الروحي عبارة عن ترك إطاعة أوامره والخروج عن تبعيته، وعدم التسليم له، وقطع أواصر العلاقة المعنوية.

يقول الإمام الرضا (ع): «ألا يسوء أحدكم أن ينفيه أبواه عنهما لعقوقه»؟

قالوا: نعم.

فقال (ع): «فاجهدوا أن لا ينفيكم أبواكما الروحيان، وهما أفضل من الأبوين الجسميين»[1].

«محمد وعلي أبوا هذه الأمة»:

قال رسول الله (ص): «يا علي، ألا وإنّي وأنت أبوا هذه الأمة، فمن عقنا فلعنة الله عليه، ألا وإنّي وأنت موليا هذه الأمة، فمن أبق عنا فلعنة الله عليه، ألا وإنّي وأنت أجيرا هذه الأمة، فمن ظلمنا أجرتنا فلعنة الله عليه. ثم قال (ص): آمين». (بحار الأنوار).

البر بالأبوين الروحيين:

البر بالأبوين الروحيين عبارة عن كمال التسليم والانقياد لهما، وإطاعة جميع أوامرهما، وغاية التعظيم والتجليل لمقامهما الشامخ، وأن يعتقد بأنه مقصر معهما دائماً.

لا يمتنع في حال الحياة عن الحضور في محضرهما الشريف، وفي حال الممات عن التشرف بقبريهما المباركين، ولا يغفل أبداً عن ذكرهما، وأن يعتقد بأنه مهما تمسك بالأب الروحاني أكثر، وذكره أكثر فإنه المستفيد والمنتفع، ذلك أن ضرر العقوق، ونفع البر بالوالدين عائد له في الحقيقة. كما يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ السورة ٣٤ الآية ٤٧.

---

(١) لم نعثر على مصدر الرواية ونقلناها مترجمة.

أي إن ذلك عائد لكم.

ومن البر بالأب الروحي تقدير ذريته الطيبة، بل جميع المرتبطين به، أعم من الارتباط الجسمي أو الروحي، كما سنذكر ذلك في بحث صلة الرحم، وأيضاً إرسال الهدايا والتحف في حال الحياة، ودفع الصدقة، وأداء أعمال الخير بالنيابة عنه في حال الممات.

وأيضاً من موارد البر بالأب الروحي أن متى ما ذكر اسمه أو سمعه يصلي عليه، ويسأل ارتفاع درجته.

* * *

(٧) قطع الرحم

السابع من الذنوب الكبيرة قطع الرحم الذي وعد عليه في القرآن المجيد بالنار، واعتبر صاحبه خاسراً، وموردا للعن ربّ العالمين.

روي عن الإمام السجاد (ع) قوله: «إياك ومصاحبة القاطع لرحمه، فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله عز وجل في ثلاث مواضع، قال الله عز وجل: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾**.

وقال عز وجل: **﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾**.

وقال في البقرة: **﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾**. (أصول الكافي).

قطع الرحم في الروايات:

وقد وردت في هذا الموضوع أخبار كثيرة نشير إلى بعضها:

قال الرسول الأكرم (ص): «ألا إن في التباغض الحالقة، لا أعني حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين» (أصول الكافي).

وقال الإمام الصادق (ع): «اتقوا الحالقة، فإنها تميت الرجال».

قلت: وما الحالقة؟

قال: «قطيعة الرحم». (أصول الكافي).

أسوأ الأعمال عند الله:

جاء رجل النبي (ص) فقال:

أي الأعمال أبغض إلى الله؟

فقال (ص): الشرك بالله،

قال: ثم ماذا؟

فقال (ص): قطيعة الرحم.

قال: ثم ماذا؟

فقال: «الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف». (أصول الكافي).

الإحسان للرحم في مقابل الإساءة:

جاء رجل إلى أبي عبد الله الصادق (ع) فشكا إليه أقاربه فقال (ع):

اكظم غيظك وافعل (أحسن لهم).

فقال: إنهم يفعلون ويفعلون: (من أنواع الإساءة).

فقال (ع): «أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم». (أصول الكافي).

ولعله إذا لم تقطع رحمهم ووصلتهم يندمون ويصلونك، وحينئذ تشملكم الرحمة الإلهية جميعاً، وإذا لم يندموا فإن الرحمة الإلهية تشملك أنت وحدك.

إذن ففي مقابل قطع الرحم من الأقارب يجب أن يصلهم الإنسان، ولذا قال رسول الله (ص): «لا تقطع رحمك وإن قطعك». (المستدرك باب ٨١ ص ٦٢٧).

وقال الإمام الباقر (ع): «ثلاث خصال لا يموت صاحبهن حتى يرى وبالهنّ: البغي وقطيعة الرحم واليمين الكاذبة». (أصول الكافي).

يوجب قرب الأجل:

قال أمير المؤمنين (ع) في خطبته: «أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء، فقام إليه عبد الله بن الكواء اليشكري.

فقال: يا أمير المؤمنين أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟

فقال: نعم، وتلك قطيعة الرحم، إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة فيرزقهم الله، وإن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً فيحرمهم الله وهم أتقياء». (أصول الكافي).

وعن الإمام الصادق (ع): قلت له: إن إخوتي وبني عمّي قد ضيّقوا علي الدار والجأوني منها إلى بيت، ولو تكلمت أخذت ما في أيديهم، قال:

فقال لي: اصبر، لأن الله سيجعل لك فرجاً، قال: فانصرفت ووقع الوباء في سنة إحدى وثلاثين ومائة، فماتوا والله كلهم، فما بقي منهم أحد، قال: فخرجت فلما دخلت عليه قال: ما حال أهل بيتك؟ قال: قلت له: قد ماتوا والله كلهم فما بقي منهم أحد، فقال: هو بما صنعوا بك، وبعقوقهم إياك وقطع رحمهم بتروا». (أصول الكافي).

يذهب رحمة الله:

عن الإمام الصادق (ع) أن رسول الله (ص) قال: «إذا ظهر العلم واحترز العمل، وائتلفت الألسن واختلفت القلوب وتقاطعت الأرحام، هنالك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم» (بحار الأنوار جزء ١٦ ص ٢٨).

وقال رسول الله (ص): «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما ادخره في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». (المستدرك).

وقال أيضاً: «لا يدخل الجنة قاطع رحم».

وقال (ص): «أخبرني جبرائيل أن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ما يجدها عاق ولا قاطع رحم. . .» (بحار الأنوار جـ ١٦ ص ٢٨).

وقال أيضاً: «قطع الرحم يمنع استجابة الدعاء».

صلة الرحم واجبة:

يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**﴾ السورة ٤ الآية ١.

يعني: كما تعظمون الله بحيث إن أحدكم يقسم به على الآخر أن افعل أو لا تفعل، فاتقوه ولا تخالفوا أمره، واتقوا قطع الرحم واسعَوا للارتباط بهم، وقد عطف (الأرحام) في الآية الشريفة على اسم الجلالة، وفي مجمع البيان روي هذا المعنى عن الإمام الباقر (ع)، وفي (الكافي) عن الإمام الصادق (ع) في معنى هذه الآية الشريفة نقل كما يلي: «هي أرحام الناس، إن الله تعالى أمر بصلتها وأعظمها، ألا ترى أنه تعالى جعلها منه». (أصول الكافي).

الصلاة والزكاة ـ التقوى وصلة الرحم:

روي عن الإمام الصادق (ع): «إن الله تعالى أمر بثلاثة مقرون بها ثلاثة أخرى. أمر بالصلاة والزكاة فمن لم يزك لم تقبل منه صلاته.

وأمر بالشكر له ولوالديه فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله. وأمر باتقاء الله وصلة الأرحام فمن لم يَصلِ رحمه لم يتق الله عز وجل» (عيون أخبار الرضا (ع).).

عطاء الرحم ويسر الحساب:

يقول تعالى في سورة النحل: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى**﴾. السورة ١٦ الآية ٩٠.

ويقول تعالى في سورة الرعد: ﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ**﴾.

إلى أن يقول في آخر الآية: ﴿**أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ، جَنَّاتُ عَدْنٍ**

يَدْخُلُونَها﴾. السورة ١٣ الآيات ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣.

ونفهم من قوله في الآية الشريفة ﴿يخافون سوء الحساب﴾ أن صلة الرحم توجب يسر الحساب، كما روي عن الرسول الأكرم (ص) والإمام الصادق (ع): «صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة، وهي منسأة في العمر وفي مصارع السوء». (بحار الأنوار جـ ١٦ ص ٢٨).

وصية الإمام الصادق (ع) للحسن الأفطس:

تقول سالمة مولاة أبي عبد الله (ع): إن الإمام الصادق حين حضرته الوفاة أغمي عليه، فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي بن الحسين ـ وهو الأفطس ـ سبعين ديناراً، وأعطوا فلاناً كذا وفلاناً كذا.

فقلت: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟

قال: تريدين أن لا أكون من الذين قال الله عز وجل «والذين يصلون ما أمر الله به يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب»؟ نعم يا سالمة، إن الله خلق الجنة فطيبها وطيب ريحها، وإن ريحها يوجد من مسيرة ألفي عام، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم» (بحار الأنوار).

صلة الرحم في الروايات:

وردت في وجوب صلة الرحم أخبار كثيرة؛ من جملتها ما روي عن الإمام الباقر (ع) قوله: «قال رسول الله (ص): أوصي الشاهد من أمتي والغائب منهم، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة، أن يصل الرحم ولو كان منه على مسيرة سنة، فإن ذلك من الدين». (أصول الكافي).

لا يعبر الصراط:

عن الإمام الباقر (ع): قال أبو ذر: سمعت رسول الله (ص) يقول: حافّتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مر الوَصول للرحم المؤدي للأمانة

نفذ إلى الجنة، وإذا مر الخائن للأمانة القَطوع للرحم لم ينفع معهما عمل. وتكفّأ به الصراط في النار» (أصول الكافي).

الآثار الدنيوية لصلة الرحم:

وردت روايات كثيرة تؤكد أن من آثار صلة الرحم طول العمر، وتأخير الأجل ودفع البلاء وزيادة الرزق ودفع الفقر وزيادة النسل.

الإمام الصادق (ع) في مجلس المنصور الدوانيقي، نقل عن رسول الله (ص) ثلاثة أحاديث حول صلة الرحم:

١ ـ قال رسول الله (ص): «إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيره الله ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيره الله ثلاث سنين، ثم قال (ص): يمحو الله ما يشاء ويثبت». (بحار الأنوار).

٢ ـ «صلة الرحم تعمر الديار وتزيد في الأعمار، وإن كان أهلها غير أخيار» (بحار الأنوار).

٣ ـ «صلة الرحم تهون الحساب وتقي ميتة السوء». (بحار الأنوار).

وأيضاً روي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال لميسر: «قد حضر أجلك غير مرة، كل ذلك يؤخر الله بصلتك لرحمك وبرك قرابتك». (بحار الأنوار).

سبب طول العمر:

وأيضاً روي عنه (ع) أنه قال لميسر: «يا ميسر لقد زيد في عمرك فأي شيء تعمل؟ قلت: كنت أجيراً وأنا غلام بخمسة دراهم،فكنت أجريها على خالي» (بحار الأنوار).

ودخل يعقوب المغربي على الإمام موسى بن جعفر (ع) فقال له الإمام (ع): «قدمت أمس ووقع بينك وبين أخيك شر في موضع كذا وكذا،

حتى شتم بعضكم بعضاً، وليس هذا ديني ولا دين آبائي ولا نأمر بهذا أحداً من الناس، فاتق الله وحده لا شريك له، فإنكما ستفترقان بموت، أما إن أخاك سيموت في سفره قبل أن يصل إلى أهله، وستندم أنت على ما كان منك، وذلك أنكما تقاطعتما فبتر الله أعمالكما.

فقال له الرجل: فأنا جعلت فداك متى أجلي؟

فقال (ع): أما إن أجلك قد حضر متى وصلت عملك بماوصلتها به في منزل كذا وكذا، فزيد في أجلك عشرون.

قال شعيب: فأخبرني الرجل ـ ولقيته حاجاً ـ أن أخاه لم يصل إلى أهله حتى دفنه في الطريق». (سفينة البحار جـ ١ ص ٥١٦).

الآثار المعنوية والأخروية لصلة الرحم:

عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «صلة الأرحام تحسن الخلق وتسمح الكف، وتطيب النفس» (أصول الكافي).

ذلك أنه من أجل أداء هذا التكليف، يضطر الإنسان في عملية معاشرة الأرحام إلى رعاية حسن السلوك، وبعد الممارسة والتمرن على ذلك يصبح ذا ملكة حسن الخلق حتى بالنسبة للآخرين، وكذلك ببركة صلة الرحم وتكرارها يصبح ذا ملكة سخاء وجود، وينجو من مرض البخل المهلك.

وأيضاً تطهر نفسه من مرض الحقد والحسد، وينجو من بلاء العداء مع الناس، لأنه بسبب صلة الرحم يصير محبوب الأقربين، بل سائر الخلق، ويأمن شرورهم.

قبول سائر الأعمال:

عن الإمام الباقر (ع): «صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتنسي الأجل». (أصول الكافي).

أفضل الخلوات:

عن الإمام السجاد (ع) قوله: «ما من خطوة أحب إلى الله من خطوتين، خطوة يسد بها المؤمن صفاً في الله، وخطوة إلى ذي رحم قاطع». (بحار الأنوار).

وقال رسول الله (ص): «إن في الجنة درجة لا يبلغها إلا إمام عادل، أو ذو رحم وَصول، أو ذو عيال صبور». (بحار الأنوار).

ثواب صلة الرحم:

وأيضاً قال (ص): «من مشى إلى ذي قرابة بنفسه وماله ليصل رحمه، أعطاه الله تعالى أجر مئة شهيد، وله بكل خطوة أربعون ألف حسنة، ويمحى عنه أربعون ألف سيئة، وترفع له من الدرجات مثل ذلك، وكأنما عبد الله تعالى مئة سنة». (بحار الأنوار).

وأيضاً عنه (ص): «الصدقة بعشرة، والقرض بثماني عشرة، وصلة الإخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربع وعشرين». (بحار الأنوار).

معنى صلة الرحم وقطعه:

بما أنه لم يرد في الشرع المقدس معنى خاص للرحم، إذن فالمراد منه هو المعنى العرفي الذي هو عبارة عن مطلق الأقارب، بمعنى الأقرباء من طرف الأب أو من طرف الأم، مهما كانت الواسطة، وكذلك الأقرباء عن طريق الأولاد. ينقل عروة بن يزيد عن الإمام الصادق (ع) في معنى الآية **﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾** قوله (ع): «هي قرابتك».

يعني صلة الرحم لكل الأقرباء، الحرام والحلال[1]، القريب منهم والبعيد. يعني ما كان فيه واسطة وما لم يكن.

---

(١) المقصود بالقريب الحرام هنا القريب الذي يحرم الزواج معه كالخال والعم بخلاف ابن الخال وابن العم.

لا فرق في الرحم بين الفقير والغني:

رغم أن عادة أهل الدنيا جرت على الاتصال بمن كان من الأقرباء صاحب جاه ومال، وإهمال الفقير والمحروم منهم، إلا أنه في الشرع المقدس لا فرق في حكم صلة الرحم وقطعه بين الأقارب، بل كلما كان أقرب، وأقل واسطة فالحكم أشد في حقه.

وقد نسب الشهيد الثاني عليه الرحمة هذا المعنى العرفي الذي ذكرناه للرحم إلى أكثر الفقهاء.

ما هي الصلة:

أي عمل يعتبر في العرف اتصالاً فهو صلة، مهما كان صغيراً مثل الابتداء بالسلام، أو رد السلام بالأحسن.

يقول الإمام الصادق (ع): «إن صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصِلوا أرحامكم وبروا إخوانكم، ولو بحسن السلام ورد الجواب». (أصول الكافي).

وفي حديث آخر يقول (ع): «صل رحمك ولو بشربة من ماء». (وسائل الشيعة).

مراتب صلة الرحم:

قال الشهيد الثاني عليه الرحمة في بيان مراتب صلة الرحم: « إن أعظم مراتبه الصلة بالنفس، وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة.

وبعده الصلة بدفع الضرر، بمعنى دفع الضرر عن الرحم إذا توجه له.

وبعده الصلة بإيصال المنفعة.

وبعده صلة من تجب نفقته على الرحم مثل زوجة الأب، وزوجة الأخ.

وأدنى مراتب الصلة أداء السلام للرحم، وأدنى منه إرسال السلام له.

وهكذا الدعاء له في غيبته، والقول الحسن حال حضوره»[1].

قطع الرحم عرفي أيضاً:

كما أن الصلة أمر عرفي كذلك قطع الرحم، فهو عبارة عن كل أمر يفهم منه في نظر العرف القطع، مثل عدم التحية أو التهجم أو الإعراض أو ترك الاحترام والآداب، أو عدم جواب الرسالة في السفر أوالحضر،أو عدم الزيارة والملاقاة، أو عدم عيادته إذا كان مريضاً أو إذا كان عائداً من السفر ونظائر ذلك.

القطع مختلف بالنسبة للأرحام:

لا شك في أن قطع الرحم وصلته يختلف في الصدق العرفي بحسب الزمان والمكان ومراتب الأرحام، وخصوصياتهم، فيمكن أن يكون عمل ما قطعاً بالنسبة للرحم القريب، أما بالنسبة للرحم البعيد فليس كذلك، وهكذا هو قطع بالنسبة للرحم الشريف ذي المقام، وليس كذلك بالنسبة لغيره.

طبعاً، في موارد الشك يجب مراعاة جانب الاحتياط، حتى لا يقع في الذنب الكبير (قطع الرحم).

التكبر على الرحم الفقير قطع:

ومن أقبح أقسام قطع الرحم أن لا يحترم الغني ذو الجاه، رحمه الفقير أو الذي لا جاه له، ولا يعرف له قرابته ويتكبر عليه، أما إذا رأى رحمه الغني الوجيه احترمه، وهذا في الحقيقة ليس صلة للرحم بل اعتناء بالمال وجيفة الدنيا،لا بشخص الرحم بعنوان الرحم، لأنه أعرض عن الرحم الفقير.

حد وجوب صلة الرحم:

القدر المسلم من وجوب الصلة المقدار الذي بتركه يصدق عرفاً قطع الرحم، إذن فأي عمل يصدق عليه صلة الرحم بنحو إذا لم يأت به قيل إنه

---

(١) النص مترجَم.

قطع الرحم يكون ذلك العمل واجباً شرعاً.

مثلاً: في أي وقت رأى الغني رحمه الفقير المحتاج إلى المخارج الضرورية كالنفقة اليومية أو معالجة مرضه، وطالبه بمقدار يدفع عنه الضرورة، فهنا إن لم يدفع له وضايقه كان قاطعاً للرحم، إذن فدفع ذلك المبلغ الذي يرفع له حاجته لا شك في أنه صلة للرحم وواجب شرعاً.

وكذلك أي نوع من الحاجات الضرورية التي يعرضها على رحمه وكان الرحم قادراً عليها، بحيث لو لم يحققها له عد في العرف قاطعاً للرحم، فتلك الأعمال من الصلة الواجبة.

اللهم إلا إذا كان تحقيق الحاجة له موجباً للعسر والحرج، أو كانت حاجته غير مشروعة، أو أنه في طريق تحقيق الحاجة له يقع في المعصية، ففي هذه الموارد لا يكون تحقيق الحاجة له واجباً.

مثال ذلك: ما لو قدم رحمه من السفر، وإن لم يزره عد في العرف قطعاً للرحم، ولكنه إذا أراد أن يصله ويزوره في بيته فإنه سيتورط في المعصية، فلا شك حينئذ بأن هذا القسم ليس من الصلة الواجبة.

الميزان العرفي للصلة والقطع:

في أي مورد يشك في أنه من المقدار الواجب من الصلة أم لا، يجب الرجوع إلى العرف، فإذا فهموا أن ترك ذلك قطع للرحم كان واجباً، وقد يكون أحياناً ترك السلام، أو ترك الإحسان القليل، أو عدم أداء الحاجة المختصرة، أو ترك الزيارة، قطعاً للرحم عند العرف.

إن لم يكن واجباً فهو مستحب:

أحياناً بعض الأمور وفي بعض الأرحام وبعض المواقع تعتبر قطعاً للرحم عرفاً، إلا أن عدمها إذا لم يكن قطعاً للرحم ولم يكن أداؤها واجباً، فإنه مستحب لا محالة، أما إذا لم يكن عدم وجوبها مسلماً فإنه يجب مراعاة

الاحتياط، وأن يأتي بعمل مهما أمكن، بحيث يكون على يقين من عدم وقوعه في هذا الذنب الكبير.

قطع القاطع حرام أيضاً:

في صورة ما إذا قام بعض الأشخاص بقطع الرحم، فإنه لا يصح معاملته بالمثل، أي يقوم بعمل يعد في العرف قطعاً للرحم، وبعبارة أخرى: إن قطع الرحم مع جميع الأرحام حرام، حتى مع أولئك الذين قطعوا الرحم، كما أشير لذلك في الأخبار السابقة.

قال رسول الله (ص): «لا تقطع رحمك وإن قطعك». (أصول الكافي).

كلام الإمام الصادق (ع):

عن عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله الصادق (ع): إن لي ابن عم أصله فيقطعني، وأصله فيقطعني، حتى لقد هممت لقطيعته إياى أن أقطعه.

قال (ع): «إنك إن وصلته وقطعك وصلكما الله، وإن قطعته وقطعك قطعكما الله تعالى». (أصول الكافي).

الإحسان للخائن:

قال رسول الله (ص): «لا تخن من خانك فتكون مثله، ولا تقطع رحمك وإن قطعك». (بحار الأنوار).

وأيضاً قال (ص): «ألا أدلكم على خير الدنيا والآخرة، قالوا بلى يا رسول الله، قال (ص): من وصل من قطعه، وأعطى من حرمه، وعفا عمن ظلمه». (بحار الأنوار جـ ١٦ ص ٢٩).

لا فرق في قطع الرحم بين المسلم والكافر:

ظاهر الإطلاقات الواردة في المقام أنه لا فرق في حرمة قطع الرحم بين

الرحم المسلم والكافر، شيعياً اثني عشرياً كان أم من سائر الفرق الإسلامية، عادلاً متقياً كان أم فاسقاً فاجراً.

إجمالاً: الكفر والفسق لا يسبب سقوط الرحمية.

عن الجهم بن حميد قال: قلت لأبي عبد الله (ع): تكون لي القرابة على غير أمري، ألهم عليّ حق؟

قال (ع): نعم حق الرحم لا يقطعه شيء، وإذا كانوا على أمرك كان لهم حقان، حق الرحم وحق الإسلام». (أصول الكافي).

صلة داود الرقي وموت الرحم:

يقول داود الرقي: كنت جالساً عند أبي عبد الله (ع) إذ قال لي مبتدئاً من قبل نفسه: يا داود، لقد عرضت علي أعمالكم يوم الخميس فرأيت فيما عرض علي من عملك صلتك لابن عمك فلان، فسرني ذلك، إني علمت أن صلتك له أسرع في فناء عمره وقطع أجله». (بحار الأنوار).

مقابلة الإمام الصادق (ع) لعبد الله الحسني:

عبد الله بن الحسن من أولئك الذين خاصموا الإمام الصادق (ع) وجادلوه، وطالبه بمبايعة ابنه (محمد) كما هو منقول في كتب التواريخ، ولم يردّه الإمام الصادق (ع) بأدنى جسارة، أو بأي عمل يشم منه قطع الرحم.

يوماً ما، وقع بين أبي عبد الله (ع) وبين عبد الله بن الحسن كلام، حتى وقعت الضوضاء بينهما، واجتمع الناس فافترقا عشيتهما بذلك.

تقول الرواية: في اليوم الثاني ذهب الإمام الصادق إلى منزل عبد الله بن الحسن، فسأله عبد الله بن الحسن: يا أبا عبد الله ما يكربك؟

فقال (ع): إني تلوت آية من كتاب الله عز وجل البارحة فأقلقتني.

قال: ما هي؟

قال (ع): قول الله جل وعز ذكره **﴿الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾**.

فقال: صدقت، لكأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله جل وعز قط، فاعتنقا وبكيا». (أصول الكافي).

تأثر الإمام الصادق (ع) على السادة الحسنيين:

يوم سجن المنصور الدوانيقي - عبد الله - المحض في الكوفة، وآخرين من السادة الحسنيين الذين خرجوا عليه. ورغم أنه - عبد الله المحض - كان مخالفاً للإمام الصادق (ع)، إلا أن الإمام تأثر شديداً لمصيبتهم، ومرض عشرين يوماً، وأرسل رسالة تعزية مفصلة إلى سجن الكوفة، وكان سائلاً عن أحوالهم دائماً، ويبكي على حالهم.

صلة الرحم لا تتنافى مع بغض الكافر:

ما ذكر من وجوب صلة الرحم، وحرمة قطعه - والذي لا يفرق فيه بين المسلم والكافر، والفاسق والمتقي - لا يتنافى أصلاً مع حرمة محبة الكفار والفجار ووجوب بغضهم ومعاداتهم. (كما سنذكره في بحث حرمة إعانة الظالم).

إن حسن السلوك والمعاشرة مع الرحم بالمقدار الذي يقال عرفاً إنه لم يقطع الرحم لا يتنافى مع البغض، ذلك أن البغض أمر قلبي وباطني.

ما لم يكن تأييداً للكفر:

نعم إذا كانت صلته سبباً لجرأته في الكفر أو الفسق، بنحو إذا قطعه احتمل أن يترك الكفر أو الفسق، ففي هذه الصورة لا مانع من قطع الصلة من باب النهي عن المنكر، ومع صورة الاطمئنان بأن قطع الصلة معه توجب تركه للكفر أو الفسق، فإنه حينئذ سيكون واجباً، كما يذكر في محله، وفي صورة اليقين، وصورة احتمال ترك الكفر أو الفسق تكون حرمة قطع رحمه باقية.

يجب طرد عدو الدين:

وفي صورة أخرى أيضاً يجب قطع الرحم مع الكافر أو الفاسق، وتلك هي حين يكون معادياً ومحارباً للدين، كما يقول تعالى في سورة المجادلة: **﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾**. السورة ٥٨ الآية ٢٢.

إن لم يكن عدوّاً فصلته واجبة:

وفي سورة الممتحنة يقول تعالى: **﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**. السورة ٦٠ الآيتان ٨ ـ ٩.

السفر لصلة الرحم:

في الشرع المقدس يستحب السفر لصلة الرحم وزيارة الأقارب، كما روي عن رسول الله (ص) قوله لأمير المؤمنين (ع): «يا علي سر سنتين برَّ والديك، سر سنة صلِ رحمك، سر ميلاً عد مريضاً، وسر ميلين شيّع جنازة، سر أربعة أميال زُر أخاً في الله». (بحار الأنوار).

وفي الأخبار السابقة ورد أن من مشى لزيارة الأرحام كان له بكل خطوة أربعون ألف حسنة، وتمحى عنه بكل خطوة أربعون ألف سيئة ورفع له أربعون درجة.

البعد والمحبة:

في المكاتبة المنسوبة لأمير المؤمنين (ع) مع عماله ورد «مُروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا» وقد كتب المرحوم النراقي في شرح هذه الجملة في كتاب (معراج السعادة): «ذلك أن الجوار باعث للبغض والحسد وقطع

الرحم، وهذا أمر مشاهد، كالذي نراه في أكثر أهل زماننا المعـاصر، حيث يتحابب الأقرباء أكثر كلما تباعـدوا ويتصاعـد بذلـك شوقهم، نعم ذلـك هو المثل المشهور (البعد والمحبة)».

صلة الأرحام الروحيين:

ليس خفيـاً على أهل البصيـرة أن الإنسان لـه بعـدان وجنبتـان، البعـد الروحي والبعد الجسمي، وسبب وجـوده وتكامله من النـاحية المـادية الأب والأم، أما سبب تحقق الجنبة الروحية فيه، وتأمين سعـادته الـدائمة وحيـاته الحقيقيـة فهو الأب الـروحي، أي محمـد (ص) وعلي (ع)، اللذان ببـركـة محبتهما وإطاعتهما وكمال التسليم والانقياد لهما، يدخل الله تعالى الإنسان في حصن روحانيتهما، ويربطه بمقامهما الشامخ، وتتحول الجنبة الروحية في الإنسان من حالة القوة إلى حالة الفعلية، وتنفتح له أبواب العلوم والمعارف، وتجري في قلبه عيون الحكمة والحقيقة. ويدرك الحياة الطيبة الإنسانية.

إن لم يكن هذان العظيمان فلا يمكن للإنسان أن يرقى خطوة واحدة من جنبته الحيوانية وآثار الحياة الدنيوية، ليعيش في حياة إنسانية.

نعمة البعثة أعظم النعم:

ما لم يكن الشخص ابناً روحياً له (ص)، وما لم يستفد من نعمة محبته وولايته، فإنه لا يعرف قدر هذه النعمة العظيمة.

لذا لم يعبر الله تعالى في القرآن المجيد عن أي نعمة من النعم الإلهية العظيمة بأنها (منة)، فقط في نعمة بعثة هذا الأب الروحي حيث يقول: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾** السـورة ٣ الآية ١٦٤.

الولاية ليست قابلة للقياس:

روي عن يونس بن عبد الرحمن أنه قال للإمام الصادق (ع): «لَوِلاي لكم، وما عرفني الله تعالى من حقكم أحب إلي من الدنيا بحذافيرها.

قال يونس: فتبينت الغضب فيه،

قال: يا يونس قستنا بغير قياس، ما الدنيا وما فيها؟

هل هي إلا سدّ فورة أو ستر عورة؟ وأنت لك بمحبتنا الحياة الدائمة». (سفينة البحار جـ ٢ ص ٦٩٢).

وفي بحث عقوق الوالدين ذكر مختصر عن حق الأب الروحي، وكيف كان فإن أحداً لا يستطيع أن يخرج من عهدة حق الأب الروحي، وليس لنا وسيلة إلا الإقرار بالعجز والاعتراف بالقصور والتقصير في مقابله (ص).

من هم الأرحام الروحيون:

ما يجب أن نتذكره في هذا البحث صلة الروحاني. من يتصل بالشخص عن طريق أبويه الجسميين كالأخ، رحم تجب صلته، ويحرم قطعه. كذلك من يتصل بالشخص عن طريق والده الروحي، يعتبر رحماً روحياً، تجب صلته ويحرم قطعه.

والمتصلون عن طريق الأب الروحي طائفتان:

الأولى: أولاده الجسميون، أي سلسلة السادات الجليلة (أهل البيت (ع) وذريتهم).

الثانية: المؤمنون والشيعة، أي أولئك الذين صاروا أبناء روحيين له (ص)، والذين هم إخوة فيما بينهم، حيث يقول القرآن الكريم: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ لأنهم يتصلون جميعاً بأب روحي واحد.

حقوق السادة:

نكتفي في هذا الجمال بما كتبه العلامة الحلي في آخر كتاب قواعد الأحكام الذي ألفه لولده فخر المحققين،

يقول: «وعليك بصلة الذرية العلوية، فإن الله تعالى قد أكد الوصية فيهم وجعل مودتهم أجر الرسالة والإرشاد، فقال تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾. قال رسول الله (ص): «إني شافع يوم القيامة لأربعة أصناف ولو جاؤوا بذنوب أهل الدنيا: رجل نصر ذريتي، ورجل بذل ماله لذريتي عند المضيق، ورجل أحب ذريتي باللسان والقلب، ورجل سعى في حوائج ذريتي إذا طردوا أو شردوا».

وقال الإمام الصادق (ع): «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أيها الخلائق أنصتوا فإن محمداً يكلمكم، فينصت الخلائق فيقوم النبي (ص) فيقول:

يا معشر الخلائق، من كانت له عندي يد أو منة أو معروف فليقم حتى أكافيه، فيقولون:

بآبائنا وأمهاتنا، أي يد وأي منة وأي معروف لنا؟ بل اليد والمنة والمعروف لله ورسوله على جميع الخلائق.

فيقول (ص): بل من آوى أحداً من أهل بيتي، أو برهم أو كساهم من عري، أو أشبع جائعهم فليقم حتى أكافيه، فيقوم أناس قد فعلوا ذلك، فيأتي النداء من عند الله: يا محمد، يا حبيبي، قد جعلت مكافأتهم إليك، فأسكنهم من الجنة حيث شئت. فيسكنهم في الوسيلة حيث لا يحجبون عن محمد (ص) وأهل بيته (ع)».

حقوق أخوة الإيمان:

الأخبار التي وردت حول حقوق أخوة الإيمان عديدة نكتفي بذكر بعضها:

عن معلّى بن خنيس عن أبي عبد الله (ع) قال:

قلت له: ما حق المسلم على المسلم؟

قال (ع): له سبع حقوق وواجبات ما منهن حق إلا وهو عليه واجب، إن ضيع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته، ولم يكن لله فيه من نصيب.

قلت له: جعلت فداك وما هي؟

قال: يا معلّى إني عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ، وتعلم ولا تعمل.

قال: قلت له لا قوة إلا بالله.

قال: أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك.

والحق الثاني: أن تجتنب سخطه، وتتبع مرضاته وتطيع أمره.

والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك.

والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته.

والحق الخامس: أن لا تشبع ويجوع، ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى.

والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم، فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه.

والحق السابع: أن تبر قسمه وتجيب دعوته وتعود مريضه وتشهد جنازته، وإذا علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها، ولا تلجئه أن يسألكها ولكن تبادره مبادرة، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك». (أصول الكافي).

زيارة المؤمن الصالح زيارة الإمام (ع):

قال الإمام الرضا (ع): «من لم يقدر أن يزورنا فليزر موالينا، يكتب له ثواب زيارتنا، ومن لم يقدر على صلتنا فليصل صالحي موالينا، يكتب له ثواب صلتنا». (بحار الأنوار).

وحيث إن إكرام أو إهانة إخوة الإيمان هو إكرام وإهانة للأب الروحي، فقد ذكر أن لإكرام المؤمن وإهانته آثاراً عظيمة، نمتنع عن تفصيلها خشية الإطناب في الكلام.

وفقنا الله تعالى لأداء الحقوق.

* * *

(٨) أكل مال اليتيم

الثامن من الذنوب الكبيرة أكل مال اليتيم، أي الطفل الذي لم يبلغ حد البلوغ ومات أبوه.

الرسول (ص) والإمام أمير المؤمنين (ع) والإمام الكاظم، والرضا، والجواد، عليهم السلام عدّوا أكل مال اليتيم من الذنوب الكبيرة، ومن الذنوب التي وعد الله عليها بالنار، بل صرح تعالى بأنه كبير.

يقول تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾**. السورة ٤ الآية ١٠.

وفي (التفسير الكبير) ذكر أن آكل مال اليتيم حينما يرد المحشر يوم القيامة تلتهب ألسنة النار في جوفه، حتى ليخرج دخانها من فمه وعينه ولسانه وأنفه، ويعرف بذلك عند جميع الناس أنه آكل مال اليتيم.

وجملة «سيصلون» هي غاية التهديد، حتى يعلم أن أكل مال اليتيم هو علة تامة لدخول جهنم، وليس سبباً ناقصاً، بل كبيرة من الكبائر العظيمة.

ويقول تعالى أيضاً: **﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾** أي في حال صغرهم أنفقوا عليهم ولا تضيّقوا، وبعد البلوغ سلموها لهم، **﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾**، أي تأخذوا مال الحرام الذي هو ملك الأيتام بدل مال الحلال المتعلق بكم.

والمراد أن الطاهر من مال اليتيم هو في حقكم خبيث فاجتنبوه، وما لكم الحقير هو بالنسبة لكم طيب وظاهر فخذوه.

وخلاصة المعنى أن لا تمدوا أيديكم إلى مال اليتيم واتركوه حتى إذا كان ذا قيمة، وضعوا مكانه أموالكم وإن كانت قليلة وليست ذات قيمة.

ولا تأكلوا، ولا تنتفعوا بأموال اليتامى في حال خلط أموالهم بأموالكم، واعلموا أن أكل مال اليتيم ـ إما بإبداله أو الخيانة فيه ـ هو عند الله ذنب كبير.

إن في هذه الآية تصريحاً باعتبار هذا الذنب من الكبائر.

التلافي بالمثل لازم:

عن الإمام الصادق (ع): «إن الله عز وجل أوعد في مال اليتيم عقوبتين؛ أما إحداهما فعقوبة الآخرة، النار، وأما عقوبة الدنيا فهي قوله عز وجل: **﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾**. (وسائل الشيعة).

أي كل من ظلم يتامى الناس وأتلف أموالهم سيظلم يتاماه بعد موته، وكيفما يتعامل مع يتامى الناس يُتعامل مع أولاده بعد موته.

وما ذكر من معنى الآية مروي عن الإمام أمير المؤمنين (ع) والصادق (ع)، والرضا (ع) وهناك وجوه أخر مذكورة في التفاسير.

روي عن أمير المؤمنين (ع): «إن آكل مال اليتيم سيدركه وبال ذلك في عقبه،ويلحقه وبال ذلك في الآخرة». (بحار الأنوار).

وأيضاً روي عنه (ع) قوله: «أحسنوا في عقب غيركم، تحسنوا في عقبكم» (بحار الأنوار).

إذن، واحد من آثار ظلم يتامى الناس وأكل أموالهم ظلم يتامى الظالم نفسه، والذين يخافون هذا الأمر يجب أن يخافوا من ظلم يتامى الآخرين.

روي عن الإمام الصادق (ع): «من ظلم سلط الله من يظلمه، أو على عقبه، أو على عقب عقبه». (أصول الكافي).

وقوع وبال الظالم على أولاده لا يتنافى مع العدل:

إذا قيل: ما هو تقصير الأولاد حتى ينزل عليهم وبال عمل الظالم الذي

ظلم يتامى الناس وأكل أموالهم؟

هذا أمر خلاف العدل!!

فجوابه: معنى أن الله تعالى يسلط الظالم على أولاده، أنه تعالى لا يمنع من يريد أن يظلم أولاد ذلك الظالم، والمنع من ظلم الأولاد هو تفضل وإحسان يتفضل به الله على الأب، وحيث إن الأب ظالم ليتامى الناس، فهو إذن لا يستحق هذا التفضل.

وقد روي عن الإمام الصادق (ع): «يحفظ الأطفال بصلاح آبائهم، كما حفظ الله الغلامين بصلاح أبويهما». كما قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**﴾. السورة ١٨ الآية ٨٢.

إذن فصلاح الأب سبب لتفضل الله على الولد، كما أن كون الأب ظالماً سبب لمنع ذلك التفضل[١].

أخبار حول هذا الذنب:

عن الإمام الصادق (ع): قال: سألته عن الكبائر.

قال (ع): «منها أكل مال اليتيم ظلماً». (بحار الأنوار).

وعن الإمام الباقر (ع): قال رسول الله (ص): يبعث ناس عن قبورهم يوم القيامة تأجج أفواههم ناراً.

فقيل: يا رسول الله من هؤلاء؟

قال (ص): «الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً». (بحار الأنوار).

وعن الإمام الرضا (ع) أنه سئل: كم أدنى ما يدخل به النار من أكل مال اليتيم؟

---

(١) تفسير العياشي.

قال (ع): كثيره وقليله واحد إذا كان من نيته أن لا يرده. (بحار الأنوار).

وروي عن رسول الله (ص) أنه قال: «لمّا أسري بي إلى السماء رأيت قوماً يقذف في أجوافهم النار، ويخرج من أدبارهم، فقلت من هؤلاء يا جبرائيل؟

فقال (ع): هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً». (وسائل الشيعة).

موت الدائن والأولاد صغار:

إذا مات الدائن وله أولاد صغار، فإن المدين إذا لم يعمل عملاً بمقدار سهام الصغار فإنه يعتبر آكلا لمال اليتيم، وذلك أنه بموت الأب انتقلت أمواله إلى أولاده.

وجع عين أمير المؤمنين (ع):

في رواية: «أن أمير المؤمنين (ع) اشتكى عينه فعاده النبي (ص) فإذا هو يصيح، فقال له النبي (ص): أجزعاً أم وجعاً؟

فقال: يا رسول الله ما وجعت وجعاً قط أشد منه.

الخبر الموحش:

فقال (ص): يا علي، إن ملك الموت إذا نزل لقبض روح الكافر نزل معه سفود من نار فنزع روحه به، فتصيح جهنم، فاستوى علي (ع) جالساً.

فقال: يا رسول الله، أعد عليّ حديثك، فقد أنساني وجعي ما قلت.

ثم قال (ع): هل يصيب ذلك أحداً من أمتك؟

قال (ص): نعم، حاكم جائر، وآكل مال اليتيم ظلماً، وشاهد زور» (سفينة البحار جـ ٢ ص ٧٣١).

الإحسان لليتيم:

كما أن الظلم لليتيم له عقوبات دنيوية وأخروية، كذلك الإحسان لليتيم

له أجر دنيوي وأخروي، خصوصاً في حفظ اليتامى وتكفلهم، وبذلك روايات عديدة نشير إلى بعضها:

عن الإمام الصادق (ع): «من كفل يتيماً أوجب الله له الجنة، كما أوجب جهنم على آكل ماله».

وقال رسول الله (ص): «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة إذا لقي الله تعالى، وأشار بالسبابة والوسطى». (بحار الأنوار).

وأيضاً قال (ص): «لا يلي أحدكم يتيماً فيحسن ولايته ـ ووضع يده على رأسه ـ إلا كتب الله له بكل شعرة حسنة، ومحا بكل شعرة سيئة، ورفع له بكل شعرة درجة».

وأيضاً قال (ص): «إذا بكى اليتيم اهتز لبكائه العرش، فيقول الله تعالى: يا ملائكتي، هذا اليتيم الذي غيب أبوه في التراب، فيقول الملائكة: أنت أعلم، فيقول الله تعالى: يا ملائكتي إني أشهدكم أنّ لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة».

ومن آثار مسح رأس اليتيم باليد منْ باب الترحم، زوال مرض قساوة القلب، كما ذكر في عدة روايات، والأحاديث الواردة في هذا الباب كثيرة نكتفي بما تقدم.

أولياء الصغير:

الطفل الذي لم يكمل السنة الخامسة عشرة من عمره، والطفلة التي لم تكمل التاسعة من عمرها محجور على أموالهما، أي لا يمكنهما التصرف في أموالهما وذمتهما بأي نوع، وحق التصرف في أموالهما، وكذلك العمل الصالح لهما منحصر بالولي.

والولي الشرعي للصغير في المرتبة الأولى هو الأب فقط أو الجد من طرف الأب، أما الأم أو الجد من طرف الأم، والأخ والأعمام وغيرهم فإنه لا ولاية لهم.

وفي المرتبة الثانية ـ يعني إذا كان الأب أو الجد الأبوي ميتاً ـ فإن الولي الشرعي حينئذ هو من وضعه الأب أو الجد الأبوي قيّماً على الصغار.

وفي المرتبة الثالثة ـ يعني مع عدم وجود الأب والجد الأبوي وعدم تعيين القيّم ـ فإن وليه حينئذ الحاكم الشرعي، أو من يجعله الحاكم الشرعي قيّماً على هؤلاء الصغار.

وفي المرتبة الرابعة ـ يعني في صورة عدم وجود الحاكم الشرعي ـ يكون أمر الصغير بيد عدول المؤمنين، المذكور في محله.

تجب الدقة في عمل اليتيم:

يستطيع القيّم على الصغير أن يأتي بأي نوع من المعاملة يرى فيها صلاحاً للصغير.

ولا ينبغي أن يتشدد في طعامه ولباسه، وبالطبع لا يحق له الزيادة المضاعفة، بل يوفر له المتوسط الذي يحفظ به وجهه، مع ملاحظة عادة الطفل وشأنه.

فألبسة الصغير الاحتياطية يجب عليه أن يعزلها ويحبسها من مال الصغير، ولا يحق له أن يخلطها بملابس العائلة.

أما بالنسبة إلى طعام اليتيم فإنه لا يجب عليه أن يهيئ له طعاماً على حدة من ماله الخاص، بل يجوز اعتباره جزءاً من عائلته ومن جملتهم، ويأخذ من ماله حسب النسبة، مثلاً إذا كانت قيمة الطعام الذي هيأه عشرة دراهم، وكان عدد العائلة تسعة أشخاص ومع اليتيم الصغير تبلغ عشرة فإن سهم الصغير حينئذ درهم واحد، يستطيع أن يأخذه من ماله، وإذا حسب سهم الصغير أقل من ذلك كان أفضل وأقرب للاحتياط.

والغالب أن مشاركة الصغير في الطعام بالنحو المتقدم أقل نفقة مما إذا هيأ له طعاماً مستقلاً من ماله.

نعم، في صورة وجود التفاوت الفاحش بين اليتيم والعائلة كما أو كيفاً، كما لو كان طعام الصغير نصف طعام العائلة، أو كان الصغير لا يأكل اللحم والأرز، ففي هذه الصورة يكون الاشتراك مشكلاً، وتجب مراعاة الأفضل والأصلح للصغير في جميع الأحوال.

كما يذكرنا القرآن المجيد في الآية ٢٢٠ من سورة البقرة، التي قيل في سبب نزولها أنه بعد نزول آية تحريم أكل مال اليتيم وشدة عقوبته، شدد المسلمون على أنفسهم، وابتعدوا عن اليتامى وأموالهم خوفاً من العذاب الإلهي، حتى كان أحدهم يفصل اليتيم عن عائلته، ويهيئ له طعاماً مستقلاً، وإذا فضل منه شيء تركه ولم يمسه حتى يفسد، ومن جرّاء ذلك وقعوا في صعوبة وحرج، وسألوا رسول الله (ص) عن تكليفهم في أموال اليتامى، فأنزل الله تعالى هذه الآية: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾**. السورة ٢ الآية ٢٢٠.

إذا كان القيّم ثريّاً فلينفق مجّاناً:

القيّم على الصغير إذا كان غنياً ومكتفياً في معيشته، فالاحتياط أن يقوم بأعمال الصغير تبرعاً ومجّاناً، ويقنع بما وعد الله تعالى من الأجر والثواب الأخروي، كما يقول القرآن الكريم: **﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾** السورة ٤ الآية ٦.

أقل الأمرين أحوط وأولى:

وإذا كان القيّم فقيراً فإن له في مقابل عمله لليتيم وعنائه من أجله أجرة، وفي تعيين حقه هناك ثلاثة أقوال:

يرى بعض الفقهاء أن له أن يأخذ أجرة المثل، بمعنى الرجوع إلى العرف، وأي مقدار قرره العرف أجرة يستطيع أن يأخذه.

وذكر آخرون أن له يأخذ بمقدار كفايته ورفع حاجته لا أكثر.

والبعض الآخر ذكر أن حقه أقل الأمرين، فإذا كانت أجرة المثل تكفيه وترفع حاجته أخذ أجرة المثل، وإذا كان رفع الحاجة أقل من أجرة المثل اكتفى به، وهذا القول الثالث أحوط وأولى.

ما لم يصل حد الرشد لا يمكن أن يعطيه ماله:

ما لم يبلغ الصغير سن البلوغ، ويصير راشداً فإنه لا يجوز أن يعطى المال ويوضع تحت تصرفه، وإذا خالف القيّم هذا الحكم؛ أي سلم مال اليتيم إليه ووضعه تحت تصرفه وتلف المال، فإن ولي الطفل ضامن، ويجب عليه بعد بلوغ الصغير رشده[1] أن يعطي لليتيم عوضه، وهكذا سائر أمواله.

علامة البلوغ في نظر الشرع:

يعرف البلوغ بإحدى علامات ثلاث:

١ ـ إكمال خمسة عشر عاماً قمرياً في الابن، وتسعة أعوام في البنت.

٢ ـ إنبات الشعر الغليظ على العانة.

٣ ـ خروج المني باحتلام أو غيره.

ما هو الرشد؟

الرشد عبارة عن العقل الحياتي، بحيث يستطيع اليتيم بنفسه أن يخرج من عهدة الأمور الحياتية، ولا يخدع في المعاملات، وحاله حال سائر العقلاء في حفظ المال وصرفه في محله.

وعند تحقق هذين الشرطين: أي البلوغ والرشد، يجب على الولي أن يحول إلى الصغير ماله.

---

(١) ﴿فإنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فادْفَعُوا إلَيْهِمْ أمْوَالَهُمْ﴾. السورة ٤ الآية ٦.

(٩) ــــــــــــــــــ أكل الربا

التاسع من الذنوب الكبيرة الذي صرح باعتباره ذنباً كبيراً هو الربا.

في الأحاديث عن رسول الله (ص) والإمام أمير المؤمنين (ع) والإمام الصادق (ع) والإمام الرضا (ع) والإمام الكاظم (ع) والإمام الجواد (ع) صرّحوا عليهم السلام باعتباره ذنباً كبيراً، وهو أيضاً من جملة الذنوب التي جاء الوعيد عليها في القرآن المجيد بالعذاب، بل شدة العذاب فيه أكثر من كثير من الكبائر.

في سورة آل عمران يقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾**. السورة ٣ الآيتان ١٣٠ ـ ١٣١.

أي أن النار التي هي بالأصل للكافرين تستحقونها أنتم بأكل الربا. يقول تعالى في سورة البقرة: **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَيَقُومُونَ إلاّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ﴾**[1] السورة ٢ الآية ٢٧٥.

---

(١) يقول في تفسير الميزان:

وقد شدد الله سبحانه في هذه الآيات في أمر الربا بما لم يشدد بمثله في شيء من فروع الدين، إلاّ في تولي أعداء الدين، فإن التشديد فيه يضاهي تشديد الربا. وأما سائر الكبائر فإن القرآن وإن أعلن مخالفتها وشدّد القول فيها، فإن لحن القول في تحريمها دون ما في هذين الأمرين، حتى الزنا وشرب الخمر والقمار والظلم، وما هو أعظم منها كقتل النفس التي حرم الله والفساد، فجميع ذلك دون الربا وتولي أعداء الدين.

وليس ذلك إلا لأن تلك المعاصي لا تتعدى الفرد أو الافراد في بسط آثارها المشؤومة، ولا تسري إلا إلى بعض جهات النفوس، ولا تحكم إلا في الأعمال والأفعال، بخلاف هاتين المعصيتين فإن لهما من سوء التأثير ما ينهدم به بنيان الدين ويعفى أثره، ويفسد به نظام حياة النوع، ويضرب الستر على الفطرة الإنسانية ويسقط حكمها، فيصير نسياً منسياً على ما سيتضح إن شاء الله العزيز بعض الاتضاح. وقد صدق جريان التاريخ كتاب الله=

الانحراف عن العقل والشرع :

أي أن المتعاطين للربا يوم القيامة ينهضون كالمجانين، ويعرفهم بذلك أهل المحشر، وحشر آكلي الربا بهذه الصورة لأنهم انحرفوا في الدنيا عن طريق العقل والشرع، والابتعاد عن مقتضى الحياة الإنسانية، كالرحمة والعدالة وإعانة البعض للبعض، وفي الحقيقة إن آكل الربا هو في الدنيا مجنون وممسوس الشيطان ومتحرك بحركته.

هل الربا كالمعاملة :

كلما يقال لهؤلاء:لماذا تأكلون الربا؟ يقولون:إنه نوع من المعاملة، ولا فرق بين الربا وبين المعاملة، وبما أن البيع حلال فكذلك الربا، والحال أن هذا الشخص المجنون لا يعلم أن الفرق بين الربا والبيع كبير، ذلك أن البيع عبارة عن تعويض مال لا حاجة له به بمال يحتاج إليه، وهذا أمر عقلائي وعادل من لوازم الحياة الاجتماعية للإنسان، أما الربا فهو عبارة عن إعطاء المال الذي لا حاجة له به لآخر به حاجة،بشرط أنه عند إعادته يعطيه مع زيادة، أو أنه إذا لم يعطه عند رأس الموعد يؤجله فترة أخرى بشرط الزيادة.

الربا سبب الاختلاف الطبقي :

لا شك في أن هذه المعاملة ظالمة وغير عادلة، وعلى خلاف الوجدان

= فيما كان يشدد في أمرهما، حيث، أهبطت المداهنة والتولي والتحاب والتمايل إلى أعداء الدين الأمم الإسلامية في مهبط الهلكة، وصاروا فيها نهباً منهوباً لغيرهم: لا يملكون مالاً ولا عرضاً ولا نفساً، ولا يستحقون موتاً ولا حياة، فلا يؤذن لهم فيموتوا، ولا يغمض عنهم فيستفيدوا من موهبة الحياة، وهجرهم الدين ارتحلت عنهم عامة الفضائل.

وحيث ساق أكل الربا إلى ادخار الكنوز وتراكم الثروة والسؤدد، فجرّ ذلك إلى الحروب العالمية العامة، وانقسام الناس إلى قسمين: المثري السعيد والمعدم الشقي، وبان البين، فكان بلوى يدكدك الجبال ويزلزل الأرض، ويهدد الإنسانية بالانهدام، والدنيا بالخراب، ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى.

وسيظهر لك إن شاء الله تعالى أن ما ذكره الله تعالى من أمر الربا وتولي أعداء الدين من ملاحم القرآن الكريم.

والفطرة الإنسانية، ومدمرة للنظام الاجتماعي، ذلك أنه من جهة تتراكم الثروة عند الدائن يومياً دون أي عمل وجهد، ومن جهة أخرى الطرف المدين يزداد فقره وضيقه، ومن لوازم هذه الفاصلة تفاقم الفقر والبغض الشديد بين الفقراء والأغنياء، وضرر ذلك على النظام الاجتماعي هو حدوث الانقلاب الدموي الناشئ من الاختلاف الطبقي، وهو أمر واضح جداً، كما اعتبره بعض المفكرين والمحققين أحد أسباب اندلاع الحرب العالمية[1].

القرض الحسن بدون فائدة:

بالجملة فإن المال يجب أن يدفع للمحتاجين بدون ربح وفائدة، لتقوى بذلك حقيقة المحبة والرأفة والحنان، وروح الصداقة والتعاون الاجتماعي بين الناس.

---

(١) في كتاب السلام العالمي والإسلام كتب المؤلف:

«يقول الإسلام إن الأجرة هي فقط في مقابل العمل والجهد، وبما أن رأس المال في حد نفسه ليس عملاً وجهداً، إذن لا يستحق في نفسه أخذ الفائدة، والطريق الوحيد للربح هو فقط العمل والجهد، وبناء على ذلك فإن وجود المال والثروة لدى صاحبها لا يكفي سبباً لزيادة المال، وذلك بإضافة الفائدة عند القرض.

هذا القانون الأساسي في الإسلام مانع عظيم في طريق زيادة الثروة، كما هو في النظام الرأسمالي أفضل طريقة لزيادة الثروة، ومن أجل حاجة البعض إلى المال فإن الإسلام قد وضع شرائط وقوانين عديدة باتجاه منع تراكم الثروة.

كما أنه في تحريم الربا قطع الإسلام أهم عوامل الاستعمار والحرب العالمية، وأعطى القيمة للعمل والجهد في مجال التصنيع والانتفاع، وبنى العدالة بين الجهد الحقيقي وبين الأجرة والفائدة، ووقف حاجزاً دون أن يصبح الأثرياء العاطلين عن أي عمل أصحاب الآلاف المؤلفة، والحال أن هذه المجموعة في العالم الرأسمالي يضيفون لثرواتهم فوائد محرمة، لمجرد اشتراك أموالهم في البنوك وغيرها، وفي حال اشتغالهم باللهو واللعب تزداد ثروتهم يوماً بعد يوم، ويخلقون صدمة للتوازن الاقتصادي والاجتماعي، كما يلاحظ في العالم الرأسمالي شواهد كثيرة.

«حول الربا والمفاسد لأكل الربا الذي حرم شديداً في الإسلام، هناك كتاب جامع وجاذب بعنوان (الربا) تأليف الأستاذ أبو الأعلى المودودي، فيه أرقام كثيرة في هذا المجال».

إذن فأكل الربا على خلاف النظام الاجتماعي، وموجب للبغض والعداوة والحسد والنفرة، وينتهي إلى الهلاك.

آكل الربا محروم من الخيرات:

إن مفاسد أكل الربا المعنوية عظيمة وكثيرة.

منها المحرومية من آثار الخير والبركة المعنوية، في التكسب والعمل والسعي في تحصيل المعاش، كما يقول رسول الله (ص): «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال» (وسائل الشيعة).

وأيضاً قال (ص): «التاجر الصدوق يحشر مع الأنبياء ووجهه كالقمر ليلة البدر». (المحجة البيضاء جزء ٣ ص١٤٠).

الحرمان من التوكل على الله:

ومن جملتها الحرمان من التوكل على الله، والتضرع واللجوء ببابه، وطلب البركة منه، ذلك أن كل أمل آكل الربا هو الفائدة التي يأمل أن يحصل عليها من خلال العمل الفاسد، وهو شركٌ واضح كما ذكر في بحث (الشرك) مفصلاً[1].

ثواب كثير في القرض الحسن:

ومن جملتها الحرمان من الأجر الكبير الذي أعد في القرض الحسن، ذلك أن الصدقة بعشر حسنات، إلا أن القرض بثمانية عشرة حسنة، ومن يمهل المدين من دون أن يطلب الفائدة منه، يكتب له بكل يوم ثواب إعطاء ذلك المال صدقة في سبيل الله، وفي الحقيقة إن الشخص الذي يأكل الربا لا

---

(١) ومن جملة وجوه الاختلاف بين الربا والمعاملة هو أنه في التجارة يوجد احتمال الربح والخسارة معاً، ولذا يسعى المرء بمقدار قوته، ويرجو من الله أن يبارك له، ويأمل أن يجعل الله الربح من نصيبه، أما في الربا فإن الربح والفائدة يقينية تؤخذ من مال المدين المضطر.

يصدق بالوعد الإلهي حول الصدقة والقرض الحسن، ومبتلى بمرض البخل والحرص، ولا شك في أن عاقبة البخل هي النار.

العذاب الأليم الدائم:

ولأن مفاسد أكل الربا العظيمة والدنيوية والأخروية بالنسبة له وللمجتمع أكثر من سائر الكبائر، جاء في القرآن المجيد وأخبار أهل البيت (ع) تشديد أكثر حوله، واعتبر هذا الذنب أكبر من باقي الذنوب، وعذابه عظيم، بنحو أن آكل الربا إذا لم يندم على عمله، وظل مصراً على هذا العمل الشنيع، ولم يقبل الحكم الإلهي بالتحريم، فإنه سيكون من أولئك المخلدين في عذاب جهنم، ولا يتصور نجاته أبداً.

قال تعالى: ﴿**فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ** - أي النهي عن الربا - **فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ** - أي لا يسأل - **وَأَمْرُهُ** - في لزوم تدارك الذنب السالف وعدم لزوم ذلك - **إِلَى اللهِ**﴾ السورة ٢ الآية ٢٧٥.

كما هو في بعض الذنوب حيث لم يحدد تدارك محدد مثل الشرك. ففي كل وقت تاب المشرك فإن توبته مقبولة، وما مضى منه لا يحتاج إلى تدارك، وفي بعض آخر يجب التدارك، كوجوب قضاء الصلاة والصيام بعد التوبة عن تركهما، ومثل وجوب إرجاع المال الذي أخذه بعنوان الفائدة في الربا، فإن صاحبه يجب أن يرجعه بعد التوبة.

ويقول تعالى - بعدئذ: ﴿**وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾. أي من رجع إلى ذلك الذنب بعد أن نهى الله تعالى عنه فإنه ملازم للعذاب الدائم.

مال الربا لا بركة فيه:

يقول تعالى بعدذلك: ﴿**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾ السورة ٢ الآية ٢٧٦.

أجل، مهما كان مال الربا كثيراً إلا أن عاقبته إلى القلة وسوء النصيب، كما هو ثابت بالتجربة أن مال الربا لا دوام له،فإما يخرج من يديه أو يخرج من يد أولاده وورثته[1].

محاربة الله ورسوله:

يقول تعالى في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾السورة ٢ الآيتان ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

---

(١) في تفسير الميزان: «وقد قوبل في الآية بين إرباء الصدقات ومحق الربا، وقد تقدم أن إرباء الصدقات وإنماءها لا يختص بالآخرة، بل هي خاصة لها عامة تشمل الدنيا كما نشمل الآخرة، فمحق الربا أيضاً كذلك لا محالة.

فكما أن من خاصة الصدقات أنها تنمي المال إنماءً يلزمها ذلك لزوماً قهرياً لا ينفك عنها، من حيث إنها تنشر الرحمة وتورث المحبة وحسن التفاهم، وتؤلف القلوب وتبسط الأمن والحفظ، وتصرف القلوب عن أن تهم بالغصب والاختلال والإفساد والسرقة، وتدعو إلى الاتحاد والمساعدة والمعاونة، وتنسد بذلك أغلب طرق الفساد والغناء الطارئة على المال، ويعين جميع ذلك على نماء المال ودرّه أضعافاً مضاعفة.

كذلك الربا من خاصته أنه يمحق المال ويفنيه تدريجاً من حيث إنه، ينشر القسوة والخسارة، ويورث البغض والعداوة وسوءالظن، ويفسد الأمن والحفظ، ويهيج النفوس على الانتقام بأي وسيلة أمكنت من قول أو فعل، مباشرة أو تسبيباً، ويدعو إلى التفرق والاختلاف، وتنفتح بذلك أغلب طرق الفساد وأبواب الزوال على المال، وقلما يسلم المال عن آفة أو بلية تعمه.

وكل ذلك لأن هذين الأمرين ـ أعني الصدقة والربا ـ مربوطان مماسان بحياة طبقة الفقراء والمعوزين، وقد هاجت بسبب الحاجة الضرورية إحساساتهم الباطنية، واستعدت للدفاع عن حقوق الحياة نفوسهم المنكوبة المستذلة، وهمّوا بالمقابلة بالغاً ما بلغت، فإن أحسن إليهم بالصنيعة والمعروف بلا عوض ـ والحال هذه ـ وقعت إحساساتهم على المقابلة بالإحسان وحسن النية، وأثرت الأثر الجميل، وإن أسيء إليهم بأعمال القسوة والخشونة وإذهاب المال والعرض والنفس، قابلوها بالانتقام والنكاية بأية وسيلة. وقلّما يسلم من تبعات هذه الهمم المهلكة أحد من المرابين، على ما يذكره كل أحد مما شاهد من أخبار الربا،من ذهاب أموالهم وخراب بيوتهم وخسران عيالهم».

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾. السورة ٢ الآية ٢٧٩.

في تفسير (منهج الصادقين) يقول: «فأذنوا بحرب من الله ورسوله»:

الحرب مع الله هي الحرب مع رسوله (ص)، والمراد أنه يكون عدواً لله ورسوله، وهو إخبار عن أن الربا من الذنوب الكبائر.

أو أن المراد بحرب الله النار، وبحرب الرسول (ص) السيف، وذلك يقتضي وجوب الحرب مع آكل الربا حتى يعود إلى حكم الله، كما روي أنه بعد نزول هذه الآيات أمر رسول الله (ص) عامله في مكة: إذا لم يتب بنو المغيرة من أكل الربا فقاتلهم.

وأيضاً قال (ص) في خطبته في مكة المعظمة: «إن أكل الربا في الجاهلية موضوع تحت قدميّ هاتين، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب».

الربا والأخبار:

روي عن الإمام الصادق (ع): «درهم ربا أشد عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم». (الكافي).

وعن علي (ع): «لعن رسول الله (ص) آكل الربا ومؤكله وبايعه ومشتريه وكاتبه وشاهديه». (وسائل الشيعة).

وعن ابن بكير قال: «بلغ أبا عبد الله (ع) عن رجل كان يأكل الربا ويسميه اللباء، فقال (ع): لئن أمكنني الله تعالى منه لأضربنّ عنقه». (الكافي).

ذلك أن منكر حرمة الربا منكر لضروري من ضروريات الدين الإسلامي، ومثل هذا الشخص مرتد وواجب القتل.

التأكيد حول الربا في القرآن:

عن سماعة قال: قلت لأبي عبد الله (ع): إني رأيت الله عز وجل قد ذكر الربا في غير آية وكرره؟

قال (ع): أو تدري؟

قلت: لا.

قال (ع): «لئلا يمنع الناس من اصطناع المعروف». (وسائل الشيعة).

وعن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «أخبث المكاسب كسب الربا». (وسائل الشيعة).

القرض الربوي:

القرض الربوي هو أن يعطي شخص ماله لآخر بشرط أن يرجعه إليه بعد مدة بزيادة، سواء كانت الزيادة من نفس الجنس، مثل ما لو أعطاه عشرة (دراهم) بشرط أن يأخذ منه بعدئذ أحد عشر درهماً، أو أعطاه عشرة أمنان من الرز بشرط أن يأخذ منه بعدئذ أحد عشر مناً، أو أعطاه عشراً من بيض الدجاج على أن يأخذ منه إحدى عشرة[1].

أو كانت الزيادة بحسب العمل، مثل ما لو أعطاه عشرة (دراهم) قرضاً وشرط أن يعيدها إليه ويغسل مع ذلك ملابسه.

هكذا الزيادة في المنفعة، مثل ما لو أعطاه ألف درهم قرضاً على أن يأخذها بعدئذ بشرط أن يجلس في بيته لمدة سنة مجاناً[2].

أو تكون الزيادة في الوصف، مثل أن يعطيه ذهباً غير صالح بوزن عشرة مثاقيل، بشرط أن يأخذ منه بعدئذ عشرة مثاقيل من الذهب الصالح.

---

(١) في المعدود بالنسبة للقرض الربوي يتحقق الربا فيه حتى إذا لم يكن متحققاً في المعاملة الربوية.

(٢) الفرق بين ذلك وبين الراهن هو أنه في الرهن تبقى الدار فقط بعنوان رهينة عند الدائن، أما منافع الدار فهي باقية على ملك صاحبها نعم، يستطيع أن يحولها إلى آخرين بما فيهم صاحب الدين، وفي الحقيقة يكون قد عمل عملين: أحدهما القرض والآخر إعطاء المنافع، وهذا أمر غير القرض الربوي الذي هو عمل واحد يعطى فيه القرض بشرط الزيادة.

ولا شك أن تمام الأقسام المذكورة رباً محرم، ولا فرق في حرمة اشتراط الزيادة في القرض أن يشترطه عند تسليم القرض أم قبله.

عدة ملاحظات:

١ ـ كما أن أخذ الربا حرام، كذلك إعطاء الربا حرام أيضاً، وبما أن أصل الربا حرام فإن المعاملة الربوية تقع فاسدة، إذن فالمقترض للمال لا يكون مالكاً له. وإذا تصرف فيه وحصلت فيه منفعة فإنها راجعة الى صاحب المال ومالكه الأصلي، مثلاً: لو أقرضه بشكل ربوي حنطة، فبذرها، فإن حاصلها يكون لصاحب الحنطة الأولى، نعم، في صورة يقين المقترض بأن المقرض راضٍ بالتصرف في هذاالمال، حتى من دون شرط الزيادة، فإن تصرفه حينئذ لاعيب فيه.

٢ ـ إذا أعطى الإنسان مقداراً من المال لتاجر على أن يأخذه منه بعد شهر بأقل، مثلاً يعطيه في شيراز ألف درهم على أن يأخذ منه (٩٩٠) في طهران، فإنه لا مانع من ذلك، ويقال له (حوالة)، وهو على عكس الربا الحرام، ذلك أنه في هذه الصورة يعطي الأكثر ويأخذ الأقل، نعم لو كان يعطي (٩٩٠) درهماً هنا ويأخذ منه في طهران ألف درهم فإن ذلك رباً محرم.

٣ ـ ما تقدم من صور الربا الحرام إنما هو فيها إذا اشترط الزيادة، أما إذا لم يشترط الزيادة، وأعطاه بعنوان القرض الحسن، فههنا إذا أعطاه المدين برغبته الشخصية زيادة فإن ذلك لا مانع منه، بل يستحب للمدين أن يفي الدائن قبل أن يطالبه، ثانياً يعطيه شيئاً بعنوان الهدية، ومن الجهة الأخرى يستحب للدائن[١] أن يحتسب ما أخذه من المدين بعنوان الهدية جزءاً من أصل الطلب.

(١) ولو عمل المسلمون بهذه الأحكام فإنه لم يكن يشيع الربا، ولا يزول الحس بالثقة العامة بينهم.

الربا في المعاملة:

كل معاملة اشتملت على الأمرين التاليين تكون رباً وفاسدة ومحرمة.

١ ـ كون الثمن والمثمن (أي الجنس والعوض) من جنس واحد، وأحدهما أكثر من الآخر، كالرز بالرز، والدهن بالدهن مع الزيادة، وعليه فإذا كانت المعاوضة بجنس آخر فلا يكون ذلك ربا، كتعاطي الدهن بالرز.

٢ ـ أن يكون الجنس من (المكيل والموزون)، وعليه فإن التعامل بالعد فيما هو معدود، كبيض الدجاج والجوز (في بعض المناطق، وهذا الحكم ناظر إلى تلك المناطق)، أو بالمتر والذراع كالقماش والأرض فإنه لا ربا في ذلك، مثل:

أن يبيع عشراً من بيض الدجاج بإحدى عشرة فإن المعاملة صحيحة ولا مانع منها.

إذن المعاملة الربوية هي التبادل بزيادة في (المكيل والموزون) مثل مبادلة مَنٍّ واحد من الحنطة بِمَنٍّ وأوقية منه، ولا فرق في حرمة هذه المعاملة بين أن يكون الجنس والعوض متساويين من جميع الجهات أو أن أحدهما سالم والآخر معيب، أو أن أحدهما من الجنس الأعلى والآخر من الجنس المتوسط، أو كان بينهما مجرد اختلاف في القيمة، مثل بيع مَنٍّ واحد من الحنطة قيمته درهمان، بمَنٍّ ونصف مَنٍّ قيمته درهم ونصف، ومثل بيع النحاس الصحيح بوزنه مع الزيادة.

وأيضاً لا فرق في حرمة هذا القسم من المعاملة بين أن تكون الزيادة من نفس الجنس مثل مَنٍّ واحد من الحنطة بمَنٍّ ونصف، أو من غير ذلك الجنس.

وأيضاً لا فرق بين الزيادة العينية، كالمثال السابق في الزيادة من نفس الجنس، والزيادة الحكمية مثل بيع مَنٍّ حنطة نقداً، بمَنٍّ من الحنطة بعد شهرين، وهو أمر يحسب في العرف زيادة، فالمدة لها قسط من الثمن.

ثلاث ملاحظات:

١ ـ الشعير والحنطة في المعاملة الربوية يعتبر جنساً واحداً. فإذا تعامل بمَنٍّ من حنطة مع مَنٍّ من شعير ونصف مَنٍّ فإنَّه ربا وحرام.

وأيضاً يعتبر أصل الجنس مع فرعه واحداً، مثل الحليب والدسم والجبن واللبن، وهكذا اللبن المجفف أو المخفف بالماء، وعليه فالتعامل بأي واحد من هذه مع غيرها إذا كان فيه زيادة فهو باطل وحرام وهكذا العنب ودبسه وخله، وهكذا السكّر والقند (سكّر بشكل مكعبات) وسكّر النبات فإن معاملة أحدهما بالآخر مع الزيادة ربا وحرام[1].

٢ ـ لأجل الخلاص من الربا إذا أضاف معطي الأقل إليه شيئاً ما فإن المعاملة حينئذ صحيحة، مثلاً مَنّ حنطة مع قطعة قماش يدوية بمَنٍّ ونصف حنطة، أو كان مع كل طرف ضميمة، مثل إضافة قطعة قماش يدوية لهما معاً.

٣ ـ يمكن فصل المعاملتين، بأن يبيع منّاً من الحنطة بدرهمين وبعدئذ يشتري منه مَنّاً ونصفاً من حنطة أخرى بدرهمين، وفي الحقيقة هذا فرار من الحرام إلى الحلال، ومن الباطل إلى الحق.

وأيضاً يمكن أن يبيع زيد لعمرو منّاً حنطة، ويصالح عمرو زيداً بمنٍّ ونصف حنطة أو يهبه ذلك.

الأشخاص الذين لا ربا بينهم:

أربع طوائف يصح بينهم الربا سواءً في المعاملة أو في القرض.

١ ـ الأب والابن، فإن كل واحد منهما يستطيع أن يأخذ الزيادة من الآخر، أما بين الأم والابن فالربا ثابت.

٢ ـ الزوج وزوجته، فإن أحدهما يستطيع أن يأخذ من الآخر الزيادة.

---

(١) للاطلاع على فتاوى العلماء ومراجع الدين المعاصرين راجع رسائلهم العملية.

٣ ـ المسلمون يستطيعون عقد معاملة ربوية أو قرض ربوي مع الكافر الحربي، وعكس ذلك لا يجوز بأن يعطي المسلمون الزيادة للكافر الذمي، أي الكافر الذي يعيش في ظل الإسلام، فإن الربا معه حرام مطلقاً يعطي أم يأخذ.

٤ ـ لا ربا بين العبد ومولاه.

يمحق الدين:

عن زرارة: قلت لأبي عبد الله (ع): إنّي سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ وقد أرى من يأكل الربا يربو ماله.

فقال (ع): «أي محق أمحق من درهم ربا يمحق الدين؟ وإن تاب منه ذهب ماله وافتقر». (وسائل الشيعة).

آكل الربا يأكل النار:

قال رسول الله (ص): «من أكل الربا ملأ الله بطنه ناراً بقدر ما أكل منه، فإن كسب منه مالاً لم يقبل الله من عمله، ولم يزل في لعنة الله والملائكة ما دام عنده منه قيراط». (المستدرك).

تحت أيدي وأرجل آل فرعون:

في حديث آخر قال (ص): «لما أسري بي إلى السماء رأيت أقواماً يريد أحدهم أن يقوم ولا يقدر عليه لعظم بطنه، فقلت من هؤلاء يا جبرائيل، قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، وإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً يقولون ربنا متى تقوم الساعة». (المستدرك).

وأيضاً عنه (ص): «إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن في هلاكها». (مستدرك الوسائل).

«إذا أكلت أمتي الربا كانت الزلزلة والخسف»[1] (مستدرك الوسائل).

الربا أخبث من الزنى بمراتب:

وقال (ص) أيضاً: «الربا سبعون جزءاً، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه في بيت الله الحرام». (وسائل الشيعة).

---

(١) «إنكم تصرون في العصر الحديث على تحريم الربا، بينما نجد أن الربا أصبح اليوم ضرورة اقتصادية لا يمكن تجاوزها، ولا يمكن للعالم المتحضر الاستغناء عنها».

إن مقولة هؤلاء المتحضرين ذات جانبين، وهي في أحدهما صحيحة وفي الآخر خطأ، الإسلام يحرم الربا وهذا أمر صحيح.

ولكن من الخطأ أن نفهم الربا بوصفه ضرورة اقتصادية ملحة، فمن المعلوم لدى الجميع أنه يوجد في العالم نظريتان اقتصاديتان لا تعتمدان في هيكليتهما على الربا، وهما عبارة عن النظرية الإسلامية، والنظرية الشيوعية، مع ما بينهما من الاختلاف الكبير في الأصول والفروع، مع فارق واحد كبير هو أن النظام الشيوعي اليوم يمتلك كل القوى والطاقات اللازمة لممارسة نظامه الاقتصادي، وقد سخرها جميعاً لهذا الغرض، أما الإسلام فإنه لم يعبئ كل قواه، ومع ذلك فهو يتكامل يومياً.

ومن البديهي أن الإسلام حين يبدأ حكومته الرسمية سيقيم اقتصاده على أساس غير ربوي، وذلك أن الضرورات الاقتصادية لا تستطيع أن تقف حاجزاً دونه وتضطره لقبول القوانين الربوية، كما أن الماركسية اليوم لم تبن نظامها على أساس الربا، ولم يمنعها عن المضي في تحقيق مقاصدها الضرورة التي يدعيها المدعون.

وعلى هذا الأساس فالربا من أول الأمر ليس أمراً ضرورياً. نعم، هو ضروري فقط في العالم الرأسمالي، حيث يتخيل هذا النظام أنه لا يستطيع الثبات بدون الاعتماد على الربا، بينما يوجد في العالم الرأسمالي من علماء الاقتصاد الكبار مثل الدكتور (شاخت) الذين ينقدون النظام الربوي، ويصرحون علناً بأن النتيجة الحتمية للربا في العالم، ومن خلال مرور الزمان هي انحصار الثروة بيد عدة قليلة وحرمان المجتمع منها، وعلى أثر تورم الثروة لدى هؤلاء سيقع ملايين الناس أسراء بيد الطبقة الرأسمالية الثرية الممتازة.

وقد أدركنا نحن هذه الحقيقة المرة في عالم الرأسمالية، من دون مطالعة لعلم الاقتصاد.

نعم، إن واحداً من أكبر معاجز الإسلام هو تحريمه للربا، والاحتكار، قبل أن يوجد النظام الرأسمالي بأكثر من ألف عام.

ترجمة عن كتاب (الإسلام ومشكلات الحضارة) بقلم سيد قطب.

وفي روايات عديدة عن الإمام الصادق (ع):

«درهم رباً أشد عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم».

«درهم رباً أشد عند الله من ثلاثين زنية كلها بذات محرم مثل عمة وخالة».

«درهم واحد رباً أعظم من عشرين زنية كلها بذات محرم». (وسائل الشيعة).

ولعل اختلاف الأخبار المذكورة في شدة عقوبة الربا ناشئ من اختلاف أنحاء أخذ الربا، من جهة الزمان والمكان، وبحسب الحالات والأشخاص.

* * *

العاشر من الذنوب التي صرح بأنها كبيرة (الزنى)، كما عن الإمام الصادق (ع) والإمام الكاظم (ع) والإمام الرضا (ع) والإمام الجواد (ع).

ويمكن الاستشهاد لذلك بآيتين من سورة الفرقان حيث يقول تعالى: **﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً، يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾**. السورة ٢٥ الآيتان ٦٨ ـ ٦٩.

معنى (أثاماً وغيّاً)

في تفسير منهج الصادقين أن (أثاماً) في هذه الآية الشريفة اسم لوادٍ في جهنم يعذب فيه أهل الزنى.

وقالوا إن (غياً) هو شيء يخرج من أجسام أهل جهنم يشبه الدم والقيح.

وجاء في الروايات أن (أثاماً) في هذه الآية، والغي في آية أخرى **﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾** بئران في جهنم، إذا ألقي فيهما حجر يصل إلى قعرهما بعد سبعين عاماً.

ويقول تعالى في سورة بني إسرائيل: **﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾**.

ذلك أن الزنى سبب في قطع الأنساب، وهيجان الفتنة، وإبطال المواريث وصلة الرحم، وحقوق الآباء على الأبناء، وحقوق الأبناء على الأولاد.

أسوأ طريق لدفع الشهوات:

في كتاب (البلايا الاجتماعية) في شرح هذه الآية الشريفة كتب المؤلف:

«أي لا تقربوا الزنى، لأنه عمل فاحش ومضل، ولعل أدق تعبير عن الزنى هو ما جاء في القرآن المجيد في جملة (وساء سبيلاً) فإن هذه الجملة توضح أهم أسس المنطق الإسلامي في محاربة الفحشاء، هذه الجملة تقول إن الزنى ليس طريقاً طبيعياً خالياً عن الخطر في مقام إطفاء الشهوة، والمجتمع الذي يشبع شهواته بواسطة الزنى واقع في جادة خطرة منحرفة، ونتيجة ذلك الابتعاد عن الهدف والوقع في مزالق مهولة، إن قوة الشهوة (المنحة الإلهية) إنما هي من أجل إبقاء النسل الإنساني، وإيجاد مجموعة الدوافع الروحية والعاطفية لدى الرجل والمرأة، يضمن تشكيل المركز العائلي، وإطفاء الشهوة من طريق محدود قانوني، أما ارتكاب الزنى ليس فقط لا يقرب المجتمع نحو استمرارية النسل، بل يلقي بالمجتمع في آلاف الوديان المخوفة، التي يكشف جانباً منها عشرات الملايين من مرضى الجنس، ومليارات الدولارات التي تصرف لمعالجتهم، وملايين الأطفال الغرباء اللقطاء».

وكتب في صفحة (١٣١):

«إن آلاف المفاسد المختلفة الناشئة من انتشار الفحشاء، والعلاقات غير المشروعة، المحيرة والمزعجة، والتي أصبحت من مميزات القرن العشرين لا تتناسب مع هذا القرن.

يفكر الإنسان أن البشر الذي شق قلب الذرة بآلاف المشقات حتى يستفيد من قوتها الداخلية، لماذا يضيع قواه الإلهية في مزالق قذرة بأنواع الفحشاء، وفي الوقت الذي يتجه للاستفادة من القوى الطبيعية يتجه من طرف آخر لتوفير عوامل محوه واضمحلاله.

مثلاً: اليوم من أجل الاستفادة من الأشعة المفيدة، أو القوى الأفضل في عالم الطب، تصرف مليارات الدولارات، وتعمل آلاف العقول المفكرة، وهذه المحاولات الجماعية نتيجة انتشارها في عالم الطب أحدثت تحولات ضخمة، إلا أنه يوازي هذا التقدم والتطور قائمة ضخمة من أمراض الجنس

التي يذهب ضحيتها ملايين الأشخاص، وفي النتيجة مئات آلاف الأشخاص في كل بلد يرقدون في زوايا المستشفيات، بأعضاء معطلة، تجر المجتمع إلى حالة الفلج، أو مثلاً تبذل آلاف المحاولات والمساعي من أجل تحقيق الرفاه الاقتصادي في البلاد، وفي قبال ذلك نجد أن ملايين الأطفال اللقطاء الذين هم جميعاً نتيجة المتعة القصيرة، واللقاء المؤقت،يجرّون الحركةالاقتصادية في العالم إلى مواجهة المشكلات العظيمة، وأخيراً، وبعد أن وفرت الدول وسائل التربية والحضانة لهؤلاء الأطفال، تجد أنه يتخرج منها عدة من أفراد الشرور والسكارى الذين يهددون المجتمع بأنواع الجرائم والجنايات المختلفة، وبالتالي يصبح الجهاز القضائي في البلد قلقاً من وجود هؤلاء الأفراد»[1].

---

(١) إن هذا التضاد المحير كما قلنا سابقاً ناشئ في الأكثر من الفحشاء والانحراف الجنسي، وفيما يلي ننقل نماذج من هذه المفاسد التي تعتبر نقطة سوداء في جبين التمدن المعاصر.

في دائرة المعارف البريطانية في الجزء ٢٣ الصفحة ٤٥ جاء: «حسب الإحصاءات التي أجريت في الولايات المتحدة ثبت أن تسعين في المائة من بغايا الولايات المتحدة مبتلون بالأمراض الجنسية، وعدد المعالجين في المستشفيات من هؤلاء ٣٦٠/٠٠٠ نفر، ومن مجموع مستشفيات الولايات المتحدة تختص ٦٥٠ مستشفى لمعالجة الأمراض الجنسية، في حين أن ما يعادل هذا الرقم الذي يعالج في المستشفيات بمرة ونصف يعالجون لدى أطباء العوائل المختصين.

وفي كتاب (القوانين الجنسية) صفحة ٣٠٤ كتب: «سنوياً في أمريكا يموت ٣٠ إلى ٤٠ ألف طفل نتيجة الأمراض الجنسية الموروثة، وميزان الخسارات الناجمة عن هذه الإصابات المرضية في الولايات المتحدة يفوق مجموع الخسارات الناجمة عن باقي الأمراض المختلفة،ما عدا السل.

وفي جريدة (كيهان) العدد ٥٣٥٦) جاء:

كتب الدكتور (مولنز) الذي يعمل في طبابته في جنوب لندن: «سنوياً يلتقط في لندن خمسون ألف لقيط، ومن بين كل عشرين مولود يوجد واحد غير شرعي».

وفي جريدة (اطلاعات) عدد ١٠٤١٤ يقول: «سنة ١٩٥٧ كان في أمريكا ٢٠١٧٠٠ طفل غير شرعي، وخلال العشرين سنة الماضية تصاعد العدد بنسبة خمسة في المائة، وفي هذا العام كان عدد النساء الحوامل بطريقة غير مشروعة ٤٤/٠٠٠ امرأة أغلبهن لم يتجاوزن الثامنة عشرة.

الآثار الدنيوية والأخروية للزنى:

قال رسول الله (ص): «في الزنى ست خصال، ثلاث منها في الدنيا وثلاث منها في الآخرة، فأما التي في الدنيا فيذهب بالبهاء، ويعجل الفناء ويقطع الرزق».

«وأما التي في الآخرة فسوء الحساب وسخط الرحمن والخلود في النار». (وسائل الشيعة).

عذاب البرزخ للزاني:

وعنه (ص) أيضاً: «من زنى بإمرأة مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو مجوسية، حرة أو أمة، ثم لم يتب ومات مصراً عليه، فتح الله له في قبره ثلاثمئة باب يخرج منها حيات وعقارب وثعابين من النار، فهو يحترق إلى يوم القيامة، فإذا بعث من قبره تأذى الناس من نتن ريحه فيعرف بذلك، وبما كان يعمل في دار الدنيا حتى يمر به إلى النار؛ ألا وإن الله حرّم الحرام وحد الحدود، فما أحد أغير من الله تعالى، ومن غيرته حرم الفواحش». (وسائل الشيعة).

جميع أهل المحشر يلعنون الزناة:

عن أمير المؤمنين (ع): «إذا كان يوم القيامة أهب الله ريحاً منتنة يتأذى بها أهل الجمع، حتى إذا همت تمسك بأنفاس الناس ناداهم مناد: هل تدرون ما هذه الريح التي قد آذتكم؟ فيقولون لا، وقد آذتنا وبلغت بنا كل مبلغ.

قال (ع): ثم يقال: هذه ريح فروج الزناة الذين لقوا الله بالزنى ثم لم يتوبوا، فالعنوهم لعنهم الله، فلا يبقى في الموقف أحد إلا قال: اللهم العن

- في باريس يوجد بين ٤٣٠١٠ طفل ٤١٤٥ طفل غير شرعي، وفي السويد يولد سنوياً ١٧/٠٠٠ طفل بطريق غير شرعي.

لأجل مزيد من الاطلاع تستطيع أن تراجع الكتاب المذكور.

الزناة». (وسائل الشيعة).

الزنى يجلب الفقر وموت الفجأة:

قال الرسول (ص): «إذا كثر الزنى بعدي كثر موت الفجأة» (وسائل الشيعة).

وقال (ص): «الزنى يورث الفقر ويدع الديار بلاقع». (وسائل الشيعة).

فساد النسب وتربية الأطفال:

وفي كتاب الإمام الصادق (ع): «حرم الله الزنى لما فيه من الفساد من قتل النفس وذهاب الأنساب وترك التربية للأطفال وفساد المواريث». (وسائل الشيعة).

زنى المحصنة:

إذا زني بامرأة ذات بعل فإن حرمة ذلك أكبر وأشد، كما أن حدّ الزنى مائة جلدة، أما حدّ زنى المحصنة فإنه القتل والرجم.

قال الإمام الصادق (ع): «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: منهم المرأة توطئ فراش زوجها». (وسائل الشيعة).

وروي عن رسول الله (ص): «من فجر بامرأة ولها بعل انفجر من فرجها من صديد جهنم واد مسيره خمسمئة عام يتأذى أهل النار من نتن ريحها، وكانا من أشد الناس عذاباً». (وسائل الشيعة).

بعد النظر في الإسلام:

جاء في كتاب (برهان القرآن) حول هذا البحث:

في موضوع حد الزنى أخذ الإسلام بعين الاعتبار مسألة القوة الجنسية وجماحها، وعين لإشباعها طرقاً سهلة ومشروعة، وأمر أتباعه بالتبكير في

الـزواج، حتى قال رسـول الله (ص): «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

ولهذا الغرض قرر الشرع الإسلامي تسهيلات مختلفـة للزواج، وفرض على الدولة ـ في صورة عدم تمكن الشخص ـ تقديم المساعدات من بيت المال لأداء هذه المهمة، وإضافة إلى ذلك اتخذ قراراً بتطهيـر المحيط الاجتماعي من عوامل الإغراء وإثارة الشهوة، وفي عين الوقت وضع أهدافاً سامية لقوى الشباب الجبارة من قبيل مكافحة الفساد، وتعليم الأميين، ومساعدة الفقـراء والعاجزين، والعمل على تطوير مستوى المعيشة، والجدّ في طـريق التعمير وإحياء العالم، ومن جهة أخرى شـرع الصوم الـواجب والمستحب والصلاة الـواجبة والنـافلة، والاعتكـاف والعبـادات المماثلة، من أجـل كسـر طغيـان الغريزة، وصرف الذهن والبال عن الأفكار الشهوانية والوساوس الشيـطانية، وتوجيه الفكـر نحو المعـارف الإلهية العـالية، وبجميـع هذه الـوسائـل يصد موجبات الذنوب وعللها، ومع وجود كل هذه الضوابط والتدابير التي اتخذت من أجل حفظ وصيانـة الغريزة، فإنه لم يتسرع في إجراء الحدود والعقوبات للمذنبين، بل إجراء الحدّ إنما هو في موقع إطلاق عنان الانفلات، وإهمال القوانين الاجتماعيـة، والسقوط في مستنقـع الفساد، بحيث يقـدم الشخص على ارتكاب العمل المنافي للعفة بدون أي اعتناء وأي احتشام، وفي محضر جمع فيه أربعة أشخاص عـدول، وكالحيـوانات ذوات الأربـع يباشـر عملية الزنى، وهؤلاء الشهود الأربعة العدول يشهدون بيقين وقطع، وبكامل الصراحة بصدور العمل منه ورؤيتهم له، في هذه الصورة يقرر الإسلام أن من يرتكب الزنى ويخدش العفة العامة عليه إجراء الحدّ الشرعي، وحتى في هذه المرحلة راعى جانب الرأفة، وأخذ بالنظر أحوال وأوضاع الشخص المذنب، وقرر أن مرتكب الزنى إذا كان مجرداً وأعزب يكتفى له بمائة جلدة، وأما بالنسبة للزاني المتزوج، في حال عـدم اضطراره، بـل لمجرد الشهـوة والهـوى أقـدم على ارتكاب هذا العمل القبيح فإن حكمه الرجم.

والنكتة التي تجلب الانتباه هي أن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية الموجودة في العصر الحاضر، تدفع الشباب عن الزواج وتحبذ لهم ارتكاب الفحشاء، بل تضطرهم إليها.

وبالطبع فإن هذا الأمر حقيقة قائمة؛ إلا أن العلة التي أوجدت هذا الوضع القاسي هي عدم الالتزام بالقوانين والمقررات الإسلامية، وعدم إجرائها، وإلا ففي الوقت الذي تراعى فيه هذه القوانين بشكل مناسب، ويلتزم بإجرائها، فإن من المسلم أنها تقف بوجه انتشار عوامل الفساد وتفاقم الشهوة، وتهيئ سبل الزواج وظروف الرفاه والراحة، وتصون الشباب الذي هو قبلة آمال المستقبل من السقوط في هذه الوديان الموحشة.

إنه في أي وقت تحكم القوانين الإسلامية فإنه لا وجود حينئذ للأفلام المثيرة، والنشرات الخليعة، والموسيقى التي تسلب الغيرة، وتهيج الشهوة وبارات الخمر وباعة العرق، والملاهي والمراقص، وسائر دوافع الفسق ومظاهر الفجور، ولا يضطر الشباب بدافع الفقر والعوز لتحمل العزوبة، ويتهيأ لهم محيط يدفعهم من جميع الجهات نحو التقوى والشرف، ومن هذه الجهة فإن حدّ الزنى في القانون الجنائي في الإسلام على ثمانية أقسام، تبعاً لظروف ارتكاب المعصية وأحوال وأوضاع المرتكبين:

الرجم بالحجارة، والجمع بين الجلد والرجم مائة جلدة، حلق شعر الرأس، النفي من البلد، خمسون جلدة، خمس وسبعون جلدة، الضغث، وهو يعني الضرب بمجموعة سياط مرة واحدة، الجمع بين الحد والتعزير[1].

---

(١) ضمناً ننقل للقارئ العزيز لأجل مزيد من الاطلاع الشروط التي ذكرت لحد الزنى في كتب الفقه والحديث:

١ - من أجل اثبات وقوع الزنى وبالتالي استحقاق الحد، يشترط شهادة أربعة شهود عدول، أو ثلاثة رجال وامرأتين، أو رجلين وأربع نساء عادلات يشهدون برؤيتهم، وفي أي وقت يكون الشهود رجلان وأربع نساء فإنه يكتفى بالجلد لا الرجم، حتى إذا كان=

هذه خلاصة الشروط والقيود والآداب المقررة من قبل المشرع الرؤوف الرحيم المصلح الحكيم حول جريمة الزنى، وضمناً ننقل عدة روايات عن أئمة الدين (ع) حول ذلك ليثبت بالدليل مدى اجتناب أولياء الإسلام عن الهتك، ومدى مراعاتهم للاحتياط في إجراء الحدود.

---

* الزاني والزانية محصنين (متزوجين).

٢ ـ يجب أن يكون محل الزنى حسب شهادة الشهود واحداً.

٣ ـ يجب أن يكون زمان وقوع الزنى حسب شهادة الشهود واحداً.

٤ ـ يجب أن تكون شهادة الشهود في مجلس واحد.

٥ ـ لا يكفي أن ينقل أربعة أشخاص عدول عن أربعة أشخاص آخرين.

٦ ـ متى ما كانت شهادة الشهود الأربعة بوقوع الزنى بامرأة مجهولة عندهم، فإن شهادتهم غير مقبولة، إذ لعل المرأة زوجة أحدهم وهم لا يعرفونها.

٧ ـ متى شهد ثلاثة وامتنع الرابع عن الإدلاء بالشهادة، أو كان بيانه مخالفاً، فإنه يلزم إجراء حد القذف على أولئك الثلاثة.

٨ ـ لا يجَري الحد باعتراف الزاني ثلاث مرات، بل لا بد من الاعتراف أربع مرات.

٩ ـ لا يجري الحدّ عليه إذا اعترف في مجلس واحد أربع مرات، بل يجب أن تكون هذه الاعترافات الأربعة في أربعة مجالس.

١٠ ـ لا يحق للقاضي تشجيع المتهم على الاعتراف ومساعدته في أداء بيانه، بل يجب أن يجهد مهما أمكن في أن لا يثبت الذنب، وذلك من أجل حفظ الحياء العام والستر والعفة والطهارة، ومن أجل المنع من حالة التجري. وهو مكلف بتفسير الشبهات لصالح المتهم، وتلقينه بإنكار الذنب.

١١ ـ إذا أنكر الرجل المحصن بعد أن اعترف أربع مرات، يسقط عنه الرجم وتخفف عليه العقوبة.

١٢ ـ من أسلم جديداً، ولا اطلاع له بالحدود والعقوبات الإسلامية، لا تجرى عليه الحدود.

١٣ ـ الزاني غير المحصن ـ إذا كان مريضاً ـ يحق للحاكم أن يستعمل جمعاً من أعواد المكنسة أو عثق التمر، على أن يحسب كل واحدة من تلك الأعواد بمثابة سوط.

١٤ ـ في عملية إجراء الحد لا يجوز أن تكون السياط موجبة لتحطيم لحم البدن وإفساده، كما أن من شروط إجراء الحد البلوغ والعقل، وأن لا يكون مكرهاً ومجبوراً على ارتكاب المعصية.

١٥ ـ لا حدّ على من واقع امرأة بخيال أنها زوجته.

أيام خلافة عمر: «أتت امرأة إلى عمر فقالت: يا أمير المؤمنين إني فجرت فأقم فيّ حدّ الله، فأمر برجمها، وكان علي (ع) حاضراً فقال له: سلها كيف فجرت؟ قالت: كنت في فلاة من أرض، فأصابني عطش شديد، فرفعت لي خيمة فأتيتها فأصبت فيها رجلاً أعرابياً، فسألته الماء فأبى أن يسقيني ألا أن أمكنه من نفسي، فوليت منه هاربة، فاشتدّ بي العطش حتى غارت عيناي وذهب لساني، فلما بلغ أتيته فسقاني ووقع عليّ.

فقال له علي (ع): هذه التي قال الله عز وجل: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ هذه غير باغية ولا عادية، فخل سبيلها، فقال عمر: «لولا علي لهلك عمر». (برهان القرآن).

تنبيه: حيث إن الزنى موجب لفساد النظام الاجتماعي واختلاله، وموجب للخسران الأخروي، من هنا فقد أوجب الله بحكمته البالغة عدة أمور، بحيث إذا رعاها المسلمون فأنهم سوف لا يبتلون بمثل هذا الذنب الكبير.

١ ـ الحجاب من ضروريات القرآن:

في عدة مواضع أمر القرآن الكريم النساء بالحجاب، من جملة ذلك ما في سورة النور، الآية ٣١ حيث يقول: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنْ أو إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُنَّ، أو التَّابِعينَ غيرِ أولِي الإربَةِ مِن الرِّجالِ أوِ الطِّفلِ الَّذي لم يَظهَرُوا عَلَى عَورَاتِ النِّساءِ﴾.

وفي سورة الأحزاب المباركة يقول: ﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ السورة ٣٣ الآية ٥٩.

وفي الآية ٣٢ من نفس السورة يقول: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِن النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فلا تَخضَعْنَ بالقولِ فَيطمَعَ الَّذي في قَلبِهِ مَرَضٌ، وقُلنَ قولاً مَعرُوفاً﴾.

وفي الآية ٥٣ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ متاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

وفقاً لهذا التشريع فإن المرأة المسلمة مكلفة بالحجاب عن الرجل الأجنبي الذي لا يحرم عليها (الزواج منه)، وأن لا تخرج في الملأ العام بلباسٍ وزي يثير الشهوة ويجلب الانتباه المسموم، وبهذه الوظيفة تحفظ المرأة شخصيتها وقيمتها، في الوقت الذي تمنع عن إثارة الرجال وتحريكهم، ومراودة الأفكار الخطرة واللا مشروعة لهم.

بناءً على ذلك لا ينبغي للمرأة أن تتواجد في مكان وفي موقع نظر العابرين والناظرين.

لماذا تقلل من قيمتها؟ ولماذا - علناً تبتلى - بالانحراف والفساد؟

وبعد الهيكل العاري، ونصف العاري الذي تظهر به المرأة في السوق والشارع أمام الرجال الناظرين، هل يقف الأمر عند مجرد النظر؟

ألا يوجد بعدئذ فساد؟ ألا يجر ذلك إلى مئات المآزق الضيقة؟

إذا لم يكن كذلك، فما هو مصدر العلاقات غير الشرعية للنساء ذوات الأزواج، أو الفتيات في كل العالم؟

أم كيف يولد العشق اللا مقدس الذي يدمر المحيط العائلي فوراً؟

لماذا يتعلق الرجال بنساء الغير؟ وأحياناً عدة رجال بامرأة واحدة؟ ويجرهم ذلك إلى القتل والقتال؟

وهل أصبح الفساد والفحشاء في بلدنا أقل منذ بدأ السفور؟

ألم تمتلئ طهران في هذه الفترة القصيرة بسيل العلاقات غير المشروعة، وخداع الفتيات والنساء ذوات الأزواج؟ ألا تطرح يومياً عشرات الملفات للعلاقات غير المشروعة على محاكم العدل؟

شهرياً عشرات النساء المتزوجات، ذوات الأطفال تفر من محيط العائلة وتنفر منها، لتظهر في النهاية في بيوت (المدينة الجديدة) (١) (٢)

---

(١) منطقة فاسدة خليعة في طهران، عمل النظام الشاهنشاهي السائد على دفع الشباب إليها.

(٢) وخلاصة ما تقدم في تفسير الآية الشريفة ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: إن ملاحظة المدارك الإسلامية والتفسير الصحيح للآيات يؤكد أن هذا الحكم عام لكل امرأة مسلمة، ففي نظر القرآن يعتبر البيت والمحيط العائلي مركز جهاد المرأة، ويجب في كل الأحوال عدم إهمال هذا المركز، وفي نظر الإسلام يعتبر الحفاظ على البيت وتربية الأطفال وظيفة أساسية للمرأة، واشتغال المرأة بمهام أخرى يجب أن لا يمنعها عن أداء وظيفتها المهمة، وفي المعتقد الإسلامي: إن أفضل مورد لعمل قوى المرأة وعواطفها النجيبة هو البيت، فالمحيط العائلي والحفاظ على هذا المركز هو أمر ذو أهمية بالغة.

يجب على المرأة أن تهتم بتربية الأولاد اللائقين أكثر من اهتمامها بالأمور الاجتماعية والسياسية.

والدين العظيم يؤدي هذه المهمة بأفضل وجه، فقد اعتبر الزواج وتربية الأطفال ميداناً من ميادين الجهاد،كما قال الرسول الأكرم (ص): «جهاد المرأة حسن التبعل».

وفي بيان تحريم النظر للأجنبية بريبة جاء في كتاب (البلايا الاجتماعية):

إذن هذا التشريع هو أول خطوة للمنع من عقد روابط جنسية بين الرجل والمرأة الأجنبية.

الإسلام يعتقد بأن العلاقات غير المشروعة يجب ضبطها والسيطرة عليها منذ البداية، حتى لا ينظر الرجل والمرأة للآخر الأجنبي نظرة بريبة، وذلك أن العين هي النافذة الحساسة التي لا تقف عندها اللذة الجنسية الحاصلة منها، بل تتعدى منها إلى الأعماق، فإذا كرر النظر فإن التعدي سيكون أسرع وأعمق، ولا يلبث أن تحصل الشهوة العارمة.

وبالجملة فإن أول جدار، وسد عظيم وهو الحياء والعفة سوف ينكسر بهذا النظر الطبيعي، فما أكثر ما تحدث النظرة الواحدة موجاً وتولد عشقاً ملتهباً غير مشروع يجر لآلاف من المفاسد.

الإسلام يحرم النظر بشهوة إلى الأجنبي، لأنه منشأ الانحراف والمفاسد، وبالطبع فليس=

وتضيف رقماً إلى (٥٠٠٠) نفر من سكان هذه المنطقة الجهنمية المروعة، ومن شواهد هذا الوضع المأساوي آلاف الأطفال اللقطاء الذين يقول عنهم مسؤول بلدية طهران: الحد المتوسط يومياً يوضع في الطرقات سبعة أطفال لقطاء، والكل يعلمون أن هؤلاء الأطفال إنما هم نتيجة شهوة ولذة مؤقتة خدعت فيها النساء، وليس الشرارة الأولى التي تحرق النساء، والتي تتولد من نظرة واحدة، وفي هذا الموقع الخطر المليء بآلاف الفواحش وآلاف اللقطاء ينتهي المجتمع.

ولصد هذا الوضع المشؤوم شرع الإسلام الحجاب للنساء عن الأنظار المسمومة المريبة، وعدم الظهور بالمظهر الجذاب.

النظر للأجنبية:

وأيضاً أمر تعالى بغض النظر عن الأجنبي، والأجنبية، يقول تعالى في سورة النور: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وقُلْ لِلْمؤمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ السورة ٢٤ الآيتان ٣٠ ـ ٣١.

السهم الشيطاني المسموم:

عن الإمام الصادق (ع): «النظر سهم من سهام إبليس، وكم من نظرة أورثت حسرة طويلة». (وسائل الشيعة).

---

* المقصود من هذا الحكم أن يكون الإنسان دائماً مطأطئاً إلى الأرض، وفي وضع صعب في الأزقة والأسواق والشوارع، بل لدينا أحاديث كثيرة، توضح: أن المرء في الأوساط العامة يجب أن يحافظ على وضعه الطبيعي والاعتيادي، أما ما يجب مراعاته شديداً فهو أن لا تتحول النظرة السريعة المفاجئة إلى نظرات غير مشروعة وشهوانية، وأن لا تزول العفة عن هذا العضو الجسمي المهم».

زنى أعضاء البدن:

وعن الإمام الباقر (ع) والإمام الصادق (ع) قال: «ما من أحد إلا وهو يصيب حظاً من الزنى، فزناء العين النظر، وزناء الفم القبلة، وزناء اليد اللمس» (وسائل الشيعة).

وروي أيضاً: «من ملأ عينيه من امرأة حراماً حشاهما الله يوم القيامة بمسامير من نار، وحشاهما ناراً حتى يقضي بين الناس، ثم يؤمر به إلى النار». (وسائل الشيعة).

إبليس قرين أهل النار:

في حديث عن الإمام الصادق (ع): «من التزم امرأة حراماً قرن في سلسلة من نار مع شيطان فيقذفان في النار». (وسائل الشيعة).

وعنه (ع): «من نظر إلى امرأة فرفع بصره إلى السماء أو غض بصره، لم يرتد إليه بصره حتى يزوجه الله من الحور العين». (وسائل الشيعة).

وعن النبي (ص): «اشتد غضب الله على امرأة ذات بعل ملأت عينها من غير زوجها وغير محرم منها، فإنها إن فعلت ذلك أحبط الله عز وجل كل أعمالها» (بحار الأنوار).

وفي روايات ورد النهي عن النظر في أعقاب النساء حتى مع الحجاب، وبالطبع فإن هذا النهي يحمل على الكراهة، والأخبار في هذا المجال كثيرة نكتفي بما تقدم.

٣ ـ تحريم الخلوة بالأجنبية:

وحرّم الخلوة بالأجنبية إذا كان مشغولاً بالعبادة، مع احتمال الوقوع في الحرام والخوف من ذلك.

روي عن رسول الله (ص): «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يبيت في موضع يسمع نفس امرأة ليست له بمحرم». (وسائل الشيعة).

وعن أبي عبد الله (ع): «فيما أخذ الرسول (ص) البيعة على النساء أن لا يقعدن مع الرجال في الخلاء». (وسائل الشيعة).

والمراد بالخلاء أن يكون المكان بنحو لا يمكن للغير دخوله كالغرفة التي أغلقت بابها، أو البيت الذي لا يستطيع أحد دخوله والوجود فيه.

٤ ـ الحدود الشديدة:

الحدود التي وضعت في الإسلام لهذا العمل الشنيع هي واحد من الموانع عن شيوعه، نبيّنها ضمن خمسة فروع:

١ ـ يقتل من زنى بامرأة من محارمه النسبية (كالأخت، والبنت، والعمة، والخالة، وبنت الأخ، وبنت الأخت).

٢ ـ إذا رأى شخصاً يزني بامرأته، يستطيع أن يقتلهما إذا أمن الضرروإذا لم يأمن، أو أمن ولم يقتلهما، فإن امرأته لا تحرم عليه.

٣ ـ إذا زنى الكافر بالمسلمة، أو زنى المسلم الذي سبق له أن حدّ ثلاث مرات حد الزنى،فإنه في المرة الرابعة يقتل.

٤ ـ إذا زنى الرجل المحصن (وهو من له زوجة بالعقد الدائمي وحاضرة عنده ووطئها وهي في البلوغ والعقل، وهو متمكن منها متى ما أراد) بامرأة عاقلة بالغة فإنه يرجم، وبعضهم ذكر أنه يجلد أوّلاً مائة جلدة ثم يرجم.

٥ ـ إذا لم يكن الزاني محصناً ـ بالمعنى المتقدم ـ وزنى بغير المحرم فإن حده مائة جلدة، وهكذا المرأة الزانية غير المتزوجة حدها مائة جلدة.

* * *

في مجموعة (مطبوعات منظمة الإعلام الإسلامي) هكذا كتب:

هنا يوجد مطلبان علميان حول الزنى وحكمه الإسلامي، في سورة النور تقول الآية الثانية ﴿**الزَّانِيَةَ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**،

وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأول تحليل يصل للذهن حول ذلك هو أن جلد الزاني والزانية من أجل أن يعتبر الآخرون لكي لا يقعوا في هذا العمل، وأنهم إذا فعلوا ذلك فإن هناك عقوبة دنيوية فضلاً عن الأخروية، ويؤيد هذا التحليل ذيل الآية الذي يقول «وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين».

والموضوع الآخر الذي انتهينا إليه ولم تثبت لحد الآن صحته العلمية مائة في المائة، هو أن جلد الزاني والزانية معالجة طبية لهما، ذلك أن ميكروبات (السفلس) والالتهابات لا تعالج بسرعة، وأهم طريق في معالجتها الحرارة، خصوصاً إذا كان دخول الميكروب للبدن حديثاً ولم ينْمُ بعد، فإن الحرارة مؤثرة جداً في قتله، والجلد هو أحد وسائل توليد الحرارة في الموضع الذي حل به الميكروب، وبعد هذه الحرارة فوق العادية من خلال ضرب مائة جلدة يُطمأن بقتل الميكروب.

النقطة الثانية تتعلق بالسراية، ذلك أن أكثر ممارسات الزنى تولد الأمراض المعدية مثل السفلس والالتهاب، وقد شرع الإسلام لأجل تحديد هذه الأمراض المعدية أهم تشريع يدعو له علماء اليوم، حيث يدعون إلى فحص الراغب بالزواج والتأكد من سلامته من الأمراض الجنسية المعدية، فمن كان يحمل تلك الأمراض فإنه لا يسمح له بالزواج إلا إذا كانت المرأة تحمل نفس المرض، وأن لا تحمل منه مولوداً جديداً.

إن الهدف من هذا العمل هو الوقوف بوجه تعدي المرض، والمنع من وجود النسل المشوه، والإسلام في هذا المجال يعطي أهم تشريع عملي، يؤمن سلامة المجتمع والأفراد والنسل.

يقول في الآية الثالثة من سورة النور: **﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.**

يجب أن يثبت شرعاً:

يجب الالتفات إلى أن تنفيذ هذه الحدود إنما هو ثبوت الزنى شرعاً، وهو أمر فيه شروط خاصة ،من جملتها شهادة أربعة رجال عدول في وقت واحد ومكان واحد، بزنى الرجل مع امرأة خاصة يعرفونها، وأنهم قد شاهدوه في أثناء العملية.

ملاحظتان:

١ ـ إذا زنى بامرأة لا زوج لها ولم تكن في أثناء العدة الرجعية (أي العدة التي يجوز للزوج الرجوع فيها بدون عقد جديد) فإنه يستطيع بعدئذ الزواج منها، أما إذا كانت ذات بعل، أو كانت في أثناء العدة الرجعية فإنها تحرم عليه أبداً، أي لو أن زوجها مات بعدئذ أو طلقها أو خرجت عن العدة، فإن الزاني مع ذلك لا يستطيع الزواج منها.

٢ ـ إذا زنى بامرأة فإن أمها وابنتها ستحرم عليه على الرأي الأشهر، أي أنه لا يستطيع الزواج منهما، وهكذا المرأة المذكورة مع أب الزاني فإنها تحرم عليه[١].

وها نحن نجلب أنظار القراء الأعزاء لمطالب هامة في كتاب (برهان القرآن)، ونختم البحث بها: «الموضوع الذي يطرح للمناقشة هو اختلاط الرجل والمرأة، ذلك أن مخالفي الإسلام يثيرون ضجيجاً عالياً، وأحياناً يتحدثون عن المجتمع الفرنسي الحر، ويقلدون المجون والخلاعة للرجال والنساء، حتى على مستوى القبلات واللقاءات في الشوارع، وأحياناً يتحدثون عن التمدن الأمريكي قائلين: إنه في تلك البلاد لا يوجد لدى الناس نفاق ،لأنهم يستطيعون إشباع حاجاتهم الجنسية بصورة جيدة، ذلك أن الغريزة الجنسية من ضرورات الحياة، ومن هنا فإنهم فتحوا الطريق لأنفسهم، فكل شاب يختار لنفسه فتاة حبيبة، وكل فتاة تختار شاباً من الشباب، بحيث

---

(١) وحيث كانت هذه الفروع محل اختلاف الفقهاء العظام، فعلى من كان مبتلى بها الرجوع إلى مقلده الخاص.

يقضون معظم ساعات النهار والليل معاً بأحسن حال، ويتعانقون بعضهم مع البعض في مناطق السياحة والأنس، ويفرغون شهوتهم الجنسية، ويحلمون صباحاً بالعيش الرغيد، والليل السعيد، بقلب مسرور، وروح مطمئنة، وبذلك يوفقون في أعمالهم النهارية، وبذلك أيضاً يخطو الشعب خطوات بعيدة وسريعة في مجال الرقي والعلو.

هذه خلاصة المقال السوفسطائي لهذه الجماعة، إلا أنهم نسوا سريعاً الخواطر المرة والمؤلمة للحرب الماضية، وكيف أن فرنسا التي يسيل لعابهم لذكر اسمها، وقفت عاجزة ذليلة لدى أول ضربة وأول هجوم للجيش الألماني، مع أنها كانت مستعدة للحرب في نظر (ساز وبرك)، إلا أنها خسرت نتيجة الميوعة وافتقاد روح العزة، والخشونة المقدسة، فخوفاً على عمارات باريس ومراقصها أعطت شرفها وتاريخها ومجدها.

والآن نسأل هذه الفئة: هل يهدفون إلى إسقاط شبابنا في مثل هذه المزالق الرهيبة بعنوان مكافحة الرجعية، والاتجاه نحو التمدن والرقي؟

هل نسي هؤلاء الخطبة الحكمية للمارشال (بيتان) حين قال: «إن أكبر سبب في انكسارنا هو الانزلاق في مستنقع الشهوات، والابتلاء بالتحلل والمجون».

ألم يقرأوا في كتاب (لماذا خسرت فرنسا) حيث يكتب (أندريه موروا) الكاتب الفرنسي الكبير: «في الوقت الذي كانت طائرات العدو تقصف مدننا وتدمرها بصورة جهنمية، حاول رئيس الوزراء يومذاك (بل رينو) أن يتصل تليفونياً بمقر القيادة المشتركة طالباً منهم عدة طائرات، إلا أنه بأي واحد من أجهزة التليفون التي كانت على منضدته حاول أن يتصل كان صوت محبوبته (دوبي) عالياً، متدخلة في السؤون السياسية والعسكرية، ومستفيدة من ميوعة رئيس الوزراء.

ألا تكفي هذه الاعترافات من رجال السيف والقلم في فرنسا لوضع حد لهذه التخرصات؟

وأما حول أمريكا، وحول الدعاية الإعلامية التي يثيرها هؤلاء عن حرية الرجل والمرأة فيها، فلعله تكفي الإشارة إلى الملاحظة التالية:

علم أخيراً من خلال الإحصائيات التي أجريت في إحدى المدن أن ٢٨٪ من الفتيات حوامل، وكانت النسبة أقل في فتيات المراحل الدراسية العليا تبعاً لاستخدام موانع الحمل.

لا شك أن الخلاص من ضغط الغريزة الجنسية هو أمر صحيح، ومطابق للفطرة ومقتضى الطبيعة، ولأجل ذلك أعطى الإسلام توجهاً خاصاً لهذا لموضوع، فهو عارف بأن الحرمان من المسائل الجنسية يمنع ـ نتيجة للتأثر والبؤس ـ عن الإنتاج والعمل الصحيح، إلا أن اللازم اتخاذ الطريقة الصحيحة لتحقيق الهدف الصحيح، لا تلوث المحيط الاجتماعي بالفحشاء والميوعة، وإطلاق عنان الانفلات للفتيات والفتيان في حياة شهوانية كالحيوانات.

أما قضية البهجة والحيوية التي تتحقق من خلال التمتع بالنظر للنساء الجميلات، والعشرة مع الوجوه الزاهرة المزينة، فإنها ليست محلاً للإنكار، كما هو في الاستفادة من المائدة المليئة بألوان وأنواع الأطعمة، فإنها تجذب القلب أكثر من المائدة التي لا تحتوي إلا على لون واحد من الطعام. إلا أننا يجب أن نعين الأهداف الأساسية أولاً، ونرى هل أن وظيفتنا في الحياة هو التمتع والمسرة والأنس أكثر، من دون الالتفات إلى عواقبها وتبعاتها؟

هل يوجد أحد في العصر القديم والحديث ينكر أن الأنس والمجون يحقق مزيداً من اللذة والمسرة؟ إنه لمن المسلم أن السعي وراء اللذائذ والشهوات ليس أمراً جديداً تم اكتشافه في القرن العشرين، إن أهل القرون السابقة، وإن اليونان، والروم، والفرس القدماء عرفوا كل ذلك وغاصوا فيه إلى الحلقوم. ونتيجة ذلك فقدوا قدرتهم وصلابتهم، وفي النهاية حرموا من المنافع ومن الفكر الحضاري، والهمة العالية والروح الوثابة المستمية،

وفقدوا حكومتهم واستقلالهم، إنه ليس محلاً للتردد :أن الشعوب الأوروبية من ناحية القوة المادية والعلمية، ومن ناحية العمل والسعي الإنتاجي قوية وكفوءة، إلا أن دودة المجون تنخر قليلاً شجرة الحياة الاجتماعية، فقلعت بعضهم من الأساس، وضعفت البعض الآخر ودفعته في طريق الزوال.

أما نحن أهل المشرق، فنتيجة لتعاسة الأوضاع الاجتماعية، والظروف السياسية خصوصاً في القرنين الأخيرين فقدنا قوانا.

يا لها وقاحة! أن سقطنا في مزالق الشهوات الموحشة، واعتبرنا ألاعيبها تمدناً ورقياً، وسمينا الاجتناب عن مثل تلك المنكرات جموداً ورجعية.

مع ملاحظة هذه الحقائق القائمة، نجد أن كل كاتب ومصلح وطالب للحرية، حين يجعلنا تحت ضغط دعوته لالتزام آدابه وأخلاقه التاريخية، هو ـ وبأي عنوان كان ـ مبعوث من قبل أجهزة الاستعمار، وذليل يعيش على موائد الأجانب، وعدو مؤذٍ يريد المكيدة بنا، إن اختلاط المرأة بالرجل الأجنبي أمر جذاب وفعال في العواطف، إلا أن مجالاً ينفتح للسؤال التالي:

من خلال الجاذبية، هل تزداد قيمة المرأة بالنظر إلى المهام المرتبطة بها حسب قوانين الطبيعة، أم بمقدار الزيادة في جانب الفتنة والجاذبية في شخصيتها تقل في الجانب الآخر؟

وهل هذه الزيادة ترجح كفة السعادة الاجتماعية وقيمتها وكرامتها أم تقلل منها؟

لا شك أن المرأة في الغرب رفيقة للرجل، ومهيأة لمغازلته ومعاشقته وإشباع غريزته الجنسية، كما تساعده في حل بعض مشاكله، إلا أنها في عين الحال عاجزة عن القيام بمهمة الزوجة الصالحة والأم الجديرة، ولا تستطيع مغالطات التجمعات النسوية وأنصارها إنكار هذه الحقيقة، فالإحصائيات الدقيقة تؤيد ذلك، وأفضل دليل على صدق المدعى هو ارتفاع نسبة الطلاق في أمريكا بنسبة ٤٠٪، والارتفاع في نسبة الطلاق خطر عظيم يكشف عن

تحلل وانفصام العلاقات العائلية والزوجية.

أما في أوروبا، فرغم أن نسبة الطلاق لم ترتفع إلى ذلك الحد، إلا أن أعمال العشق قد انتهت إلى الابتذال والفحشاء، ولا شك لو كانت المرأة تجد لنفسها زوجاً لائقاً، تمتعه بنور قلبها وحرارته، وتستقر هي في عشه العائلي المقدس، لما حدثت الفضائح وحالة الميوعة والابتذال.

أما في موضع وظيفة الأمومة، فبالأساس إن انشغال المرأة بوظائف خارج المنزل لا يسمح لها بأداء مهام الأمومة، سواء من ناحية الوقت أو من ناحية الجوانب الروحية والنفسية، ذلك أن المرأة التي أنهكت بالعمل لمدة ساعات متوالية، وتوزعت أفكارها وعواطفها من خلال معاشرة عدة رجال، لا تستطيع أن تقوم بمهام الأمومة، ولا يبقى في قلبها محيط مساعد لتقبل الأطفال وتربيتهم.

ولننظر أية نتيجة عقلائية وفائدة كسبها المجتمع الإنساني، مع قطع النظر عن اللذة المؤقتة في الاختلاط مع النساء المثيرات؟

وأية مشكلة من مشاكل البشرية حلّها وجود النساء في البرلمانات العالمية، والوزارات، والمؤسسات الإدارية، أو وجود ملايين النساء في المعامل والمتاجر ومراكز الفسق والجور؟؟

هل نحسب قيام المرأة بهذه الأمور عنصراً مفيداً ومؤثراً في المجتمع، أم أن قيامها بتربية الأطفال، وإنشاء جيل صالح من الرجال والنساء، وإيجاد الأفراد المتقين المؤمنين العارفين بالله، هو عنصر غير مفيد ولا مؤثر في المجتمع؟

من الممكن أن تبتهج المرأة وتسرّ بتصفيق السامعين في البرلمان، أو بتملقهم إليها في المجالس أو الطرقات، لكن ما قيمة هذه المسرة المؤقتة التي نتيجتها وجود جيل من الأطفال، محروم من عواطف الأم وتربيتها العالية؟ ومن يستطيع غير الأم أن يغرس في قلب الأطفال وأرواحهم عنصر

المحبة التي تمنع حالة التوحش والأنانية؟

بالطبع ليس هدفنا من هذا البحث وضع المرأة تحت الضغط والقسوة، وحرمانها من لذات الحياة، وبناء شخصيتها وكرامتها، لكن متى وأين تسمح فرص الحياة للبشر ـ رجلاً كان أو امرأة ـ أن يعمل وفقاً لأهـوائه ورغبـاته في ملذات الحياة، وأن يبني شخصيته كما يهوي وكما يطيب له؟

كيف سيكون وضع المجتمـع ومستقبل الحيـاة لو أطلقنـا العنان لهـوى النفس، وميل القلب وغلبة الأنا، وسرنا وراء الشهوات واللذائذ؟

ألا يتولد نتيجة هذا الإفراط جيل بائس، ضعيف، ناقص تقع مسؤوليته علينا؟

وفي ذلك الجيل الشقي والفاسد، أليس ستكون هناك أعداد لا متناهية من النساء؟

وهل يليق بالمرأة من زاوية طبيعتها ونوعها الثابت والدائم في العالم، أن يعيش ـ نتيجة ذلك ـ باقي أفرادها في الأجيال اللاحقة والقرون الآتية في حالة شقاء؟

وهل يعيب الإسلام أن يعتبر البشر سلسلة واحدة وحلقات متصلة يرتبط أجيالها بالبعض الآخر، ولا يسمح لبعض الأجيال التضحية بسعادة الأجيـال الأخرى فداءً لأهوائها وشهواتها؟؟

نعم، للنقد والاعتراض مجال لو كان الإسلام يهدف إلى منع كـل أنواع اللذائذ، وتعطيل الفطرة والغريزة، وخنقها، ولكن هل صنع الإسلام ذلك؟». (برهان القرآن).

* * *

(١١) ـــــــــــــ اللواط

الحادي عشر من الذنوب التي ورد التصريح بـأنها كبيـرة: اللواط، كما ورد عن الإمام الصادق، والإمام الرضا عليهما السلام، بل إن حـرمة اللواط وعقوبته أشد من الزنى، فقد روي عن الإمام الصادق (ع): «حرمة الدبر أعظم من حرمة الفـرج، إن الله تعالى أهلك أمـة لحرمـة الدبـر، ولم يهلك أحداً لحرمة الفرج». (أصول الكافي).

وروي عن رسول الله (ص) أنه قال: «من جامع غلاماً جاء يوم القيامـة جنباً لا ينقيه ماء الدنيا وغضب الله عليه ولعنه وأعد له جهنم وساءت مصيراً».

ثم قال (ص): «إن الذكر يركب الذكر فيهتز العرش لذلك، وإن الرجل ليؤتى في حقبه فيحبسه الله على جسـر جهنم حتى يفـرغ الله من حسـاب الخلائق، ثم يؤمر بـه إلى جهنم فيعذب بـطبقاتهـا طبقة طبقـة حتى يرد إلى أسفلها ولا يخرج منها». (وسائل الشيعة).

اللواط كفر:

قال أمير المؤمنين (ع): «اللواط ما دون الدبر والدبر هو الكفر» (أصول الكافي).

وروي حذيفة بن منصور قال: «سألت أبا عبد الله (ع) عن اللواط فقال: ما بين الفخذين وسألته في الذي يوقب قال (ع): «ذلك الكفر بما أنـزل الله على نبيه (ص)» (وسائل الشيعة).

حجر العذاب عند الموت:

روي عن الإمام الصادق (ع): في قوله تعالى ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْها حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ**﴾ قال: «ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط، إلا رماه

الله تعالى بحجر من تلك الحجارة تكون فيه منيته، ولكن الخلق لا يرونه».
(تفسير القمي).

عذاب قوم لوط على الظالمين:

بين القرآن الكريم لقوم لوط ثلاثة أنواع من العذاب: الصيحة إمطار الحجارة عليهم عذاباً، قلب مدنهم وجعل عاليها سافلها[1]، ثم يقول تعالى **﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾**.

وهذا التهديد الشديد إنما هو لمرتكبي هذا العمل.

الغلام الذي قتل مولاه:

روي أن عبداً قتل مولاه فجيء به إلى عمر فأمر بقتله، فدعاه علي (ع) فقال له: قتلت مولاك؟ فقال: نعم، قال: ولم قتلته؟ قال: غلبني على نفسي وأتاني في ذاتي (يعني أنه فعل بي) فقال علي (ع) لأولياء المقتول: أدفنتم وليكم؟ قالوا: نعم، قال: ومتى دفنتموه؟ قالوا: الساعة. فقال لعمر: احبس هذا الغلام ولا تحدث فيه حدثاً حتى تمر عليه ثلاثة أيام. ثم قال لأولياء المقتول: إذا مضت ثلاثة أيام فاحضروا، فلما مضت ثلاثة أيام حضروا، فأخذ علي (ع) بيد عمر وخرجوا، ثم وقفوا على قبر الرجل، فقال علي (ع) لأوليائه: هذا قبر صاحبكم؟ قالوا: نعم، قال: احفروا، فحفروا حتى انتهوا إلى اللحد، فقال: أخرجوا ميتكم. فنظروا إلى أكفانه في اللحد ولم يجدوه، فأخبروه بذلك، فقال علي (ع): الله أكبر، والله ما كذبت ولا كذبت، سمعت رسول الله (ص) يقول: من يعمل من أمتي عمل قوم لوط ثم يموت على ذلك، فهو مؤجل إلى أن يوضع في لحده، فإذا وضع فيه لم يمكث أكثر من ثلاث، حتى تقذفه الأرض إلى جملة قوم لوط المهلكين، فيحشر معهم».
(معالم الزلفى ص ١٣٤).

---

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ سورة هود/٨٢.

اللواط فاحشة وعمل قبيح :

عن الإمام الرضا (ع) : «واتَّق الزنى واللواط وهو أشـد من الزنى ، وهما يورثان صاحبهما اثنين وسبعين داءً في الدنيا والآخرة» . (فقه الإمام الرضا) .

وكما عبر القرآن الكريم عن الزنى بـ (الفاحشة) كذلك عبر عن هذا العمل الشنيع ، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف :

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ . السورة.٧ الآيتان ٨٠ ـ ٨١ .

أي إسراف أسوأ من أن توضع النطفة في غير محلها ، بينما هي بمثابة البذرة التي يجب أن يكون مقرها الرحم ، لأجل بقاء النوع الإنساني؟!

ولأجـل تهديـد الآخرين عن الاقتـراب من هذا العمـل اللاإنسـاني ذكّر القرآن الكريم في سورة الأعراف وهود والنمل والعنكبوت والقمر بقوم لوط ، وكيفية عذابهم .

ولأجـل المنع من هـذا العمل الشنيـع حـرم الله تعـالى عـدة أمـور هي مقدمات له ، قريبة أو بعيدة :

النظر إلى الأولاد بشهوة حرام :

١ ـ النظر بدافع الشهوة إلى الشاب الأمرد حرام ، وقد ذكرنا مفصلاً سوء الأثر وشدة العقوبة على النظر الحرام في بحث الزنى ، بـل روي عن رسول الله (ص) : «إياكم وأولاد الأغنياء والملوك المرد ،فإن فتنتهم أشد من العذارى في خدورهن» . (وسائل الشيعة) .

إذن ، يجب على كل مسلم غض النظر ، والمـواظبة الكـاملة على عينيه لئلا يتورط في مثل هذا الذنب الكبير .

لجام النار لمن قبّل بشهوة:

٢ ـ تقبيل الشاب بشهوة حرام، كما ورد عن الإمام الصادق (ع) أن رسول الله (ص) قال: «من قبل غلاماً بشهوة ألجمه الله تعالى بلجام من نار». (أصول الكافي).

وروي عن الإمام الرضا (ع): «إذا قبل الرجل غلاماً بشهوة لعنته ملائكة السماء وملائكة الأرض. وملائكة الرحمة وملائكة الغضب. وأعد له جهنم وساءت مصيراً». (فقه الإمام الرضا (ع)).

وأيضاً روي عن رسول الله (ص): «من قبل غلاماً بشهوة عذبه الله تعالى ألف عام في النار». (مستدرك الوسائل).

وإذا ثبت أن أحداً قبل غلاماً بشهوة فيجب إجراء الحدّ عليه، وهو ثلاثون إلى تسعين سوطاً، حسب ما يراه الحاكم من الصلاح.

نوم رجلين أو امرأتين:

٣ ـ نوم رجلين تحت غطاء واحد وعلى فراش واحد، وكلاهما عار حرام، وكذلك حكم المرأتين، ولا فرق بين الأجنبي والقريب المحرم[١].

وفي عدة روايات: يجب إجراء الحد عليهما، وهو حد الزنى، أي مائة جلدة.

وقال بعض العلماء: بما أنه قد ذكر لنوم الرجلين العريانين تحت لحاف واحد حد معين، فهو إذن من الذنوب الكبيرة.

وروي عن رسول الله (ص): «الصبي والصبي والصبي، والصبية والصبية والصبية يفرق بينهم في المضاجع لعشر سنين». (وسائل الشيعة).

---

(١) في الباب الثاني من هذا الكتاب، وضمن ذنب (المساحقة) يذكر أنه ـ بناءً على المشهور ـ يجب التعزير بأقل من الحد (مائة جلدة)، وذلك بعد إثبات الذنب أمام حاكم الشرع.

حد اللواط:

بما أن حرمة اللواط وفساده أكثر من الزنى، من هنا كان حده أشد وهو القتل، فمتى كان اللائط والملوط به عاقلين بالغين فإنهما يقتلان، ويقتل الفاعل إما ضرباً بالسيف، أو رجماً بالحجارة، أو بالإحراق بالنار، أو بإلقائه من شاهق، كإلقائه من جبل مع تكبيل يديه ورجليه، ويرجع إلى الحاكم الجامع للشرائط انتخاب أحد هذه الأنواع.

وروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه أمر بإحراقه بعد قتله.

يتوب فلا يحرق:

تروى في هذا المورد رواية لطيفة في كتاب (أصول الكافي) عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «بينما أمير المؤمنين عليه السلام في ملأ من أصحابه إذ أتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني أوقبت على غلام فطهِّرْني.

فقال له: يا هذا امض إلى منزلك لعل مراراً هاج بك.

فلما كان من غد عاد إليه، فقال له: يا أمير المؤمنين: إني أوقبت على غلام فطهرني، فقال له: اذهب إلى منزلك لعل مراراً هاج بك، حتى فعل ذلك ثلاثاً بعد مرته الأولى.

فلما كان في الرابعة قال له: يا هذا إن رسول الله (ص) حكم في مثلك بثلاثة أحكام فاختر أيهن شئت.

قال: وما هن يا أمير المؤمنين؟

قال: ضربة بالسيف في عنقك بالغة ما بلغت، أو إهداب من جبل مشدود اليدين والرجلين أو إحراق بالنار.

قال: يا أمير المزمنين أيهن أشد علي؟

قال: الإحراق بالنار.

قال: فإني قد اخترتها يا أمير المؤمنين.

فقال (ع): خذ لذلك أهبتك.

فقال: نعم.

قال: فصلّى ركعتين ثم جلس في تشهده، فقال: اللهم إني قد أتيت من الذنب ما قد علمته، وإني تخوفت من ذلك فأتيت إلى وصي رسولك وابن عم نبيك فسألته أن يطهرني، فخيرني ثلاثة أصناف من العذاب، اللهم فإني اخترت أشدّهن، اللهم فإني أسألك أن تجعل ذلك كفارة لذنوبي، وأن لا تحرقني بنارك في آخرتي، ثم قام وهو باكٍ حتى دخل الحفيرة التي حفرها له أمير المؤمنين (ع)، وهو يرى النار تتأجج حوله.

قال: فبكى أمير المؤمنين عليه السلام وبكى أصحابه جميعاً.

فقال له أمير المؤمنين (ع): قم يا هذا فقد أبكيت ملائكة السماء وملائكة الأرض، فإن الله قد تاب عليك، فقم ولا تعاودنّ شيئاً مما فعلت».

ملاحظة:

المشهور بين الفقهاء أنه إذا تاب المذنب (اللائط) بعد الإقرار، وبعد استعداده لإجراء الحد عليه، فإن الإمام مخير بين أن يجري الحد أو لا يجريه، كما يظهر احتمال ذلك في الحديث المذكور، وهناك احتمال آخر هو أنه (ع) وبشكل إعجازي منع احتراقه بالنار حال إجراء الحدّ عليه، والله أعلم بالصواب.

حكم وضعي:

يجب أن يعلم أن أم الملوط بـه وأختـه وابنتـه يحـرمن دائماً على اللائط، أي أنه بعد هذا العمل القبيح لا يستطيع ـ شرعاً ـ الزواج منهن.

(١٢) ـــــــ القذف

الثاني عشر من الذنوب الكبيرة القذف، وهـو نسبة الزنى أو اللواط إلى امرأة أو رجل مسلم شريف.

وقـد ورد في الأحـاديث الـواردة عن رسـول الله (ص) وعن الإمـام الصـادق (ع) والإمام الكـاظم (ع) والإمام الـرضـا (ع) والإمـام الجـواد (ع) التصريح باعتباره من الـذنوب الكبيـرة، وقد أو عـد عليه في القـرآن الكريم بالعذاب.

يقول تعالى في سورة النور: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُـونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَـافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الـدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَـظِيمٌ. يَوْمَ تَشْهَـدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْـدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَـا كَـانُـوا يَعْمَلُونَ﴾**. السـورة ٢٤ الآيتـان ٢٣ ـ ٢٤.

الطرد في الدنيا:

من قذف امرأة أو رجلاً بريئاً بالزنى فإنه مطرود وملعون ومـردود من قبل العباد في الدنيا، وفي الآخرة ملعون ومغضوب عليه من الله.

يعاقب في الدنيا بعقوبة الحدّ، وردّ شهادته، وفي الآخـرة يبتلى بأنـواع وأقسام العذاب.

الشهادة على الكافر:

روي عن الإمـام الباقـر (ع): «ليست تشهد الجـوارح على مؤمن، إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب». (أصول الكافي).

وحال القاذف هكذا، فلأنه مستحق لعذاب النار. فإن أعضـاءه ستشهد عليه بنص القرآن المجيد.

الحدّ ـ ردّ الشهادة ـ الفسق:

وأيضاً يقول تعالى في سورة النور: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾. السورة ٢٤ الآية ٤.

ذكر في هذه الآية الشريفة ثلاثة أحكام: وجوب إجراء الحد، والآخر عدم قبول شهادته للجميع، والثالث الحكم بفسقه[1].

خارج عن المؤمنين:

روي عن الإمام الباقر (ع) في شأن المفتري: «فبرأه الله ما كان مقيماً على الفرية أن يسمى بالإيمان، قال الله عز وجل ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ**﴾. (أصول الكافي).

وقال رسول الله (ص): «من رمى محصناً أو محصنة أحبط الله عمله، وجلده يوم القيامة سبعون ألف ملك من بين يديه ومن خلفه، ثم يؤمر به إلى النار». (وسائل الشيعة).

حد القذف:

ما يستفاد من الآية الشريفة والأخبار الكثيرة واتفاق الفقهاء، وهو أن إجراء حدّ القذف الذي هو ثمانون سوطاً مشروط بعدة شروط:

١ ـ أن يكون القاذف بالغاً عاقلاً، أما إذا كان طفلاً أو مجنوناً فلا حدّ عليه.

٢ ـ المقذوف يشترط فيه خمسة شروط، البلوغ، والعقل، والحرية،

---

(١) الهدف من تشريع هذا الحكم حفظ العفاف والعز للمجتمع الإسلامي، وتصعيد روح الغيرة والرفعة لدى أبناء الإسلام، ذلك أنه في المجتمع الذي تشيع فيه الشتائم والاتهام من دون عقوبة، تموت روح العزة والغيرة لا محالة فيه، وتخرق أستار الكرامة والشرف، وغني عن التوضيح أن الأمة التي تسقط في هذا المهوى ليست قادرة أبداً وفي أي وقت على حفظ كيانها الوطني، واستقلالها القومي، ولا قادرة على الدفاع عن وطنها. «برهان القرآن».

والإسلام، والشرف. أي أن لا يكون متجاهراً ومتظاهراً بهذا العمل الشنيع، وأن يأبى ويأنف عن نسبة العمل إليه، فإذا لم يتوفر واحد من هذه الشروط فلا حدّ عليه.

٣ ـ أن يكون الاتهام صريحاً بالزنى، أو اللواط، لا بالكناية.

مثال ذلك: أن يقول لمسلم يا زاني، أو يا لائط، أو يقول لمسلمة يا زانية، أو أي لفظ يؤدي هذا المعنى صريحاً وبأي لسان كان، ففي هذه الصورة يحق للمقذوف المطالبة بإجراء الحد على القاذف.

في بعض الموارد يكون حق المطالبة بإجراء الحد لغير المخاطب، أي أن المقذوف غير المخاطب، مثل أن يقول لشخص: أبوك لائط، أو زانٍ.

فالمقذوف في هذه الصورة هو أبو المخاطب، وحق إجراء الحد له، نعم، بما أن المخاطب قد هتك فله حق التعزير، وتعيين مقداره يعود إلى حاكم الشرع، وبالطبع هو أقل من ثمانين سوطاً. وهكذا لو قال لشخص يا بن الزاني، أو يا نطفة الزنى، أو يا أخت فلان، أو أم فلان، ففي جميع هذه الموارد حق إجراء الحد لغير المخاطب، وللمخاطب حق التعزير.

٤ ـ أن لا يتمكن القاذف من إثبات دعواه، وإثبات الزنى أو اللواط يتم من خلال أربعة شهود عدول رجال، يشهدون في مجلس واحد ووقت واحد بأنهم قد شاهدوا وقوع هذا العمل الشنيع. ففي هذه الصورة يثبت حد الزنى أو اللواط على المقذوف؛ أما إذا لم يستطع الإتيان بأربعة شهود بالطريق المذكور فإنه هو الذي يجري عليه حد القذف، وهو ثمانون جلدة، وهكذا كل واحد من الشاهدين أو الثلاثة (حينما يكونون أقل من أربعة أشخاص).

لا يجوز هتك الحرمات الإلهية:

السبب في أن إثبات الزنى أو اللواط في الشرع الإسلامي مشروط بشهود أربعة وبالكيفية المذكورة، بحيث إذا كانوا أقل من ذلك جرى عليهم حد

القذف، بينما في سائر الموارد بشاهدين، هو أن لا يتجرأ أحد على هتك المسلم الذي تاب وتلافى عمله القبيح، إضافة إلى أن لا يشيع هذا العمل الشنيع، بحيث يزول لدى الأنظار حجمه الكبير وخطره ورعبه، وبعبارة أخرى: التقليل من هتك الحرمات الإلهية، وأن لا يجري الناس في هذا العمل القبيح، وأخيراً لأن الحدّ في مواردالزنىواللواط متضمن لحكم شديد وهو القتل، لذا يجب أن يتوفر لإثباته أربعة شهود.

٥ ـ أن ينكر المتهم (المقذوف)، ويطلب إجراء الحدّ على القاذف، وعليه فلو أن المقذوف صدق وأقر بنسبة الزنى أو اللواط إليه، أو عفا عن القاذف، فإن الحد يسقط عنه حينئذ.

ويجب أن يعلم أنه إذا كان القاذف زوجاً وقذف زوجته بالزنى، فإن حد القذف بالنسبة له يسقط باللعان أيضاً، وتفصيله الذي يستفاد من الآية الشريفة والأخبار موجود في الكتب الفقهية. نجتنب ذكره دفعاً للإطالة في المقال.

مع فقد الشرائط حرام أيضاً:

متى ما فقد أحد الشروط الخمسة السابقة سقط حد القذف، إلا أنه لا شك في الحرمة، وفي بعض الموارد يثبت شرعاً التعزير، مثلاً لو قال لشخص إنه (ابن حرام)، إذ ليس معنى ذلك صريحاً أنه ابن زنى، ففي العرف يقال لولد الحيض إنه ابن حرام، وأحياناً يقولون (ابن حرام) ويقصدون به أنه خبيث النفس أو سيئ العمل، ففي ذلك لا يثبت حدّ القذف، أما حق التعزير (التأديب) فإنه ثابت، وذلك لأنه هتك الشخص المخاطب.

وهكذا لو قذف غير المسلم، فإنه لا يثبت حدّ القذف في هذه الصورة، إلا أنه حرام يقيناً، ولا يجوز نسبة الزنىأو اللواط إلى الكفار صريحاً أو كناية، ما دام لم يثبت شرعاً أنه وفق مذهبه قد زنى.

لا يجوز قذف الكفار:

روي عن عمر بن النعمان الجعفي قائلاً: كان لأبي عبد الله (ع) صديق

لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكاناً، فبينما هو يمشي معه في الحذّائين ومعه غلام له سندي يمشي خلفه، إذ التفت الرجل يريد غلامه ثلاث مرات فلم يره، فلما نظر في الرابعة قال: يا بن الفاعلة أين كنت؟

قال: فرفع أبو عبد الله(ع) يده فصك بها جبهة نفسه، ثم قال: سبحان الله تقذف أمه؟ قد كنت أرى أن لك ورعاً فإذا ليس لك ورع.

فقال: جعلت فداك إن أمه سندية مشركة، فقال:

أما علمت أن لكل أمة نكاحاً؟ تنح عني.

قال: «فما رأيته يمشي معه حتى فرّق الموت بينهما». * (أصول الكافي) *.

وعن أبي الحسن الحذّاء قال:

كنت عند أبي عبد الله (ع) فسألني رجل: ما فعل غريمك؟

قلت: ذاك ابن الفاعلة؟

فنظر إليّ أبو عبد الله نظراً شديداً.

قال: فقلت: جعلت فداك، إنه مجوسي أمه أخته.

فقال: «أو ليس ذلك في دينهم نكاحاً»؟ (وسائل الشيعة).

الشتم حرام أيضاً:

وفيما عدا القذف فإن كل نوع من الشتم لمسلم غير متظاهر بالفسق، مما يوجب إيذاءه حرام، ويجب تعزيره مع توفر الشرائط.

وذلك مثل أن يقول: يا فاسق، يا شارب الخمر، يا خنزير، يا كلب، أو يوبخه بندائه ببعض الأمراض. مثل أن يقول له: يا أعمى، يا أقرع، يا خامل، وأمثال ذلك.

وفي (مستدرك الوسائل) عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: «من قال لأخيه

المسلم يا فاجر، أو يا كافر، أو يا خبيث، أو يا فاسق، أو يا منافق، أو يا حمار فاضربوه تسعة وثلاثين سوطاً».

وفي حرمة الشتم لا فرق بين الرحم والأجنبي، وهكذا الخادم والتلميذ وغيرهم.

الشتم والروايات:

الأخبار الواردة في هذا المجال كثيرة، منها ما ورد عن الإمام الصادق (ع): «البذاء من الجفاء، والجفاء في النار». (أصول الكافي).

وعن رسول الله (ص): «أربعة يزيد عذابهم على عذاب أهل النار، . . . إلى أن قال: ورجل يستلذ الرفث والفحش فيسيل من فمه قيح ودم».

وروايات أخرى مذكورة في الباب الثاني من هذا الكتاب.

رد الشتم:

يجب أن يعلم كما أن الابتداء بالشتم والفحش حرام، فإن الجواب بالشتم والفحش حرام أيضاً، نعم، في صورة الرد بنفس الأسلوب، وبدون قذف فإنه لا مانع من ذلك، مثال ذلك لو قال له يا جاهل، يا أحمق يا ظالم، وقال في جوابه: الجاهل أنت، الأحمق أنت، الظالم أنت، فإنه لا مانع من ذلك، كما صرح بذلك في القرآن الكريم: **﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾**. السورة ٢ الآية ١٩٤.

وهكذا قال ـ تعالى: **﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾** السورة ٤٢ الآية ٤١.

﴿وإن عَاقَبتُم فَعاقبوا بِمثلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ﴾ السورة ١٦ الآية ١٢٦.

بشرط عدم التجاوز:

عن الإمام موسى بن جعفر (ص) في شخصين تشاتما قال (ع): «البادئ منهما أظلم، ووزره ووزر صاحبه عليه، ما لم يتعدّ المظلومُ». (أصول الكافي).

وتعدي المظلوم في الجواب مثل أن يقول له الشاتم: يا حمار، فيقول له في الجواب: يا كلب، أو يشتمه الشاتم مرة واحدة، فيرد عليه مرتين بتكرار اللفظ.

عن الإمام الكاظم (ع) أنه قال في رجلين يتسابّان: «البادئ منهما أظلم ووزره ووزر صاحبه عليه، ما لم يعتذر إلى المظلوم». (الكافي).

العفو أفضل:

لا يبقى خفياً أن الجواب بالمثل مع مراعاة الأمور السابقة، حتى لو كان جائزاً، إلا أن السكوت أولى وأفضل، كما يقول في القرآن المجيد: **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾**. السورة ٤٢ الآية ٤٠.

وفي موضع آخر يقول: **﴿وَأَنْ تعفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾**. السورة ٢ الآية ٢٣٧.

يعذب الشاتم:

روي عن جابر قال: «سمع أمير المؤمنين (ع) رجلاً يشتم قنبراً وقد رام قنبر أن يرد عليه، فناداه أمير المؤمنين (ع): مهلاً يا قنبر، دع شاتمك مهاناً ترضِ الرحمن وتسخط الشيطان وتعاقب عدوك؛ فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أرضى المؤمن ربه بمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت، ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه». (سفينة البحار الجزء الأول ص ٣٠٠).

إذا استطاع أن يرد الشاتم بكلام لطيف، وينصحه ويحسن إليه في قبال إساءته فإن له بذلك مقاماً عظيماً، كما يقول في القرآن المجيد: **﴿لاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ. ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾**. السورة ٤١/ الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

(١٣) ـــــــــــ شرب الخمر

الثالث عشر من الذنوب الكبيرة (شرب الخمر)، وقد ذكره الإمام الكاظم (ع) والإمام الرضا (ع) من جملة الكبائر، وعبر عنه في القرآن الكريم بأنه من الذنوب الكبيرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾. السورة ٢ الآية ٢١٩.

يقول في تفسير الميزان: «والإثم يقارب الذنب وما يشبهه معنى، وهو حال في الشيء أو في العقل، يبطئ الإنسان عن نيل الخيرات، فهو الذنب الذي يستتبع الشقاء والحرمان في أمور أخرى، ويفسد سعادة الحياة في جهاتها الأخرى، وهذان على هذه الصفة.

أما شرب الخمر فمضراته الطبية:

وآثاره السيئة في المعدة والأمعاء والكبد والرئة وسلسلة الأعصاب والشرايين والقلب والحواس، كالباصرة والذائقة وغيرها، مما أُلِّف فيه تأليفات من حذّاق الأطباء قديماً وحديثاً، ولهم في ذلك إحصاءات عجيبة تكشف عن كثرة المبتلين بأنواع الأمراض المهلكة، التي يستتبعها هذا السم المهلك[1].

---

(١) المضارّ الجسمية للكحول:

يولد الكحول عدة أمراض مختلفة من قبيل مرض الرعشة وعدم السيطرة على الأعضاء، ونحول البدن، وضعف الحواس الظاهرة والباطنة، والابتلاء بأرق مفرط، ورؤية الأحلام المزعجة.

وفي كتاب (البلايا الاجتماعية) نقلاً عن مجلة (تندرست) يقول:

حسب تحقيقات الأطباء يوجد في فرنسا مائتا ألف نفر مجنون بسبب المشروبات الكحولية، ويقول أيضاً:

إن ثمانين في المائة من المجانين وأربعين في المائة من مرضى المعاشرة هم ضحية استعمال الكحول، وفي بريطانيا ـ وحسب التحقيقات الطبية الثانية ـ أن تسعين في المائة تقريباً من المجانين هم من مجانين المواد الكحولية.

وأما مضراته الخلقية:

من تشويه الخلق وتأديته الإنسان إلى الفحش والإضرار، والجنايات، والقتل، وإفشاء السر، وهتك الحرمات، وإبطال جميع القوانين والنواميس الإنسانية التي بني عليها أساس سعادة الحياة، وخاصة ناموس العفة في الأعراض والنفوس والأموال، فلا عاصم من سكران لا يدري ما يقول، ولا يشعر بما يفعل، وقل ما يتفق أن جناية من هذه الجنايات التي قد ملأت الدنيا ونغصت عيشة الإنسان إلا وللخمر فيها صنع، مستقيماً أو غير مستقيم.

١ ـ أثر الكحول على العقل:

نتيجة تأثير الكحول في أعماق الدماغ فإنه بذلك يعطله عن العمل، وكثيراً ما يحدث نتيجة تشقق الأغشية الدموية الرقيقة، أو تجمد الدم في الدماغ، ومنعه عن جريان الدم بشكل عادي، كثيراً ما يحدث نتيجة ذلك سكتة ناقصة أو كاملة، وأحياناً يكون مؤدياً لحدوث تشنج وصدع وتورم في الدماغ، وضغط الدم في الرأس، ويولد ذلك إصابة أعضاء البدن بالفلج.

٢ ـ أثر الكحول على الأعصاب:

«وأما مضرته في الإدراك وسلبه العقل، وتصرفه غير المنتظم في أفكار الإنسان، وتغييره مجرى الإدراك حين السكر وبعد الصحو، فما لا ينكره منكر، وذلك أعظم ما فيه من الإثم والفساد، ومنه ينشأ جميع المفاسد الأخر.

والشريعة الإسلامية كما مرت إليه الإشارة وضعت أساس أحكامها في التحفظ على العقل السليم، ونهت عن الفعل المبطل لعمل العقل أشد النهي؛ كالخمر والميسر، والغش، والكذب، وغير ذلك، ومن أشد الأفعال المبطلة لحكومة العقل والمؤثرة على سلامته هو شرب الخمر من بين الأفعال، وقول الكذب والزور من بين الأقوال.

فهذه الأعمال أعني: الأعمال المبطلة لحكومة العقل، وعلى رأسها السياسات المبنية على السكر والكذب هي التي تهدد الإنسانية، وتهدم بنيان

السعادة، ولا تأتي بثمرة عامة إلا وهي أمرّ من سابقتها». (**الميزان جـ ٢ الآية ٢١٩**).

٣ ـ أثر الكحول على المعدة:

يؤدي الكحول إلى تضييع المواد المخاطية، والحس الذائق في اللسان، كما يقلل بصاق الفم ويقلق انتظامه، كما يزيد مخاط المعدة ويقلل المواد الحمضية فيها.

ومع احتجاب عامل الهضم المسمى (بيبسين) تتهيأ عوامل التقيؤ في كثير من الأحيان والتي تكون توأماً لمائع اسمه (البلغم)، وغالباً ما تقترن به قطع الدم المتجمدة.

كما أن شارب الكحول يهدد بأمراض مختلفة في المعدة والشرايين، وهكذا التوسع الزائد في المعدة، وتورم الشرايين وتشققها، والتهاب جهاز الهضم، والإسهال الشديد، واليبوسة البالغة على أثر الإصابة في الأمعاء الغليظة.

٤ ـ أثر الكحول على الكبد:

يؤدي الكحول إلى ضعف الكبد وتورمه، وحينئذ يبدأ الإحساس بالألم في البطن، وكثيراً ما يحدث أن يصاب جميع الأعضاء حينئذ وحتى العين بمرض مخصوص اسمه (الصفراء).

٥ ـ أثر الكحول على دوران الدم:

حيث إن الكحول يصرف في معمل الجسم؛ لذا فإنه بمجرد وروده المعدة ينتشر في الدم، ويزيل الكريات البيض، وعلى أثر نقص الضغط يوجب حدوث السكتة.

٦ ـ أثر الكحول على جهاز التنفس:

من أهم أعراض الكحول على الجهاز التنفسي مرض السل المبيد

للأسرة، وهكذا الاختناق في التنفس، ذلك أن الكحول يدخل الرئة مع الدم، ويحرك المواد المخاطية في الرئة ويسبب تورمها، كما يسبب إزالة كالسيوم البدن وإخلال عمل الرئة، مما يؤدي إلى الإصابة بمرض السل.

٧ ـ أثر الكحول على الكلية:

حسب الإحصاءات الموجودة يعتبر ٩٠٪ من أمراض الكلية ناشئاً من مادة الكحول، ذلك أن الكحول يحرك المجاري البولية حالة التبول، ويولد أعراضاً مؤذية للغاية من قبيل مرض السلس وغيره.

٨ ـ أثر الكحول على القلب:

حيث إن الكحول يترك آثاره على الدم، فإنه يؤدي قليلاً قليلاً إلى فساد الدم، واختلال عملية تغذية الأعضاء، وتجمع مقدار كبير من الشحم والدسم في أطراف القلب، وبالتالي يصبح ثقيلاً ويكبر حجمه، فتضعف حركته، ومن هنا فإن نبض المعتادين على الكحول بطيء وغير منظم غالباً.

٩ ـ أثر الكحول على القوة العاقلة:

إن مشروبات الكحول هي أول عامل من عوامل الجنون، وإن الإحصاءات الدقيقة لمستشفى المجانين تشير إلى أن أغلب المجانين هم ممن قضوا عمراً طويلاً في الشراب.

يقول تعالى في سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾. السورة ٥ الآيتان ٩٠ ـ ٩١.

اشتملت هاتان الآيتان وهما آخر آيات تحريم الخمر على عدة تأكيدات وتشديدات:

١ ـ جاء في أول الآية كلمة «إنما» وهي تفيد الحصر والتأكيد.

٢ ـ قرن الخمر بعبادة الأصنام «الأنصاب والأزلام» واعتبر رجساً.

٣ ـ عدّ الخمر والقمار من أعمال الشيطان.

٤ ـ الأمر الصريح بالاجتناب عنه.

٥ ـ ذكرت الآية أن في الابتعاد عنه أمل النجاح «لعلكم تفلحون».

٦ ـ بينت الآية مفسدة الخمر، وهي العداوة والبغضاء، والابتعاد عن الصلاة وعن ذكر الله.

٧ ـ وأخيراً جاء في الآية أنه بعد هذا البيان، هل ينتهي أهل هذا العمل القبيح عن ارتكابه «فهل أنتم منتهون».

٨ ـ وبعد كل هذه التأكيدات جاء في الآية التالية ـ بعد آية النهي عن شرب الخمر ـ أمر بإطاعة الله، والحذر عن مخالفته ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا**﴾.

١٠ ـ أثر الكحول على النسل:

جاء في الكتاب السابق أن الكحول يترك آثاراً غير مرغوبة في الحيامن والبويضات، كما أثبت الأطباء الألمان أن الآثار السيئة للكحول تبقى بشكل حتمي في ثلاث مراتب من النسل، بشرط أن لا تكون تلك المراتب هي الأخرى معتادة على الكحول.

إن نسل الشخص المعتاد يتجه دائماً نحو النقص، وأخيراً ينقطع.

يقول الدكتور الأمريكي (نالين):

يمكن أن يتولد من الرجل السالم أحد عشر طفلاً في حين لا يتولد من المعتاد على الكحول واحد إلى ثلاثة أطفال سالمين، وحتى هؤلاء الأطفال هم أيضاً في معرض الأمراض المختلفة؛ من قبيل السكتة، الصرع، العصبية، الجنون، عدم رشد قواهم العقلية، ونقص الدم، وغيرها.

ودائماً يصابون بتشنجات سائر الأمراض الروحية. ولأجل مزيد الاطلاع على الأضرار الجسمية والروحية والأخلاقية والاجتماعية للكحول راجع مجموعة مطبوعات (منظمة التبليغ الإسلامي).

يقول في (تفسير الميزان): «الخمر على ما يستفاد من اللغة هو كل مائع معمول للسكر.. وقد كانت العرب لا تعرف من أقسامه إلا الخمر المعمول من العنب والتمر والشعير، ثم زاد الناس في أقسامه تدريجاً فصارت اليوم أنواعاً كثيرة ذات مراتب، بحسب درجات السكر، والجميع خمر».

ومن هذه الجهة جعلت العداوة والبغضاء - في الآية السابقة - من آثار الخمر والميسر فقط، وذلك أن هذا الأثر أوضح فيهما، فمن المعلوم أن تناول الشراب يبعث على تحريك الأعصاب، وتخدير العقل، وتهيج العواطف العصبية، ومعلوم أية ثمرات مرة تحصل إذا مشت الأعصاب الهائجة في طريق الغضب والعداوة.

إن أكبر جريمة هي أن يسكر الإنسان نفسه، حتى أن الوحوش لتخجل منها، ولو أن الإنسان سلك طريق الشهوات والحيونة، فمعلوم أنه سيقع في الفضيحة، وسوف يتزين له كل فسق وفجور، سواءً تعلق بماله وعرضه أو تعلق بغيره، وسوف يجره ذلك إلى هتك جميع المقدسات الدينية والاجتماعية.

إن السكر يصور له السرقة والخيانة، وهتك الحرمات وكشف الأسرار، والوقوع في الأخطار المهلكة وأمثال ذلك، يصورها له كأمور صغيرة ليست بشيء.

كما تشير إلى ذلك إحصاءات الدول المتقدمة، والتي يكثر فيها تناول المشروبات، حيث أكبر أرقام الجريمة والفجائع، والفسق والفجور المتهتك والمخزي، التي تحصل إثر تناول الشراب.

الشراب وأخبار أهل البيت (ع):

الأخبار الواردة في هذا المجال كثيرة، منها ما ورد عن الإمام الباقر (ع)

أنه قال: «يأتي شارب الخمر يوم القيامة مسوداً وجهه مدلعاً لسانه يسيل لعابه على صدره ـ وفي رواية أخرى ـ ينادي العطش، وحق على الله أن يسقيه من طينة بئر خبال».

قال: قلت: وما بئر خبال؟

قال: «بئر يسيل فيها صديد الزناة»[1].

وقال (ص): «لا ينال شفاعتي من استخف بصلاته فلا يرد على الحوض لا والله، ولا ينال شفاعتي من شرب المسكر، لا يرد على الحوض لا والله»[2].

وأيضاً عن الإمام أبي جعفر الباقر (ع): «لعن رسول الله (ص) في الخمر عشرة: غارسها، وحارسها، وعاصرها، وشاربها، وساقيها وحاملها، والمحمولة إليه، وبايعها ومشتريها وآكل ثمنها»[3].

وعن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «مدمن الخمر يلقى الله يوم القيامة كعابد وثن».

وفي رواية أخرى: «يلقى الله يوم يلقاه كافراً».

وفي رواية أخرى: «إن الخمر رأس كل إثم»[4].

الشراب أم المعاصي:

عن أحدهما (عليهما السلام): «ما عصي الله بشيء أشد من شرب المسكر، إن أحدهم يدع الصلاة الفريضة ويثب على أمه وابنته وأخته وهو لا يعقل» ـ المصدر السابق.

وعن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «من شرب جرعة من خمر لعنه الله عز

---

(١) وسائل الشيعة ـ أبواب الأشربة المحرمة ـ الباب ٩.

(٢) وسائل الشيعة ـ أبواب الأشربة المحرمة ـ الباب ٩.

(٣) وسائل الشيعة ـ كتاب التجارة ـ الباب ٥٥.

(٤) وسائل الشيعة ـ أبواب الأشربة المحرمة ـ باب ١٢.

وجـل وملائكتـه ورسله والمؤمنون، فـإن شربهـا حتى يسكر منهـا نزع روح الإيمان من جسده، وركبت فيه روح سخيفة خبيثة ملعونة، فيترك الصلاة، فإذا ترك الصلاة عيّرته الملائكة، وقال الله عز وجـل له: عبـدي كفرت وعيّـرتك الملائكة، سوءة لك عبدي».

ثم قال (ع): سوءة سوءة، كما تكون السوءة، والله لتوبيخ الجليـل جل اسمه ساعـة واحدة أشـد من عذاب ألف عـام. ملعونـون أينما ثقفـوا وقتّلوا تقتيلاً.

ثم قال (ع): ملعون ملعون من ترك أمر الله، إن أخذ برّاً دمّر بـه، وإن أخذ بحراً أغرقه، يغضب لغضب الجليل عز اسمه»[1].

وإمهال بعض المذنبين إنما هو رحمة بهم، تلطف بها الله تعالى عليهم بأمل أن يتوبوا، أو أنه من باب الاستدراج والغضب، فإنهم إذا لم يكونوا من أهل التوبة فسوف يذنبون أكثر، ويستحقون بذلك العذاب الأليم، وتكون الحجة الإلهية عليهم أقوى مع الفرصة التي أعطيت لهم.

عن الإمام الصادق (ع): «إن أهل الري في الدنيا من المسكر يموتـون عطاشاً، ويحشرون عطاشاً ويدخلون النار عطاشاً[2].

لا يخاف من الله:

قيـل لأمير المؤمنين (ع): إنـك تزعم أن شـرب الخمر أشـد من الزنـى والسرقة؟

فقال (ع): «نعم إن صاحب الزنى لعله لا يعدوه إلى غيره، وإن شـارب الخمـر إذا شـرب الخمـر زنى وسـرق وقتـل النفس التي حـرم الله وتـرك الصلاة»[3].

---

(١) فروع الكافي ـ كتاب الأشربة ـ حديث ١٦.

(٢) الوسائل ـ أبواب الأشربة المحرمة ـ باب ١٥.

(٣) الوسائل ـ أبواب الأشربة المحرمة ـ الباب ١٢.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: إن زنديقاً قال له: **فلم حرم الله الخمر ولا لذة أفضل منها؟**

قال: «حرمها لأنها أم الخبائث ورأس كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبه، فلا يعرف ربه، ولا يترك معصية إلا ركبها، ولا حرمة إلا انتهكها، ولا رحماً ماسة إلا قطعها، ولا فاحشة إلا أتاها، والسكران زمامه بيد الشيطان إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، وينقاد حيثما قاده»[١].

ومما ذكر يعلم أن حرمة السكر في القرآن والسنة قطعية، بل هي من ضروريات الإسلام، فلو اعتقد أحد بحلّيّتها عدّ كافراً، كما روي عن الإمام الصادق (ع): «من شرب النبيذ على أنه حلال خلد في النار، ومن شربه على أنه حرام عذّب في النار». الوسائل ـ كتاب الأشربة ـ ١٣.

وأيضاً عن الإمام الرضا (ع) أنه قال: «شارب المسكر كافر».

بل إن حرمته ثابتة في جميع الأديان، كما روي عن الإمام الرضا (ع) أنه قال: «ما بعث الله نبياً قط إلا وفي علم الله أنه إذا أكمل له دينه كان فيه تحريم الخمر. ولم يزل الخمر حراماً» [٢] [٣].

وينبغي أن يعلم بأن القرآن الكريم والسنة الشريفة صرحا بأنه من الذنوب الكبيرة.

---

(١) الوسائل ـ أبواب الأشربة المحرمة ـ الباب ١٢.

(٢) فروع الكافي ـ باب: إن الخمر لم تزل محرمة.

(٣) مضافاً إلى ما في الشراب من المضار التي تقدمت الإشارة إلى بعضها، فهو حرام وبشكل قطعي بنظر جميع الأديان والكتب السماوية غير المحرفة، ذلك أن الله تعالى الذي يريد إنقاذ البشر من دوامة المهالك، وإيصالهم إلى كمال أهدافهم، كيف يجعل المواد السامة الخطرة جائزة؟

وكيف لا يمنع الناس عن ارتكابها وليس فيها سوى الهدم والحرمان وتزيين سوق الفحشاء والجريمة، ومختلف الأضرار الفردية والاجتماعية؟

إن التوراة والإنجيل الحاليين مع ما فيهما من التحريف، توجد فيهما مسألة تحريم المسكرات.

وهنا يلزمنا الإشارة إلى عدة أحكام ونكات:

لا فرق بين القليل والكثير، والخالص والممزوج:

١ ـ لا فرق في حرمة تناول المسكر بين قليله وكثيره وخالصه وممزوجه، فلو سقطت قطرة من الشراب في ظرف مليء بسائل آخر، فإن تمام ذلك السائل سوف يحرم.

كما ورد في صحيحة الحلبي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «إن ما أسكر كثيره فقليله حرام».

فقال له الرجل: فأكسره بالماء؟

فقال أبو عبد الله (ع): «لا وما للماء يحل الحرام، اتق الله ولا تشربه». مستند الشيعة ـ كتاب المطاعم والمشارب.

وأيضاً روي عن عمر بن حنظلة أنه سأل الإمام الصادق (ع): «ما ترى في قدح من مسكر يصب عليه الماء حتى تذهب عاديته ويذهب سكره؟

فقال (ع): لا والله ولا قطرة قطرت في حب إلا أهريق ذلك الحب» الوسائل ـ أبواب الأشربة المحرمة.

وفي صحيحة ابن وهب عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «كل مسكر حرام فما أسكر كثيره فقليله حرام.

قلت: فقليل الحرام يحله كثير الماء؟

فرد عليه بكفه مرتين لا لا»[1] (فروع الكافي)

---

(١) السيئ سيئ قليلاً كان أو كثيراً، فإذا دخل سم الكحول في البدن فإنه يؤثر مهما كان قليلاً، فأنت إذا ألقيت في حوض الماء عدة أسطل من الحبر الأحمر فإن الماء سيصبح أحمر أما إذا ألقيت فيه قدحاً صغيراً فإن لونه سوف لا يتغير، ولكن هل تستطيع أن تقول إنه لم يؤثر فيه؟

كلا، لأنك لو بخرت ماء الحوض فإنك سوف ترى الحبر حتماً، كذلك الكحول فإنه إذا دخل البدن فسوف يضر حتماً، سواء أكان أثره فورياً أم تأخر.

المسكر المائع نجس:

٢ ـ كل مسكر مائع بالأصل بالإضافة إلى حرمته (كما يحرم تناول المسكر غير المائع) هو نجس أيضاً، فلا تصح الصلاة فيه، أما إذا كان المسكر جامداً بالأصل مثل الحشيشة والبنج فإنه ليس نجساً، وإن كان استعماله حراماً.

سقي الآخرين حرام أيضاً:

٣ ـ ويحرم أيضاً سقي الآخرين من الشراب ـ المسكر ـ حتى لو كان صغيراً، كما روي في كتاب (مستند الشيعة) ثلاثة أحاديث مضمونها أن من سقى صغيراً شراباً يسقى يوم القيامة من حميم جهنم بنفس ذلك المقدار.

الجلوس على مائدة الشراب:

٤ ـ تناول الطعام على مائدة فيها مسكر يشربه الآخرون حرام، حتى لو امتنع الشخص نفسه عن تناول المسكر، فبشكل عام يحرم تناول الطعام على مثل هذه المائدة، كما روي عن الإمام الصادق (ع) أن رسول الله (ص) قال: «ملعون ملعون من جلس على مائدة يشرب عليها الخمر». (وسائل الشيعة).

وأيضاً قال (ص): «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يأكل على مائدة عليها الخمر».

= والنكتة الثانية أن الكحول القليل سوف يجر إلى الكحول الكثير بلا أي شك. لنفترض أحداً تناول قليلاً جداً من الكحول، وسعى جاداً في أن لا يزيد على ذلك المقدار، إلا أن تكرار تناول ذلك المقدار القليل أليس يؤدي إلى تحقق الأثر الكبير في النهاية؟

ألم تسمع المثل القائل أن القطرات التي تقع على الصخرة من عين الماء سوف تثقب تلك الصخرة؟

افترض أن كل قدح من الكحول في كل مرة يحقق نقطة سوداء صغيرة على الكلية أو الكبد، فانظر ماذا ستكون حالة الكلية أو الكبد بعد مئات الأقداح من الكحول؟

بناء على ذلك القائل: إن كل شيء فيه مقدار جيد، كما أن السم المضر أحياناً يستعمل مقدار قليل منه جداً في الطب، فما هو مقدار الجيد من الكحول؟

يجيبه العالم بأن حد الكحول الجيد هو العنب، فما دام بصورة العنب أو الزبيب، أو التمر فإنه جيد، أما إذا تخمر فإنه يصبح ضاراً» مطبوعات (منظمة الإعلام الإسلامي).

وأيضاً روي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «لا تجالسوا شرّاب الخمر فإن اللعنة إذا نزلت عمت في المجلس»[1] (وسائل الشيعة).

تناول الشراب للعلاج:

٥ ـ حيث وصلت عن أهل البيت عليهم السلام روايات عديدة في المنع من الاستشفاء بالشراب، وورد المنع بنحو عام من تناول المسكر حتى في صورة العلاج، لذا يجب الامتناع عن تناول المسكر في صورة المرض، ومن أجل العلاج، فإن الله تعالى قد سلب الشفاء من كل مسكر؛ وهذا القول مشهور بين الفقهاء.

لا مانع من الاستشفاء مع توفر شروط ثلاثة:

وقد ذكر البعض أنه لا مانع من تناول المسكر في حالة الضرورة مع توفر ثلاثة شروط:

الأول: العلم بأن ذلك المرض غير قابل للعلاج.

الثاني: أن يكون ترك المعالجة مؤدياً إلى الهلاك أو إلى المشقة البالغة.

الثالث: أن يكون العلاج منحصراً بالشراب، أما إذا احتمل إمكان المعالجة بغيره فقد هذا الشرط.

في صورة توفر هذه الشروط الثلاثة حيث تقتضي الضرورة ذلك، يجوز[1] تناول الشراب بمقدار ما تندفع به الضرورة، إلا أنه تقدم القول بأنه لاشفاء في الحرام، ومثل هذا المورد مجرد فرض.

---

(١) ذكر بعض العلماء أن الجلوس على مائدة يرتكب فيها الحرام، حرام، مثل أن يستغاب فيها مسلم، أو يؤذى فيها مسلم، فلا شك أن القيام عنها إذا كان سبباً لترك تلك المعصية، ولم يكن فيه احتمال الضرر يكون القيام حينئذ واجباً، والجلوس حراماً، ذلك أن النهي عن المنكر مع اجتماع شرائطه واجب، وما نحن فيه كذلك.

(١) رأي مراجع التقليد المعاصرين على ذلك أيضاً، فلا مانع من تناول الشراب في حالة الضرورة المؤدية إلى الموت، مع انحصار العلاج به، على أن يتناول مقدار ما تندفع به الضرورة.

لا شفاء في الشراب:

عن ابن أبي يعفور: كان إذا أصابته الأوجاع واشتدت جرب الحسو من النبيذ فتسكن عنه، فدخل على أبي عبد الله (ع) فأخبره بوجعه وشربه النبيذ فقال له: «يابن أبي يعفور، لا تشربه فإنه حرام، إنما هذا شيطان موكل بك فلو قد يئس منك ذهب».

فلما رجع إلى الكوفة هاج به وجع أشد مما كان، فأقبل أهله عليه فقال: «لا والله لا أذوقن منه قطره، فيئسوا منه واشتد به الوجع أياماً، ثم أذهبه الله عنه فما عاد إليه حتى مات». (وسائل الشيعة).

يظهر أثره عند الموت:

عن أبي بصير قال: دخلت أم خالد العبدية على أبي عبد الله (ع) وأنا عنده.

فقالت: جعلت فداك، إنه يعتريني قراقر في بطني وقد وصف لي أطباء العراق النبيذ بالسويق؟

فقال ما يمنعك من شربه؟

فقالت: قد فلدتك ديني.

فقال (ع): فلا تذوقي منه قطرة لا والله، ولا آذن لك في قطرة منه، فإنما تندمين إذا بلغت نفسك ههنا، وأومى بيده إلى حنجرته - يقولها ثلاثاً - أفهمت؟

فقالت: نعم (وسائل الشيعة).

يعلم من هذا الحديث الشريف أن الأثر السيئ للشراب يظهر ساعه الموت.

وهناك أحاديث كثيرة واردة تؤكد أنه لا شفاء في الحرام، وبناءً على ذلك يجب الامتناع عن المعاجين التي فيها مسكر وإن كان قليلاً، وهكذا المغذي

والمقوي أو الشراب الذي يعطى للعلاج إذا كان الكحول جزءاً منه.

جاء في مجموعة مطبوعات منظمة الإعلام الإسلامي: «لا يوجد اليوم طبيب في العالم يعتقد بأن الشراب ـ المسكر ـ مفيد بوجه من الوجوه، ويجوزه حتى ولو كان بمقدار قليل، وإذا وجد شخص سمى نفسه طبيباً ويسمح بتناول الشراب ولو في بعض الأحيان، فيجب أن يعلم بأن معلوماته الطبية ناقصة جداً وفاسدة، وفيما يلي نلفت إلى السبب العلمي في ذلك. إلى ما قبل مائة عام كان بعض الأطباء يتصور أن الشراب مفيد لبعض الأمراض، إلا أن العلماء عرفوا أخيراً بأن الشراب ليس فقط لا ينفع بدن المريض إنما يورد عليه أضراراً كثيرة، حيث إن أصغر ذرات الكحول تعطل الكريات البيض في الدم عن عملها، ذلك أن الكريات البيض الموجودة في دم الإنسان، بمجرد دخول الميكروبات الضارة في البدن تتجه للدفاع وتقاتل الميكروب وتغلبه، والخلاصة أن الكريات البيض هي بمثابة الجنود في البدن، وحين يعالج الإنسان المريض الذي قاومت كرياته البيضاء يضمحل الميكروب، ومن كان بدنه فاقداً للكريات البيض أو أنها كانت ضعيفة فإنه سيقع صريع المرض، وسوف يموت إذا لم تتولد لديه الكريات البيض.

وللكحول أثر عجيب لم يعرف العلماء علته لحدالآن، وذلك الأثر هو أنه بمجرد دخوله في الدم يعطل الكريات البيض عن عملها، ويجعلها مشلولة وكسلاء، بنحو لو أن ملايين المكروبات دخلت البدن لا تؤدي أية فعالية ضدها، وبناءً على ذلك اعرف أي ذنب عظيم ترتكبه حين تعطي للمريض كحولاً بعنوان الدواء، وكيف أنك حرمته من الدفاع الطبيعي ومن سبل العلاج الإلهية، وسحبت به الى الموت، واعرف تبعاً لذلك أية مسألة مهمة اكتشفها العلماء أخيراً، بينما كان قادتنا يعرفونها ولم يجوزوا العلاج بأصغر ذرة من الكحول.

وهناك خطأ آخر شائع بين عوام الناس، وهو أن المقدار القليل من الكحول يساعد على عملية الهضم ويوجب سرعتها، إلا أن هذه الشائعة هي

تماماً على عكس الواقع، فقد سبق أن شرحنا في فصل الأضرار الجسمية للكحول أية آثار وخيمة يتركها الكحول على جهاز الهضم، وعدا كل ماتقدم، فإن الكحول يجعل المواد الغذائية سميكة وصعبة، حتى لو وضعت قطعة من اللحم في مقدار من الكحول تصبح كالجلد، وهنا يعلم أية صعوبة وعمل مستميت تواجهه المعدة مع مثل هذه الصلابة، مضافاً إلى ذلك، فإن الكحول يقلل إفرازات المعدة ويفسد نظمها، ولا يسمح لها بالتأثير على الطعام، ويبقى الطعام ثقلاً غير مهضوم على المعدة، يوجب اختلالات كثيرة في هذا الجهاز، وأيضاً فإن الكحول يسلب الشهية من الإنسان.

كما أن واحداً من الأضرار التي نجمت عن السماح باستعمال الكحول باعتباره دواءً هو أن المريض يصبح مدمناً.

وما أكثر أولئك الذين شربوا الكحول حسب سماح الطبيب ـ غير العارف ـ لهم بذلك، وبعدئذ أصبحوا من المدمنين.

ويمكن أن يعترض البعض فيقول: مع كل هذا الاستعراض للأضرار الجسمية للكحول نجد أنه لا يصدق على بعض الأشخاص الذين اعتادوا على الشراب لسنوات، إذ نجدهم في كامل الصحة.

وفي مقام الإجابة على هذا الكلام يجب أن نذكر عدة ملاحظات:

أولاً: السلامة ليست أمراً مكتوباً على جبين الأشخاص، فالمدمن الذي يرى سالماً هو في الباطن مصاب بمختلف الأمراض والاختلالات التي ينسبها دائماً إلى أسباب أخرى، مثال ذلك: إنه إذا ابتلي بأوجاع مزمنة ينسبها إلى سوء الهضم، أو إذا أصابه الألم في رجله نسبه إلى الرطوبة والروماتيزم.

مضافاً إلى أن أغلب هؤلاء الأشخاص يبطنون وراء ظاهرهم السالم الحسن عدم الراحة، كما أن السمنة والاحمرار التي ترى في بعض هؤلاء ليست سوى علامة الانتفاخ والاختلال في جريان الدم.

وملاحظة أخرى: إن الرجل الكحولي مهما كان بدنه قوياً ومهما كان مقاوماً إلا أنه لا محالة سيبتلى يوماً ما ببلايا الكحول. وكل كحولي ينتظره الشقاء عاجلاً أو آجلاً.

وملاحظة أخرى: إنه من الممكن أن تتأخر أعراض الكحول السيئة في بعض الأشخاص ذوي الأمزجة القوية، إلا أن مثل هؤلاء الأشخاص السالمين إنما يضعون النعمة الكبيرة التي أعطيت لهم وهي الصحة في معرض الخطر، ولو أنهم لم يشربوا الكحول لكانت سلامتهم أكثر ومزاجهم أقوى.

وملاحظة أخرى: إن أغلب الأشخاص الذين يتأخر ظهور عواقب الكحول الوخيمة عليهم إنما ورثوا نعمة الصحة من أبيهم وأمهم، وشكر هذه النعمة أن يحفظوها وينقلوها إلى ذريتهم، في حين أن هؤلاء الأشخاص حين يستعملون الكحول فقد يتأخر ظهور عواقب الكحول عليهم، إلا أنها سوف تظهر حتماً في ذريتهم، حيث تصبح ذريتهم ضعيفة ومريضة لا تملك بنية قوية.

حد شرب الخمر:

إذا شرب العاقل البالغ عالماً متعمداً مختاراً الخمر ـ حتى ولو قطرة واحدة ـ وثبت عليه ذلك بالإقرار مرتين أو شهادة عادلين وجب إجراء الحد عليه.

إذن فالطفل ـ غير البالغ ـ والمجنون، ومن لا يعلم بحرمة شرب الخمر، أو من شرب الخمر اشتباهاً بتصور أنه سائل حلال، أو شربه عن إكراه أو اضطراراً لم يجر عليه الحد، وحد شرب الخمر ثمانون جلدة، وإذا تكرر منه ذلك يتكرر عليه الحد إلى ثلاث مرات، وفي الرابعة يكون حده القتل، ويرى بعض الفقهاء أن حده القتل في المرة الثالثة، أما إذا تاب قبل أن تقوم عليه البينة سقط عنه الحد، ولا يجري عليه الحد في حال السكر، بل يجري عليه بعد الصحو.

وإذا كان الشارب رجلاً وجب خلع ملابسه وأن يكون واقفاً، ثم يضرب ثمانين سوطاً على ظهره، وكتفه، وسائر بدنه، ولا يضرب على وجهه ورأسه وعورته.

وأما إذا كان الشارب امرأة تلف بملابسها، ويجري عليها الحد في حال الجلوس.

وإذا شرب الخمر في مكان مقدس مثل مكة المعظمة، أو زمان محترم مثل شهر رمضان، وجب تعزيره، مضافاً إلى ثمانين جلدة لأنه هتك الحرمات الإلهية.

ورد في الكافي: «أتى أمير المؤمنين (ع) بالنجاشي الشاعر قد شرب الخمر في شهر رمضان، فضربه ثمانين، ثم حبسه ليلة، ثم دعا به من الغد فضربه به عشرين سوطاً.

فقال: يا أمير المؤمنين فقد ضربتني في شرب الخمر هذه العشرين؟

فقال: هذا لتجريك على شرب الخمر في شهر رمضان» (فروع الكافي - كتاب الحدود).

ونقل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: إن النجاشي - كان شاعر أهل العراق بصفين يشرب الخمر بالكوفة، وكان ذلك في شهر رمضان - فجيء به الى علي (ع) فضربه ثمانين، ثم زاده عشرين سوطاً. فقال: يا أمير المؤمنين أمّا الحدّ فقد عرفته، فما هذه العلاوة؟ قال: لجرأتك على الله وإفطارك في شهر رمضان.

وغضب أهل اليمن لذلك وقالوا: يا أمير المؤمنين ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيان في الجزاء، حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحرث، فأوغرت صدورنا، وشتّت أمورنا، وحملتنا على الجادة التي كنا نرى في سبيل من ركبها النار.

فقال علي عليه السلام: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، هل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرم الله، فأقمنا عليه حداً كان كفارته، إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ المجلد الأول ـ الجزء الرابع طبع بيروت ـ ٣٦٦.

يجب طرده من المجتمع:

٧ ـ اهتم الشارع المقدس كثيراً في المنع عن هذا الذنب الكبير إلى حد جعل شارب الخمر مطروداً من المجتمع، بهدف أن لا يقترب أحد من الشراب والتحلل الذي يدمر أساس العائلة الفردية والاجتماعية.

كنموذج على ذلك نكتفي بذكر عدة روايات:

لا يزوج شارب الخمر.

عن الإمام الصادق (ع): قال رسول الله (ص): «من شرب الخمر بعد أن حرمها الله على لساني فليس بأهل أن يزوّج إذا خطب، ولا يشفّع إذا شفع، ولا يصدّق إذا حدث، ولا يؤتمن على أمانة، فمن ائتمنه بعد علمه فليس للذي ائتمنه على الله ضمان، وليس له أجر ولا خلف» (الكافي).

وقال (ع): «من زوج كريمته من شارب خمر فقد قطع رحمها» (الكافي).

وقال (ع): «من زوج كريمته من شارب الخمر فكأنما ساقها إلى الزنى». (مستدرك الوسائل).

وقال (ع): «شارب الخمر إن مرض فلا تعودوه، وإن مات فلا تشهدوه». (وسائل الشيعة).

النهي العملي عن المنكر:

والعمل بتلك القرارات أفضل نهي عملي عن المنكر، ذلك أن شارب الخمر إذا علم أنه يطرد من المجتمع الإسلامي فلا يزوجه المسلمون، ولا

يقبلون قوله ولا يأتمنونه، إذن فهم لا يتعاملون معه، فأين يذهب؟

يجب المكافحة من كل الجهات:

جاء في كتاب (برهان القرآن): يكفي في مقام الإشارة إلى فضائح المسكرات أن نذكّر بما حدث قبل مدة في فرنسا، وهي مهد الفسق والفجور والمسكرات والمنكرات، حيث قامت امرأة من أعضاء مجلس البرلمان وأصرت على ضرورة تحريم المسكرات، ولعل التذكير بهذا الخبر يكفي في الإجابة على تخرصات دعاة الحرية من الرجال والنساء، ولكن من المفيد الإشارة إلى أن عادة شرب الخمر المضرة والمهلكة لا يمكن اقتلاعها بمجرد وضع القانون وتدخل الدولة، ذلك أن هذه العادة من عوارض الأمراض الرئيسية في المجتمع، وليس ثمة مجال للتردد في أنه ما لم تقلع وتقمع جذور المرض، فإن مكافحة أعراضه وآثاره غير مجدية، وعلى خلاف العقل والمنطق.

وعلى هذا الأساس فإن مكافحة شرب الخمر في محيط متحلل ماجن خليع تكون شاقة وثقيلة، ذلك أن شرب الخمر هو نتيجة عدم اجتناب العشق والهيام في اللذائذ والرغبات، وهما قد يتحققان حتى في أنواع السموم، فيضحي بماله ونفسه من أجل الوصول إليه، وبديهي أنه حينما يصل مستوى ذوي الأهواء والميول إلى هذا الحد، فإنه لا يمكن مكافحة ذلك عن طريق الإعلام، ونشر الكتب، وإلقاء الخطب، وبيان الأضرار الطبية والمفاسد الأخلاقية للخمر، وهكذا لا يمكن عن طريق تشريع القوانين المتشددة، وتعيين العقوبات الشديدة، ذلك أن ترك هذه العادة يحتاج أولاً إلى إيجاد تحوّل روحي عميق، وفي غير هذه الصورة فإن مواجهة هذه العادة بالعنف تؤدي إلى تناول سموم أخطر منها[1].

(١) «ولعل أفضل مثل يؤكد هذا الأمر تاريخ مكافحة المسكرات في أمريكا، حيث استخدمت أمريكا في مكافحة هذه العادة السيئة المضرة، مختلف الوسائل والأسلحة، من قبيل المجلات والجرائد والخطب والأفلام السينمائية، وأنفقت في العمل الإعلامي ضد المسكرات مبلغاً=

إن المجتمع الذي تسيطر عليه الاختلافات الطبقية، وتعيش إحدى طبقاته في رفاه مفرط بينما تذوق الطبقة الأخرى الشقاء والبؤس والحرمان، إن مثل هذا المجتمع سيقع لا محالة أسيراً للمسكرات، ذلك أن الطبقة الأولى نتيجة الرفاه والالتذاذ المفرط تموت إحساساتها، وتحتاج إلى ما يثيرها، أما الطبقة الثانية فإنها من أجل تسكين آلامها وبؤسها تحتاج إلى انطواء وهروب من الواقع المعاش، وسوف لا تستغني عن أنواع المسكرات.

ولكن ذلك لا يدعونا إلى الاعتقاد بأن استعمال المسكر يصبح أمراًمباحاً، بل يجب التوجه إلى أن استعمال المسكرات هو دليل مرض المجتمع، ويدعونا إلى الجد في مكافحة العلل الأساسية وراء وجود ذلك وشيوعه.

كما أن الإسلام حين حرم عادة شرب الخمر السيئة أخذ الموضوع بعين الاعتبار، وعمل أولاً على اقتلاع مادة هذه العلل والأسباب، وبذل منتهى الجهد في ذلك، وحينئذ أقدم على تحريمه، ومن هذه الزاوية يجب على المدنية الحديثة أن تتبع الإسلام في هذا الطريق، بدل أن تقدم انتقادات، غير واردة، ويجب أن تأخذ بعين النظر أن أول شرط لمعالجة الأمراض الروحية الخطرة، هو تنظيم الأمور الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية والجسمية.

= يزيد على ثمانية ملايين دولار، ونشرت حوالي بليون صفحة كتاب ومجلة ونشرة، وخلال أربعة عشر عاماً من مكافحة الخمر أنفقت مبلغاً يعادل مئتين وخمسين مليون ليرة لغرض تنفيذ قانون تحريم المسكرات، وأعدمت ثلاثمئة إنسان في هذا المجال، وهكذا سجن خمسمائة واثنان وثلاثون ألفاً وثلاثمئة وخمسة وثلاثون شخصاً، وحصلت على حوالي ستة عشر مليون ليرة كغرامة لجريمة المسكرات، وصادرت ما يعادل أربعمئة وخمسين مليون ليرة من الأملاك، إلا أن جميع هذه المحاولات لم تثمر إلا مزيداً من العشق والتعلق والسماح كاملاً بتناول المسكرات». ترجمة عن كتاب التنقيحات ـ للأستاذ المودودي.
وبعد كل هذه التجارب المرة ننتهي إلى أن مكافحة هذا الوباء ليست ميسورة عن طريق القانون واستخدام القوة.

(١٤) القمار

الرابع عشر من الذنوب التي ورد التصريح باعتبارها كبيرة هو القمار، كما يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. الآية ٢١٩.

والتعبير بالإثم الكبير في القرآن الكريم منحصر بالخمر والقمار.

وفي رواية الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (ع) في مقام تعداد الكبائر ذكر القمار، وهكذا في رواية الأعمش عن الإمام الصادق (ع) حيث صرح عليه السلام باعتباره من الكبائر، وعن الإمام الصادق (ع) أنه قال:

«بيع الشطرنج حرام، وأكل ثمنه سحت، واتخاذها كفر، واللعب بها شرك، والسلام على اللاهي بها معصية وكبيرة موبقة. والخائض فيها يده كالخائض يده في لحم الخنزير، لا صلاة له حتى يغسل يده، كما يغسلها من مس لحم لخنزير، والناظر إليها كالناظر في فرج أمه، واللاهي بها والناظر إليها في حال ما يلهى بها، والسلام على اللاهي بها في حالته تلك في الإثم سواء.

ومن جلس على اللعب بها فقد تبوأ مقعده من النار، وكان عيشه ذلك حسرة عليه في القيامة، وإياك ومجالسة اللاهي المغرور بلعبها، فإنها من المجالس التي باء أهلها بسخط من الله، يتوقعونه في كل ساعة فيعمك معهم» (وسائل الشيعة ـ التجارة).

وعن الإمام الصادق (ع): «يغفر الله في شهر رمضان إلا لثلاثة، صاحب مسكر، أو صاحب شاهين، أو مشاحن، قلت وأي شيء صاحب شاهين؟ فقال (ع): الشطرنج». (الكافي).

ومن الدلائل على أن القمار من الذنوب الكبيرة قرنه في القرآن الكريم

دائماً بعبادة الأصنام وبالخمر، كما في قوله تعالى: ﴿**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان**﴾.

ما هو الميسر وما هي الأزلام؟

الميسر يشمل كل أنواع القمار، وهو مأخوذ من كلمة (اليسر) ذلك أن القمار ببساطة وبدون مشاق الكسب والعمل يجعل أموال الآخرين في قبضة الإنسان، والأزلام هي ألواح كانوا يقامرون بها بنحو مخصوص، وتسمى أيضاً بالأقلام، وترتيب ذلك ما يلي:

يشترون بعيراً وينحرونه ويقسمونه إلى ٢٨ قسماً، بعد ذلك يضعون عشرة أعواد لكل منها اسم مخصوص باسم عشرة أشخاص، والسبعة الأولى من هذه الأعواد تعتبر ذات حصة من البعير، وهي مسماة بالأسماء التالية «فذ، توأم، رقيب، حلس، نافس، مسبل، معلّى» وكل من خرج واحد من هذه الأعواد باسمه يعطى سهماً أو أكثر من البعير، بالترتيب التالي:

من خرج (فذ) باسمه يعطى سهماً واحداً، وهكذا بالترتيب بحيث أن من خرج (معلى) باسمه يعطى سبعة سهام من البعير.

والثلاثة أعواد الأخرى والمسماة (منبح، سفيح، رغد) ليس لها سهام من البعير، ومن خرجت باسمه يجب أن يدفع ثمن البعير.

بناءً على ذلك فإن ذكر الأزلام في الآية الشريفة بعد ذكر الميسر هو من باب ذكر الخاص بعد العام، ذلك أن الأزلام هي قسم من أقسام القمار والميسر، وإن ذكرت لها معان أخرى.

إذن فمعنى الآية الشريفة أن الخمر، والقمار، والأنصاب ـ الأصنام ـ والأزلام هي جميعاً رجس من عمل الشيطان، فلا يترتب عليها أثر سوى الشر والإضرار، فاجتنبوها وابتعدوا عنها لعلكم تفلحون، أي أن الاقتراب من أي واحد من هذه الأربعة ليس فيه أمل النجاح، ولتأكيد حرمة الخمر والقمار بينت

الآية الشريفة الآتية واحداً من المفاسد العظيمة لهما، فلا تقتربوا منهما أيها الناس.

العداوة في الخمر والقمار:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ﴾. السورة ٥ الآية ٩١. وهذا أمر محسوس ومشاهد.

أما بالنسبة إلى الشراب، فواضح جداً أن الشخص السكير بعد أن يشرب هذا السائل المحرق، ويزول عنه عقله، لا يحذر من أية جريمة وجناية يرتكبها، ويهجم على الآخرين كالوحش بدون أية علة، ولا يستطيع الامتناع عن إيذاء الناس وترويعهم، ويحدث أحياناً أن يقتل ـ وهو في هذه الحالة ـ أقرب المقربين إليه.

أما القمار، فالمقامر إما أن يربح أو يخسر، أما إذا ربح فلا شك أن البغض والحقد سيملأ قلب صاحبه الخاسر، حيث يرى أمواله التي حصل عليها بمشقة وجهد، وكان متعلقاً بها خرجت من يده بدون أي عوض، وإن لم يستطيع أن يتداركها في نفس المجلس فإنه سيأخذ الحقد بدلها إلى آخر عمره، ويكون دائماً في مقام التعويض عن خسارته بالحقد.

أما إذا خسر فمعلوم أنه سيعوض عن خسارته بالحقد على صاحبه، وقليلاً ما يصادف أن ينتهي مجلس القمار بدون صراع ونزاع.

القمار يؤدي إلى الفساد والتشرد:

والموضوع الآخر هو أن المقامر إذا ربح فإنه سيتجه للتفكير بالفساد واللهو، وارتياد البارات ومراكز الفحشاء والمنكرات والفساد والملاهي، لأنه قد كسب هذا المال من دون جهد، وكما يقول المثل المشهور (ما جاءت به الريح تذهب به الريح)، وسوف يذهب المال هدراً بعد قليل من الزمان.

وثانياً: على أثر الربح تشتد علاقته بالقمار، وتموت عنده روح النشاط

والعمل والجد في طلب الرزق الحلال، وفي النتيجة يصبح إنساناً عاطلاً كسولاً، شهوانياً متحللاً، ويكون سعيه وهمّه الوصول إلى مجالس القمار لعله يظفر بنصيب أكبر.

أما إن خسر فإنه سوف تسيطر عليه الأعصاب الهائجة، ويهيج عنده الحس الانتقامي المتوحش، لأجل تحصيل ما خسره من المال، وهنا أيضاً سيوصل نفسه مرة أخرى إلى مجالس القمار، ويحدث أحياناً أن يفتقد جميع ما لديه في عدة مجالس، وحيث يعجز عن تلافيها، فإما أن يقتل صاحبه أو يقتل نفسه[1].

---

(١) في كتاب البلايا الاجتماعية الصفحة ٢٣١ يقول:

في إحدى المدن طعن أحد المقامرين صاحبه بثلاث ضربات سكين وقتله، ولدى استجوابه قال: إن المقتول أخذ مني في القمار أموالاً كثيرة ولم يكن مستعداً للّعب مرة أخرى، وكلما طلبت منه ذلك لم يوافق، فعقّبته و. . .

وفي صفحة ٣٢٥ يكتب نقلاً عن مجلة الحضارة، في مدينة مونت كارلو: أن رجلاً أرجنتينياً خلال ١٦ ساعة من لعب القمار خسر ١٤ مليون تومان، وحين أغلقت حانة القمار ذهب إلى الغابة، وبرصاصة واحدة مزق دماغه وأنهى حياته.

إحدى المجلات حول عاقبة هؤلاء الخاسرين الأبرياء هكذا كتبت:

إن الغابات المحيطة بمونت كارلو شهدت حوادث انتحارية متكررة من هؤلاء الأبرياء الخاسرين، وذلك أن عدداً من هؤلاء كانوا لا يملكون أجرة الرجوع إلى بلدهم، وعلى ذلك فإن أغلبهم ينتحرون في هذه الغابات.

ولذا فإن شركة البار صممت أن تقرض هؤلاء أجرة العودة إلى بلدهم.

ونقل عن جريدة (الاطلاعات الأسبوعية) العدد ١٠٦٠ ما يلي:

اليوم يتزايد عدد المنتحرين بسبب القمار، كما يعلم ذلك من إحصاء نشرته مؤسسة (كالوب)، ذلك أن إحصاء المؤسسة المذكورة يشير إلى أن انتحار المقامرين في سنة ١٣٦١ يفوق ما قبلها من السنين، ولأجل ذلك فإن مقامري مونت كارلو سموا هذا العام بالعام (المشؤوم).

وفي العام الأسبق بلغ عدد المنتحرين من المقامرين فقط في باريس ١٢ شخصاً، وكتب في صفحة ٣٢٩ نقلاً عن صحيفة (اطلاعات الأسبوعية) نفس العدد:

إن أحد الإحصائيين الأمريكيين انتهى إلى أن عامل القمار يتدخل في ٣٠٪ من الجرائم المرتكبة.

الابتعاد عن ذكر الله وعن الصلاة:

ومن جملة المفاسد العظيمة للقمار والخمر وعبادة الأصنام الغفلة عن ذكر الله، والابتعاد عن طاعته، كما يقول تعالى في الآية الشريفة: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ**﴾.

فكما أن الشخص السكير في تمام وقت سكره غافلٍ عن ذكر الله، وغير قادر على أداء التكاليف الإلهية، خصوصاً الصلاة، والتي هي أهمها وأعظمها، فكذلك حال الإنسان المقامر، فهو أيضاً في مجلس القمار يمضي عليه وقت الصلاة وهو مشغول بسكره وقماره.

بعد ذلك يقول تعالى للتأكيد: ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾؟ السورة ٥ الآية ٩١.

يعني: أيها المؤمنون بعد ما عرفتم من هذه المفاسد العظيمة والنهي الإلهي الصريح، أتقبلون أن يقترب أحدكم من هذين الذنبين؟

وأيضاً يقول تعالى للتأكيد في الآية التالية: ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاحْذَرُوا، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلَاغُ المُبِينُ**﴾.

يعني: بعد تلك البيانات لا عذر لكم في المخالفة والانحراف، وهي مخالفة بعد إقامة الحجة عليكم.

مما تقدم يعرف أن لعب القمار من الذنوب الكبيرة، وفيما يلي نذكر أقسام القمار ضمن فروع أربعة:

١ ـ اللعب بأدوات القمار مع الاشتراط:

إذا لعبا بأدوات القمار المخصوصة واشترطا أن الخاسر منهما يعطي

= وإن المطالعات حول علل وقوع بعض الجرائم تشير إلى أن أغلب محترفي السرقة والقتلة والمعذبين، هم من فاسدي التربية، ومن مواليد مراكز وأوكار الفساد (القمار).

للآخر مبلغاً أو جنساً معيناً، ففي مثل ذلك لا شك في حرمته، وهذا هو القدر المتيقن من عنوان القمار والميسر الوارد في القرآن الكريم والأخبار الشريفة، حتى عدّ بعض الفقهاء حرمته من ضروريات الإسلام.

ولا شك أيضاً أن المال الذي يأخذه الرابح هو مال حرام، لا يملكه ولا يستطيع التصرف فيه، ويجب عليه أن يرجعه لصاحبه، كما يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ﴾ السورة ٤ الآية ٢٩.

ولا شك أن التصرف بمال مأخوذ بالمقامرة هو من أكل المال بالباطل.

ولا فرق في حرمة القمار بين أنواعه وأقسامه المختلفة، سواءً بأدوات القمار التي كانت متعارفه قديماً كالنرد، والشطرنج، والآس والكنجفة وغيرها، أو ما أضيف إليها في الزمن الحالي من الورق وغيره.

وحتى اللعب ببيض الدجاج والجوز بشرط الربح والخسارة لا يفرق عن باقي أنواع القمار، كما في صحيحة معمر بن خلاد عن الإمام موسى بن جعفر (ع) أنه قال: «النرد والشطرنج والأربعة عشر بمنزلة واحدة، وكلّ ما قومر عليه فهو ميسر». (الوسائل ـ كتاب التجارة ـ الباب ١٣٢).

وعن الإمام الباقر (ع): «أما الميسر فالنرد والشطرنج وكل قمار ميسر». (وسائل الشيعة).

وأيضاً عن الإمام الهادي (ع) في معنى الآية الشريفة المذكورة أنه قال: «كلّ ما قومر به فهو الميسر، وكل مسكر حرام». (وسائل الشيعة).

وقيل لرسول الله (ص) لما نزلت آية تحريم الخمر والقمار:

يا رسول الله: ما الميسر؟

فقال (ص): «كل ما تقومر به حتى الكعاب والجوز». (وسائل الشيعة).

وعن إسحاق بن عمار:

قال: قلت لأبي عبد الله (ع): الصبيان يلعبون بالجوز والبيض ويقامرون؟

فقال (ع): «لا تأكل منه فإنه حرام». (وسائل الشيعة).

والأخبار الواردة في حرمة اللعب بآلات القمار مع اشتراط الربح والخسارة متواترة، وفيما تقدم منها كفاية.

٢ ـ اللعب بأدوات القمار بدون اشتراط:

اللعب بآلات القمار المخصوصة بدون شرط، وبدون ربح وخسارة، بل لمجرد الأنس حرام أيضاً.

وحرمة ذلك محل اتفاق الفقهاء، وفي بداية هذا البحث نقلنا حديثاً شريفاً عن الإمام الصادق (ع) يقول فيه: «اللعب بها شرك، والخائض يده فيها كالخائض يده في لحم الخنزير، لا صلاة له حتى يغسل، والناظر إليها كالناظر إلى فرج أمه». (وسائل الشيعة).

وعن الإمام الصادق (ع) أنه سئل عليه السلام عن الشطرنج فقال (ع): «دعوا المجوسية لأهلها». (وسائل الشيعة).

بمعنى أن المسلمين لا ينبغي أن يقتربوا من الشطرنج.

وفي رواية أخرى صرح عليه السلام بالنهي عن الاقتراب منه، فقد سئل عليه السلام عن الشطرنج والنرد فقال (ع): «لا تقربوها». (وسائل الشيعة).

ويعرف من النوع الأول الذي ذكر قبلاً أنه لا فرق بين النرد والشطرنج وسائر أدوات القمار، بناءً على ذلك فإن استعمال أدوات القمار في اللعب ـ سواء كان مع اشتراط الربح والخسارة أو بدونهما ـ حرام، كما صرح في رواية تحف العقول بأن كل أنواع استعمال أدوات القمار حرام.

قال (ع): «وجميع التقلب فيه من جميع وجوه الحركات كلها» (تحف العقول).

وورد عن الإمام الباقر (ع) في تفسير تحريم الخمر والقمار أنه قال: «وأما الميسر فالنرد والشطرنج وكل قمار ميسر، إلى أن قال (ع): وكل هذا بيعه وشراؤه والانتفاع بشيء من هذا حرام، ومن جملته اللعب به - حتى إن كان بدون شرط ولمجرد اللذة - حرام وهو رجس من عمل الشيطان[1] (تفسير القمي).

وبالجملة فإن جميع آلات ووسائل القمار المخصوصة حرام صنعها وإجارتها وبيعها وشراؤها وثمنها، بل إن اقتناءها حرام أيضاً، ويجب إتلافها.

كما يحرم أيضاً الجلوس في مجلس القمار، والنظر إليه، بل يجب الخروج من مثل هذا المجلس من باب النهي عن المنكر، ويستحب له إذا وقعت عينه صدفة على آلات القمار أن يذكر سيد الشهداء عليه السلام، ويلعن يزيد، فقد روي في كتاب (عيون أخبار الرضا) عن الفضل بن شاذان أنه قال:

---

(١) لم يكتف الإسلام في مقام مكافحة أساس البلاء - القمار - بمجرد التحريم، بل حرّم وبشكل مختلف وسائل وأودوات القمار، وذلك بهدف اقتلاع جذوره ومحوه من الأوساط، والمنع من حفظها وبيعها وشرائها، واعتبر ذلك حراماً.

وقد يسأل البعض: لماذا يحرم اللعب بالشطرنج وأمثاله إذا كان بدون ربح وخسارة، خصوصاً اليوم، حيث أصبح نوعاً من الرياضة الفكرية الشائعة في أجهزة الفن؟ وفي جواب هؤلاء يجب أن نقول: إن الإسلام من أجل المكافحة الأساسية للقمار والوقوف أمام رواجه حرّم وسائله، بهدف اقتلاع جذور القمار من الوسط الاجتماعي، وتنفير الناس عنه، فإن أدوات القمار إذا كانت موجودة بين الناس بحيث تباع وتشترى بشكل علني، ويحتفظ بها في البيوت، ويستفاد منها بغرض الترفيه والاستئناس، ولو من دون اشتراط، فإنه لا شك حينئذ أن هذا الوضع يهيئ أرضية مناسبة لشيوع القمار، يصعب معها الوقوف بوجه القمار.

- ومن هذه الجهة كانت معالجة الإسلام أكثر جذرية وأساسية، وأزالت الارضيه المناسبة للقمار، وذلك بالتحريم القطعي العام لكل أدوات القمار. ومثل هذه المعالجة اتخذها الإسلام في مواجهة الشرك وعبادة الأصنام، وعلى هذا الأساس حرم كافة المجسمات ومنع ذلك حتى لو كان لأغراض فنية وليس لعبادتها، وذلك من أجل اقتلاع جذور عبادة الأصنام من أوساط الناس». عن كتاب (البلايا الاجتماعية) ص ٣٤٤.

سمعت الرضا (ع) يقول:

«لما حمل رأس الحسين بن علي عليهما السلام إلى الشام أمر يزيد - لعنه الله - فوضع ونصبت عليه مائدة، فأقبل هو - لعنه الله - وأصحابه يأكلون ويشربون الفقاع، فلما فرغوا أمر بالرأس فوضع في طست تحت سريره وبسط عليه رقعة الشطرنج، وجلس يزيد - عليه اللعنة - يلعب الشطرنج ويذكر الحسين (ع) وأباه وجده صلوات الله عليهم، ويستهزئ بذكرهم، فمتى قمر صاحبه تناول الفقاع فشربه ثلاث مرات، ثم صب فضلته على ما يلي الطست، فمن كان من شيعتنا فليتورع عن شرب الفقاع واللعب بالشطرنج، ومن نظر إلى الفقاع أو إلى الشطرنج فليذكر الحسين (ع)، وليلعن يزيد وآل زياد، يمحو الله عز وجل بذلك ذنوبه ولو كانت بعدد النجوم».

٣ - اللعب بغير أدوات القمار مع الاشتراط:

اللعب بغير الآلات المخصوصة للقمار مع الاشتراط (عدا السباق بالخيول والرماية) حرام أيضاً، وذلك مثل أنواع المسابقات الرياضية كالمصارعة وحمل الأثقال ولعبة عصا (الكولف) ونظائر ذلك، فإنها إذا كانت مع اشتراط - الربح - فهي حرام، ومن يأخذ المال ربحاً يجب عليه أن يرجعه لصاحبه.

مسابقة الخيول والرماية:

أما الاشتراط في مسابقة الخيول والرماية فلا شك في أنه حلال، ويجوز أخذ المال بواسطته ويصبح به مالكاً، والإسلام - بهدف تنمية القوة العسكرية للمسلمين، وخلق روح القتال والمقاومة عندهم - جوز هذين الموردين، ووضع لهما أحكاماً موجودة في كتاب السبق والرماية من الكتب الفقهية.

أما في غير هذين الموردين فإن جميع المسابقات - إذا كان معها تعهد ماليّ بعنوان الربح والخسارة - فهي حرام، والمال الذي يؤخذ من خلالها حرام، وأكله أكل المال بالباطل، وقد ادعى الشهيد الثاني في كتاب

(المسالك) الإجماع على هذا الحكم، ونقل في كتاب (الوافي) ثلاثة أحاديث عن الإمام الصادق (ع) ومضمونها: أن الملائكة تتأذى حين الرهان وتلعن من يعمل هذا العمل، ما عدا مسابقة الخيول والرماية.

وروي عن رسول الله (ص): «أن الملائكة تحضر الرهان في الخف والحافر والريش، وما عدا ذلك قمار محرم». (الوافي).

وفي رواية أخرى: «لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل». (الوافي).

وفي صحيحة محمد بن قيس عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «قضى أمير المؤمنين (ع) في رجل آكل هو وأصحابه شاة فقال: إن أكلتموها فهي لكم، وإن لم تأكلوها فعليكم كذا، فقضى (ع) فيه أن ذلك باطل لا شيء في المؤاكلة من الطعام، قل منه أو كثر، ومنع غرامة فيه». (الكافي).

يعني بما أن المسابقة في المؤاكلة هي بالأساس باطلة، إذن ففي هذه الحال إذا لم يستطيعوا ـ فرضاً ـ أكل تمام الشاة فإنه لا شيء عليهم.

وفي رواية جابر عن الإمام الباقر (ع) أن رسول الله (ص) سئل عن الميسر فقال: «كل ما تقومر به حتى الكعاب والجوز».

وعلى هذا فإن اللعب بالبيض والجوز ـ وان لم يكونا من أدوات القمار ـ بشرط الربح والخسارة حرام يقيناً.

واحتمل بعض الأكابر عدّهما (الخيول والرماية) من أدوات القمار. ذلك أن اللعب بهما شائع ومتعارف بين المقامرين، وبناءً على ذلك يدخلان في الفرع الأول، فيحرم اللعب بهما حتى إذا كان بدون اشتراط الربح والخسارة، إلا أن عدهما وما ماثلهما من جملة أدوات القمار أمر غير معلوم.

٤ ـ اللعب بغير آلات القمار وبدون اشتراط أمر جائز:

يختلف نظر فقهاء الشيعة في المسابقة بغير وسائل القمار، وبدون

اشتراط، فقد حكم الأغلب بحرمتها، بينما حكم البعض الآخر بالجواز، وفصّل آخرون بالشكل التالي: إذا كان في هذه المسابقات غرض عقلائي، ومصلحة علمية أو طبية أو غيرها فلا مانع منها، كالمسابقة في كتابة الخط أو القراءة، أو المسابقة في السباحة والركض، والخياطة والبناء ونظائرها. أما إذا لم يكن فيها غرض عقلائي ولا مصلحة فإنها حرام، كالمسابقة في أكل مقدار معين من الطعام وما ماثل ذلك، حيث لا يوجد أي غرض عقلائي فيه.

ولكن الحق أن هذه الصورة خارجة من موارد القمار بنحو كلي، وبناءً على ذلك فإن اللعب بغير آلات القمار بدون شرط وتعهد مالي جائز ولا مانع منه.

تذكر:

الربح والخسارة المعروفة باسم (المعونة الوطنية) هي قمار وحرام بشكل مسلّم، ومن سوء الحظ أنها كثرت وشاعت، وذلك على أثر الدعاية والإعلام حولها، وأصبح الناس يرتكبون هذا الذنب الكبير علناً، ولا شك أن المالَ الذي يؤخذ من خلال هذا الطريق لا يكون ملكاً له، ولا يجوز له التصرف فيه، ومثل هذا التصرف هو أكل بالباطل، وهو مورد نهي الله تعالى في القرآن المجيد ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ﴾. ولا شك في حرمته.



(١٥) ــــــــــــ الاشتغال بالملاهي واللهو بآلات الموسيقى

الخامس عشر من الذنوب الكبيرة، والتي ورد التصريح بأنها من الكبائر هو **اللهو** بالآت الموسيقية بمختلف أنواعها، (الناي) و(الكمنجة) و(البيانو) و(الطنبور) ونظائرها، وهكذا الاستماع إليها، كما جاء في رواية الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (ع) ضمن تعداد الكبائر حيث قال: «والاشتغال بالملاهي».

وباتفاق جميع الفقهاء، يعتبر صنع وشراء وبيع آلات اللهو والتعامل بها باطلاً، كما هو في آلات القمار، وحفظها حرام أيضاً وإتلافها واجب، كما روي ضمن حديث مفصل في كتاب (تحف العقول) عن الإمام الصادق (ع) وكما يروي الشيخ الحر العاملي في كتاب (الفصول المهمة) أن الإمام (ع) قال: «إنما حرّم الله الصناعة التي هي حرام كلها، التي يجيء منها الفساد محضاً، نظير البرابط والمزامير والشطرنج وكل ملهوّ به، والصلبان والأصنام وما أشبه ذلك» إلى أن قال (ع): فحرام تعليمه وتعلمه والعمل به وأخذ الأجرة عليه، وجميع التقلب فيه من جميع وجوه الحركات».

الموسيقى وأخبار أهل البيت (ع):

الأخبار الواردة في حرمة استعمال آلات اللهو كثيرة، منها عن الإمام الصادق (ع) قال: «قال رسول الله (ص): أنهاكم عن المزق والمزمار وعن الكربات والكبرات» الكافي».

وأيضاً قال (ص): «إن الله بعثني هدى ورحمة للعالمين، وأمرني أن أمحو المزامير والمعازف والأوتار والأوثان وأمور الجاهلية». (المستدرك).

وأيضاً عن الإمام الصادق (ع): «من أنعم الله عليه بنعمة فجاء عند تلك

النعمة بمزمار فقد كفر» (وسائل الشيعة).

الموسيقى تنبت النفاق وتذهب بالغيرة:

وأيضاً قال (ع): «ضرب العيدان ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الخضرة». (وسائل الشيعة).

وأيضاً قال (ع): «إن من ضرب في بيته بربط أربعين يوماً سلط الله عليه شيطاناً يقال له قفندر، فلا يبقى عضو من أعضائه إلا قعد عليه، فإذا كان كذلك نزع منه الحياء فلم يبال ما قال ولا ما قيل فيه... فلا يغار بعدها حتى تؤتى نساؤه فلا يغار». (الوسائل).

كما هو مشاهد ومحسوس أن من تعزف الموسيقى في بيته ليل نهار بواسطة الراديو لا غيرة له ولا حياء.

يُسأل عما مضى:

عن مسعدة بن زياد قال: كنت عند أبي عبد الله (ع) فقال له رجل: بأبي وأنت وأمي، إني أدخل كنيفاً، ولي جيران وعندهم جوار يتغنين ويضربن بالعود، فربما أطلت الجلوس استماعاً مني لهن.

فقال (ع): لا تفعل.

فقال الرجل: والله ما أتيتهن، إنما هو سماع أسمعه بأذني.

فقال (ع): بالله أنت: أما سمعت الله يقول: **﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أولئك كَانَ عَنهُ مَسؤلاً﴾**؟

فقال بلى: والله، كأني لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله من عربي ولا أعجمي، لا جرم أني لا أعود إن شاء الله، وإني أستغفر الله.

فقال (ع): قم فاغتسل وصل ما بدا لك، فإنك كنت مقيماً على أمر عظيم، ما كان أسوأ حالك لو متّ على ذلك، احمد الله وسله التوبة من كل ما

يكره، فإنه لا يكره إلا كل قبيح، والقبيح دعه لأهله، فإن لكلٍّ أهلاً». (وسائل الشيعة ـ أبواب الغسل).

الموسيقى ترفع البركة:

عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه خمر أو دف أو طنبور أو نرد، ولا يستجاب دعاؤهم وترفع عنهم البركة». (وسائل الشيعة).

وعن الإمام الرضا (ع) أنه قال: «استماع الأوتار من الكبائر» (المستدرك).

يحشر مسود الوجه:

قال رسول الله (ص): «يحشر صاحب الطنبور يوم القيامة وهو أسود الوجه، وبيده طنبور من نار، وفوق رأسه سبعون ألف ملك، بيد كل ملك مقمعة يضربون رأسه ووجهه، ويحشر صاحب الغناء من قبره أعمى وأخرس وأبكم، ويحشر الزاني مثل ذلك، وصاحب المزمار مثل ذلك، وصاحب الدف مثل ذلك» (المستدرك).

أربعون يوماً مع آلات الموسيقى:

عن الإمام الرضا (ع) أنه قال: «من بقي في بيته طنبور أو عود، أو شيء من الملاهي من المعزفة والشطرنج وأشباهه أربعين يوماً فقد باء بغضب من الله، فإن مات في الأربعين مات فاجراً فاسقاً مأواه جهنم وبئس المصير» (مستند الشيعة).

الموسيقى علنية في آخر الزمان:

يقول (ع) في رواية عن علامات آخر الزمان: «ورأيت الملاهي قد ظهرت لا يمنعها أحد، ولا يجترئ أحد على منعها، ورأيت المعازف ظاهرة في الحرمين». (مستند الشيعة).

مما ذكر يعلم أن هذا الذنب من الكبائر ذات العذاب الأليم، كما أن مفاسده الدنيوية كثيرة، وتترتب عليه أضرار كثيرة، ذكرها العلماء في تأليفاتهم، راجعها لمزيد الاطلاع.

عمل الأعصاب وتأثير الموسيقى:

قسم علماء الفلسجة الجهاز العصبي إلى قسمين:

١ ـ سلسلة الأعصاب الإرادية.

٢ ـ سلسلة الأعصاب التلقائية.

أما سلسلة الأعصاب الإرادية: فهي تشمل النخاع الشوكي الواقع في العمود الفقري ونصفي دائرة الدماغ، وأيضاً الأعصاب المحيطة.

أما سلسلة الأعصاب التلقائية فهي تشمل الجهاز السمبثاوي والباراسمبثاوي.

يبتدئ جهاز الأعصاب السمبثاوي من العمود الفقري، ثم ينتشر في سائر الأعضاء.

أما جهاز الأعصاب الباراسمبثاوي فهو يبتدئ من الدماغ ماراً بالعمود الفقري، ثم ينتشر بموازاة الجهاز الباراسمبثاوي في جميع أعضاء البدن.

عمل الجهاز السمبثاوي عبارة عن تضييق الأوعية الدموية، توسيع العضلات الملساء، إيقاف الترشح، زيادة ضغط الدم.

أما عمل الباراسمبثاوي فهو توسيع الأوعية الدموية، تقليص العضلات الملساء، إيجاد الترشح، تقليل ضغط الدم. وحيث إن الجهاز السمبثاوي والبارا سمبثاوي ينتشران في أعضاء البدن بشكل موازٍ مع أن عمل كل واحد منها يخالف الآخر، فمتى ما لم يواجه البدن إثارة من الخارج، واستمر الاثنان في عملهما، فإن تعادل البدن يبقى محفوظاً، وهذا التعادل له دخل كبير في صحة وسلامة الإنسان روحاً وجسماً، أما متى فقد أحدهما حالة التوازن

والتعادل، فإن ذلك سيوجد اختلالاً روحياً وجسمياً بمقدار ذلك الفقدان.

أهم أعمال الجهاز السمبثاوي إيجاد النشاط في البدن، من قبيل اليقظة والجدية والهمة في الأعمال (وهو ما يصطلح عليه في الطب القديم بأن صاحبه ذو مزاج حار) أما أهم أعمال الجهاز الباراسمبثاوي فهي مخالفة تماماً لعمل الجهاز السمبثاوي، أي أن عمله إيجاد الخمول والارتخاء، والنوم والغفلة، والسهو، والنسيان، والحزن، والإغماء والنزع، وأخيراً الموت. حين ترد من الخارج إثارات على الأعصاب، تفقد الأعصاب السمبثاوية أو الباراسمبثاوية اعتدالها بنسبة الإثارات الواردة صعوداً أو هبوطاً.

ومن البديهي أنه بمقدار الفاصلة التي تحدث بين هذين الجهازين يحدث قلق روحي، وتشوش فكري ويبدأ بالتالي الاضطراب الروحي.

من جملة أسباب الإثارة الخارجية التي تحدث حالة الاضطراب وعدم **التوازن بين الأعصاب السمبثاوية والباراسمبثاوية هي الاهتزازات الموسيقية، فالموسيقى حين تصحبها نغمات مهيجة أو حزينة، وخصوصاً هزات موسيقى (السمفونيك) العجيبة الغريبة، حينذاك من المؤكد أن التوازن اللازم بين الأعصاب السمبثاوية سيفقد، وبالتالي فإن الأصول الحياتية الهامة كالهضم والامتثال (الجذب والدفع) والترشح وضربات القلب، ومقدار ضغط السوائل البدنية التي من جملتها الدم وغيره، سوف تختل، وبالتالي تنتهي بالشخص إلى الابتلاء بالأمراض، التي ظل الطب الحديث رغم تقدمه المذهل عاجزاً عن معالجتها»**[1].

---

(١) نقلاً عن رسالة (تأثير الموسيقى على الأعصاب). وكتب في صفحة أخرى:

إن الأمراض النفسية المختلفة، والاختلالات الفكرية، والاضطرابات الروحية وأنواع الجنون، والسكتة القلبية والدماغية المفاجئة، التي تزداد في جميع الدنيا يوماً بعد يوم، حتى جلبت إليها أنظاراً الأطباء، إن خمسة وتسعين في المائة من ذلك هو نتيجة هذا التمدن الجديد المشؤوم، وأهم قسم فيه هو انتشار الموسيقى من خلال الراديو، وازدياد مجالس الطرب والعزف والكنسرت، ونتيجة ضجيج الكنسرتات (الحفلات الموسيقية)،=

= والموسيقى المختلفة والأفلام، والكبلات (الراقصان) والدنسينكهات (الحفلات الراقصة)، حتى أن عدد المجانين ومرضى النفس في تمام البلدان ماض بازدياد،ويومياً يضاف عدد إلى قائمة المجانين في الدول العالمية الكبرى، خصوصاً أوروبا وأمريكا.

بعد هذا يذكر إحصاء المجانين في أمريكا فيقول: ليت البشر يعرف أن المستعمرين بهدف التسلط على أعصاب الشعوب وقواهم الفكرية كيف يستفيدون من الموسيقى، والكحول، في تخدير وتضعيف الأعصاب، وفي ايجاد الاضطرابات الفكرية والأمراض النفسية.

وليت إنسان العصر يرجع إلى نفسه ليرى كيف يعطي قدراته الفعالة ويضعها بيد الأعداء، من أجل ساعة لهو ومجون؟ لقد أثبت الدكتور (ولف آدلر) بروفسور جامعة كولومبيا، أن أفضل وأجذب الأنغام الموسيقية ينشر أسوأ الآثار على سلسلة أعصاب الإنسان، خصوصاً إذا كان الجوّ حاراً، فإن تأثيره سيكون أكثر تخريباً، وله أسوأ الأثر في المناطق الحارة مثل الجزيرة العربية وبعض نقاط إيران.

لقد نشر الدكتور (آدلر) رسالة مفصلة في بيان أضرارالموسيقى، وقد اتبعه آلاف الناس في أمريكا، حرّم الموسيقى على نفسه، وهيأ في ذلك لائحة مفصلة قدمها إلى البرلمان الأمريكي تقضي بمنع (الكنسرتات) العامة، من أجل نجاة المجتمع،والوقوف بوجه ضعف الأعصاب، الذي هو من سوء حظ العالم المتمدن المعاصر.



السادس عشر من الذنوب التي ورد التصريح بأنها من الكبائر هو الغناء.

كما ورد في رواية الأعمش عن الإمام الصادق (ع)، وأيضاً ورد في موثقة محمد بن مسلم عن الإمام الباقر (ع): «الغناء مما أوعد الله عليه النار» (الكافي ـ كتاب الجهاد).

وورد في أحاديث كثيرة أن كل ما أوعد الله عليه بالنار هو من الكبائر وسوف ننقل فيما بعد عدة شواهد على أنه من الكبائر.

ما هو الغناء؟

المرحوم السيد الأصفهاني في رسالة (وسيلة النجاة) يقول: «الغناء حرام فعله وسماعه والتكسب به، وليس هو مجرد تحسين الصوت، بل هو مد الصوت وترجيعه بكيفية خاصة مطربة، تناسب مجالس اللهو ومحافل الاستئناس والطرب، ويوالم مع آلات الملاهي واللعب».

وحيث إن أكثر أهل اللغة، وأكثر فقهاء الإمامية ذكروا في معنى الغناء أنه ترجيع الصوت بنحو مطرب، لذا فإن توضيح هاتين الجملتين هو كما ذكره صاحب القاموس والصحاح:

«الترجيع ترديد الصوت في الحلق».

وأما صاحب (النهاية) فقد صور ترجيع الصوت بأن يقول: ا آ ا آ ا آ.

أما الطرب ففي الصحاح ذكر أن: «الطرب خفة، يصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور».

وقريب من هذا المعنى ما ذكره سائر أهل اللغة.

إذن فالطرب هو حركة في الطبع ناشئة من شدة السرور أو الحزن

الناشئين من استماع الألحان والأصوات الجميلة. وفي رسالة (خير العباد) يقول:

الغناء عبارة عن صوت اللهو، أي الصوت الذي يخرج بفعل الشهوة والالتذاذ، سواءً أطلق عليه في عرف العجم عنوان الإنشاد والتغني، كما هو في التغني بالأشعار، أو لم يطلق عليه ذلك، كما لو كان المقروء قرآناً أو مراثي، حتى إذا لم يكن موجباً للطرب، وعلى هذا فلا فرق في تحقيق الغناء بين قراءة الأشعار وقراءة القرآن والمراثي، بل لعل حرمة الغناء بالقرآن والمراثي أشد، ومعصيتها أكبر، وعذابها مضاعف.

عدة نكات حول الغناء:

١ ـ الغناء من الكبائر:

عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «الغناء مما وعد الله عليه النار، ثم تلا هذه الآية **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ويَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**. (وسائل الشيعة).

٢ ـ لهو الحديث في القرآن هو الغناء:

ما قيل من أن الغناء هو من أقسام «لهو الحديث» ورد التصريح به في عدة روايات. كما روي عن الإمام الباقر (ع)، وأيضاً فاللهو معناه القول أو العمل غير المناسب، الذي يصرف الإنسان عن أمر مهم نافع.

ولهو الحديث هو كل قول يصرف الإنسان ويمنعه عن استماع وقبول الكلام الحق، وهو كلام الله والقرآن المجيد، مثل القصص الخرافية والقصص التي تجر الإنسان إلى الفساد والفسق والفجور، وأيضاً مثل الطرب واللهو بآلات الموسيقى.

وواضح أن اللهو بأي واحد من هذه الأمور الباطلة يمنع الإنسان عن استماع وقبول المعارف العقائدية في القرآن الكريم، والأحكام العملية فيه،

وقصصه المفيدة، وأخباره العجيبة عن عالم الآخرة، والجنة والنار، بحيث يسخر منها إذا سمعها، ويتكبر إذا قرئت عليه، ويعرض عنها كما لو لم يسمعها أصلاً، كما يقول تعالى في الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ السورة ٣١ الآية ٧.

والخلاصة فإن المشغول بالأنغام والطرب وسائر الأباطيل، ومشتريها، متى يعرف الله والآخرة وحقائق القرآن المجيد ويكون مشتريها وراغباً فيها؟

بل سيكون في النتيجة معتقداً بالأباطيل الضالة، وزاعماً وهمية الحقائق، ومثل هذا الشخص ضالّ ومضلّ، ومورد للوعيد الإلهي بالعذاب في الآيتين السابقتين.

ومما ذكر يعلم أن الغناء هو لهو الحديث الذي وعد عليه في القرآن المجيد بالعذاب، إذن فهو من الذنوب الكبيرة،

سئل الإمام الصادق (ع) والإمام الرضا (ع) عن معنى الغناء فقالا: «هو قول الله عز وجل: ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله» الوسائل ـ التجارة ـ باب ٩٩.

٣ ـ فسر قول الزور بالغناء:

والنكتة الأخرى هي أن الغناء عبّر عنه بقول الزور، الذي جاء في القرآن الكريم الأمر بالابتعاد عنه.

يقول أبو بصير: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿فَاجتَنِبُوا الرِّجسَ مِن الأوثَانِ واجتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ﴾ قال: الغناء. (الوسائل ـ التجارة ـ باب ٩٩).

وعنه (ع) في معنى الآية: ﴿والذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أنه قال: الغناء. (الكافي).

وعنه (ع) أيضاً في جواب من سأله عن قول الزور قال (ع): «منه قول الرجل للذي يغني: أحسنت». (الوسائل).

٤ ـ الغناء لغو:

روي عن الإمام الصادق (ع)، وعن الإمام الرضا(ع) في معنى الآيتين الشريفتين حول صفات المؤمنين: **﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾** و **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾**.

أنهما قالا: اللغو هو الغناء الذي ينزه عنه عباد الرحمن (منقول بالمعنى).

٥ ـ الغناء يورث النفاق:

عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «استماع اللهو والغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء الزرع». (الوسائل).

وقال أيضاً: «الغناء عش النفاق». (الوسائل).

٦ ـ مجلس الغناء:

مجلس الغناء محل غضب الله، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا تدخلوا بيوتاً الله معرِض عن أهلها» وذلك بسبب عزف الموسيقى وإنشاد الغناء.

في صحيحة الشحام عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «بيت الغناء لا يؤمن فيه الفجيعة، ولا يجاب فيه الدعوة، ولا يدخله الملائكة». (الوسائل).

وكما سبق أنّ غضب الله حينما ينزل يشمل الجميع.

٧ ـ الغناء يورث الفقر:

روي عن أمير المؤمنين (ع): «والغناء يورث الفقر، ويعقب النفاق» (المستدرك ـ باب ٧٨).

٨ ـ عذاب الغناء:

روي عن رسول الله (ص) أنه قال: «يحشر صاحب الغناء في قبرة أعمى وأخرس وأبكم» (جامع الأخبار).

وقال (ص): «ما رفع أحد صوته بالغناء إلا بعث الله شيطانين على منكبيه، يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك». (بحار الأنوار).

لا ينظر له الله برحمة:

ورد عن رسول الله (ص) قوله: «خمسة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة... إلى أن قال: والمغني».

وقال (ص): «ألا من استمع إلى اللهو يذاب في أذنه الأنك» (المستدرك ـ التجارة باب ٨٠).

شجرة الجنة والقراءة.

عن الإمام الرضا (ع) أنه قال: «من نزّه نفسه عن الغناء فإن في الجنة شجرة يأمر الله عز وجل الرياح أن تحركها، فيسمع منها صوتاً لم يسمع مثله، ومن لم يتنزه عنه لم يسمعه». (وسائل الشيعة).

قراء الجنة:

وعن رسول الله (ص) أنه قال: «من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة، قيل: وما الروحانيون يا رسول الله؟ قال: أهل الجنة». (مجمع البيان).

وقال أمير المؤمنين (ع): «داود سيد قراء أهل الجنة». (نهج البلاغة).

التهديدات الصعبة:

قال رسول الله (ص): «يظهر في أمتي الخسف والقذف، قالوا متى ذلك؟

قال (ص): إذا ظهرت المعازف والقينات وشربت الخمور، والله ليبيتن أناس من أمتي على أشر وبطر ولعب، فيصبحون قردة وخنازير لاستحلالهم الحرام، واتخاذهم القينات، وشربهم الخمور، وأكلهم الربا، ولبسهم الحرير». (وسائل الشيعة).

٩ ـ العلاقة بين الغناء والزنى:

الغناء سبب ومقدمة للوقوع في الزنى كما قال (ص): «الغناء رقية الجنة» (مستدرك الوسائل ـ التجارة).

وحيث إن الغناء هو صوت لهوي ينبع من الشهوة واللذة الحيوانية، لذا فإن من آثاره السيئة تحريك شهوة القارئ والسامع، فيغفلان عن ذكر الله بنحو يهيئهما لارتكاب الفحشاء، كما قال الإمام الصادق (ع): «والملاهي التي تصد عن ذكر الله كالغناء وضرب الأوتار». [1]

حرمة الغناء من الضروريات:

لا خلاف بين فقهاء الشيعة في حرمة الغناء، واتفاقهم في ذلك مسلّم،

---

(١) إن من أكبر الآثار السيئة لاستماع الغناء تحريك القوى الحيوانية، وجذب الأفراد، خصوصاً الفتيان والفتيات باتجاه الشهوة، والخلاصة أن الفتاة والفتى الذي كان بالإمكان أن يقع قبل استماع الموسيقى تحت تأثير الحياء والخجل والعفة، ولم يكن يرضى بالأعمال القبيحة الحيوانية، سيكون مستعداً باستماع الموسيقى لأقبح الأعمال، ولا يعرف معنى للعار والقبح والعفة، وتأثير الموسيقى السيئ من هذه الزاوية هو بدرجة يمكن معها القول: بأن قسماً مهماً من إشاعة الفحشاء، والتجاوز على الأعراض في الدنيا المعاصرة، يعود إلى انتشار الألحان الموسيقية والأنغام المهيجة.

وأيضاً من آثار الموسيقى السيئة إذابة العواطف الإنسانية لدى السامع، فمن كان لديه حس المحبة، وعواطف إنسانية بدرجة أن يتأثر برؤية أدنى منظر، يفقد هذه العواطف بعد استماعه الموسيقى، حتى لا تؤثر فيه أعظم المناظر المثيرة للرأفة والجارحة للفؤاد.

يكتب الدكتور كارل الفرنسي:

«أية قيمة للحياة إذا كانت منحصرة بالرقص، وبالتجول في أطراف المدن، وبالذهاب إلى السينما واستماع الراديو...».

حتى أن صاحب المستند عدّ حرمة الغناء من ضروريات الدين، واعتبر صاحب الإيضاح الأخبار الواردة في حرمة الغناء متواترة.

نعم يوجد خلاف مختصر في معنى الغناء وحقيقته.

والغناء كما بين الشيخ الأنصاري عليه الرحمة في معناه، وكما هو مورد تأييد وفتوى أكثر مراجع الدين والعلماء الأعلام-كما أشير إليه سابقاً - هو عبارة عن: «الصوت المطرب - بالقوة - وإن لم يكن مطرباً بالفعل بسبب بعض الموانع، والمتطابق مع لحن الفسق والفجور، والمتناسب أيضاً مع آلات الرقص والموسيقى».

إثم التغني بالقرآن أشد:

لا فرق في حرمة القراءة بالكيفية المذكورة بين الشعر والنثر، وسواءً كان مدحاً لأهل البيت (ع) أو دعاءً أو قرآناً أو شيئاً آخر، بل إن قراءة القرآن، والدعاء، والمراثي، والأذان بهذه الكيفية إثمه أكثر، ذلك أنه - مضافاً إلى حرمة الغناء - موجب للاستخفاف بالقرآن المجيد وبالله تبارك وتعالى وبأهل البيت (ع).

لا مانع من الصوت الجميل:

ولكن لا مانع من مجرد الصوت الجميل وترجيعه وترديده في الحلق دون أن يكون بالكيفية المذكورة سابقاً، كما قال (ص): «اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر، فإنه سيجيء أقوام يرجّعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية لا يجوز تراقيهم، قلوبهم مقلوبة، وقلوب من يعجبه شأنهم».[1] (وسائل الشيعة - كتاب الصلاة).

---

(١) بناءً على صحة رواية الحديث الذي ينسبه أبناء العامة إلى رسول الله (ص) ونقلوه في كتبهم، وهو قوله «من لم يتغن بالقرآن فليس منا» نقول:

قال ابن الأثير وهو من جملة علماء العامة في كتاب (النهاية): «تغنيت وتغانيت واستغنيت» تستعمل ثلاثتها في معنى واحد، ومعنى الحديث هو: من لم يستغن بالقرآن فليس منا، إذن فعلى صحة الحديث، لا ربط له بمعنى الغناء.

حسن القراءة والغناء شيئان:

في حديث علامات اقتراب الساعة يقول (ص): «فعندها يكون أقوام يتعلمون القرآن لغير الله، ويتخذونه مزامير ويتغنون بالقرآن»(الوسائل ـ التجـارة ـ باب ٢٧).

ولا منافاة بين حرمة التغني بالقرآن وبين الأحاديث الواردة في استحباب تحسين قراءة القران[1]،ذلك أن مجرد تحسين الصوت وجره أو ترجيعه وترديده بنحو الصوت ليس غناءً كما بيّنّا.

الغناء في مجلس العرس:

عدد من الفقهاء أخرجوا الغنـاء في مجلس العرس عن مـوضوع حـرمة الغناء، بشروط ثلاثة:

الأول: عدم وجود رجل حتى لو كان من الأقرباء.

الثاني: عدم الكلام بالباطل.

الثالث: عدم استعمال آلات اللهو ووسائل الموسيقى.

واعتقد جمع من الفقهاء بجواز استعمـال الدف في مجلس الأعـراس، واشترط الشهيد والمحقق الثاني أن لا يكون فيه حلقة، لكن الأحوط تركهما، أي أنه يلزم ترك استعمال آلات اللهو، وترك الغناء في مجالس الأعراس حتى مع اجتماع الشرائط الثلاثة، كما قال به الشيخ الأنصاري- عليه الرحمة -في المكـاسب، والشهيد في كتـاب الدروس، والسيـد الأصفهاني في الـوسيلة والاحتياط طريق النجاة.

---

(١) مثـل رواية أبي بصيـر عن الإمام الصـادق (ع): «رجّع بـالقـرآن صـوتـك، فـإن الله يحب الصوت الحسن».

ومثـل مرسلة ابن أبي عميـر:«إن القرآن نـزل بالحـزن فأقـرأوه بحزن». المستنـد ـ كتاب الشهادات.

(١٧) الكذب

السابع عشر من الذنوب التي ورد التصريح بأنها كبيرة هو الكذب، يقول الشيخ الأنصاري في كتاب (المكاسب المحرمة): «الكذب حرام بضرورة العقول والأديان، ويدل عليه الأدلة الأربعة: القرآن، السنة، العقل، الإجماع».

ويستفاد من القرآن الكريم والروايات أنه من الذنوب الكبائر.

وقد ورد التصريح بأنه من الكبائر في رواية الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (ع)، وهكذا في رواية الأعمش عن الإمام الصادق (ع).

الكذب من أكبر الكبائر:

عن رسول الله (ص): «ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ إلاشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور». (وسائل الشيعة).

وروي عن الإمام العسكري (ع): «جعلت الخبائث كلها في بيت واحد وجعل مفتاحها الكذب». (المستدرك ـ كتاب الحج ـ باب ١٢٠).

لعن الملائكة:

قال رسول الله (ص): «إن المؤمن إذا كذب بغير عذر لعنه سبعون ألف ملك، وخرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش، وكتب الله عليه بتلك الكذبة زنية، أهونها كمن زنى بأمه» (المستدرك).

ولا شك أن الذنب الذي تبلغ عقوبته هذا الحد هو من الكبائر[1].

---

(١) يحتمل أن هذه العقوبة هي للذنب الذي يفوق ضرره ضرر الزنى ومفسدته، كما هو في بعض الأكاذيب التي تثير الفتنة، وتذهب بالأموال والأعراض بل تسيل الدماء، أو أن المراد الكذب على الله ورسوله (ص) والأئمة (ع)، وهو أشد مراتب الكذب. =

القرآن المجيد والكذب:

يقول تعالى في سورة النحل: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ**﴾ الآية ١٠٥.

وفي سورة الزمر: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾ الآية ٣.

ويستفاد من عدة آيات أن الكاذب يستحق اللعن والغضب الإلهي، ﴿**فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ**﴾.

﴿**أنَّ لعْنَة الله عَلَيهِ إن كَانَ من الكَاذِبينَ**﴾.

والآيات والأخبار الواردة في كبر ذنب الكذب وشدة عقوبته ومفسدته ومضرته كثيرة، والمرحوم الشيخ النوري عدد أربعين نقطة للاختصار وسهولة الحفظ كالتالي:

١ ـ الكذب فسق:

كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿**فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ**﴾ حيث عبر عن الكذب بالفسوق، وأيضاً في سورة الحجرات عبر عن الكاذب بالفاسق ﴿**إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾.

حيث عبرت الآية عن (الوليد) الكذّاب بأنه فاسق.

إذن يعلم من هاتين الآيتين أن الكذب فسق، وأن الكاذب فاسق.

٢ ـ الكذب قول الزور:

الكذب هو قول الزور، وقد ذكر في موضع واحد مع عبادة الأصنام كما يقول تعالى: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾ السورة ٢٢ الآية ٣٠.

= أو أن المراد هو اليمين الكاذبة أو الشهادة الكاذبة، كما يحتمل أن حديث (الكذب شر من الشراب) وأمثاله يشير إلى هذه المستويات من الأكاذيب.

٣ ـ الكاذب لا إيمان له:

كما ورد في الآية السابقة التي قالت: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾.

٤ ـ الكذب إثم ومعصية:

عرف الكذب في لسان الأخبار بأنه إثم ومعصية كما ورد عن الإمام الباقر (ع) أن الكذب كله إثم ومعصية (النص مترجم).

٥ ـ الكاذب ملعون

الكذب مورد لغضب الله كما تقدم في آية اللعان.

٦ ـ الكاذب وجهه أسود:

كما قال رسول الله (ص): «إياك والكذب فإنه يسود الوجه»[1]. (المستدرك).

---

(١) جاء في كتاب (حبيب السير) أن السلطان (حسين ميرزاي بايقرا) الذي كان ملكاً في خراسان وزابلستان أرسل الأمير (حسين أبي وردي) رسولاً إلى السلطان يعقوب ميرزا ملك آذر بايجان والعراق يومئذ، وأرسل معه هدايا كثيرة وعدة كتب منها كتاب (كليات جامي) الذي كان جديداً ومرغوباً في ذلك الوقت، إلا أن صاحب المكتبة أعطاه سهواً بدل كتاب (كليات جامي) كتاب (الفتوحات المكية)، ولم يتأكد الأمير حسين فأخذ الكتاب معه ودخل مع مجموع الهدايا على السلطان يعقوب،فأحسن السلطان استقباله وسؤال حاله وقال له: لقد عانيت الكثير لطول المسافة، فقال له الأمير حسين: كان معي في الطريق رفيق يؤنسني ويدفع الملل عني، وهو كتاب كليات جامي الذي أرسل لك هدية.

فأمر السلطان وهو في شدة الاشتياق للكتاب بالإتيان به، فأرسل الأمير حسين من يحضر الكتاب، فلما جاؤوا به إذا هو (الفتوحات المكية) وليس (كليات جامي) وافتضح الأمير حسين في كذبه حين قال بأني كنت مأنوساً بمطالعة الكتاب في الطريق.

فقال له السلطان: أما تستحي من مثل هذا الكذب؟

فخجل الأمير حسين ولم يحر جواباً، وخرج من البلاط خجلاً، وعاد بلا توقف إلى خراسان، ولم ينتظر جواب الرسالة من السلطان.

وقال عن ذلك: وددت حين افتضح أمري وانكشف كذبي،لو مت في مكاني ذلك ولم يكن ما كان.

٧ ـ الكذب شر من الشراب:

عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «إن الله جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب»[1] (الكافي).

٨ ـ عقوبة الكذب.

فم الكذاب يوم القيامة نتن.

٩ ـ فرار المَلَك:

في الحديث النبوي الشريف: «إن العبد إذا كذب تباعد عنه الملك من نتن ما جاء منه».

١٠ ـ الله تعالى يلعن الكاذب:

كما يستفاد من آيات المباهلة واللعان المتقدمة.

١١ ـ نتونة الكاذب تصل إلى العرش:

١٢ ـ حملة العرش (الملائكة المقربون) يلعنون الكاذب.

١٣ ـ «الكذب خراب الإيمان»:

كما في الحديث الشريف عن الإمام الباقر (ع).

١٤ ـ الكذب يمنع استذواق الإيمان:

عن الإمام أمير المؤمنين (ع): «لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب هزله وجده». (الكافي).

---

(١) رغم أن الشراب يسلب عقل الإنسان، وبالتالي يمكن أن يصدر منه مختلف الشرور، إلا أن الشرور التي تحصل نتيجة الكذب في كثير من الموارد هي أكثر منها، ولعل المراد بالأقفال في الحديث الشريف صفة الكمال والتعقل، والحياء والعفة والشرف والعزة، وطلب الكمال، والخوف من الله، وواضح أن تمام تلك الصفات تمس بالشارب وتظهر صفة الرذيلة والشهوة والغضب والشيطنة، وفي مثل هذا الحال لا يؤمن أن يصدر منه كل شر.

١٥ ـ الكذاب يمتلئ قلبه بالحقد والعداوة.

١٦ ـ مروءة الكذاب أقل من سائر الناس: كما في الحديث النبوي الشريف: «أقل الناس مروءة من كان كاذباً» (المستدرك).

١٧ ـ الكذب مفتاح بيت فيه كل الخبائث.

١٨ ـ الكذب فجور؛ والكاذب فاجر: كما ورد في الحديث عن رسول الله (ص): «إياكم والكذب فإنه من الفجور وهما في النار». (المستدرك).

١٩ ـ بسبب كذبة واحدة يلعنه سبعون ألف ملك.

٢٠ ـ الكذب علامة النفاق: كما ورد عن رسول الله (ص) أنه قال: «ثلاث خصال من علامات المنافق: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف». (المستدرك).

٢١ ـ لا يقبل رأي الكاذب: كما ورد عن رسول الله (ص): «لا رأي لكذوب». (المستدرك).

٢٢ ـ الكذب أقبح الأمراض النفسية: كما ورد عن علي (ع): «علة الكذب أقبح علة». (المستدرك).

٢٣ ـ الكذب لعوق الشيطان: كما روي عن رسول الله (ص): «إن لإبليس كحلاً ولعوقاً وسعوطاً، فكحله النعاس، ولعوقه الكذب، وسعوطه الكبر». (وسائل الشيعة).

٢٤ ـ «أربى الربا الكذب»: كما روي في الحديث النبوي الشريف.

٢٥ ـ الكذب عمل أهل النار:

جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: ما عمل أهل النار؟

فقال (ص): الكذب، إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار». (المستدرك).

٢٦ ـ يعدّ الكذب من الكبائر كما تقدم.

٢٧ ـ الكذب يجلب النسيان:

عن الإمـام الصادق (ع): «إن ممـا أعـان الله على الكـذابين النسيـان» (وسائل الشيعة).

فهو يكذب ثم ينسى ذلك،ويخبر بخبر منافٍ لما ذكره أولاً فيفتضح أمام الناس.

٢٨ ـ الكذب باب من أبواب النفاق.

٢٩ ـ عذاب خاص للكذابين:

يعذب الكذاب بعذاب خاص، كما ورد في كتاب (الدعوات) للراوندي في حديث طويـل عن رسول الله (ص)، بين فيـه ما رآه في المعـراج، ومن جملة ما قال)ص): «رأيت كأن رجلاً جاءني فقال: قم، فقمت معه، فإذا أنـا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس. بيد القائم كلّوب من حـديد يلقمـه في شدق الجالس، فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر، فيمده فإذا مده رجع الآخر كما كان.

فقلت للذي أقامني: ما هذا؟

فقـال: «هذا رجـل كذاب يعـذب في قبره إلى يـوم القيامـة» (المحجة البيضاء مجلده).

٣٠ ـ يحرم الكذاب من صلاة الليل:وبـالتالي يحـرم من بركـات هذه العبـادة العظيمـة، ومن جملة ذلك أن يحـرم من سعة الـرزق، كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (ع): «إن الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل، فإذا حرم صلاة الليل حرم بها الرزق» (بحار الأنوار).

٣١ ـ الكذب سبب الخذلان الإلهي: وسبب للحـرمـان من الهـدايـة الإلهية، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾

٣٢ ـ يسلب البهاء من الكذاب:قـال عيسى بن مريم:«من كثـر كذبـه

ذهب بهاؤه» بنحو ينفر عنه الناس.

٣٣ - الكذب أكبر الخبائث.

٣٤ - الكذب من الذنوب الكبيرة: كما ذكر في أول البحث.

٣٥ - الكذب بعيد عن الإيمان بل ضده: كما روي عن رسول الله (ص): «الكذب مجانب للإيمان» (المستدرك).

٣٦ - الكذاب من أكبر المذنبين: كما قال رسول الله (ص): «من أعظم الخطايا اللسان الكذوب» (المستدرك).

٣٧ - الكذب يهلك صاحبه: كما قال رسول الله (ص): «اجتنبوا الكذب، وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة» (المستدرك).

٣٨ - لا ينبغي مصادقة الكذاب: قال أمير المؤمنين (ع): «ينبغي للرجل المسلم أن يجتنب مؤاخاة الكذاب، إنه يكذب حتى يجيء بالصدق فلا يصدق». (وسائل الشيعة).

٣٩ - الله تعالى لا يهديه ولا يدله على طريق الحق:

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

٤٠ - الكذب سبب سلب صورة الإنسانية من الكذاب:

أي أن صورته البرزخية ليست على شكل إنسان، كما قال رسول الله (ص) للزهراء (ع) في حديث المعراج: «ورأيت امرأة رأسها رأس خنزير، وبدنها بدن الحمار، وعليها ألف ألف لون من العذاب... (وسبب ذلك) أنها كانت نمامة كذابة». (بحار الأنوار).

مراتب الكذب

رغم أن جمعاً من الفقهاء العظام كالشهيد الثاني عليه الرحمة، اعتبروا الكذب بشكل عام ومطلق من الذنوب الكبيرة، إلا أنه بعد مراجعة الروايات الواردة في المقام يعلم أن الكذب له عدة مراتب، بعضها من الكبائر **قطعاً**

وبعضها أكبر الكبائر، وبعضها مشكوك كونه من الكبائر، ولأجل مزيد الاطلاع نذكر مراتب الكذب:

١ ـ الكذب على الله والرسول والإمام:

إن أسوأ مراتب الكذب، الكذب على الله والرسول والإمام، قال تعالى: **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الكَذِبَ هذَا حَلَالٌ وَهذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**. السورة ١٦ الآيتان ١١٦ ـ ١١٧.

وقال الإمام الصادق (ع): «الكذب على الله وعلى رسوله من الكبائر» (الكافي).

وأيضاً عن الإمام الباقر (ع) أنه قال لأبي النعمان: «لا تكذب علينا كذبة فتسلب الحنيفية» (الكافي).

أي أن نور الإيمان يذهب من قلبك.

وهذا القسم من الكذب يبطل الصوم، إذا كان متعمداً فيه.

لا فرق في الكذب:

لا فرق في حرمة الكذب بين أن يكذب بلسانه أو بقلمه أو بالإشارة، وأيضاً لا فرق بين أن يبتدئ هو بالكذب ويخترعه، أو يكون قد وجده في كتاب.

الترجمة المخالفة كذب أيضاً:

معنى الكذب على الله ورسوله. أن ينسب لهما أمراً كذباً، سواءً كان في أمور الدين أو في أمور الدنيا، مثل أن يقول: إن الله تعالى أوحى إلى النبي الفلاني كذا، أو ينسب جملة إلى القرآن وهي ليست منه، أو يترجم آية على خلافها.

ليس عمل الجميع:

لذا يجب على أولئك الذين يرتقون المنبر أو منصة الخطابة أو يترجمون القرآن أن يعلموا أنهم في معرض خطر عظيم، ذلك أنه في ترجمة الآيات يلزم أولاً أن يقرأوا ويفهموا كاملاً القواعد العربية، وثانياً أن يمتلكوا قوة الفهم، وثالثاً: ـ أن يترجموا الآيات ذات الدلالة الواضحة، ويمتنعوا عن ترجمة المتشابهات.

من موارد الكذب على الله:

من جملة موارد الكذب على الله أن يكذب الإنسان ثم يشهد الله على ما يقول، أو يقول بأن الله أعلم بما أقول، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «من قال علم الله ما لا يعلم، اهتزله العرش إعظاماً لله عز وجل». (الكافي).

وفي حديث آخر أنه قال: «إذا قال العبد علم الله وكان كاذباً، قال الله تعالى: «أما وجدت أحداً تكذب عليه غيري». وسائل الشيعة ـ كتاب الأيمان ـ باب ٥).

وورد في بعض الروايات أن العبد إذا أشهد الله على أمر خلاف الواقع قال الله تعالى: ألم تجد من هو أضعف مني تشهده على ذلك» (معراج السعادة) ـ مترجم.

الكذب على الرسول والإمام:

أما الكذب على الرسول (ص) والإمام (ع) فهو أن يخترع حديثاً من عنده ثم ينسبه إليهما، أو يسمع حديثاً من شخص أو يراه في كتاب وهو يعلم بأنه كذب، ومع ذلك ينسبه إلى الإمام أو إلى الرسول (ص).

نعم إذا تيقن بصحة حديث من خلال القرائن الموجودة، فإنه يجوز له نقله ونسبته إلى المعصوم.

نقل الأخبار بالإسناد:

أما الأحاديث الموجودة في الكتب التي لا يعلم أنها صادقة أم كاذبة، أي لا يعلم أنها من قول الإمام (ع) أم لا، ففي صورة ما إذا لم تكن مخالفة لضرورة من ضرورات الدين والمذهب، وغير موجبة لهتك مقام الإمام (ع)، وليست غريبة بنحو يوجب هتك الأخبار، وذلك بأن تكون في صياغتها بنحو لا يأباها العقل السليم، في مثل هذه الصورة يجوز نقل تلك الأخبار مع إسنادها إلى الكتاب الذي وجدها فيه، بمعنى أن يقول: روي في الكتاب الفلاني عن الإمام (ع) كذا، والأحوط مع كل ذلك أن لا ينقل من كل كتاب، بل ينقل من الكتب التي يعتمد على مؤلفها، ويكون معروفاً بالتقوى والورع والوثاقة.

عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «ولا تحدث إلا عن ثقة فتكون كذاباً، والكذب ذل» (كشف المحجة).

وفي كتاب أمير المؤمنين (ع) للحارث الهمداني: «ولا تحدث الناس بكل ما سمعت فكفى بذلك ذلاً» (نهج البلاغة).

ومضافاً إلى ما ذكر فإنه يجب أن يعقل ما ورد بشكل دقيق ومطابق، من دون أن يضيف عليه كلمة، أو يحذف منه كلمة توجب نقض المعنى أو تغيره، وإلا فإنه يصبح مشمولاً للحديث الشريف المروي عن رسول الله (ص): «من قال عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار»[1] (وسائل الشيعة).

---

(١) في كتاب دار السلام للشيخ النوري:

جاء رجل في باختران إلى العالم الكامل السيد محمد علي (صاحب المقامع) وقال:

رأيت في المنام كأني أمضغ بأسناني لحم بدن سيد الشهداء (ع)، ما تعبير ذلك؟

لم يكن السيد يعرف ذلك الشخص، فأطرق برأسه متفكراً ثم قال:

لعلك تنعي الحسين (ع)؟

فقال: نعم

فقال له: إما أن تترك، أو تنقل من الكتب المعتبرة

وفي كتاب (شفاء الصدور) وغيره روي أن أحد الفضلاء المتدينين من أهل المنبر=

٢ ـ القسم والشهادة والكتمان:

من جملة موارد الكذب التي لا شك في أنها من الكبائر القَسَم الكاذب، والشهادة الكاذبة، وكتمان الشهادة، والتي سوف يأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ بيان تفصيل كل واحد منها لدى الحديث عن الكبائر المنصوصة.

٣ ـ الكذب الضار:

من جملة أقسام الكذب التي لا شك في أنها من الكبائر، وهو الكذب الذي فيه مضرة ومفسدة، وطبعاً كلما كانت مفسدته ومضرته أكبر كان إثمه وعقوبته أشد، وقد يكون الكذب أحياناً سبباً لتلف الأموال، وهتك الحرمة، وإسالة الدماء.

الكذب بدافع المزاح والهزل:

من جملة أقسام الكذب ما يكون بدافع الهزل والمزاح لغرض الترفيه والضحك وغيره، مثل أن يقال لشخص ساذج بسيط، إن فلان امرأة ترغب في الزواج منك، أو إن فلان شخص دعاك هذه الليلة لوليمة أو إن المال الفلاني أعطي لك حوالة، وأمثال ذلك.

ومقتضى الأخبار العامة التي تدل على حرمة مطلق الكذب هو حرمة هذا القسم من الكذب، وعدة من الفقهاء صرّحوا بحرمته، وفصل بعضهم بين المورد الذي توجد فيه قرينة على عدم الجدية، وبين المورد الذي لا توجد فيه قرينة على عدم الجدية، وبين المورد الذي لا توجد فيه قرينة، ففي الأول يجوز وفي الثاني يحرم.

ورغم أن هذا القول قوي جداً إلا أن طريق الاحتياط هو الامتناع عن هذا

= وبحضور الفقيه الزاهد الحاج محمد إبراهيم كلباسي ـ عليه الرحمة ـ في آخر قصة قول الإمام الحسين (يا زينب)، قال مرتين: يا زينب، يا زينب، فقال ذلك الفقيه بصوت مرتفع:

فض الله فاك، لم يقل الإمام يا زينب مرتين، بل مرة واحدة.

المزاح المتضمن للكذب، خصوصاً وأن الأخبار المستفيضة تفيد حرمة مطلق الكذب.

ينبغي التورع عن كل أنحاء الكذب:

عن الإمام السجاد (ع) أنه قال: «اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل» (الكافي).

وعن الإمام أمير المؤمنين (ع): «لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب جده وهزله». (الكافي).

وأيضاً عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: «لا يصلح الكذب جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا يفي له، إن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار» (وسائل الشيعة).

وعن أبي ذر في وصية النبي (ص) له: «يا أبا ذر، من ملك ما بين فخذيه وما بين لحييه دخل الجنة، إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس ليضحكهم بها فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض.

يا أبا ذر، ويل للذي يحدث ويكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له».

فقال أبو ذر: قلت يا رسول الله (ص) فما توبة الرجل الذي يكذب متعمداً؟

قال (ص): «الاستغفار والصلوات الخمس تغسل ذلك». (وسائل الشيعة ـ أحكام العشرة).

وعن النبي (ص) في بيان أشراط الساعة قوله: «ويكون الكذب عندهم ظرافة، فلعنة الله على الكاذب ولو كان مازحاً». (المستدرك ـ كتاب الجهاد).

وأيضاً قال (ص): «أنا زعيم بيت في أعلى الجنة، وبيت في وسط الجنة، وبيت في رياض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محقاً، ولمن ترك الكذب وإن كان هازلاً، ولمن حسن خلقه». (خصال الصدوق).

وما قلناه حول حرمة الكذب هازلاً إنما هو في صورة ما إذا لم يكن فيه جرح لفؤاد المؤمن، وإيذاء له، وإلا فلا شُكّ أنه من الذنوب الكبيرة حينئذ.

المبالغة في القول ليست كذباً:

المبالغة المتعارفة في المحاورات مثل أن يقول: مائة مرة قلت لك كذا أو ألف مرة رأيت منك العمل الفلاني، والحال أنه لم يتحقق مثل هذا. العدد، هذه المبالغة ليست كذباً.

وذلك لأنه من المعلوم أن العدد المذكور ليس مقصوداً بالبيان، إنما المقصود بالبيان هو الإشارة إلى كره وقوع ذلك الأمر، وأما العدد الخاص المذكور فهو من باب المبالغة وللتأكيد على الكثرة.

وهكذا أيضاً مختلف أنحاء المجازات والاستعارات والكنايات المستعملة خصوصاً في الشعر فإنه لا مانع منها.

لا يوجد في الكذب صغير وكبير:

أما ما هو متعارف بين الناس حين يقدم لأحدهم طعام فيقول لا أشتهي، مع أنه في الواقع يرغب فيه، فهو كذب واضح، وإن استسهله أكثر الناس بسبب الجهل، وبالجملة لا شك في أنه كذب تشمله أخبار ذم الكذب وحرمته.

تقول أسماء بنت عميس:

كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله (ص) ومعي نسوة، قالت: فوالله ما وجدنا عنده (ص) قوتاً إلا قدحاً من لبن، فشرب ثم ناوله عائشة فاستحيت الجارية.

فقلت: لا تردي يد رسول الله (ص) خذي منه، قالت: فأخذته على حياء فشربت منه، ثم قال(ص): ناولي صواحبك، فقلن: لا نشتهيه، فقال: لا تجمعن جوعاً وكذباً، قالت: فقلت يا رسول الله: إن قالت إحدانا لشيء لا نشتهيه أيعد ذلك كذباً؟

قال (ص): «إن الكذب ليكتب حتى الكذيبة كذيبة»(سفينة البحار ـ جزء ٢ ص٤٧٣).

أما الأكاذيب التي تقال في مقام التعارف مع الآخرين، مثل أن يكون لديه طعام فيقول لآخر: كل، من دون أن يكون لديه قصد جدي، بل لعله لا يرغب في أن يأكل ذلك الشخص من طعامه، أو يقول: تفضل لمنزلنا، والحال أنه لا يرغب في دخوله.

فهذه وأمثالها ليست أخباراً ليقال إنها كذب وحرام، بل هي من قبيل الإنشاء، لكن الأحوط ترك هذه التعارفات، حيث إن ظاهر الشخص وباطنه في مثل هذه الحالات مختلفان حقيقة، وهذا بنفسه مرتبة من النفاق.

الأحلام المفتعلة كذب أيضاً:

ومن جملة أقسام الكذب الأحلام المفتعلة، كأن يقول: رأيت في عالم المنام كذا وكذا، والحال أنه لم ير ذلك، أو ينسب رؤياً معينة إلى شخص والحال أنه لا وجود لها.

قال رسول الله (ص): «إن من أعظم الذنوب أن يدعى الرجل إلى غير أبيه، أو يري عينيه في المنام ما لم تريا، أو يقول عليّ ما لم أقل» (بحار الأنوار).

وأيضاً من جملة أقسام الكذب اصطناع قصص وحكايات جعلية، لا أساس لها ولا أصل.

روي عن رسول الله (ص): «شر الرواية رواية الكذب» (بحار الأنوار).

هل الأمثال كذب؟

الأمثلة التي تضرب لتفهيم الأمور العقلية من خلال الأمور الحسية، والحكايات التي توضع على ألسنة الحيوانات أو النباتات أو الجمادات، وذلك لأجل تفهيم القدرة والحكمة الإلهية، أو لأجل تعليم الأخلاق الفاضلة، وتوضيح فوائد الصفات الحسنة والأعمال الحسنة، أو الآثار السيئة لأخلاق الرذيلة والأعمال القبيحة، وذلك مثل مقالة حيوانات كتاب (إخوان الصفا) ومثل (كليلة ودمنة) التي ألفت لتهذيب الأخلاق، هذه جميعاً لا شك في جوازها وصحتها، بل إن أفضل كلمات الحكمة، وأقوى المواعظ أثراً هي على صيغة الحكايات، كما هو وجداني أن الموعظة والنصيحة من خلال القصة أقوى وأفضل تأثيراً.

وكثيراً ما روي عن أهل البيت (ع) نقلهم لحكاية أو مثل في مقام إثبات مطلب ما.

سب الإمام الحسن (ع) وضربه للمثل:

في المجلس المشؤوم الذي عقده معاوية للنيل من الإمام الحسن (ع) ووالده العظيم، كان الإمام الحسن (ع) هادئاً، وقد تجاسر عليه كل واحد من الحاضرين، وأجابهم عليه السلام واحداً واحداً، وكان من جملة ما قال في جوابهم، جوابه لعمرو بن عثمان حيث قال (ع):

«أما أنت يا عمرو بن عثمان فلم تكن حقيقاً لحمقك أن تتبع هذه الأمور، فإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة: استمسكي فإني أريد أن أنزل عنك، فقالت لها النخلة: ما شعرت بوقوعك فكيف يشق على نزولك». (بحار الأنوار).

الاستماع للكذب حرام أيضاً:

يجب أن يعلم كما أن الكذب حرام على الكاذب، فكذلك نقله للآخرين حرام أيضاً، وكذلك تدوينه وكتابته وقراءته والاستماع له حرام أيضاً، وفي أكثر من موضوع من القرآن الكريم يقول في ذم اليهود

والمنافقين: ﴿سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾. وروى الصدوق عن الإمام الصادق (ع):
«سئل عن القاص أيحل الاستماع لهم؟

فقال (ع): لا.

وقال (ع): من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس». (اعتقادات الصدوق).

وبهذا المضمون روي عن الإمام الباقر (ع).

ومن الدلائل على حرمة الاستماع للكذب الآية الشريفة: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾. وهكذا الآية ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾.

وقد ذكر في صدر البحث أن الزور فسر بالكذب.

ويدل على ذلك أيضاً ما دل على حرمة الجلوس في مجالس المعصية، وهكذا أدلة وجوب الإعراض والنهي عن المنكر، فإنها شاملة لذلك، إذ من الواضح جداً أن الكذب منكر ومعصية.

إذن فالمستمع إلى الكذب غير مجتنب لقول الزور، وحاضر في مجلس المعصية، وغير معرض عن المنكر.

ما هي التورية؟

التورية هي أن يقول كلاماً له معنيان؛ أحدهما صحيح ومطابق للواقع والمعنى الآخر كذب، والقائل يقصد المعنى الصحيح، إلا أن المخاطب يفهم المعنى الكاذب.

مثال ذلك: أن يأتي الظالم في طلبك إلى منزلك، وأنت من أجل الفرار منه ومن أجل أن لا يدلوه على مكانك،تقول لمن في المنزل مشيراً إلى مكان مخصوص: قل له لا يوجد هنا، أي في المحل الذي أشرت إليه، وهذا معنى صحيح وصادق، رغم أن الظالم يفهم من هذا الكلام أنك غير موجود في المنزل.

أو تجيب بجملة إنشائية، مثال ذلك: أن يتبع الظالم مظلوماً ويسألك أن ترشده على مكانه وأنت تعلم مكانه، فتقول له في مقام التخلص من جوابه: اطلبه في المسجد، أو راجع الشخص الفلاني.

ومثل أن يصدر منك ذنب ثم يسألك شخص هل صدر منك كذا ذنب؟ فتقول في جوابه: استغفر الله، أو أعوذ بـالله إذا ارتكبت مثل هذا الذنب.

ومثل ما لو ذكرت شخصاً بكلام غير لائق، وتريد أن ترفع انزعاجه وتأثره بإنكار ذلك الكلام فتقول: إن شخصيتك أكبر من أن أقول مثل هذا الكلام.

حكم التورية:

التورية على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

أن تكون فيها مصلحة أو دفع مفسدة، كالأمثلة التي ذكرت، ولا شك هنا في صحتها وجوازها كما سيذكر قريباً.

القسم الثاني:

أن تكون فيها مفسدة، كما لو كانت تلك التورية موجبة لفقـدان مال أو إهانة مسلم، أو سبباً لأذيته، ولا شك هنا في حرمتها.

القسم الثالث:

أن لا توجد فيها مصلحة كما لا تكون سبباً في مفسدة، وهنا قال بعض الفقهاء بأنها حرام، ذلك أن التورية في الحقيقة من أقسام الكذب، وتشملها أدلة حرمة الكذب، ولا مجوز لها.

وقال بعض آخر بأنها ليست حراماً، ذلك أن التوريـة خارجـة من أقسام الكذب حكماً وموضوعاً.

وحيث إن ذكر أدلة الطرفين والتحقيق في المسألة خارج عن طبيعة هذا

الكتاب لذا رأينا الإعراض عن ذلك، **وطريق الاحتياط هو الاقتصار في** التورية على الموارد التي سمح بها الشارع المقدس.

موارد جواز الكذب:

١ ـ دفع الضرر:

يجوز الكذب إذا تحقق به دفع ضرر على المال أو النفس أو العرض، سواءً كان ذلك الضرر متجهاً إليه أو إلى غيره، وإذا اقتضى الأمر أن يحلف فلا مانع من ذلك، بل في بعض الموارد، حيث يكون الضرر فاحشاً كالضرر على النفس، يصبح الكذب واجباً، كما لو أراد الظالم أن يقبض على مسلم ويقتله، أو يضربه ويهتك حرمته، أو يغصب ماله، أو يسجنه، وسألك عن محله، فلو أجبته ارتكبت حراماً، بل يجب عليك الإنكار، وإذا تطلب الأمر أقسم على أنك لا تعرف محله.

ومثل ما لو كان مال مسلم أمانة عندك وطلب الظالم ذلك المال، فإن الواجب عليك أن تنكر، وكما كان القسَم من أجل دفع شره واجباً فكذلك القسم هنا.

اليمين الكاذبة من أجل نجاة المسلم:

الروايات الواردة في هذا المقام كثيرة، منها ما نقله الشيخ الأنصاري ـ عليه الرحمة ـ في المكاسب:

عن الإمام الصادق (ع) عن أبيه (ع) عن علي (ع) قال: قال رسول الله (ص): «احلف بالله كاذباً ونجّ أخاك من القتل». (وسائل الشيعة).

وفي صحيحة إسماعيل بن سعد عن الإمام الرضا (ع):

قال: سألته عن رجل يخاف على ماله من السلطان فيحلف له لينجو به منه؟

قال (ع): لا بأس،

وسألته: هل يحلف الرجل على مال أخيه كما يحلف على مال نفسه؟

قال (ع): نعم» (وسائل الشيعة).

وعن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «فأما اليمين التي يؤجر عليها الرجل إذا حلف كاذباً لم تلزمه الكفارة، فهو أن يحلف الرجل في خلاص امرئ مسلم، أو خلاص ماله من متعد يتعدى عليه، من لص أو غيره» (من لا يحضره الفقيه).

ملاحظتان:

يجب أن نذكّر هنا بملاحظتين:

الأولى:

رغم أن الكذب جائز من أجل دفع الضرر مطلقاً، إلا أن الضرر إذا كان ماليّاً بحيث يمكن تحمله، فإن من المستحب حينئذ أن يتحمل ذلك الضرر ولا يكذب، كما ورد عن أمير المؤمنين (ع) قوله في علامة الإيمان: «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك» (نهج البلاغة).

الثانية:

والملاحظة الثانية هي أنه لما كان المشهور بين الفقهاء في هذا المورد هو وجوب التورية، فإن الأحوط هو أن يدفع الضرر بالتورية لا بالكذب.

٢ ـ إصلاح ذات البين:

والثاني من موارد جواز الكذب مورد الإصلاح، يعني متى ما كان بين اثنين من المسلمين نزاع وجدل وخصومة، وكان طريق الإصلاح بينهما منحصراً بالكذب، يصير الكذب بذلك جائزاً.

وهكذا إذا كان الكذب يصد عن وقوع حقد وعداوة بين مسلمين، كما لو كان بين الزوج وزوجته تباغض يمكن أن ينجر إلى الطلاق، فيقول مثلاً للزوج بأن زوجتك يصعب عليها فراقك، ولعلها لشدة علاقتها بك تصبح عليلة،

ويقول للزوجة مثل هذا المضمون، ويصد بهذا الكذب عن وقوع الفراق بينهما.

تبديل الكلام الشديد بالكلام اللطيف:

عن الإمام الصادق (ع): «الكلام ثلاثة: صدق وكذب وإصلاح بين الناس».

قيل له: جعلت فداك، وما الإصلاح بين الناس؟

قال (ع): «تسمع من الرجل كلاماً تبلغه فتخبث نفسه فتقول: سمعت فلاناً قال فيك من الخير كذا وكذا». (وسائل الشيعة).

وفي صحيحة معاوية بن عمار عن الإمام الصادق (ع): «المصلح ليس بكذاب».

وكلمة كذاب ـ وهي صيغة مبالغة ـ الظاهر أنها إشارة إلى أن المصلح مهما كذب في سبيل الإصلاح فإنه لا يعتبر كذاباً.

وفي وصية رسول الله (ص) إلى أمير المؤمنين (ع) قال: «يا علي إن الله تعالى أحب الكذب في الصلاح، وأبغض الصدق في الفساد». (وسائل الشيعة).

الإصلاح عبادة عظيمة:

روي عن رسول الله (ص): «ما عمل امرؤ عملاً بعد إقامة الفرائض خيراً من إصلاح بين الناس، يقول خيراً وينمي خيراً». (بحار الأنوار).

وفي وصية أمير المؤمنين (ع) للحسن والحسين (ع): «إني سمعت جدكما يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام». (نهج البلاغة).

ومما ذكر من جواز الكذب في سبيل الإصلاح، يصير معلوماً أهمية هذه

العبادة العظيمة ـ الإصلاح ـ ذلك أن الكذب مع حرمته وشدة عقوبته كما ذكر سابقاً يصبح هنا جائزاً بل مستحباً، بل واجباً في بعض الموارد،وسرّ المطلب أن السعادة الدنيوية والأخروية، والتمتع في الحياة المادية والمعنوية أمر يتوقف على الاجتماع واتحاد القلوب، فمتى ما كان مجموعة من الناس مع بعضهم روحاً واحدة وقلباً واحداً، ومتى ما رأى بعضهم أن نفع الآخرين هو نفعه وضررهم ضرره، يريد لهم كل ما أراد لنفسه، فإنه لا شك في أن حياتهم الدنيوية تضمن بأحسن وجه، كما أنهم يصلون إلى السعادة الباقية الأخروية، والكمالات المعنوية والروحية، ذلك أن اتحاد القلوب واتصالها في الله هو سبب لقوتها أمام الوساوس الشيطانية، بل توصد أحياناً منافذ الشيطان إلى قلوبهم كاملاً.

الماء القليل والكر ـ التأثير والتأثر:

مثل اتحاد القلوب واجتماعها عالم المعنى مثل اجتماع الماء القليل في مكان واحد، فالماء القليل ـ أقل من كر ـ يتأثر بملاقاة النجس ويتنجس، أما إذا جمعنا غدة مياه قليلة في وعاء كبير بحيث أصبحت بمقدار كر، فإنها ليس فقط سوف لا تتنجس بملاقاة النجس بل تكون من المطهرات، وأيضاً إذا كان واحد من تلك القلوب المتحدة موضعاً للرحمة والعناية الإلهية، فإن تلك الرحمة والعناية سوف تصل للجميع بحكم الاتحاد، كل هذا مضافاً إلى الآثار الوضعية للتوحد في مجال قوة شوكة الإسلام والمسلمين[1].

٣ ـ الكذب في الحرب:

ورد في بعض الروايات تجويز الكذب في مجال الحرب، فيما إذا كان سبباً في الغلبة على العدو.

(١) ومن هذا يتضح سبب الفضيلة الكبيرة لصلاة الجماعة، والثواب العظيم في المواساة والإيثار مع إخوة الإيمان، وهكذا زيارتهم ومصافحتهم وتقبيلهم، وكذلك ثواب إصلاح ذات البين في سبيل الله.

ذلك أن جميع هذه الأمور ونظائرها هي سبب في تقوية القلوب وتوحيدها.

٤ ـ وعد الأهل :

وورد أيضاً تجويز الكذب في مقام وعد الأهل، مثل أن تطالبه الزوجة بشيء ما فيعدها، في حين أنه لا يقصد الوفاء بوعده بعد ذلك.

التجويز مشكل:

لكن حيث إن أسانيد هذا القسم من الروايات ضعيفة فيشكل الحكم بجواز ذلك، إلا إذا كان مضطراً ومكرهاً.

كما في فرض أنها تزاحمه وتؤذيه لو لم يعطها وعداً، أو أن الأمر ينجر إلى الطلاق لا سمح الله.

الكذب في مقام الخوف والرجاء:

قال أمير المؤمنين (ع): «إياكم والكذب، فإن كل راج طالب، وكل خائف هارب». (الكافي).

أي: إياكم من الكذب في مقام رجاء ثواب الله والخوف من عذابه، ذلك أن كل من له رجاء بشيء يسعى في تحصيله، إذن فلازم رجاء الثواب الإلهي السعي في الأعمال الصالحة، وإن لم يكن فيكم ذلك فأنتم كذابون لا محالة، وهكذا من يخاف من شيء فإن اللازم عليه الفرار منه، فإن كنتم صادقين في خوفكم من عذاب الله فيجب عليكم الفرار من معصيته، التي هي السبب في الابتلاء بالعذاب، وبدون ذلك فأنتم كذابون.

وفي خطبة له (ع) في نهج البلاغة يقول فيها: «يدعي بزعمه أنه يرجو الله، كذب والعظيم، وما باله لا يتبين رجاؤه في عمله، وكل من رجا عرف رجاؤه في عمله، إلا رجاء الله فإنه مدخول، وكل خوف محقق إلا خوف الله فإنه معلول...».

ونظير الادعاء الكاذب للخوف والرجاء، سائر المقامات الدينية والروحانية مثل مقام الصبر والشكر، والرضا والتسليم، والتواضع والحلم، ونظائرها.

فمن يعتقد بنفسه أنه من أهل المقامات، ثم لا توجد آثارها فيه فهو كاذب.

يجب أن يتطابق القول والحال:

قال الإمام الصادق (ع): «إذا كبّرت فاستصغر ما بين العلى والثرى دون كبريائه، فإن الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد، وهو يكبّر وفي قلبه عارض عن حقيقة التكبير قال تعالى: «**يا كاذب أتخدعني؟ وعزتي وجلالي لأحرمنّك حلاوة ذكري...**» (مصباح الشريعة).

ويحدث أحياناً أن لسان الشخص يقول: الله أكبر، إلا أن لسان حاله وعمله وقلبه يقول الله أصغر (أعوذ بالله).

مثل ما لو قلت له اعمل كذا عمل خير في سبيل الله، أو اترك الشيء الفلاني في سبيل الله، لا يعتني بك، **أما إذا أعطيته مائة درهم أطاعك فوراً**، أو إذا خشي من ضرر يحل به فيما لو ترك ذلك الخير أو عمل ذلك الشر، أو خشي من أذى يصيبه من الشخص الفلاني، **أدى ذلك العمل أو ترك ذلك الشر فوراً**، أما إذا كان من أجل الله **فقط** لم يفعله.

الكذب في مقام إظهار العبودية:

ومن ذلك الكذب في جملة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ التي تعني نعبدك وحدك، ونستعين بك وحدك، وظاهر أن من يعبد الدرهم والدينار والبطن والفرج وسائر الشهوات، ويعتقد بأن الأسباب الظاهرية لها تأثير مستقل، فيرجو مساعدتها، ويعتمد عليها، مثل هذا الإنسان يكذب حين يقول ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾.

الكذب في الدعاء والمناجاة:

الكذب في الدعاء والمناجاة كثير، وكمثل على ذلك نذكر موردين: من

يقول في دعائه «رضيت بالله ربّاً» بمعنى أنني راضٍ ومأنوس بربوبيته تعالى، وأنا راضٍ بما فعله وما يفعله بي وسائر المخلوقات.

وعلى هذا فمن ليس لديه تسليم حقيقي بالقضاء والقدر، ويمتلئ قلبه غيظاً، ويدلع لسانه شكاية حين يقع أمر على خلاف رغبته، مثل هذا الإنسان كذبه ظاهر حين يقول «رضيت بالله ربّاً».

الكذب في الإقرار بالأئمة:

وهكذا في قول «وبمحمد نبياً وبالقرآن كتاباً وبعلي إماماً» ومعناه أنني راضٍ بنبوة محمد (ص)، وبإمامة علي (ع)، وبأن القرآن كتابي ودستور عملي، في حين أنه اتخذ من النفس والهوى والشيطان إماماً وقائداً له في العمل، دون أن يعتني بأحكام القرآن، ولا يعمل بها.

هل هو صادق؟

ومن يقول «إذا رأيتَ مولاي ذنوبي فزعت، وإذا رأيتُ كرمك طمعت» في حين أنه لا يفكر بذنبه أصلاً، أو لا يخاف إذا تذكره أحياناً ولا يتغير حاله، وهكذا ليس له رجاء بالكرم الإلهي، مثل هذا الإنسان ظاهر الكذب.

أو حين يقول: «أبكي لخروج نفسي» والحال أنه ليس لديه حال البكاء، فإن كذبه واضح.

ولعله إشارة إلى هذا القسم من الأكاذيب في الصلاة والدعاء والمناجاة يقول الإمام السجاد (ع) في دعاء أبي حمزة: «أو لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني».

الكذب مع الإمام:

وأما الكذب مع الإمام (ع) فمثل قوله في الزيارة: «آخذ بقولكم. عامل بأمركم، مطيع لكم» فمن لا يأخذ بأوامرهم (ع) ولا يعمل بها إذا عرفها، ويطيع نفسه وشيطانه، هو إنسان واضح الكذب. أو في قوله: «سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم» بينما هو يصادق أعداء الدين ويحبهم،

ومعـرض عن المؤمنين ومبغض لهم، أو في قولـه: «التارك للخـلاف عليكم» ولكنه ليس كذلك في مقام العمل.

إذن ماذا يفعل بالدعاء؟

لـو سأل سـائل: مـاذا يصنع ذلـك الإنسـان المبتلى بـالكـذب مـع الله ورسوله (ص) أو مع الإمام (ع) بالذكر والدعاء؟

إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى شـرح مفصل خـارج عن وضع هذا الكتاب،، لكن يجب أنيعلم -ولو مجملاً- أنالغرض من هذه الإلفـاتات المنع من مرض العجب والغرور والرضى بالنفس، حتى لا يطمئن الإنسـان بعمله، بل يجهد من خلال هذه التوجيهات في إصلاح عمله وتزكيـة نفسه، حتى يصل إلى درجات الصادقين ومقاماتهم، لا أن يصبح والعياذ بالله يائساً، ويتخلى عن العمل بحجة أنه ليس من أهل الصدق، فإنه لا شك في أن ذلك من الشيطان، يريد أن يحرمه من درجات القرب الإلهي، ذلك أنه لا أحد في البداية كامل الصـدق، إنما من خـلال السعي والجهد في تحصيـل الصدق يفيض عليه الفياض المطلق - الله تعالى - ويوصله إلى هدفه.

ومن أجل دفع اليأس من الدعاء نلفت النظر إلى ما يلي:

من لا يعرف هذه الكلمـات - المذكـورة في الدعـاء والزيـارة - فهو في راحـة، ذلك أن الكلمـات التي يتلوها بعنـوان أنها قـرآن مجيد، أو الأدعيـة الـواردة عن الأئمة عليهم السلام، ويقـرأهـا لمجـرد أنهـا واردة عنهم عليهم السلام، لا شك في أن نورانية تلك الكلمات المباركة تترك آثارها عليه ويصل إلى بعض درجات الثواب، وبالجملة لا تأتي شبهـة الكذب في حق أولئـك الذين لا يعرفون معنى هذه الكلمات.

لكل واحد مرتبة:

أما أولئك الذين يفهمون معاني هذه الكلمات، فيجب أن يعلموا أن هذه المعاني لها مـراتب كثيرة ودرجـات متفاوتـة، وأعلى تلك المراتب وأكملهـا

موجودة لدى المعصومين، وأكثر المؤمنين غير محروم من بعض تلك المراتب، ولذا فالأمل أن لا يكون هناك كذب في البين، مثال ذلك: أن كل المؤمنين لهم مرتبة من مراتب الخوف والرجاء، ذلك أنهما من لوازم الإيمان بالله(1).

لكن نتيجة عدم تزكية النفس وقوة الهوى والشهوة يبتلى الإنسان بالمعصية، والتسامح في إطاعة الأوامر الإلهية، كما جاء في دعاء أبي حمزة الثمالي: «إلهي،لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد، ولوعيدك متهاون،ولكن خطيئة عرضت وسولت لي نفسي وغلبني هواي . . .».

اليقين صادق وكاذب:

وبالجملة فإن الإيمان بالله، والخوف من عذابه لا يتنافى مع ارتكاب المعصية ـ أحياناً ـ نتيجة غلبة هوى النفس، كما أن أكثر الناس لديهم يقين بأن جسد الميت لا يفرق عن الجماد، فلا يستطيع أن يتحرك، ولا يصدر منه عمل، ولكن أثر غلبة القوة الواهمة على القوة العاقلة، لا يستطيع أن ينام مع الميت في غرفة مظلمة وفي ليل حالك.

ولذا نقرأ في الدعاء «ويقيناً صادقاً» أي إلهي هب لنا يقيناً وإيماناً نلتزم بلوازمه ونتأثر بآثاره، ولا شك أن له مرتبة من مراتب الخوف، وسأل ربه دائماً أن يهبه خوفاً صادقاً، أي خوفاً يمنعه عن ارتكاب أية معصية، ويريد أن يكون بمستوى «أخافك مخافة المؤمنين» لا شك أن الله تعالى سوف يفيض عليه ذلك، وهكذا بالنسبة إلى سائر الدرجات الدينية، ومقامات الطاعة والعبودية، كما ورد «من طلب شيئاً وجدَّ وجد».

نعم، الصدق المطلق، وفي جميع المقامات منحصر بالمعصوم (ع)، ولذ فإن المراد بالصادقين في الآية الشريفة ﴿وَكُونوا مَعَ الصَّادقينَ﴾ هم هم أهل بيت العصمة والطهارة.

---

(1) ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ السورة ٣ الآية ١٧٥.

(١٨) اليمين الكاذبة

الثامن عشر من الذنوب الكبيرة التي ورد التصريح في الروايات السابقة بأنها من الكبائر هو (اليمين الغموس)، بأن يخبر عن الماضي أو الحاضر بخبر كاذب، ولتأكيد ذلك الخبر أو إثباته يقسم بالله تعالى بأن يقول مثلاً: «والله فعلت في اليوم الفلاني كذا» في حين أنه لم يفعل ذلك، أو يقول:«أقسم بالله أن الشيء الفلاني هو ملكي» في حين أنه يعلم بأنه ليس له.

وهذا القسم من اليمين عبر عنه في الروايات بـ (اليمين الغموس) يعني أنه يغمس صاحبه في المعصية أو في جهنم، وهكذا يعبر عنه بـ (اليمين الكاذبة) و (اليمين الحالقة)، يعني كما أن الموسى تحلق الشعر من البدن، فهكذا هذا النوع من اليمين، فإنه يذهب الدين من صاحبه.

في صحيحة عبد العظيم المتقدمة عدّت اليمين الكاذبة من الذنوب الكبيرة، وفي رواية الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (ع) جاء التصريح باعتبارها من الكبائر،وهكذا في رواية تحف العقول عن الإمام الصادق (ع) حيث ذكر: ذكرته في عداد الكبائر، وصرحت بأن اليمين الكاذبة تفسد الإيمان.

الوعيد بالعذاب في القرآن:

الإمام الصادق (ع) يستشهد على أن اليمين الكاذبة من الكبائر بقوله تعالى في القرآن المجيد: الآية ٧٧ من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

مقالة رسول الله (ص):

«اختصم امرؤ القيس ورجل من حضر موت إلى رسول الله (ص) في

أرض، فقال (ص): ألك بينة؟

قال: لا

قال (ص): فبيمينه؟

قال: إذن والله يذهب بأرضي.

فقال (ص): إن ذهب بأرضك بيمنيه كان ممن لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم.

قال: «ففزع الرجل وردّها إليه». (أمالي الشيخ الطوسي).

وقال الإمام الصادق (ع): «من حلف على يمين وهو يعلم أنه كاذب فقد بارز الله تعالى». (الكافي ـ كتاب الأيمان).

وعن الإمام الباقر (ع) أنه قال: قال رسول الله (ص):

«إياكم واليمين الفاجرة فإنها تدع الديار من أهلها بلاقع». (الكافي ـ كتاب الأيمان).

وفي روايات أخرى: «إن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم تذران الديار بلاقع من أهلها، وتنغل في الرحم». يعني انقطاع النسل. (الكافي).

الآثار السيئة لليمين الكاذبة:

عن الإمام الصادق (ع): «اليمين الغموس ينتظر بها أربعين ليلة». (الكافي ـ كتاب الأيمان).

وأيضاً قال: «اليمين الغموس التي توجب النار: الرجل يحلف على حق امرئ مسلم على حبس ماله». (الكافي ـ كتاب الأيمان).

«إذا قال العبد: علم الله، وكان كاذباً، قال الله عز وجل: أما وجدت أحداً تكذب عليه غيري»؟ (الكافي ـ كتاب الأيمان).

وقال (ع): «من قال: الله يعلم ما لا يعلم، اهتز لذلك عرشه إعظاماً له». (الكافي).

أقسام اليمين: اليمين إما من أجل الإثبات والتأكيد، أو من أجل الالتزام بأمر في المستقبل.

أما اليمين من أجل إثبات وتأكيدمطلب أو خبر فإنها على أربعة أقسام: واجب، ومستحب، ومكروه، وحرام.

القسم الواجب: فيما إذا توقف حفظ النفس أو الكرامة له أو لمسلم غيره، وهكذا حفظ المال الذي يجب حفظه على القسم، أصبح القسم هنا واجباً، حتى لو كان كذباً، نعم، إذا كانت التورية ممكنة فالأحوط له عدم تركها، كما مضى في بحث الكذب.

القسم المستحب: فيما إذا توقف حفظ ماله أو مال غيره من المسلمين وإنقاذه من شر الظالم على القسم، ففي صورة ما إذا لم يكن المال واجب الحفظ، ولم يكن قليلاً جداً (أقل من ثلاثين درهماً) فإن القسم هنا مستحب.

في رواية أن زرارة قال للإمام الباقر (ع): «إنّا نمر بالمال على العشّارين فيطلبون منّا أن نحلف لهم، ويخلون سبيلنا ولا يرضون منا إلا بذلك، فقال:

«احلف لهم فهو أحلى من التمر والزبد». (وسائل الشيعة ـ كتاب الأيمان).

أما إذا كان المال قليلاً، خصوصاً إذا كان أقل من ثلاثين درهماً، فإن ترك القسم مستحب، كما روي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «قال رسول الله (ص): من أجلّ الله أن يحلف به أعطاه الله خيراً مما ذهب منه». (الكافي ـ كتاب الأيمان).

وقال أيضاً: «إذا ادعى عليك مالاً ولم يكن له عليك، فأراد أن يحلّفك، فإن بلغ مقدار ثلاثين درهماً فأعطه ولا تحلف، وإن كان أكثر من ذلك فاحلف

ولا تعطه». (الكافي).

وقال رسول الله (ص): «من قدم غريماً إلى السلطان يستحلفه وهو يعلم أنه يحلف، ثم تركه تعظيماً لله تعالى لم يرض الله تعالى له بمنزلة يوم القيامة إلا منزلة إبراهيم خليل الرحمن». (وسائل الشيعة).

الإمام السجاد لا يقسم:

جاء في كتاب (الكافي) عن الإمام الباقر (ع): أن أباه ـ الإمام السجاد (ع) ـ كانت عنده امرأة من الخوارج، فقال له مولى له، يا بن رسول الله، إن عندك امرأة تبرأ من جدك، فقضى لأبي أنه طلقها، فادعت عليه صداقها، فجاءت به إلى أمير المدينة تستعديه، فقال له أمير المدينة: يا علي، إما أن تحلف وإما أن تعطيها (حقها) فقال لي: قم يا بني فأعطها أربعمائة دينار، فقلت له: يا أبه جعلت فداك، ألست محقاً؟ قال: بلى يا بني، ولكني أجللت الله أن أحلف به يمين صبر».

تأكيد المطالب الحقة:

ويجوز بل يستحب القسم من أجل إثبات وتأكيد مطلب حقّاني ومهم، أو من أجل بيان عظمته وأهميته مثل قول رسول الله (ص): «فوالله لا يمل الله حتى تملوا». (المسالك ـ كتاب الأيمان).

أو مثل كلام أمير المؤمنين (ع): «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». (المسالك ـ كتاب الإيمان).

والقسم الوارد في القرآن الكريم وكلمات الأئمة عليهم السلام إنما هو من هذه الجهة.

كتب رجل إلى الإمام الباقر (ع)، وسأله عن أمر كان قد نسب إليه عليه السلام ،فكتب إليه في الجواب: «والله ما كان ذلك وإني لأكره أن أقول والله على حال من الأحوال، ولكنه غمّني أن يقال ما لم يكن». (مستدرك الوسائل).

القسم المكروه:

القسم الصادق في غير موارد الوجوب والاستحباب التي سبق شرحها مكروه بنحو عام، سواء أكان يتعلق بالماضي أو الحاضر أو المستقبل، كأن يقول: «سيكون غداً كذا» أو (أقسم بالله حدث بالأمس كذا» أو «سيحدث اليوم كذا»، فإنه وإن كان صادقاً إلا أنه مكروه، أما إذا كان كذباً فإنه حرام قطعاً كما تقدم.

يقول الإمام الصادق (ع): «لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين، فإنه عز وجل يقول: ﴿**وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ**﴾. (الكافي ـ كتاب الأيمان).

وقال أيضاً: «من حلف بالله كاذباً كفر، ومن حلف بالله صادقاً أثم، إن الله عز وجل يقول: ﴿**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم**﴾. (الكافي ـ كتاب الأيمان).

توجيه السيد المسيح:

«اجتمع الحواريون إلى عيسى (ع) فقالوا: يا معلم الخير أرشدنا.

فقال (ع): «إن موسى (ع) نبي الله أمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين، وأنا آمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين». (الكافي ـ كتاب الأيمان).

القسم بسائر المقدسات:

في الموارد التي يجوز فيها الحلف بالله تعالى يجوز أيضاً الحلف بسائر المقدسات الدينية، مثل الحلف بحرمة القرآن المجيد أو الرسول (ص) أو الأئمة عليهم السلام أو الكعبة المشرفة، وهكذا ما هو متداول بين الناس من القسم بما هو عزيز عندهم، كأن يقسم أحدهم بروح الآخر، أو بروح الأب والابن وما شاكل ذلك.

وما ورد من الأخبار في المنع من القسم بغير اسم الله تعالى إنما هو في مورد إثبات الحق، وهو أمر ينحصر بالحلف باسم الله، ولا يصح بغيره، ولا

تقطع به الخصومة، ولا تنحل به الدعوى، وهكذا القسم على فعل يريد فعله أو تركه في المستقبل، فإنه منحصر باسم الله ولا أثر له إذا كان بغيره.

القسم المحرم دائماً:

والقسم الذي يحرم دائماً وفي جميع الموارد هو أن يحلف بالبراءة من الله ومن دين الإسلام، مثل أن يقول «أبرأ من الله أو من دين الإسلام إن كنت فعلت كذا أو أفعل كذا». وفي حكم ذلك ما لو قال «أكفر برسول الله (ص) أو أخرج من ولاية علي (ع) إن لم أفعل كذا، أو إن لم أكن قد فعلت كذا» أو «أصير نصرانياً أو يهودياً أو أموت مشركاً وكافراً إن حدث كذا وكذا».

هذا القسم على العموم لغو وباطل وحرام قطعاً، سواءً أكان في مقام الخصومة وإثبات الحق، أو في مقام التعهد والالتزام بأمرآتٍ، أو بصدد الإخبار عن الماضي، وسواء أكان صدقاً أم كذباً.

عن النبي (ص) أنه سمع رجلاً يقول: أنا بريء من دين محمد (ص)، فقال رسول الله (ص): ويلك، إذا برئت من دين محمد (ص) فعلى دين من تكون؟ قال: فما كلمه رسول الله (ص) حتى مات. (الكافي - كتاب الأيمان).

وعن يونس بن ظبيان عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «يا يونس، لا تحلف بالبراءة منّا فإن من حلف بالبراءة منّا صادقاً أو كاذباً برئ منّا». (الكافي - كتاب الأيمان).

كفارة اليمين الحرام:

ذكر جمع من الفقهاء أن كفارة اليمين بالبراءة هي كفارة الظهار، وذكر بعض آخر بأنها كفارة النذر (وهي كفارة إفطار يوم من أيام شهر رمضان المبارك». (شرائع الإسلام).

إلا أن الشيخ المفيد يرى: أنه إذا حنث باليمين بالبراءة، يعني أقسم

بالبراءة ثم لم يعمل طبقاً لقسمه، فإنه يجب عليه حينئذ إطعام عشرة مساكين، ويجب عليه التوبة.

كتب محمد بن الحسن الصفار إلى أبي محمد العسكري (ع):

«رجل حلف بالبراءة من الله ورسوله فحنث، فما توبته وكفارته»؟

فوقّع عليه السلام: «يطعم عشرة مساكين، لكل مسكين مد، ويستغفر الله». (المسالك).

وحيث إن سند هذه الرواية صحيح فيجب أن لا يترك الاحتياط، .

الإمام الصادق (ع) والمنصور الدوانيقي:

ورد أن المنصور الدوانيقي بعد أن وشوا عنده بالإمام الصادق (ع)، وأنه يجمع المال والسلاح، أمر بإحضار الإمام (ع) فأحضر عنده، فلما بصر به المنصور قال: قتلني الله إن لم أقتلك، أتلحد في سلطاني وتبغيني الغوائل؟

فقال له أبو عبد الله (ع): والله ما فعلت ولا أردت، وإن كان بلغك فمن كاذب. فقال له المنصور: إن فلاناً ابن فلان أخبرني عنك بما ذكرت، فقال: أحضره يا أمير المؤمنين، فأحضر الرجل المذكور فقال له المنصور: أنت سمعت ما حكيت عن جعفر، فقال: نعم، فقال له أبو عبد الله (ع): فاستحلفه علَى ذلك، فقال له المنصور: أتحلف؟ قال: نعم، وابتدأ باليمين.

فقال له أبو عبد الله (ع): دعني يا أمير المؤمنين أحلفه أنا، فقال له افعل، فقال أبو عبد الله (ع) للساعي: قل برئت من حول الله وقوته، والتجأت الى حولي وقوتي، لقد فعل كذا وكذا جعفر، وقال كذا وكذا جعفر، فامتنع منها هنيهة ثم حلف بها، فما برح حتى ضرب برجله، فقال أبو جعفر: جرّوا برجله، فأخرجوه» (الإرشاد).

ألا ينافي ذلك الحرمة:

قد يتصور هنا من هذه الرواية أن القسم بالبراءة صحيح لا مانع منه،

والحال أن الأمر ليس كذلك، وقد أجاب المحقق القمي ـ عليه الرحمة ـ عن هذا الإشكال بالقول:

إن سند هذه الرواية ضعيف أولاً، وثانياً: يحتمل أن الجواز في هذا المورد خاص بالإمام، حيث إنه يعلم أن الحالف ليس من أهل الإيمان، واقتضت الضرورة تحليفه بالبراءة.

ويمكن أن يكون مقصود المحقق من الضرورة أن الإمام (ع) رأى أن ذلك الخبيث يستحق الهلاك لو حلف بالبراءة، لكي لا يهان مقام الإمامة.

كما أن القسم إن لم يتضح كذبه فإن المنصور سوف يقتل الإمام، بل سيكون ذلك سبباً لقتل العديد من السادات والمؤمنين، وأهم من كل ذلك مقام الإمامة.

التوبة من اليمين الكاذبة:

فيما إذا حلف كذباً على أمر ماض أو حال حاضر فإن توبته:

أولاً: في الندم على مقالته، وأن يعلم بأنه قد ارتكب ذنباً كبيراً حيث استهان برب العالمين، وتلاعب باسمه المبارك، وكلما كان ندمه أكبر كان الذنب بعينه أكبر، وكان استغفاره أكثر، وسيكون أقرب إلى الرحمة الإلهية.

ثانياً: إذا كان بواسطة هذه اليمين الكاذبة قد ضيع حق مسلم من ناحية ماله، أو من ناحية كرامته وحرمته، فإن عليه أن يتدارك ذلك، أي يرجع الحق إلى صاحبه.

اليمين على الالتزام في المستقبل:

إذا حلف من أجل القيام بعمل أو من أجل ترك عمل في المستقبل، فإن يمينه تقع صحيحه وتحرم مخالفته، وتجب الكفارة على الحنث بها، وذلك بالشروط التالية:

١ ـ أن يتعلق القسم بفعل واجب (ومثاله أن يقسم على أداء صلاة الصبح)، أو

مستحب (ومثاله أن يقسم على أداء صلاة الجماعة أو نافلة الليل)، أو ترك حرام (ومثاله أن يقسم على أن لا يكذب)، أو ترك مكروه (ومثاله أن يقسم على أن لا يبصق في المسجد)، أو يتعلق القسم بفعل مباح فيه غرض عقلائي دنيوي (ومثاله أن يقسم على ترك التدخين).

٢ ـ في كل واحدة من تلك الصور الخمس، إذا كانت اليمين باسم الله تعالى فإن مخالفتها توجب دفع الكفارة، مضافاً إلى الندم والاستغفار، كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾. وهو ما لا يكون الغرض منه المعاهدة والالتزام، وإنما يجري القسم على لسانه من باب العادة أو بسبب آخر، كما في قول القائل بلى والله، ولا والله، الذي يشيع بين المتعاطين، فإن مثل هذه الأيمان لا مؤاخذة عليها، ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾، أي هناك مؤاخذة على اليمين إذا كانت بقصد التعهد والالتزام بعمل أو ترك، مثل أن يقول والله سأفعل كذا، أو والله سأترك العمل السيئ الفلاني، فإن مخالفة هذه اليمين يؤاخذ عليها.

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ، أَوْ كِسْوَتُهُمْ، أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. السورة ٥ الآية ٨٩.

بطلان القسم في أمر مرجوح:

ظهر مما تقدم أن حرمة مخالفة القسم ووجوب الكفارة فيها إنما هو في صورة ما إذا تعلق القسم بأمر فيه رجحان شرعي أو عقلي، أي كان أداء العمل أو تركه ـ إذا تعلق القسم بالترك ـ أفضل بنظر الشرع أو بنظر العرف، وفي غير هذه الصورة فإن القسم لغو باطل، ولا كفارة في مخالفته، مثال ذلك لو حلف على ترك عمل واجب أو مستحب شرعاً، أو كانت فيه منفعة بنظر العقلاء، أو حلف على الإتيان بعمل حرام أو مكروه شرعاً، أو يتعلق بتركه غرضاً

عقلانياً، فإن مثل هذا القسم لغو، ولا يلزمه ترتيب الأثر عليه، بل لا ينبغي أن يترك الواجب والمستحب، ويأتي بالحرام والمكروه من أجل يمين لا فائدة فيها.

بناءً على ذلك، لو حلف على أن لا يذهب للحج في هذا العام مع وجود الاستطاعة، أو أن لا ينفق على عياله، أو لا يتكلم مع أمه، أو لا يزور رحمه، أو لا يصلح بين اثنين، أو لا يأكل طعام فلان مسلم ولا يتعامل معه، وأمثال ذلك، فإن الجميع لغو، بل يجب أن يستغفر من مثل هذه الأيمان.

قال الإمام الصادق (ع): «لا تجوز يمين في تحليل حرام، ولا تحريم حلال، ولا قطيعة رحم». (الكافي).

إذن لا يستطيع الإنسان أن يحرم على نفسه الأعمال الواجبة والمستحبة، بل حتى المباحات التي فيها منافع دنيوية، أما المباحات التي لا نفع فيها أصلاً، وليست مورداً لغرض العقلاء، فرغم أن الحديث المتقدم وأحاديث أخرى غيره تقتضي أن القسم على تركها لغو، إلا أنه حيث كان المشهور بين الفقهاء هو صحة القسم وانعقاده في هذه الموارد، ووجوب الكفارة في صورة المخالفة، من هنا فإن مراعاة الاحتياط ـ مهما أمكن ـ أولى.

وأيضاً قال (ع): «إذا حلف الرجل على شيء، والذي حلف عليه إتيانه خير من تركه، فليأت الذي هو خير ولا كفارة عليه، وإنما ذلك من خطوات الشيطان». (الكافي).

يروي سعيد الأعرج أنه سأل الإمام الصادق (ع) عن رجل أقسم على عمل يعلم أن تركه أفضل من فعله، ويخاف من مخالفة قسمه، قال (ع): «أما سمعت قول رسول الله (ص): إذا رأيت خيراً من يمينك فدعها». (الكافي).

أقسام اليمين:

عن الإمام الصادق (ع) «الأيمان ثلاثة: يمين ليس فيها كفارة، ويمين

فيها كفارة، ويمين غموس توجب النار، فاليمين التي ليس فيها كفارة: الرجل يحلف بالله على باب بر أن لا يفعله فكفارتـه أن يفعله، واليمين التي تجب فيها الكفارة: الرجل يحلف على باب معصية أن لا يفعله فيفعله فتجب عليه الكفارة، واليمين الغموس التي توجب النار: الرجل يحلف على حق امرئ مسلم على حبس ماله». (فروع الكافي).

ولما كان بيان جميع أحكام اليمين، وسائر فروع الكفـارات أمراً يـطول ذكره، ويخرجنا عن وضع الكتاب، لذا فمن كانت هذه المسألة مورد ابتلائه، عليه مراجعة الكتب الفقهية.

* * *

التاسع عشر من الذنوب الكبيرة التي ورد التصريح بها الشهادة بشيء على خلاف الواقع، كما في صحيحة السيد عبد العظيم عن الإمام الجواد (ع)، وفي رواية الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (ع)، وهكذا في رواية الأعمش عن الإمام الصادق (ع) حيث ورد التصريح بأنها من الكبائر، وقد تقدم في بحث الكذب أن الكذب من الذنوب الكبيرة، ومن موارد الكذب التي يقطع بأنها كبيرة هي الشهادة الكاذبة.

في صحيحة السيد عبد العظيم عنه (ع) استشهد الإمام (ع) على أن الشهادة الكاذبة من الكبائر بالآية ٧٢ من سورة الفرقان وهي قوله: ﴿**وَالَّذِينَ لَايَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾، والتزوير هو إظهار الباطل بمظهر الحق.

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾ الحج ـ الآية ٣٠.

وقال رسول الله (ص): «عدلت شهادة الزور الشرك بالله، قالها ثلاثاً، ثم قرأ هذه الآية ﴿**فاجتنبوا الرجس من الأوثان...**﴾ (تفسير أبو الفتوح الرازي).

وفي المستدرك عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «ليؤد الشاهد ما يشهد عليه، وليتق الله، فمن الزور أن يشهد الرجل بما لا يعلم أو ينكر ما يعلم، وقد قال الله عز وجل: ﴿**وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ**﴾، فعدل تبارك اسمه شهادة الزور بالشرك». (المستدرك).

لا منافاة في الروايات:

لا منافاة بين الروايات التي فسرت قول الزور بالشهادة الكاذبة، وبين

الروايات التي تقدم ذكرها في باب الغناء والكـذب، والتي فسرت قول الزور بالغناء والكذب، ذلك أنها واردة في مقام بيان المصداق لقول الزور، حيث إن الظاهر من معنى قول الزور قول الباطل والكلام غيـر الصحيح، وهـو ذو أقسـام، بعضهـا من الـذنـوب الكبيـرة وبعضهـا من الصغـائـر وبعضهـا من المكروهات، وتعيينها لا يعلم إلّا من الإمام عليه السلام.

ومن هذه الروايات يتضح أن الغناء والكذب والشهادة بالباطل من القسم الأول من قول الزور، أي من الذنوب الكبيرة، وبالجملة فإنه بعد التصريـح في الروايات المـذكورة بأن الشهادة الكاذبة من الـذنوب الكبيرة، لا شك في أنها من الكبائر، ومن أجل التوضيح أكثر، وبيان آثارها السيئة وعقابها، نذكر بعض الروايات:

الوعيد بالنار على الشهادة:

١ ـ عن الإمام الباقر (ع): «ما من رجـل يشهد بشهـادة زور على مال رجـل مسلم ليقطعه، إلا كتب الله له مكانه صكاً إلى النار» (الكافي).

٢ ـ عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «شاهد الزور لا تزول قدماه حتى تجب له النار» (الكافي).

٣ ـ وقال رسول الله (ص): «لا ينقضي كـلام شاهـد الزور من يـدي الحاكم حتى يتبوأ مقعده من النار». (الكافي).

٤ ـ وفي حديث آخر قال (ص): «من شهد شهادة زور على أحد من الناس، علّق بلسانه مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ومن حبس من أخيه المسلم شيئاً من حقه، حرم الله عليه بركة الرزق، إلا أن يتوب». (وسائل الشيعة).

٥ ـ عن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من كتم شهادة أو شهد بها ليهدر بها دم امرئ مسلم، أو ليزوي بها مـال امرئ مسلم أتى يـوم

القيامة ولوجهه ظلمة مد البصر، وفي وجهه كدوح تعرفه الخلائق باسمه ونسبه. . . » (وسائل الشيعة).

٦ ـ وقال (ص): «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟

قلنا: بلى يا رسول الله،

قال (ص): الإشراك بالله تعالى، وعقوق الوالدين، وكان (ص) متكئاً فجلس ثم قال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت». [١].

الشهادة يجب أن تكون عن علم:

لا فرق في اعتبار الشهادة الكاذبة من الكبائر بين أن يكون الشاهد عالماً بكذبه أو غير عالم، أي يشهد على أمر لا يعلم أنه صحيح أو غير صحيح، وسنذكر ـ إن شاء الله ـ مفصلاً في بحث كتمان الشهادة أن الشخص ما لم يتيقن لا يستطيع أن يشهد.

يقول الإمام الصادق (ع): «لا تشهد بشهادة حتى تعرفها كما تعرف كفك» (وسائل الشيعة).

وقال النبي (ص) لمن سأله عن الشهادة: ترى الشمس؟

قال: نعم

فقال (ص): «على مثلها فاشهد أو دع». (وسائل الشيعة).

---

(١) وإنما عدّ رسول الله (ص) شهادة الزور أكبر الكبائر لأن الشاهد بغير الحق يرتكب عدة ذنوب كبيرة: أحدها الكذب، والآخر البهتان، وثالثها الظلم للمظلوم الذي يكون ماله أو عرضه معرضاً للخطر نتيجة الشهادة عليه، وأيضاً الظلم للظالم الذي كانت الشهادة بنفعه، حيث إنه سوف يتلوث بالتجاوز على مال المظلوم أو نفسه أو عرضه، ورابعها: تحليل الحرام، إذ أن التصرف والتجاوز على مال الغير ونفسه وعرضه حرمه الله تعالى، بينما قد حلله هذا الشاهد.

وعن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «ليؤد الشاهد ما يشهد عليه، وليتق الله ربه، فمن الزور أن يشهد الرجل بما لا يعلم، أو ينكر ما يعلم، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾. فعدل تبارك اسمه شهادة الزور بالشرك». (المستدرك).

الشاهد بكذب يجب فضحه:

إذا ثبت - بغير الإقرار والبينة، وهي شهادة عادلين - أن الشاهد كاذب في شهادته، بأن ثبت لحاكم الشرع يقيناً أن الشاهد قد زور، فالحكم الذي حكم به على أساس تلك الشهادة يكون باطلاً، كما أن الضرر الذي ترتب على من شهد عليه يجب عليه أن يغرمه، كما أن حاكم الشرع يقوم بتعزيره وتأديبه بمقدار ما يراه صلاحاً من الجلد، ويشهر به في المدن وأطرافها، ليعرف بأنه شاهد زور، فلا يغتر أحد بشهادته ولا يعتني له، ويكون هذا التأديب والتشهير سبباً لخوف الناس من الفضيحة إذا هم شهدوا شهادة زور، وبذلك يسلم المجتمع من الانهيار.

ولا فرق في لزوم التعزير والتشهير بين أن يكشف أمره وكذبه قبل حكم الحاكم أو بعده.

في جميع الأحوال لا تقبل شهادته:

عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «إن شهود الزور يجلدون جلداً ليس له وقت، ذلك إلى الإمام، ويطاف بهم حتى يعرفهم الناس، وتلا قوله تعالى: **﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهم شَهَادَةً أبداً وأولئك هُمُ الفَاسِقُونَ إلَّا الَّذينَ تَابُوا﴾**.

قلت: بم تعرف توبته؟

قال: يكذب نفسه على رؤوس الأشهاد، حيث يضرب ويستغفر ربه، فإذا فعل فثم ظهرت توبته». (وسائل الشيعة).

يجب أن يدفع الغرامة:

إذا تضـرر المشهود عليـه بسبب الشهادة ضـرراً في مالـه أو في حرمتـه وكرامته أو في روحه، فيجب أن يطالب شاهد الـزور بالغرامة والقصـاص، فقد روي عن الإمام الصادق (ع) في شاهد الزور أنه قال: «إن كـان الشيء قائماً بعينه رد على صاحبه، وإن لم يكن قائماً ضمن بقدر مـا أتلف من مال الرجل». (المسالك).

ولأجل مزيد الاطلاع راجع الكتب الفقهية.

التوبة من الذنب:

مما تقدم تعرف كيفية التـوبة من هـذا الذنب، وذلـك بأن ينـدم ندمـاً شديداً، وكلما كانت ندامته وخجله أكبر كانت الـرحمة الإلهيـة منه أقـرب، وبعد الندم على معصية أمر الخالق، يستغفر ويطلب العفو، وبعد ذلك يتدارك كل ضرر حل بالمشهود عليه بسبب شهادته، وحينذاك ليطمئن بأن الله قد قبل توبته كما وعد تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ سورة النور الآية ٥.

* * *

العشرون من الذنوب الكبيرة التي ورد التصريح بها في صحيحة عبد العظيم عن الإمام الجواد (ع) كتمان الشهادة، بمعنى إخفاء ما علم به في مورد يجب الإدلاء بالشهادة لإثبات حق أو إبطال باطل، بالشرائط التي سنذكرها.

وقد استشهد الإمام ـ في صحيحة السيد عبد العظيم لاعتبار كتمان الشهادة من الكبائر ـ بالآية ٢٨٤ من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾.

وهناك نكتتان في نسبة الإثم إلى القلب:

الأولى:

أن كتمان الشهادة هو من الذنوب القلبية، ذلك أنه يخفي في قلبه ما يعلمه ولا يشهد به بلسانه ليظهر الحق.

الثانية:

أهمية هذا الذنب، فكما أن القلب أشرف وأفضل من الجسد، والطاعة القلبية ـ كالإيمان ـ أفضل من سائر الطاعات، فهكذا الذنب المرتبط بالقلب ـ كالشرك ـ هو أشد وأكبر من جميع الذنوب، ويكفي في اعتبار كتمان الشهادة من الكبائر أن الله تعالى في الآية الشريفة السابقة عده من آثام القلب، وقال تعالى من باب التهديد والتأكيد ـ في ذيل الآية. ـ: ﴿**والله بما تعملون عليم**﴾ يعني رغم أن الناس يعرفون أن هذا الذنب من الذنوب القلبية إلا أن الله يعلم بظاهركم وباطنكم، ومنه كتمان الشهادة التي تعلمونها، ويؤاخذكم على ذلك.

وأيضاً قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ السورة ٢ الآية ٢٨٢.

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾ السورة ٢ الآية ١٤٠.

مثل أهل الكتاب الذين أخفوا أوصاف رسول الله (ص) المذكورة في التوراة والإنجيل.

الشهادة بالحق وإن كانت بضرر الشاهد:

يقول تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، إِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ السورة ٤ الآية ١٣٥.

وفي هذه الجملة تهديد لأولئك الذين يمتنعون عن أداء الشهادة بالحق، يراعون بذلك منفعتهم الشخصية، أو منفعة ذويهم وأصدقائهم، أو يراعون بذلك ثروتهم وغناهم.

لا ينبغي أن تؤثر العداوة على الشهادة:

إن العداء مع بعض الأشخاص لا ينبغي أن يمنع عن قول الحق، يقول تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللهَ إِن اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. الآية ٨.

بالجملة فإن المسلم في مقام الإدلاء بالشهادة يجب أن لا يلاحظ إلا الله تعالى، كما يقول تعالى في سورة الطلاق ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ﴾.

ظلمة غير متناهية لمن يكتم الشهادة:

عن الإمام الباقر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من كتم شهادة أو شهد بها ليهدر بها دم امرئ مسلم أو ليزوي بها مال مسلم، أتى يوم القيامة

ولوجهه ظلمة مد البصر، وفي وجهه كدوح تعرفه الخلائق باسمه ونسبه».

ثم قال (ع): «ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾؟ (وسائل الشيعة).

وقال (ص): «من كتمها أطعمه الله لحمه على رؤوس الخلائق يوم القيامة، وهو قول الله عز وجل: ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾. (وسائل الشيعة).

وفي معنى (آثم قلبه) يقول الإمام الباقر(ع):«كافر قلبه». (وسائل الشيعة).

وعن رسول الله (ص): «من رجع عن شهادته أو كتمها أطعمه الله لحمه على رؤوس الخلائق، ويدخل النار وهو يلوك لسانه».

ويقول الإمام موسى بن جعفر (ع): «وإن سئلت عن الشهادة فأدّها فإن الله يقول ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾. وقال:﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾. (وسائل الشيعة).

وفي تفسير الإمام عليه السلام:«من كان في عنقه شهادة فلا يأب إذا دعي لإقامتها، وليقمها، ولينصح فيها، ولا تأخذه فيها لومة لائم، وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر».

تحمل الشهادة:

إذا طلب المسلم من أخيه المسلم الحضور معه ليكون شاهداً أو سامعاً لمعاملة، أو عمل من أجل أن يشهدبذلك عند الحاجة، فهل يلزم إجابة طلبه شرعاً؟

المشهور بين الفقهاء هو الوجوب، كما يقول تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ السورة ٢ الآية ٢٨٢.

وروي في صحيحة هشام عن الإمام الصادق (ع) أن المراد بقوله «ولا يأب الشهداء» هو أن لا يمتنعوا عن أداء الشهادة، كما أن المراد بقوله تعالى: «ولا تكتموا الشهادة» لزوم أداء الشهادة. وهناك روايات عديدة في وجوب تحمل الشهادة، منها صحيحة محمد بن فضيل عن الإمام موسى بن جعفر (ع) حيث يقول: «إذا دعاك الرجل لتشهد له على دين أو على حق لم يسع لك أن تقاعس عنه». (وسائل الشيعة).

وأيضاً فإن أمر الله تعالى بالإشهاد ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم...﴾ يلزمه ضرورة تحمل الشهادة، ذلك أنه من غير المعقول أن يجب على المدعي جلب شاهدين، ثم لا يجب على أولئك الشخصين أن يشهدا.

لا يستجاب دعاؤهم:

عن الإمام الصادق (ع): «أربعة لا تستجاب لهم دعوة»:

رجل جالس في بيته يقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم آمرك في الطلب؟

ورجل كانت له امرأة فاجرة فدعا عليها، فيقال له: ألم أجعل أمرها إليك؟.

ورجل كان له مال فأفسده، فيقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم آمرك بالإصلاح، ثم قال ﴿الَّذينَ إذا أنْفَقُوا لَم يُسرِفُوا ولم يَقْتُرُوا وكَانَ بَينَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾.

ورجل كان له مال فأدانه رجلاً ولم يُشهِد عليه فجحده، فيقال له ألم آمرك بالإشهاد»؟ (عدة الداعي ص ١٢٦).

بناءً على ذلك يجب على الإنسان ـ لو طلب منه ـ أن يتحمل الشهادة، ولا يستطيع التخلص من ذلك، ويليق به بعد حضوره أن يشهد جميع

الخصوصيات في مورد الشهادة، ويسجل ما يراه وما يسمعه في ذهنه، بل في مكان أمين، لكي لا يبتلى بالاشتباه والنسيان حين يدلي بشهادته في موقع الحاجة، بل تكون شهادته عن علم ويقين.

يجب أداء الشهادة ويحرم كتمانها:

متى ما طلب منه أداء الشهادة ـ بعد أن استدعي للحضور وشاهد الأمر ـ فيجب عليه أن يشهد بما رأى أو بما سمع، وكتمان الشهادة من الكبائر كما تقدم.

ومتى ما شهد أمراً اتفاقاً، ومن دون أن يطلب منه الحضور والمشاهدة، كما لو كان في مجلس ووقعت معاملة بين طرفين من دون أن يشهده أحد الطرفين، أو كان ماراً فرأى شيئاً أو سمع كلاماً من شخص، وبعد ذلك طلبوا منه أن يحضر ليؤدي الشهادة، فالحكم هنا مختلف، وتوجد فيه صورتان:

١ ـ إذا كان أداؤه للشهادة يدفع ضرراً عن مسلم، أو يوصله إلى حقه، بحيث إذا لم يؤد الشهادة يتضرر ذلك المسلم أو يضيع حقه، فإن أداء الشهادة هنا واجب، بل حتى إذا لم يكن صاحب القضية يعلم بأن هذا الشخص كان شاهداً، أو غفل عن ذلك ونسيه، فمع ذلك يجب عليه أن يعرف نفسه ويشهد بما رأى أو سمع، أما إذا سكت، وضاع حق المسلم أو أصابه ضرر، كان ممن كتم الشهادة، وترك إعانة المظلوم، ولم ينه عملياً عن المنكر.

٢ ـ إذا كان سكوته غير مؤد إلى ضياع حق المسلم، أو إصابته بضرر، فإن أداء الشهادة في هذه الصورة غير واجب، وحتى إذا طلب منه أن يؤدي الشهادة يستطيع أن لا يشهد، إذ أنه لم يستدع ليشهد من أول الأمر، كما أن عدم أدائه للشهادة فعلاً غير موجب لتضييع حق، لتصبح الشهادة بذلك واجبة.

عن الإمام الباقر (ع): «إذا سمع الرجل الشهادة ولم يشهد عليها، إن

شاء شهد وإن شاء سكت» . (وسائل الشيعة) .

وبالجملة: إذا لم يطلب من الشخص أن يحضر ويشهد الأمر، ولم يكن سكوته عن أداء الشهادة سبباً في ظلم مسلم أو ضياع حقه، فإن ذلك ليس من كتمان الشهادة.

يجب أن تكون الشهادة عن علم:

يجب أن يكون الشاهد دقيقاً، لا يشهد إلا بما له به يقين، رآه بعينه، أو سمعه بأذنه، حتى أن ما يقوله يجب أن يكون واضحاً لديه كالشمس، والأخبار الواردة في هذا المجال عديدة، تقدمت الإشارة إلى بعضها في بحث (الشهادة الكاذبة) ولا داعي لتكرارها.

أن لا تكون الشهادة موجبة للضرر:

وفي هذا الصدد يجب أن يعلم أن جواز ووجوب أداء الشهادة في الصور السابقة، إنما هو بشرط أن لا يكون أداء الشهادة سبباً لإصابة الشاهد بضرر في ماله أو نفسه أو حرمته وكرامته، أو إصابة غيره من المسلمين، ذلك أن الحكمة في حرمة كتمان الشهادة، ووجوب أدائها هي بسط العدل، والقضاء على الظلم والجور، والمنع من الإضرار، فإذا كان الأمر ـ في مورد من الموارد ـ على العكس من ذلك، أي كانت الشهادة سبباً لوصول الظلم أو الضرر، فلا يجوز أداؤها حينئذ، بل في مثل هذا المورد يجب كتمان الشهادة.

مثال ذلك: ما لو علم بأنه إذا شهد على فلان فإنه سيغصب ماله أو يعذَّب.

ومثاله أيضاً ما إذا كانت شهادته توجب تسلط الظالم على مسلم، وسجنه وتعذيبه، أو إذا كان الشاهد على يقين بأن المدين لا يستطيع أن يدفع الدين الذي عليه، كما أنه لا يستطيع أن يثبت أنه مفلس، والدائن من جهة أخرى لا يمهله، ففي هذه الصورة لا يسمح للشاهد أن يشهد لإثبات الدين.

عن الإمام موسى بن جعفر (ع) انه قال: «فأقم الشهادة لله، ولو على نفسك أو الوالدين والأقربين فيما بينك وبينهم، فإن خفت على أخيك الضيم فلا». (وسائل الشيعة).

وقال الإمام الصادق (ع): «أقيموا الشهادة لله على الوالدين، ولا تقيموها على الأخ في الدين الضير».

قلت: وما الضير؟

قال (ع): «إذا تعدى فيه صاحب الحق الذي يدّعيه قبله، خلاف ما أمر الله به ورسوله، ومثل ذلك أن يكون لرجل على آخر دين وهو معسر، وقد أمر الله تعالى بإنظاره حتى تيسر، قال تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ ويسألك أن تقيم الشهادة وأنت تعرفه بالعسر، فلا يحل لك أن تقيم الشهادة». (وسائل الشيعة).

رواية عن الإمام الكاظم (ع):

عن محمد بن القاسم بن الفضل عن الإمام الكاظم (ع) قال: سألته عن رجل من مواليك عليه دين لرجل مخالف يريد أن يعسره ويحبسه، وقد علم الله أنها ليست عنده ولا يقدر عليه، وليس لغريمه بينة، هل يجوز له أن يحلف ليدفعه عن نفسه، حتى ييسر الله له؟ وإن كان عليه الشهود من مواليك قد عرفوا أنه لا يقدر، هل يجوز أن يشهدوا عليه؟

قال (ع): «لا يجوز أن يشهدوا عليه، ولا ينوي ظلمه». (التهذيب ـ كتاب الشهادات).

الضرر في محله لا يوجب الكتمان:

ما قلناه من أن أداء الشهادة إذا كان موجباً لتضرر الشاهد أو مسلم آخر، لا يجب عليه أن يشهد حينئذ، إنما هو في صورة ما إذا كان الضرر في غير محله ومن دون استحقاق، أما إذا كان الضرر يقع في محله وعلى المستحق، فحينئذ لا يكون ذلك سبباً في سقوط الشهادة.

مثلاً: إذا شهد على شخص وكان الشاهد مديناً له، إلا أن المشهود عليه

كان يرفق بحاله ولا يطالبه بالدين، لكن حيث إنه شهد عليه وبضرره، فإنه يطالبه الآن بالدين، في مثل هذه الصورة لا يستطيع الشاهد أن يمتنع عن أداء الشهادة، بحجة أن أداء الشهادة يسبب عليه ضرراً، وهو وجوب أداء الدين للمشهود عليه، ذلك أن هذا الضرر، وهو أن يطالب الشاهد بالدين، هو ضرر في محله.

نعم، إذا كان هذا الشاهد فقيراً وعاجزاً عن دفع الدين، إلا أنه لا يستطيع إثبات فقره وعجزه، وحينئذ تكون شهادته موجبة لوقوعه في حرج ومشقة بالغة، مثل هذا الضرر عذر وجيه يسمح له بترك الشهادة.

لا فرق بين الضرر وبين عدم النفع:

لا يفوتنا القول: إن الضرر هو أمر غير عدم النفع، فإذا افترضنا أن الشاهد كانت لديه منفعة مستمرة من المشهود عليه، وإذا شهد عليه فإنه سوف يقطع ما كان يعطيه للشاهد من العطاء المستمر، في هذه الحالة لا يستطيع الشاهد أن يمتنع عن أداء الشهادة، ذلك أن عدم وصول النفع ليس ضرراً.

نعم، إذا كانت معيشته اليومية تتقوم بذلك العطاء، بنحو لو قطعه عنه لوقع في حرج ومشقة شديدة غير قابلة للتحمل، ففي هذه الصورة عدم وصول مثل هذا النفع لهذا الشخص يعتبر ضرراً، وهنا لا مانع من أن يكتم الشهادة.

وخلاصة المطلب أن القسم الكاذب، والشهادة الكاذبة، وكتمان الشهادة، أمور جائزة في صورة وجود الضرر، (يعني ما إذا كانت سبباً لترتب ضرر من دون استحقاق على الشاهد أو على مسلم غيره)[1]، وفي بعض الموارد تكون واجبة، أما إذا كانت موجبة لضرر يترتب على مستحقه، أو كانت موجبة لعدم وصول النفع فإنها حرام وذنب كبير.

* * *

(١) الحديث عن كتمان الشهادة، وهكذا فيما سيأتي ـ المترجم.

الحادي والعشرون من الذنوب التي ورد التصريح بأنها من الكبائر نقض العهد وعدم الوفاء به، كما ذكر في صحيحة السيد عبد العظيم، وقد استشهد الإمام الصادق (ع) لاعتبار هذا الذنب من الكبائر بالآية ٢٥ من سورة الرعد حيث يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

ويقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية ٧٧.

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الأنفال ـ الآيتان ٥٥ ـ ٥٦.

نزلت هاتان الآيتان في يهود بني قريظة،الذين عاهدوا رسول الله (ص) أن لا يعينوا أعداء الإسلام، ثم نقضوا عهدهم في معركة بدر، حيث زودوا المشركين بالسلاح، ثم قالوا لرسول الله (ص) نسينا عهدنا، وعاهدوه مرة ثانية وأيضاً نقضوا عهدهم في معركة الخندق، حيث اتحدوا مع أبي سفيان في حربه ضد رسول الله (ص).

وبالجملة، فإن شر الموجودات على الأرض أولئك الذين لا يخافون حساب الله، وينقضون عهده، مثل يهود بني قريظة الذين عاهدوا رسول الله (ص) على أن لا يخونوه،ولا يصل إليه ضرر منهم، ولا يساعدوا أعداءه، في مقابل أن يبقوا على دينهم، وأن يعيشوا بأمان المسلمين، ولكن حيث

نقضوا العهد مراراً أمر الله تعالى بقتالهم.

في أكثر من موضع من القرآن الكريم، اعتبر الوفاء بالعهد واجباً، وتأكيداً لذلك قال تعالى: **﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾** ١٧/٣٤.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقودِ﴾ ٥/١.

﴿وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ ٢/١٧٧.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ؟ كَبُرَ مَقْتَاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لاَ تَفْعَلُونَ﴾ الصف /٢ ـ ٣.

وفي تفسير هاتين الآيتين الشريفتين روي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: عِدَةُ المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدأ ولمقته تعرض، وذلك قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾**.(وسائل الشيعة).

وعن أمير المؤمنين (ع) قوله: «الخلف يوجب المقت عند الله وعند الناس، قال تعالى: **﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾**. (نهج البلاغة).

وقال رسول الله (ص): «لا دين لمن لا عهد له». (بحار الأنوار)

وعن الإمام الباقر (ع): «أربعة أسرع شيء عقوبةً:
رجل أحسنت إليه ويكافئك بالإحسان إليه إساءة.

ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك.

ورجل عاهدته على أمر، فمن أمرك الوفاء به، ومن أمره الغدر بك.

ورجل يصل قرابته ويقطعونه». (خصال الصدوق).

وعن أبي مالك قال: قلت لعلي بن الحسين (ع): أخبرني بجميع شرائع الدين.

قال (ع): «قول الحق والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد». (خصال الصدوق).

والآيات والروايات الواردة في أهمية الوفاء بالعهد كثيرة يكفي ما ذكرناه منها.

أقسام نقض العهد وأحكامها:

العهد على ثلاثة أقسام:

١ ـ عهد الله مع عباده.
٢ ـ عهد الناس مع الله.
٣ ـ عهد الناس بعضهم مع بعض.

١ ـ أما عهد الله مع الناس:

فهو العهد الذي وقع بين رب العالمين وبين بني آدم، كما جاء في القرآن المجيد والأخبار الكثيرة، وخلاصته أن الله تعالى خلق أرواح البشر في عالم الذر، قبل الحياة الدنيا، بنحو لديهم إدراك وشعور ولياقة للمخاطبة والمكالمة، وأخذ منهم إقراراً بربوبيته، وعهداً بأن يثبتوا على ذلك ولا يشركوا به، ولا نيحرفوا عن رسالات الأنبياء، ولا يتبعوا الشيطان، وعاهدهم الله تعالى في مقابل ذلك بأن يعضدهم ويرحمهم ويسكنهم جنته، وإذا لم يفوا بما عاهدوا الله عليه في عالم الذر، لم يعطهم ما عاهدهم عليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ٢ / ٤٠.

ومن جملة عهود الله تبارك وتعالى في عالم الذر موضوع ولاية أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين (ع)، كما ورد في روايات كثيرة الإشارة إليه، وذكّرت به كل الكتب السماوية، وبلّغه جميع الأنبياء.

إلا أن بعض العلماء أنكروا عالم الذر، وأوّلوا الآيات والأخبار الواردة في

هذا الموضوع بعالم الفطرة، وما أودعه الله تعالى في عقول البشر وألهمه إياهم، حيث قالوا: إن الله تعالى بواسطة الأنبياء والكتب السماوية أشار إلى هذا العهد الفطري، وتحقيق المطلب خارج عن بحث هذا الكتاب.

على كل حال، إن نقض العهد الإلهي، سواءً كان ذلك العهد في عالم الذر أو عالم الفطرة هو ذنب كبير، بل أكبر الكبائر، وأكثر الآيات والروايات التي أكدت وجوب الوفاء بالعهد، وحرمة نقضه، وترتب العقوبات الأليمة عليه، ترجع إلى هذا القسم من العهد، كما يتضح ذلك من خلال مراجعة الأخبار(1).

بناءً على ذلك فمن أراد أن يصل إلى وعود الله يجب أن يفي بتمام عهوده معه.

وعد الله باستجابة الدعاء:

من جملة الوعود الإلهية استجابة الدعاء، وبناءً على ذلك فإن شرط الوفاء بهذا الوعد هو أن يفي العباد بعهودهم مع الله.

عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «إن العبد إذا دعا الله تعالى بنية صادقة وقلب مخلص استجيب له بعد وفائه بعهد الله عز وجل، وإذا دعا الله بغيرنية وإخلاص لم يستجب له، أليس الله يقول: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. فمن وفى وفي له» (سفينة البحار).

٢ ـ وأما عهد الناس مع الله:

فهو العهود التي يقطعها الإنسان على نفسه مع الله تعالى ابتداءً، ولها أحكام منها:

---

(1) في تفسير علي بن إبراهيم القمي: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ قال(ع): «أي عهد الله المأخوذ عليهم بالربوبية، ولمحمد (ص) بالنبوة، ولعلي (ع) بالإمامة، ولشيعتهم بالمحبة والكرامة» ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال (ع): «أي إحكامه وتغليظه» وفي تفسير العياشي عن الإمام الباقر (ع) في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. قال (ع): أوفوا بولاية علي بن أبي طالب (ع) أوف لكم بالجنة».

إجراء الصيغة في النذر والعهد:

العهد مع الله تعالى كالنذر، لا ينعقد بمجرد القصد والنية، بل يجب أن يتلفظ بصيغة العهد والنذر، وصيغة العهد هي أن يقول: «عاهدت الله» أو «علي عهد الله» أن أفعل كذا، أو أترك كذا، أو إذا رزقت العافية، أو رجعت من السفر سالماً أن أدفع مبلغ كذا للفقير، ويمكن أن يؤدى ذلك باللغة الفارسية، وبناءً على ذلك لا ينعقد النذر والعهد بدون إجراء الصيغة.

لا ينعقد العهد والنذر بأمر مرجوح:

إنما ينعقد العهد والنذر فيما إذا لم يكن الأمر الذي عاهد الله عليه أو نذره أمراً مرجوحاً، وبعبارة أخرى، أن لا يكون مكروهاً أو حراماً، وكذلك أن لا يكون عدمه أفضل بالنسبة لحياة ذلك الشخص وظروفه.

إذن فلو عاهد أو نذر على الإتيان بعمل حرام أو مكروه، أو على ترك واجب أو مستحب فالعهد والنذر هنا باطل.

مثال ذلك مالو عاهد الله على أن لا يذهب إلى بيت أبيه أو أمه ولا يصل الرحم، أو أن يجري المعاملة الفلانية، وعلم بعدئذ أن ذلك يتم بضرره، فإن العهد والنذر في هذه الحالات لغو لا أثر له، بل حتى لو لم يكن مرجوحاً حين إيقاع صيغة العهد والنذر ثم صار مرجوحاً، فإن العهد ينحل حينئذ وينتهي ولا يجب عليه الوفاء به.

يجب أن يكون متعلق النذر راجحاً:

في هذه المسألة لا يختلف العهد والقسم، ففيهما معاً يشترط أن لا يكون موردهما مرجوحاً، أما في النذر فيشترط فيه أكثر من ذلك، حيث يشترط أن يتعلق بأمر راجح، فإذا نذر أن يأتي بعمل مباح، لا يكفي ذلك ما لم يكن العمل راجحاً من بعض الجهات، وعلى أساس تلك الجهة ينذر أن يأتي بالعمل، وهكذا إذا نذر ترك فعل مباح، فإنما ينعقد النذر إذا كان الترك أفضل من بعض الجهات، ولأجلها نذر الترك.

مثال ذلك ما لو نذر ترك التدخين من أجل الضرر الموجود فيه، أو أن يتناول الطعام الفلاني للتقوّي به على العبادة.

وبالجملة، فإن مورد النذر يجب أن يكون راجحاً شرعاً أو عرفاً لكي يستطيع التقرب به إلى الله.

العهد مطلق أو مقيد:

العهد كالنذرواليمين، إماأن يكون مطلقاً، بأن يقول ابتداءً: أعاهد الله على أن أؤدي العمل الفلاني، وهنا يجب عليه ذلك العمل بمجرد إنشاء الصيغة باللغة العربية أو الفارسية، ويعتبر تركه حينئذ ذنباً كبيراً موجباً للكفارة.

أو يكون العهد مشروطاً، مثل أن يعاهد الله على أن يتصدق بمبلغ كذا، أو يصوم ثلاثة أيام إذا رزقه الله ولداً، أو وفّقه لكذا عمل خير.

أو يعاهد الله على أن يتصدق بمبلغ كذا إن ترك فلان واجب أو فلان مستحب، أو إذا ارتكب فلان حرام أو فلان مكروه، ونظائر ذلك.

فإذا تحقق ذلك الشرط بعد إنشاء الصيغة أصبح الوفاء بالنذر أو العهد واجباً، وكان نقضه ذنباً كبيراً موجباً للكفارة.

كفارة العهد والنذر:

إذا لم يف بعهده وجبت عليه الكفارة، وكفارة نقض العهد هي إطعام ستين فقيراً، أو صيام ستين يوماً، أو عتق رقبة (مثل كفارة الإفطار العمدي في يوم من أيام شهر رمضان).

وإذا خالف النذر فكفارة ذلك مثل كفارة اليمين، وهي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو عتق رقبة.

وفي صورة ما إذا لم يستطيع تحقيق واحد من هذه الثلاث وجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام[1].

---

(١) نظراً لاختلاف الفقهاء في كفارة النذر، فعلى من كانت المسألة مورد حاجته مراجعة الرسائل العملية لمراجع التقليد.

عهد الله على ثلاثة أقسام:

عهد الله الذي ورد في الآيات والروايات التأكيد عليه، ووجوب الوفاء به وحرمة نقضه عام يشمل الأقسام الثلاثة، وفي الحقيقة أن النذر واليمين هما أيضاً عهد مع الله تعالى، وبناءً على ذلك يجب الحذر من مخالفة أي واحد منها، وإن وقعت المخالفة أحياناً ـ لا سمح الله ـ فلا يمتنع عن أداء الكفارة، ذلك أن تعيين الكفارة إنما هو لطف من عند الله، لتلافي ذلك الذنب الكبير وإسقاط عقابه.

نقض العهد يورث النفاق:

ويكفي في كبر هذا الذنب أنه يورث النفاق في القلب، ويموت ساعة الموت كافراً، ويحشر في زمرة المنافقين، كما يقول تعالى في القرآن المجيد: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَنكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مِعْرِضُونَ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَ عَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1]. السورة ٩ الآيات ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧.

---

(١) جاء في تفسير منهج الصادقين في شأن نزول هذه الآيات• أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري المعروف بالزهد والعبادة جاء يوماً إلى رسول الله (ص) يشكو من فقره، وسأله أن يدعو الله له أن يمكنه ويعينه، ولكن رسول الله (ص) نصحه بالانصراف عن حاجته، وأن يصبر على فقره، لأن القدرة والتمكن تجعله في معرض الخطر، أما إذا قنع بما لديه وشكر على القليل، فذلك أفضل من كثير لا يبلغ حق شكره، وقال (ص): أقسم بالله لو أردت لصارت الجبال ذهباً وفضة، وتحركت معي بمشيئة الله، لكني أعلم أن عاقبة الفقر خير، وعاقبة الغنى مظنه الشر، فاقتدوا بنبيكم.

لم يقبل ثعلبة نصيحة رسول الله (ص)؛ وفي يوم آخر سأل رسول الله (ص) ما سأله من قبل وقال: يا رسول الله إني أعاهد الله لئن آتاني مالاً كثيراً لأديت حقوق المستحقين وحفظت معهم صلة الرحم، ولما أصرّ على رسول الله (ص) دعا الرسول، وطلب له من الله المكنة والاستطاعة، فوضع الله البركة في غنمه، حتى لم يستطع أن يصلي الصلوات الخمس مع رسول الله (ص)، فاكتفى بصلاة الصبح والعشاء، حتى وصل أمره ـ من كثرة =

وبناءً على ذلك فإن نقض العهد، والكذب ينبتان النفاق في القلب، ويموت الشخص حين يموت على النفاق.

٣ ـ معاهدة الناس:

والقسم الثالث من العهود عهود الناس بعضهم لبعض، والظاهر من عموم الآيات والروايات الكثيرة وجوب الوفاء بهذا القسم من العهود وحرمة نقضها، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ ١٧ / ٣٤.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَالـمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ ٢ / ١٧٧.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ ٢٣ / ٨.

= غنمه ـ أن ضاقت عليه أطراف المدينة، فانتقل إلى البادية، وبسبب كثرة مشاغله، وبعد مسافته، حرم من أداء الصلوات الخمس مع رسول الله (ص)، ولم يستطع أن يحضر في المدينة سوى يوم الجمعة، ويصلي مع رسول الله (ص)، وأخيراً ارتقى الأمر إلى أن حرم من صلاة الجمعة أيضاً.

ـ يوماً ما سأل رسول الله (ص) عن أحواله، ولماذا لا يحضر ثعلبة في الصلاة؟

فقالوا: إن أغنامه كثرت حتى لا يستوعبها الوادي، وذهب إلى فلان وادي وبقي هناك، فقال (ص) ثلاث مرات: «ويل لثعلبة». ولما نزلت آية الزكاة أعطاها رسول الله (ص) لرجل جهني وآخر من بني سليم، وأمر الجهني إذا هو أخذ الزكاة من ثعلبة أن يذهب إلى رجل سليمي ويأخذ زكاته أيضاً، وذهب الاثنان إلى ثعلبة وقرأوا عليه آية الزكاة ور سالة رسول الله (ص) التي كتب فيها شرائط الزكاة، ثم طالبوه بدفع الزكاة، إلا أن حبه للمال منعه عن دفع الزكاة وقال: ما يطلبه مني محمد (ص) هو الجزية، وأبى أن يدفع الزكاة، وطلب منهما أن يذهبا إلى مكان آخر ليفكر هر في الأمر...

ذهب الاثنان إلى ذلك الرجل السليمي وقرآ عليه آية الزكاة ورسالة رسول الله (ص) فقال: سمعاً وطاعة لأمر الله ورسوله، وذهب إلى إبله فاختار أحسنها وأفضلها وسلمها لهما ليدفعاها إلى رسول الله (ص) فقالا:

إن رسول الله (ص) لم يأمرنا أن نأخذ أفضل مالك.

فقال: حاشا أن أعطي لله ورسوله سوى أفضل أموالي.

أخذاه ثم عادا إلى ثعلبة، فأعاد عليهما كلامه الأول ولم يعط الزكاة، فرجعا إلى رسول الله (ص) وعرضا عليه حال ثعلبة فقال (ص): ويل لثعلبة. ودعا للسليمي بخير، فتعجب أصحابه، وأنزل الله تعالى الآيات الثلاث السابقة في حق ثعلبة.

وفي رواية عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «عدة المؤمن أخاه نذر، لا كفارة له» (وسائل الشيعة).

(في بعض الموارد لا كفارة للذنب بسبب عظمته كاليمين الكاذبة كما ذكر) ومن هذه الرواية ـ إلى آخرها ـ يعلم أن الوفاء بوعد الناس واجب.

وقال الرسول الأكرم (ص): «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليف إذا وعد». (الكافي).

إذن فالوفاء بالعهد من لوازم الإيمان بالله ورسوله ويوم الجزاء.

ودلالة هذين الحديثين على وجوب الوفاء بالعهد واضحة جداً، خصوصاً الحديث الأول المشتمل على تهديد شديد على المخالفة، وتوضيح ذلك أن المراد من الآيات ـ في أول سورة الصف ـ هو خلف الوعد، وليس خفياً اشتمال هذه الآيات على التأكيد والمبالغة في التهديد، وبناءً على هذا التفسير تصبح الآية دليلاً مستقلاً على حرمة خلف الوعد بشكل عام.

خلف الوعد من صفات المنافقين:

من جملة الدلائل على حرمة خلف العهد مع الناس،ما ورد من الأحاديث في صفات المؤمن والمنافق، ومنها تعرف حرمة خلف مطلق العهد.

مثل الحديث المروي عن رسول الله (ص): «ثلاث من كن فيه كان منافقاً، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم:

من إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف».

ويقول الإمام الصادق (ع): «من عامل الناس ولم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروته، وحرمت غيبته، وظهر عدله، ووجبت أخوته». (الكافي).

إذن فمن يظلم أو يكذب، أو يخلف العهد هو فاسق تجوز غيبته.

لا استثناء:

وقال (ع): ثلاثة لم يجعل الله لأحد فيها رخصة:

برّ الوالدين، برّين كانا أو فاجرين، والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر، وأداء الأمانة للبرّ والفاجر. (خصال الصدوق).

ومثله في الكافي عن الإمام السجاد (ع) عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: «من شرط لامرأته شرطاً فليف به، فإن المسلمين عند شروطهم، إلاّ شرطاً حرَّم حلالاً أو أحل حراماً». (التهذيب).

ناقضو العهد شر الدوابّ:

الأخبار الواردة في وجوب الوفاء بالعهد، وحرمة نقضه كثيرة، ويكفي في مقام بيان أهميتها أن الله تعالى طرد أولئك الذين ينقضون العهد من صف الإنسانية العالي، وحشرهم في زمرة الحيوانات، وذلك في قوله: **﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾** ٨/٥٥ ـ ٥٦.

ويجب أن يعلم أن الله تعالى لم يأذن بنقض العهد على كل الأحوال، حتى للمشركين والكفار، فيجب الوفاء لهم بعهدهم.

العهد مع المشركين محترم:

بعد اقتدار المسلمين وقوة شوكتهم، أمر الله تعالى في سورة البراءة بجهاد المشركين، وتطهير مكة المعظمة من الشرك وعبادة الأصنام، لكنه استثنى أولئك المشركين الذين كان بينهم وبين المسلمين معاهدة.

قال تعالى: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾** ٩/٤.

وفاء رسول ا (ص) بعهده للمشركين:

الشواهد التي بأيدينا كثيرة على مزيد اهتمام رسول الله (ص) بالوفاء بالعهد، من جملة ذلك العهد الذي وقع في صلح الحديبية بينه (ص) وبين مشركي مكة، والذي يقضي أن من حق قريش أن تقبل من يلجأ إليها من المسلمين، ولا يحق للمسلمين أن يقبلوا من يلجأ إليهممن قريش.

يروي أبو رافع: أرسلتني قريش إلى رسول الله (ص)، فلما رأيته أشرق في قلبي نور الإسلام فقلت: يا رسول الله (ص) لا أعود إلى قريش.

فقال (ص): «إني لا أخالف عهداً عاهدته. ارجع إليهم». (الرواية ليست نصاً).

العهد مع قريش محترم:

يقول حذيفة اليمان: إنه لم يمنعني عن أن أشهد بدراً إلا أنني وأبو الحسيل خرجنا والتقينا بقريش فقالوا: إنكما تريدان محمداً، فقلنا: إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله أن نرجع إليهم ونكون معهم، فلما أقبلنا إلى رسول الله (ص) وقصصنا عليه خبرنا، أمرنا بالانصراف والعودة لما أعطينا من العهد.

الابن يُعاد لأبيه:

ورد في المغازي أنه بينما كان سهيل بن عمر مشغولاً مع رسول الله (ص) في كتابة وثيقة صلح الحديبية، أقبل أبو جندل ـ وهو ابن سهيل ـ فارّاً من قريش ولاجئاً إلى رسول الله (ص)، فلما رآه سهيل قام إليه وضرب وجهه بغصن شوك، فصاح أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أردّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟

فرفع رسول الله (ص) صوته فقال: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً، إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك عهداً، وإنّا لا نغدر».

أمكث هنا حتى أموت:

عن الإمام الصادق (ع): أن رسول الله (ص) وعد رجلاً إلى صخرة، فقال: أنا لك ههنا حتى تأتي. قال: فاشتدت الشمس عليه فقال أصحابه: يا رسول الله (ص) لو أنك تحولت إلى الظل؟

قال (ص): «قد وعدته إلى ههنا، وإن لم يجئ كان منه المحشر». (بحار الأنوار).

إسماعيل صادق الوعد:

يقول تعالى في سورة مريم عن إسماعيل صادق الوعد: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ ١٩/٥٤.

مرة أعطى هذا النبي وعداً لرجل بأن يبقى في هذا المكان حتى يرجع إليه، فبقي في ذلك المكان ثلاثة أيام بلياليها، وفي أشهر الأقوال بقي سنة، حتى رجع إليه ذلك الرجل، فوصفه الله تعالى في القرآن الكريم بصدق الوعد.

الغدر ينبع من الكفر:

عن أمير المؤمنين (ع) أن الخلف شعبة من شعب الكفر، حيث يقول عليه السلام: «والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة». (نهج البلاغة).

يقول العلامة المجلسي إنه ورد في الروايات التعبير عن صاحب الكبائر بالكافر، وحيث إن الغدر من الذنوب الكبيرة، من هنا فقد ورد التعبير عن الكافر بالغادر في هذه الخطبة الشريفة.

المسلم لا يغدر:

وقال عليه السلام: «إن الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنة أوقى منه، وما يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة، ما لهم قاتلهم الله؟

قد يرى الحوّل القلب وجه الحيلة، ودونها ما نع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين». (نهج البلاغة).

الكذب ونقض العهد:

عدّ بعض الفقهاء نقض العهد وخلف الوعد من أقسام الكذب، خصوصاً إذا كان من نيته حين العهد والوعد أن لا يفي به.

بناءً على ذلك فإن كل الآيات والروايات الواردة في ذم الكذب وحرمته والتي ذكرت سابقاً، تكون شاملة لنقض العهد.

الشرط ضمن العقد اللازم:

الظاهر من كلمات أكثر الفقهاء أن العهد والوعد وأي شرط إذا كان ضمن عقد لازم ـ كالبيع والشراء والصلح والإجارة ـ يجب الوفاء به، أما إذا كان ابتدائياً فلا يجب الوفاء به، بل يستحب.

وقال بعض آخر: إن العهد الواقع ضمن عقد يفيد ـ مضافاً إلى وجوب الوفاء به ـ ثبوت حق للمتعهد له في ذمة المتعهد، بنحو يستطيع أن يطالبه به، وأن يأخذ حقه منه بالقوة إن لم يؤده، أما إذا لم يكن الشرط ضمن عقد لازم بل كان ابتدائياً، لا يثبت مثل هذا الحق، إنما يثبت فقط الحكم التكليفي بالوفاء بالعهد.

يجب دائماً وفي كل مكان الوفاء بالعهد:

لكن يتضح من معرفة الآيات والروايات السابقة أن الأحوط جداً الوفاء بكل وعد.

والأجدر ـ من أجل أن لا يتورط الإنسان في نقض العهد ـ أن لا يتعهد حين يتعهد بنحو جازم، بل يتعهد بنحو معلق واحتمالي بـ (إذا ولعل)، وعلى الأقل معلقاً على المشيئة الإلهية بأن يقول: (إن شاء الله) أفعل كذا وكذا..

التعليق على المشيئة مختلف:

كل نذر وعهد ووعد معلق على المشيئة الإلهية لا يجب الوفاء به، كما

ذهب إلى ذلك العلامة الحلي ووافقه مشهور الفقهاء، اللهم إلا في فعل الواجب وترك الحرام، فإن التعليق على المشيئة غير مؤثر.

ويجب أن يعلم أن هذا الحكم إنما هو فيما إذا قال: (إن شاء الله) بقصد التعليق، أما إذا تعهد أو وعد بنحو جزمي وقال: (إن شاء الله) من باب التبرك لا من باب التعليق، فإن مثل ذلك النذر والعهد واجب الوفاء.

لا وفاء للوعيد بالشر:

لا يبقى خفياً أن ما ذكر من لزوم الوفاء بالعهد، إنما هو في صورة ما إذا لم يكن مورد العهد والوعد أمراً شراً، أما إذا كان أمراً شراً - وهو ما يعبر عنه بالوعيد - فإن خلفه ليس قبيحاً ولا ضرر فيه، بل يستفاد من الآيات الشريفة والأخبار الواردة في حسن العفو، أن عدم العمل بمثل هذه الوعود أمر حسن جداً.

مثال ذلك: ما لو رأى من زوجته أو ولده بعض المخالفات فتوعدهم بأن يفعل كذا وكذا، أو يقطع عنهم إحسانه، فإن إهمال هذا الوعيد وعدم العمل به حسن جداً، بل هو مطلوب ومأمور به من قبل الله، كما يقول تعالى: **﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾**. السورة ٢٤ الآية ٢٢.

وإذا أكد ذلك الوعيد بالقسم فإن الجدير به - من أجل أن لا يخالف القسم - أن يعمل بوعده، بشرط أن لا يصل منه شر إلى أحد، كما علّم الله ذلك لأيوب.

أيوب وقبضة الأعواد:

حين رأى أيوب من زوجته خلافاً أقسم أن يضربها مائة سوط، ولما قام من مرضه وأراد أن يفي بوعيده، أمره الله تعالى أن يأخذ مجموعة أعواد عددها مائة، ثم يضربها مرة واحدة لكي لا تنهار، كما ذكرت هذه القصة في سورة (ص) حيث قال تعالى: **﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾** ٣٨/٤٤.

(٢٢) خيانة الأمانة

الثاني والعشرون من الذنوب التي ورد التصريح في النص المعتبر بأنها كبيرة هي (الغلول) بمعنى الخيانة، كما هو في صحيحة السيد عبد العظيم عن الإمام الجواد (ع)، وهكذا عن الإمام الرضا، والإمام الكاظم، والإمام الصادق عليهم السلام.

قال بعض أهل اللغة: إن الغلول هو الخيانة في الأموال المأخوذة من الكفار، والواقعة تحت تصرف المسلمين قبل تقسيمها.

وقال بعض آخر بأن الغلول هو مطلق الخيانة، ومنها الخيانة في الغنيمة قبل القسمة.

والدليل على أن الخيانة حرام على العموم رواية الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (ع)، حيث عبر فيها بدل الغلول بـ (الخيانة) أي أن من جملة الذنوب الكبيرة الخيانة[1]، وهكذا في رواية الأعمش عن الإمام الصادق (ع) حيث قال: «والخيانة».

الوعيد بالعذاب في القرآن :

وأيضاً هي من الذنوب التي أوعد القرآن المجيد والروايات المعتبرة عليها بالعذاب حيث يقول: **﴿وَمن يَغلُلْ يَأتِ بِمَا غَلَّ يومَ القِيامَةِ ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَت وَهم لاَ يُظْلمُون. أفَمَنِ اتَّبَع رِضوَانَ الله كَمَن بَاءَ بِسَخطٍ مِن الله ومأوَاهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المَصير﴾**. السورة ٣ الآيتان١٦١ - ١٦٢.

ويقول في سورة التحريم: **﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾** الآية ١٠.

---

(١) هذه الرواية نقلها الصدوق في عيون أخبار الرضا بثلاث طرق، وقال الشيخ الأنصاري في المكاسب بأنها ليست أقل من الصحيحة.

وأيضاً يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ الأنفال الآية ٥٨.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الأنفال الآية ٢٧.

والآيات الشريفة في الأمر بأداء الأمانة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ السورة ٢ الآية ٢٨٣.

وليس خفياً ما في هذه الآية من التهديد حول أهمية أداء الأمانة وعذاب الخيانة.

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ ٤/٥٨.

الخيانة وأخبار أهل البيت (ع):

يقول رسول الله (ص): «من خان أمانة في الدنيا ولم يردّها الى أهلها ثم أدركه الموت مات على غير ملّتي، ويلقى الله وهو عليه غضبان؛ وفي حديث آخر: فيؤمر به إلى النار فيهوى به في شفير جهنم - ومن اشترى خيانة وهو يعلم فهو كالذي خانها». (وسائل الشيعة).

ويقول (ص) أيضاً: «من كان مسلماً فلا يمكر ولا يخدع، فإني سمعت جبرئيل يقول: إن المكر والخديعة في النار، ثم قال: ليس منا من غش مسلماً، وليس منا من خان مؤمناً». (وسائل الشيعة).

وقال (ص): «ثلاث من كن فيه كان منافقاً وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، من إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف». (أصول الكافي).

وعن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: «أربعة لا تدخل واحدة منهن بيتاً إلا خرب ولم يعمر بالبركة: الخيانة، والسرقة، وشرب الخمر، والزنى». (وسائل الشيعة).

الخيانة تجلب الفقر:

يقول رسول الله (ص): «الأمانة تجلب الغنى والخيانة تجلب الفقر». (وسائل الشيعة).

وفي رواية عن الإمام الصادق (ع): قلت لأبي عبد الله(ع): امرأة بالمدينة كان الناس يضعون عندها الجواري فيصلحن، وقلنا ما صب عليها من الرزق؟

فقال(ع): «إنها صدقت الحديث، وأدت الأمانة، وذلك يجلب الرزق». (وسائل الشيعة).

ويقول (ع): «لا تغتروا بكثرة صلاتهم وصيامهم، فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث، وأداء الأمانة». (وسائل الشيعة ـ كتاب الوديعة).

يعني أن هاتين الخصلتين، هما الدليل على قوة الإيمان، وسعادة الشخص.

يجب رد الأمانة إلى أهلها كان من كان:

لدينا روايات كثيرة تؤكد وجوب رد الأمانة إلى أهلها كان من كان، ووجوب رد الأمانة وحرمة الخيانة لا يختص بالمسلم، بل يعم جميع أفراد البشر، مسلماً أو كافراً، أو حتى الناصبي، وهو أسوا الكفار.

يقول الإمام الصادق (ع): «اتقوا الله وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم، فلو أن قاتل عليّ ائتمنني على أمانة لأديتها إليه». (وسائل الشيعة).

«اتقوا الله وأدوا الأمانة إلى الأسود والأبيض وإن كان صرورياً وإن كان شامياً». (وسائل الشيعة).

وسأله رجل:

الناصب يحل لي اغتياله؟

قال (ع): «أد الأمانة إلى من ائتمنك، وأراد منك النصيحة ولو إلى قاتل الحسين».

ومثل هذه الرواية عن الحسين الشيباني:

قال: قلت لأبي عبد الله (ع): رجل من مواليك يستحل مال بني أمية ودماءهم ،وإنه وقع لهم عنده وديعة.

فقال (ع): «أدوا الأمانة إلى أهلها وإن كانوا مجوساً». (وسائل الشيعة).

وقال (ع): «إن الله عز وجل لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر». (وسائل الشيعة).

وروي عن محمد بن القاسم قال: سألت أبا الحسن (ع) عن رجل استودع رجلاً مالاً له قيمة، والرجل الذي عليه المال رجل من العرب يقدر على أن لا يعطيه شيئاً، والرجل الذي استودعه خبيث خارجي، فقال (ع): «قل له يرد عليه، فإنه ائتمنه عليه بأمانة الله». (وسائل الشيعة).

وعن علي بن الحسين (ع) أنه يقول لشيعته: «عليكم بأداء الأمانة. فوالذي بعث محمداً (ص) بالحق نبياً، لو أن قاتل أبي الحسين بن علي (ع) ائتمنني على السيف الذي قتله به لأديته له». (وسائل الشيعة).

تزداد وسوسة الشياطين:

كلما كان العمل أكثر أهمية كانت وسوسة الشياطين من أجل حرف البشر أكثر.

عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «من ائتمن على أمانة فأداها فقد حل ألف عقدة من عنقه من عقد النار، فبادروا بالأمانة، فإن من ائتمن على أمانة وكل به إبليس مائة شيطان من مردة أعوانه، ليضلوه ويوسوسوا إليه حتى يهلكوه، إلا من عصم الله عز وجل».

محمد (ص) الأمين:

وينقل في أحوال رسول الله (ص) أن قريشاً كانت تلقبه قبل الإسلام بـ (الأمين) وتودع عنده متاعها وأموالها، وكذلك سائر طوائف العرب الذين يفدون إلى مكة المكرمة في موسم الحج، حيث يودعون أماناتهم عند رسول الله (ص). وهكذا كان حالهم مع رسول الله (ص) بعد الإسلام، ولما عزم (ص) على الهجرة إلى المدينة استخلف مكانه أمير المؤمنين (ع)، وأمره أن ينادي في الأبطح كل يوم صباحاًومساءً: من كانت له عند محمد (ص) أمانة فليأت أردها إليه.

أقسام الخيانة:

الخيانة على ثلاثة أقسام:

١ ـ خيانة أمانة الله.

٢ ـ خيانة أمانة الرسول (ص).

٣ ـ خيانة أمانة الناس.

١ ـ أمانة الله:

يقول تعالى في سورة الأحزاب: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها، وَأَشْفَقْنَ مِنْها، وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾** ٣٣/٧٢.

وقد ذكرت وجوه في بيان المراد من الأمانة في هذه الآية، منها أن الأمانة هنا بمعنى نعمة العقل، وهكذا التكاليف الإلهية (الواجبات والمحرمات) التي بينها الله تعالى بواسطة نبيه (ص) وكلف بها عباده، والأمور التي أوجب الاعتقاد بها.

وبناءً على ذلك يصبح معنى الآية هكذا: «إنّا عرضنا العقل والتكليف على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ـ إذ لا يوجد لها استعداد

بحسب الخلقة ـ وأشفقن منها ـ لصعوبة تحمل الأمانة وشدة عذاب الخيانة ـ وحملها الإنسان، إذ له استعداد ـ إنه كان ظلوماً ـ بهذه الأمانة حيث رجح القوة الغضبية على العقل وخان الأمانة الإلهية ـ جهولاً ـ باتباعه القوة الشهوية، جاهلاً بشدة عقوبة الخيانة لأمانة الله.

الأمانة بالنسبة إلى العقل والتكليف:

أما كون الإنسان أميناً بالنسبة للعقل، فذلك بأن يجعل العقل حاكماً في جميع الحالات؛فكل عمل يعمله، وكل كلام يتكلمه يجب أن يكون بأمر العقل وإذنه، أما إذا اتبع الإنسان شهوته وغضبه وصار العقل مغلوباً فقد خان بأمانة الله.

وأما أن يكون أميناً بالنسبة للتكاليف الإلهية فذلك:

أولاً: بأن يسعى لتعلمها ومعرفتها بحيث لا يجهل واحداً منها.

وثانياً: بأن يقبلها بقلبه وروحه ويعمل على أساسها بكامل الاهتمام والجدية، بنحو لا يفوت عليه شيء منها، فقد روي عن الإمام الباقر (ع): «فخيانة الله ورسوله معصيتهما، وأما خيانة الأمانة فكل إنسان مأمون على ما افترض الله تعالى عليه». (تفسير الصافي).

وورد أيضاً «إن علياً إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلون، فيقال له:

مالك يا أمير المؤمنين؟

فيقول: جاء وقت الصلاة، وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها» (تفسير الصافي).

بلغوا أحكام الدين:

نأسف أن أكثر الناس في هذا المقطع الزمني يخونون بالأمانة الإلهية، وبلغ اشتغالهم بلذائذ الدنيا ومادياتها وشهواتها أن الواحد منهم لا يتصدى

للتعرف على الأحكام الشرعية، فضلاً عن العمل بها، حتى كادت تمّحي آثار الدين ومظاهره، وأصبحت تكاليف الله متروكة مهملة، والحال أنه يجب على الناس في مختلف العصور ان يتعلموا الأحكام الشرعية ويعملوا بها، ويجب عليهم كذلك تعليمها للآخرين وللأجيال الآتية، فيجب نشر أحكام الدين حتى إذا لم يكن بعضها محلاً للابتلاء، وذلك من أجل أن لا تصبح بالية، ومن أجل أن لا تمّحي، لكن من التعاسة أن أكثر الناس لا يعرفونها، ولا يبلغونها للآخرين، وأولئك الذين يترددون على القرى يعرفون جيداً كم هناك من التقصير والتسامح في التبليغ والإرشاد الديني.

٢ ـ أمانة الرسول (ص):

في حديث متفق عليه بين الشيعة والسنة أن رسول الله (ص) قال قبل وفاته: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي». (بحار الأنوار).

وقد ذكر في المجمع أن سبب التعبير عن القرآن والعترة بالثقلين هو ثقل اتباعهما وصعوبته.

وأما أن يكون الإنسان أميناً بالنسبة للقرآن المجيد فهو بالمداومة على تلاوته، وتعلم معارفه وحقائقه، والتأثر بمواعظه، والعمل بقراراته، وأما الخائن للقرآن فإنه يوم القيامة يكون الرسول (ص) هو سائله وخصمه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾. السورة ٢٥ الآية ٣٠.

ذرية الرسول (ص) أمانة:

أما بالنسبة إلى عترة الرسول (ص) فيجب أن يحمل كامل المحبة والمودة، ويحبهم حباً صادقاً بقلبه وروحه، ويعتقد بإمامة الأئمة الاثني عشر المعصومين الذي تجب طاعتهم، ويعتقد بأنهم الحجة والواسطة بينه وبين الله، ويتبع في جميع أقواله وأفعاله ما يصدر عنهم عليهم السلام، وأما بالنسبة إلى بقية السادات فيجب أن يكنّ لهم كامل الخضوع والاحترام، ويجتهد في أداء حاجاتهم بكامل الحنان والمحبة.

ومن جملة أداء الأمانة لآل محمد عليهم السلام تبجيل أسمائهم وذكر مناقبهم وفضائلهم، والحزن لحزنهم، والفرح لفرحهم، يتشرف بلقائهم أيام حياتهم، ويتبرك بزيارة قبورهم عند مماتهم.

٣ ـ أمانة الناس:

يجب أن يعلم أن الأمانة على قسمين: أمانة مالكية وأمانة شرعية.

الأمانة المالكية:

هي أن يكون للشخص مال يدفعه لآخر بقصد الأمانة، سواءً كان هدفه الأساسي هو التأمين وذلك ما يسمى بـ (الوديعة)، أو ان هدفه الأساسي أمر آخر كالانتفاع، وتبعاً لهذا الهدف يضع المال أمانة بيد غيره، كالإجارة، حيث إن هدف المؤجر هو الانتفاع بالأجرة، ويبقى المال في هذه الحالة أمانة من المؤجر بيد المستأجر، وكذلك العارية، حيث إن المقصود منها، الانتفاع المجاني، ويبقى المال أمانة عند المستعير، وهكذا الرهن، حيث إن المقصود منه جعل رهينة بيد الدائن في مقابل الدين، وفي هذه الصورة يكون المال أمانة بيد المرتهن عنده، وهكذا مال المضاربة بيد العامل.

وبالجملة، فإن المال الموضوع بيد الأشخاص المذكورين هو أمانة بأيديهم من قبل صاحبه، وله أحكام يأتي ذكرها.

الأمانة الشرعية:

هي أن لا يكون المال مدفوعاً لآخر بعنوان الأمانة، بل هو بحكم الشرع أمانة، مثال ذلك أن يقع مال شخص بيد آخر قهراً، كما لو حملت الرياح لباس شخص ونقلته إلى منزل جاره، أو جاء سيل فحمل متاع شخص إلى دار غيره، أو ضاع حيوان ودخل منزل شخص، أو يشتري المشتري بضاعة موصدة ويظهر فيها مال للبائع، أو يأخذ البائع من المشتري اشتباهاً أكثر من الثمن، فإن الزيادة هنا تكون أمانة عند البائع وهكذا بالنسبة للمشتري إذا أخذ جنساً أكثر.

وهكذا المال الذي يلتقطه الإنسان، فإنه أمانة ترجع إلى صاحب المال يجب حفظها وإعادتها، بتفصيل مذكور في الرسائل العملية. أو الضالة التي يعثر عليها، أو مال مسروق وقع في يده، فإنه لا يستطيع إعادته إلى السارق أو الغاصب، أو المال المأخوذ من الطفل أو المجنون فإنه يبقى بيده أمانة، ويجب عليه إرجاعه إلى ولي الطفل أو المجنون، أو تسلم رسالة شخص إلى آخر اشتباهاً، فإنه يجب إيصالها إلى صاحبها، ويحرم فتحها وقراءتها.

خيانة أمانة الناس:

إذا كان في يده مال لغيره أمانة مالكية أو شرعية يحرم عليه خيانتها، كما مضى، فإن خيانتها من الذنوب الكبيرة، والخيانة تحصل بأمور ثلاثة: التعدي، التفريط، المسامحة في الرد.

١ ـ التعدي على الأمانة:

بالتطاول والتصرف بها بما لم يسمح به صاحبها، كالتصرف بالأموال التي هي أمانة، وإن كان ذلك التصرف بعنوان الاقتراض، وكان مصمماً على إعادة مثلها، إلا أنه يصبح بمجرد هذا التصرف خائناً بالأمانة.

أو استعمال اللباس أو الفرش الذي وضع عنده أمانة، أو الركوب على مركوب أمانة عنده وبدون إذن صاحبه.

وكذلك فتح صندوق أو كيس موضوع عنده أمانة، أو قراءة كتاب بدون إذن صاحبه، بل ليس من الصحيح تغيير مكان الأمانة بدون عذر شرعي، في صورة ما إذا كان صاحبها قد عين لها مكاناً محدداً.

وفي جميع هذه الموارد، إذا تلفت الأمانة يكون ضامناً لها، ويجب عليه دفع عوضها لصاحبها، لأنه بعد التعدي عليها أصبح خائناً لا أميناً حتى لا يجب عليه الضمان.

٢ ـ التفريط في الأمانة:

وهو أن يقصّر في حفظها، ويتسامح فيما يلزم عرفاً حفظها به، مثلاً: إذا

كانت الأمانة مالا نقدياً فيجب وضعها في مكان محفوظ بعيد عن التناول لكي لا تؤخذ، أو إذا كانت الأمانة فرشاً، أو لباساً أو كتاباً فإن عليه أن لا يضعها في مكان مرطوب، وفي الصيف يجب أن يواظب على الفرش والفرو، واللباس الصوفي.

وإذا كان حيواناً فعليه أن لا يهمل سقيه وعلفه ويراعي مكانه.

وأيضاً لا يستطيع أن يرسل هذا المال إلى غيره مهما كان ذلك الشخص أميناً وصالحاً، إلا إذا أجاز صاحب المال، وإذا أراد أن يسافر فإنه لا يستطيع أن يصحب معه الأمانة، كما لا يستطيع إرسالها للغير إلا بإجازة المالك، وبناءً على ذلك، إذا أراد أن يسافر وكان المال موضوعاً في مكان أمين ـ حسب العادة ـ إلى أن يرجع، ولم يكن حفظ المال يتطلب وجوده، فهنا يجوز له أن يسافر، أما إذا كان سفره يعرض الأمانة الى الخطر، فإنه يجب عليه حينئذ إعادة الأمانة إلى صاحبها أو إلى وكيله، وإن لم يكن ذلك ميسوراً أودعها عند الحاكم الشرعي، أو ترك السفر، وإذا كان السفر ضرورياً وجب عليه تحويلها إلى شخص أمين ثقة، أو اصطحابها معه.

ويجب أن يعلم أن من لا يستطيع الخروج من عهدة الأمانة لا يحق له أن يقبل الأمانة، وفي صورة ما إذا أوضح لصاحب المال أنه غير مستعد لقبول الأمانة، ولكن صاحب المال لم يعتن بذلك، وترك المال عنده وذهب، ففي هذه الصورة إذا تلف المال لا يكون الشخص ضامناً له، وإن كان الأجدر به أخلاقياً أن يحفظ ذلك المال حدّ الإمكان، فإن رفض الأمانة ليس واجباً عليه، كما أنه في عين الوقت لا ضمان عليه إذا لم يحفظها.

وليس خفياً أو الوديعة من العقود الجائزة، يستطيع كل واحد من الطرفين في أي وقت كان فسخها، وبناءً على ذلك، متى ما أراد إرجاع أمانته كان له ذلك، ووجب على الأمين إعادتها، وهكذا متى أراد الأمين إعادة الأمانة إلى صاحبها كان له ذلك، ولا يستطيع المالك أن يرفض قبولها.

٣ ـ المسامحة في رد الأمانة:

إذا كان المال أمانة مالكية بيد أحد، وكان المقصود هو مجرد حفظها، ففي أي وقت طلبها وجب عليه فوراً تسليمها، بنحو لا يقال في العرف إنه يتماهل في ذلك، حتى لو كان صاحب المال كافراً حربياً، وكان ماله مباحاً، نعم إذا كان صاحب الأمانة سارقاً أو غاضباً، ففي هذه الصورة لا يجب إعادة المال إليه، بل الواجب تسليمه لصاحبه الحقيقي.

وهكذا يجب إعادة الأمانة إلى صاحبها حينما يخاف عليها من التلف، وإن لم يكن ميسوراً له إعادتها لصاحبها يسلمها إلى الوكيل أو الحاكم الشرعي حسب الترتيب، وهكذا إذا رأى في نفسه علامات الموت فيجب عليه أن يفعل ذلك أيضاً، وإن لم يتيسر له شيء من ذلك سلمها إلى وارثه إذا كان أميناً، وإلّا وجب عليه الوصية بها والإشهاد عليها، ويبين للوصي والشاهد اسم صاحب المال وجنسه وخصوصياته.

وأيضاً إذا مات صاحب المال وجب على الأمين تحويل المال إلى الوارث، إلّا إذا كان الوارث غير معروف، وكان بانتظار تعيينه، وإذا كان الوارث متعدداً يجب أن يجمعهم ويوصلها لهم جميعاً، أو يسلمها إلى وكيلهم، وأما إذا سلمها لواحد منهم، فإنه يكون ضامناً لسهام الآخرين.

الإجارة، العارية، الرهن، المضاربة:

إذا كان المال أمانة مالكية ـ بعنوان آخر غير الوديعة ـ بيد شخص، كما في العارية، والإجارة، والرهن، والمضاربة، فإذا ارتفعت هذه العناوين ـ كما إذا انتهت مدة الإجارة مثلاً ـ وطالبه صاحب المال بماله، فيجب عليه فوراً أن يسلمه، وذلك لأن الإجارة والرهن والمضاربة من العقود اللازمة، وما لم تتم مدة الإجارة فإن المالك لا يستطيع أن يطالب بماله. وما لم يف المدين بدينه لا يستطيع أن يسترجع الرهينة من صاحب الطلب، وما لم تنته مدة عقد المضاربة لا يحق له استرداد المال.

وقال بعض إنه بمجرد أن تنتهي مدة الإجارة والمضاربة، وبمجرد فك الرهن يجب على المستأجر والعامل المرتهن إعادة المال إلى صاحبه فوراً، حتى وإن لم يطالب بذلك، اللهم إلا إذا أمهله في ذلك.

أما العارية (وهي دفع مال لآخر ليستفيد منه مجاناً) فحيث إنها من العقود الجائزة، فإنه يجب إعادتها بمجرد مطالبة صاحبهابها، كالوديعة.

البحث عن المالك والتصدق نيابة عنه:

في الأمانة الشرعية إذا كان يعرف صاحبها يجب إعادتها إليه، حتى وإن كان صاحبها لا علم له بها، أو كان لا يطالبه بها، وأما إذا كان لا يعرفه وجب عليه أن يبحث عنه لمدة سنة، على تفصيل مذكور في الرسائل العملية، وبعد انتهاء العام يدفعها صدقة عن صاحبها.

البلوغ والعقل في طرفي الوديعة:

الشرط في صحة الوديعة أن يكون الطرفان ـ المودع والمستودع ـ عاقلين بالغين، وبناءً على ذلك لا يجوز في جميع الأحوال أن يتصرف بمال الصبي والمجنون إلا بإذن وليّه، وإذا أخذ المال من يد الصبى والمجنون، فإن تلف كان ضامناً له، ويجب عليه إعادته إلى وليهما، ولا يستطيع إعادته للطفل أو المجنون، نعم إذا وجد مالاً بيد الصبي أو المجنون وخاف عليه من التلف، فإنه يستطيع من أجل حفظه أن يأخذه منهما ويسلمه إلى وليهما، ولو تلف فإنه لا ضمان عليه.

* * *

ما ذكر هو الأحكام المهمة في الائتمان وأقسام الخيانة، ولأجل الاطلاع على سائر الأحكام والتفاصيل راجع كتب الوديعة والعارية والرهن والوكالة، وغيرها من الكتب الفقهية.

المهم هو أن نعرف أهمية الأمانة وكبر ذنب الخيانة كما ذكر، ولأجل مزيد الاطلاع نكتفي باستعراض آية واحدة وعدة روايات.

الله تعالى يمدح الأمناء:

يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ** (النصارى) **مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ** (اليهود) **مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمَاً، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ ٣/٧٥.

في هذه الآية مدح الله تعالى النصارى الذين يؤمنون بحرمة الخيانة، حتى إذا كانت لقوم على غير دينهم، ويؤدونها لهم، وذم الله تعالى اليهود الذين يخونون الأمانة ولا يؤدونها لصاحبها إذا كان على غير دينهم، مهما كانت قليلة، ويجوّزون الخيانة ،ويتهمون الله حيث يعتبرون هذا الأمر حكماً إلهياً.

قال رسول الله (ص) حين قرأ هذه الآية: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة، فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر». (مجمع البيان).

من هنا يعلم أن الخونة يساوون اليهود في هذه الجهة، وإذا كانوا يعتقدون جواز الخيانة دخلوا في قائمة أعداء الله.

المقاصّة من مال الأمانة:

لما كانت الآيات والروايات الواردة عامة لكل الموارد، ذهب الشيخ في كتاب (النهاية) وجماعة من قدماء الفقهاء إلى أن المقاصة من مال الأمانة ليست جائزة، كما روى ذلك الشيخ في حديث صحيح عن سليمان خالد أنه سأل الإمام الصادق (ع): **عن رجل لي عليه دين فأنكره وحلف على ذلك، وكان له عندي أمانة، أيحق لي أن استعملها في قبال الدين؟**

فقال (ع): «إن خانك فلا تخنه، ولا تدخل فيما عبته عليه».

وفي هذا المجال وردت روايات أخرى، إلا أن المرحوم السيد اليزدي، في كتاب القضاء من ملحقات العروة الوثقى، ذكر أن المشهور بين الفقهاء أنه

لا مانع من المقاصَّة في مال الوديعة، وقد أفتى هو بجواز ذلك، إلا أن الاحتياط في ترك ذلك.

سئل الإمام الصادق (ع): «عن الرجل يبعث إلى رجل يقول له: ابتع لي ثوباً، فيطلب له في السوق فيكون عنده مثل ما يجد له في السوق، فيعطيه من عنده؟

قال (ع): «لا يقربن هذا ولا يدنس نفسه، إن الله عز وجل يقول: إنّا عرضنا الأمانة... إلى آخر الآية..»

وقال (ع): «وإن كان عنده خير مما يجد له في السوق فلا يعطه من عنده». (تفسير الكافي).

وسر الخيانة في هذه المعاملة ظاهراً، هو أن وكالة هذا الشخص إذن في شراء القماش الموجود في السوق، ونظير ذلك حين يدفع شخص لآخر مالاً ويقول له ادفعه للسادة أو للفقراء، ونفس المستلم هو من السادة أو الفقراء، فإنه لا يستطيع أن يصرف هذا المال على نفسه بعنوان أنه سيد أو فقير، إلا إذا كان صاحب المال قد أذن إذناً عاماً يشمل هذا الشخص.

خيانة الأمانة ثقل يوم القيامة:

قال رسول الله (ص): «ألا لا يغلّنّ أحد بعيراً فيأتي به على ظهره يوم القيامة له رغاء».

ألا لا يغلن أحد فرساً فيأتي به يوم القيامة على ظهره له حمحمة، فيقول: يا محمد (ص)، فأقول قد بلغت، لا أملك لك من الله شيئاً» (الكافي).

وذكر البعير والفرس في هذا الحديث إنما هو من باب المثل، فكل ما خان به الإنسان لا ينفصل عنه يوم القيامة، بل يحمله على ظهره.

وقد روى العلامة المجلسي بعد نقل هذا الحديث في معنى الغلول رواية عن رسول الله (ص)، أنه أمر من ينادي في المسلمين: «ردّوا الخيط والمخيط، فإن

الغلول عار وشنار يوم القيامة». فأقبل رجل معه قبضة شعر كان قد أخذه، وقال: أخذته لأخيط به سرج بعيري، فأعفاه رسول الله (ص) من سهمه، وأمره أن يدفع قيمة سهام سائر المسلمين ليوزع عليهم».

يعرف المجرمون بسيماهم:

وذكر العلامة المجلسي أن مال الخيانة يعلق في عنق صاحبه ليعرف به، وهو أمر كلي في كل ذنب لم يتب منه الإنسان، فإنه يحشر يوم القيامة يحمل معه مثل ذنبه ـ إذا أراد الله أن يعامله بعدله ـ حتى يعرف أهل المحشر سبب استحقاقه للعقوبة، فيحشر شارب الخمر ومعه إناء الشراب يؤذي برائحته أهل المحشر، ويحشر صاحب الطنبور مع آلات طربه، ويحشر صاحب القمار مع آلات قماره وهكذا...

الرسول (ص) يخشى من بقاء الأمانة:

ورد أن فقيراً في مسجد رسول الله (ص) سأله أن يعطيه، فقال له (ص): اجلس، الله قادر، وجاء فقير آخر فأعاد عليه القول، وجاء فقير ثالث فأعاده القول، حتى دخل رجل المسجد ومعه أربعة أصواع من الحنطة دفعها زكاة إلى رسول الله (ص)، فدفع (ص) لكل واحد من هؤلاء الفقراء صاعاً.

وبقي عنده صاع، فأعلن (ص) للناس بعد صلاة المغرب والعشاء: من كان مستحقاً فليأت ويأخذ الصاع، فلم يأت أحد، فاضطر (ص) وأخذ صاع الحنطة إلى منزله.

يروى عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله (ص) مضطرباً تلك الليلة، فسألته عن السبب فقال: أخاف أن أموت الليلة وتبقى هذه الأمانة في ذمتي، ولا أدفعها لأهلها.[1].

وأيضاً روي أنه صلى الله عليه وآله في مرض وفاته، كان لديه ستة أو سبعة دنانير من أموال الفقراء أمانة عنده، فطلبها وعدّها وقال: ما أخوف أن يلقى

(١) الرواية ليست نصاً.

محمد ربه ومعه هذه الدنانير، ثم دفعها للإمام أمير المؤمنين ليوصلها إلى الفقراء وقال عندئذ: الآن استرحت[1].

سر الآخرين أمانة:

أحياناً تكون الأمانة عبارة عن كلام أو مطلب سري لشخص عند آخر، إما بنحو الاختيار، كما إذا حدَّث أحداً بأمر وقال له لا تحدث به الغير وهو أمانة عندك، أو بنحو القهر ومن دون اختيار، كما إذا سمع كلاماً عن أمر سري من شخص يتحدث به، أو رأى شيئاً منه لا يرضى هو بكشفه، ففي هذه الصورة متى ما كشف ما سمعه أو ما رآه عدّ خائناً بالأمانة، كما في الكلمات القصار لأمير المؤمنين(ع): «إذاعة سر أو دعته غدر».

ولا فرق في الحرمة بين إشاعة سر العدو والصديق، الصالح والطالح.

المجالس بالأمانات:

قال رسول الله (ص): «المجالس بالأمانة، ولا يحل لمؤمن أن يقول عن أخيه المؤمن قبيحاً». (بحار الأنوار).

وعنه (ص) أنه قال: «يا أبا ذر: المجالس بالأمانات، وإفشاؤك سر أخيك خيانة، فاجتنب ذلك». (وسائل الشيعة).

وما يقع في المجلس هو أمانة عند أهل المجلس، لا ينبغي إشاعته إلا في ثلاثة أمور، كما ورد في الحديث: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس:

مجلس سفك فيه دم حرام، ومجلس استحل فيه فرج حرام، ومجلس استحل فيه مال حرام بغير حقه». (بحار الأنوار).

ففي هذه الموارد الثلاثة يحق لكل واحد من الحاضرين أن يشهد عند القاضي من أجل إحقاق الحق، بل في بعض الموارد المتقدمة يحرم الكتمان.

وفي سورة التحريم وبخ ربّ العالمين بعض زوجات النبي (ص) (عائشة

(١) الرواية ليست نصاً.

وحفصة) اللتين خانتا رسول الله (ص) وأفشتا سره، ودعاهما للتوبة من هذا الذنب الذي سوّد قلبيهما.

يقول تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ٦٦/٤.

ونبه الله تعالى في هذه السورة على خيانة امرأة لوط وامرأة نوح قائلاً: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾. سورة التحريم الآية ١٠.

إفشاء السر خيانة للأمانة:

عن عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق (ع) قال:

قلت له: عورة المؤمن على المؤمن حرام؟

قال: (ع) نعم

قلت: تعني سفليه؟

قال (ع): «ليس حيث تذهب، إنما هو إذاعة سره». (الكافي).

وقال (ع) أيضاً: «من غسل ميتاً مؤمناً فأدى فيه الأمانة غفر له، قيل: وكيف يؤدي فيه الأمانة؟

قال: «لا يخبر بما يرى» (الأمالي).

يعلم مما سبق أن إفشاء السر على العموم خيانة، سواءً كان صاحب السر قد جعله عنده أمانة، أو بنحو الصدفة والاتفاق عرف عنه خبراً ما، وهذا القسم الأخير له أقسام ومراتب، فهو ينطبق على النميمة أحياناً، وأحياناً على الغيبة، وسنذكره في محله إن شاء الله تعالى.

أسرار المسلمين للكفار:

ومن جملة الخيانة لله، ولرسوله، ولجميع المسلمين، حتى لذات الخائن، هو إفشاء أسرار المسلمين السياسية والعسكرية للكفار الذين يشتركون في حرب المسلمين، ويكون بذلك تقوية الأعداء وانكسار المسلمين، ولعل إلى ذلك تشير

الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾. السورة ٨ الآية ٢٧.

وروي عن سبب نزول هذه الآية عن جابر بن عبد الله، أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبرئيل (ع) النبي (ص) فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا. قال: فكتب إليه رجل من المنافقين أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم، فنزلت هذه الآية، ويذكر في ذيل الآية موضوع خيانة أبو لبابة وتوبته.[1].

الأمناء في ظل عرش الله:

حيث كان كتمان السر أمراً صعباً إلا لأصحاب النفوس الزكية، ذوي الهمة العالية والحيوية والغيرة، من هنا كان له آثار عظيمة يمكن أن توجد في أصغر أعمال الخير، وتلك الآثار هي الأمان من أهوال يوم القيامة، حيث إن أمناء السر في ذلك اليوم في آمن مكان وأشرفه، وتحت ظل عرش الله، فقد ورد عن الإمام موسى بن جعفر (ع) أنه قال: «ثلاثة يستظلون بظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، رجل زوّج أخاه المسلم أو أخدمه أو كتم سره». (خصال الصدوق).

(١) وخلاصة القصة أن رسول الله (ص) حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله (ص) الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم ،إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله (ص) إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله (ص) فأتاهم فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة، ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا، فأتاه جبرئيل (ع) فأخبره بذلك.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي مكانها حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله (ص) هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده.

لا يطلع الغير على سره:

أوصتنا الروايات بأن لا يبيح أحد سره للغير مهما كان قريباً وصديقاً، إذ من الممكن أن لا تدوم المحبة، وتنقلب إلى عداوة، وقليل من الأشخاص من يمنعه إيمانه عن كشف أسرار عدوه.

يقول الإمام الصادق (ع) لأصحابه: «لا تطلع صديقك من سرك إلا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك، فإن الصديق قد يكون عدوك يوماً»:[1] (بحار الأنوار).

قدوة الأمناء:

يليق بنا في خاتمة هذا البحث أن نتعلم من المثل الصالح للأمناء، فحين وصل سيد الشهداء (ع) إلى الحاجز من بطن الرمة، كتب إلى مسلم بن عقيل

---

(١) استشهد المصنف هنا بشعر فارسي عدلنا عن ترجمته، ثم أضاف المصنف في الهامش قائلاً:

ينقل عن بعض الصالحين حين أراد أن يطلق زوجته أنه سئل: أي عيب رأيت منها تريد طلاقها من أجله؟

فقال: إن العاقل ـ في أي وقت ـ لا يهتك زوجته، ولما انتهت عدتها وتزوجت زوجاً آخر سئل: الآن ـ وهي ليست زوجتك ـ أي عيب كان فيها حتى طلقتها؟

فقال: ما أنا وزوجة الناس؟

لهذا فإن من جملة حقوق الزوجة على زوجها أن لا يكشف أسرارها، ويبقى هذا الحق حتى بعد الطلاق.

كما أن هذا القسم من الخيانة أمر مذموم لدى جميع طبقات الناس، حتى عند أولئك الأرجاس مثل ابن زياد لعنة الله عليه، ففي كتاب (العقد الفريد) جاء أن ابن زياد عير عمر بن سعد حيث أفشى وصية مسلم بن عقيل... فقد جاء في كتب المقاتل أن مسلم بن عقيل حين عرف تصميم ابن زياد على قتله قال: دعني أوصي إلى بعض قومي؛ قال: افعل، فدعا عمر بن سعد وقال له: إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة وهي سر، فلم يمكّنه ابن سعد من ذكرها، فقال له ابن زياد: لا تمنع من حاجة ابن عمك، فقام معه فجلس حيث ينظر إليهما ابن زياد فقال: إن علي بالكوفة ديناً استدنته أنفقته سبعمائة درهم فاقضها عني، وانظر جثتي واستوهبها فوارها، وابعث إلى الحسين عليه السلام من يردّه.

فقال عمر بن سعد لابن زياد: إنه قال كذا وكذا.

فقال ابن زياد: لا يخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن.

وشيعته في الكوفة قائلاً: «أما بعد فقد ورد علي كتاب مسلم بن عقيل يخبرني باجتماعكم على نصرنا، والطلب بحقنا، فسألت الله أن يحسن لنا الصنع ويثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة، فإذا قدم عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم، فإني قادم في أيامي هذه...».

وبعث الرسالة مع قيس بن مسهر الصّيداوي، فسار إلى الكوفة، وفي القادسية قبض الحصين بن نمير التميمي على قيس بن مسهر الصيداوي، وكان ابن زياد أمره أن ينظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان، ومنها إلى القطقطانة.. ولما أراد أن يفتشه أخرج قيس الكتاب وخرقه.

وجيء به إلى ابن زياد فقال له: لماذا خرقت الكتاب؟

قال: لئلا تطلع عليه، فأصر ابن زياد على أن يخبره بما فيه فأبى قيس.

فقال: إذاً، اصعد المنبر وسب الحسين وأباه وأخاه، أو لأقّطعنّك إرباً.

فصعد قيس المنبر وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي وآله، وأكثر من الترحم على أمير المؤمنين والحسن والحسين، ولعن عبيد الله بن زياد وبني أمية ثم قال:

أيها الناس: أنا رسول الحسين إليكم، وقد خلفته في موضع كذا فأجيبوه.

فأمر ابن زياد أن يرمى من أعلى القصر، فرمي وتكسرت عظامه ومات، ويقال: كان به رمق فذبحه عبد الملك بن عمير اللخمي، فعيب عليه، قال: أردت أن أريحه.

ولما وصل خبر مقتله إلى الحسين (ع) سالت عيناه دموعاً وقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

ثم رفع يديه بالدعاء وقال: «اللهم اجعل لنا ولهم الجنة، واجمع بيننا وبينهم في مستقر من رحمتك ورغائب مذخور رحمتك».

* * *

(٢٣) ـــــــــــــــ السرقة

الثالث والعشرون من الذنوب التي ورد التصريح بأنها من الكبائر هي السرقة، كما عدت في رواية الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (ع) ضمن الكبائر، وهكذا أيضاً في رواية الأعمش عن الإمام الصادق (ع)، وقال رسول الله (ص): «لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن».

أي أن الزاني في حال الزنى، والسارق في حال السرقة تذهب عنهما روح الإيمان، حتى لو ماتا في تلك الحال لماتا على غير إيمان.

وبعض الآيات والروايات الواردة حول الخيانة تشمل السرقة، ولا فرق في حرمة السرقة من الناحية الكمية بين الكثرة والقلة، حتى لو كان بمقدار الإبرة أو الخيط.

نعم إذا كان المال المسروق يعادل ربع مثقال من الذهب أو أكثر فيجب قطع يد السارق، مع اجتماع باقي الشروط التي ستذكر.

يروي محمد بن مسلم يقول:

قلت لأبي عبد الله (ع) في كم يقطع يد السارق؟

فقال (ع): في ربع دينار.

قلت له: في درهمين؟

فقال (ع): في ربع دينار، بلغ الدينار ما بلغ.

قال: فقلت له: أرأيت من سرق أقل من ربع الدينار، هل يقع عليه اسم السارق؟

فقال(ع): كل من سرق من مسلم شيئاً قد حواه وأحرزه فهو يقع عليه اسم السارق، وهو عند الله سارق، ولكن لا تقطع يده إلا في ربع دينار أو أكثر،

ولـو قطعت يـد السارق فيمـا هو أقـل من ربـع دينـار لألفيت عـامـة النـاس مقطّعين». (التهذيب).

حدّ السرقة:

قال تعالى في سورة المائدة: **﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** ٥/٣٨ ـ ٣٩.

جاء في كتاب (برهان القرآن):

إن واحـداً من المواضيـع التي آثار عليهـا أعداء الإسـلام ضجيجاً هـو موضوع قوانين الجزاء والعقوبات في الإسلام، حيث عدّوها قوانين وحشيـة غير متناسبة مع القرن العشرين، وعصر التقدم والتمدن، ولا قابلة للتطبيق، خصوصاً حول قطع يد السارق في حد السرقة، والرجم في حـد الزنى، فقد أثاروا ضجة كبيرة قائلين إن العلم والفلسفة في الوقت الحاضر أثبتا أن فقدان العدالة الاجتماعية، والظلم الاقتصادي هو الذي دفع المجرم للإقدام على الجريمة واقترافها، والحقيقة أن ارتكاب الجريمة هو نوع من أنواع الانحـراف الأخلاقي، وبناءً على ذلك فإن مسؤوليتنا مع هؤلاء المجرمين هو إصلاحهم ومعالجتهم، لا وضعهم تحت قبضة القضبان[1].

---

(١) هـذه هي خلاصـة شبهة المعتـرضين الذين يـدعون لتمـدن القرن العشـرين، ولكن هؤلاء غفلوا عن الجرائم والفجائع التي ترتكب في نفس هـذا القرن، وعلى أيـدي دعاة التمـدن والرقي أنفسهم، تلك الجرائم التي لا يمكن أن يقاس بها صرامة العقوبات الإسلامية.

فهل غفل هؤلاء المعترضون من دعاة التمدن والرقي عن إقدام فرنسا رافعة لواء الحرية، وسنبلة محبة البشرية ـ كما يعرّفونها ـ على قتل أربعين ألف شخص في شمـال إفريقيا، من دون أية جريمة وذنب سوى مطالبتهم بحقوقهم المشروعة؟

جاء في صحيفة كيهـان ٣٩/١/٢٥: في ثورة الشعب الجزائري المجاهد، ومن أجـل الخلاص من قبضة الدولة الظالمة فرنسا، أعطى الشعب الجزائري وخلال مدة ستة أعـوام ميليون شهيد من مجموع عشرة ملايين ـ عدد السكـان ـ ولم يكن ذنبهم سوى دفـاعهم عن حقوقهم الطبيعية.

إن من يلتفت إلى هذه الجرائم الوحشية المفجعة، سوف لا ينتقـد الإسلام في عقـوباتـه لبعض الأفراد الجناة.

نحن لا ننكر أن المحيط التربوي والوضع الاجتماعي لهما أثر عميق في تكوين الشخصية الأخلاقية، كما أننا لا ننكر ـ في كثير من المظالم الاجتماعية، وتجاوز الحقوق ـ وجود عقدة نفسية تحرف أخلاقية الإنسان وتدفعه نحو ارتكاب الجريمة، ومن هذه الزاوية نجد أن الإسلام لاحظ كل هذه الجهات في تشريعه الجنائي.

لكن مع كل ذلك لا يمكن أن نغفل ونتجاهل إرادة الأفراد، ونعتبر الإنسان موجوداً مسلوب الإرادة، وفاقداً للقدرة والشعور، ولا يمكن ـ تبعاً لعلم النفس ـ أن نحسب القوة المحركة في الإنسان ـ أو بالإصطلاح (الداينمو) ـ وننسى قوة الضبط والسيطرة (فرامل)، تلك القدرة التي تمكن الطفل ـ حين يبلغ سناً معينة ـ من حبس البول وعدم الإدرار في فراشه، هي أو نظيرها التي تجعل أعمال وتصرفات الإنسان تحت السيطرة، والمراقبة، وتمنعه من اتباع الشهوات والاستسلام أمام طوفان الهوى وعنفوانه.

وانطلاقاً من هذه الجهة، نجد في الدول الغربية التي نشأ فيها علم النفس التحليلي وتطور، أن المجرم لا يطلق سراحه من دون أية عقوبة، ولا يوضع الخائن والجاسوس موضع اللطف والرقة، بعنوان أن عقدته النفسية وسوء الأوضاع الاجتماعية هي التي بعثته إلى الخيانة والجناية، بل يرسل إلى السجن والعذاب والرمي.

كما أننا لا ننكر دور الظروف والشرائط الاقتصادية في تكوين المشاعر والعواطف، وفي هندسة الأفكار والأعمال، وأن الحرمان الدائم والفقر والجوع يولد الحقد والبغض الشديد في أعماق الروح، ويهيئ الإنسان لارتكاب المزيد من الجرائم، إلا أننا مع كل ذلك لا يمكننا اعتبار العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد المؤثر في أعمال الإنسان وسلوكه، ذلك أننا نعرف الكثير من الفقراء والمحرومين الذي لم يشقوا ثوب تقواهم وعصمتهم، ويؤدون وظائفهم بكامل العفاف والورع، وبمنتهى السلامة والاستقامة، رغم تحملهم الشدة والفقر، ومرارة الحرمان.

هذا مضاف إلى أنه لو كان العامل الاقتصادي هو المؤثر الوحيد في أعمال وسلوك الأفراد، لوجب أن تزول كل آثار الجريمة في الاتحاد السوفييتي، الذي زال منه الفقر والجوع والحرمان الاقتصادي، حسب ادعاء أنصاره المتعاطفين مع النظام الشيوعي، في حين أن الأمر على خلاف ذلك، حيث تقع هناك أيضاً أنواع الجرائم والجنايات.

ومع ملاحظة هذه الحقائق ـ حين نطالع سياسة الإسلام حول الحدود والعقوبات ـ نصل إلى هذه الحقيقة:

أولاً: إن الشريعة الإسلامية تبذل محاولاتها من أجل تحصين المجتمع من أسباب ودواعي ارتكاب الجريمة.

ثانياً: وبعد بذل تلك المحاولات وضعت الشريعة الحدود والعقوبات لأجل المنع من شيوع الجريمة، مطمئنة بأن هذه الحدود والعقوبات إنما تجري وفقاً لقانون العدالة، ذلك أنها إنما تجري على أولئك الذين لا توجد لهم دواعٍ ومبررات لارتكاب الجريمة، أما حين لا يكون المجتمع قادراً ـ بجهة من الجهات ـ على صد عوامل الجريمة، فإن العقوبة سوف تسقط، ويترك المجرم حرّاً، أو يكتفى بإجراء التعزير والتأديب عليه.

مثلاً: حين ننظر بدقة في السرقة وحدها، نرَ أن الإسلام لأجل المنع من السرقة، بدأ قبل كل شيء بتوزيع الثروة على أساس العدالة، وجعل الدولة مسؤولة عن تأمين المعاش لجميع الأفراد، مع قطع النظر عن العنصر، واللغة، واللون، والموقع الاجتماعي. وهكذا جعل الدولة مسؤولة عن توفير العمل المناسب لكل واحد من الأفراد، ومع عدم وجود العمل، فإن الدولة تؤمن الوضع المعاشي للفرد من بيت المال، ومن خلال هذه الإجراءات قطع الإسلام كل الدواعي والعلل الموجهة والمعقولة للسرقة، ومع وجود هذا الواقع قررت الشريعة الإسلامية ضرورة التحقيق الكامل في صورة وقوع السرقة، للتأكد من أن السارق لم يكن مجبراً أو مضطراً لارتكاب هذه

الجريمة، وبعد ثبوت ذلك قررت الشريعة إجراء الحد.

بناءً على ذلك فإن من المتفق عليه أن الحدود الإسلامية إنما تطبق وتكون مشروعة، في وضع اجتماعي تكون سائر القوانين والمقررات الإسلامية فيه مطبقة ومطاعة.

وبدون ذلك فإنه من الغني عن البيان أن الحدود الإسلامية لا يمكن إجراؤها في مجتمع غير إسلامي[1].

---

(١) يؤيد ذلك الرواية التي نقلها العلامة المجلسي في بحار الأنوار، والتي نستعرضها لقراء هذا الكتاب الأعزاء:

يقول محمد بن سنان: كنا عند مولاي الرضا (ع) بخراسان، وكان المأمون يقعده على يمينه إذا قعد للناس، فرفع إلى المأمون أن رجلاً من الصوفية سرق، فأمر بإحضاره، فلما نظر إليه وجده متقشفاً، بين عينيه أثر السجود فقال: سوءة لهذه الآثار الجميلة، ولهذا الفعل القبيح، أتنسب إلى السرقة مع ما أرى من جميل آثارك وظاهرك؟ قال: فعلت ذلك اضطراراً لا اختياراً حين منعتني حقي من الخمس والفيء.

فقال المأمون: وأي حق لك في الخمس والفيء؟ قال: إن الله عز وجل قسم الخمس ستة أقسام وقال: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾**... فمنعتني حقي وأنا ابن السبيل منقطع بي، ومسكين لا أرجع إلى شيء، ومن حملة القرآن.

فقال له المأمون: أعطل حداً من حدود الله وحكماً من أحكامه في السارق؟ من أساطيرك هذه؟

فقال الصوفي: ابدأ بنفسك فطهّرها ثم طهّر غيرك، وأقم حد الله عليها ثم على غيرك.

فالتفت المأمون إلى الرضا (ع) وقال ما تقول؟ فقال (ع): إنه يقول سرقت فسرق، فغضب المأمون غضباً شديداً، ثم قال للصوفي: والله لأقطعنك، فقال: أتقطعني وأنت عبد لي؟ فقال المأمون: ويلك! ومن أين صرت عبداً لك؟ قال: لأن أمك اشتريت من مال المسلمين، فأنت عبد لمن في المشرق والمغرب حتى يعتقوك، وأنا لم اعتقك، ثم بلعت الخمس بعد ذلك فلا أعطيت آل الرسول حقاً ولا أعطيتني ونظرائي حقنا.

والأخرى أن الخبيث لا يطهر خبيثاً مثله، إنما يطهره طاهر، ومن في جنبه الحد لا يقيم الحدود على غيره حتى يبدأ بنفسه، أما سمعت الله عز وجل يقول **﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**. فالتفت المأمون إلى الرضا (ع) =

والسبب في أن المعترضين يرون قانون العقوبات في الإسلام ـ ومنه قطع يد السارق ـ قانوناً وحشياً وقاسياً هو عدم اطلاعهم على قوانين الشرع ومقررات الفقه الإسلامي، ونتيجة هذا الجهل أنهم حين يسمعون هذا الحكم يتصورون مع أنفسهم أن الإسلام ـ بتشريع هذا القانون ـ أوجد مسلخاً يقطع فيه يومياً عدد من الأيدي، غافلين أن لهذا القانون شروطاً وقيوداً عديدة، يندر معها وصوله إلى مرحلة الإجراء، ومن هنا حين كانت الحدود الإسلامية وقوانين العقوبات تطبق، لم يجر هذا الحكم خلال أربعمائة عام إلا ست مرات فقط.

وفي ختام هذا البحث يقول:

وليس من العبث أن ننقل خبراً صغيراً، لكنه ذا معنى كبير لعشاق المدنية الحديثة، ومتميعي القرن العشرين، ونتحدث عنه في فصل من الفصول.

في نهاية الحرب العالمية الثانية، وضمن أخبار اليوم، نشرت الصحف خبراً بهذا المضمون: «طلبت روسيا من المعامل الأمريكية صنع أربعة ملايين رجلاً اصطناعية لأولئك الجنود الذين قطعت أرجلهم في الحرب» وبقليل من التأمل في هذا الخبر المختصر، يعلم جيداً مقدار الأعضاء التي قطعت نتيجة الحرب الموحشة الأخيرة، حيث يمكن أن نفهم:

١ ـ إن هذا الطلب قد تم بعد أن صنعت المعامل الروسية ما تستطيعه من الأرجل الصناعية وعجزت عن صنع المزيد منها، فتقدمت بطلب إلى المعامل الأمريكية لسد احتياجاتها الباقية.

= فقال: ما ترى في أمره؟ فقال (ع): إن الله جل جلاله قال لمحمد (ص): «فلله الحجة البالغة» وهي تبلغ الجاهل فيعلمها بجهله، كما يعلمها العالم بعمله، والدنيا والآخرة قائمتان بالحجة، وقد احتج الرجل.

فأمر المأمون عند ذلك بإطلاق الصوفي واحتجب عن الناس، واشتغل بالرضا (ع) حتى سمّه فقتله».

٢ ـ إن ملاحظة باقي أعضاء البدن قياساً إلى هذا العضو (الرِّجل) يوضح لنا مدى الخسائر في سائر الأعضاء، وحسب نقل صحيفة (اطلاعات) بتاريخ ١٩/٩/٣٩ شمسي، أن عدد الذين استفادوا من العيون الزجاجية في نهاية الحرب في بريطانيا وحدها، يزيد على مليون إنسان، ونقلاً عن كتاب (تاريخ الحرب العالمية الثانية): إن ٣٥ مليون نفر قتل في هذه الحرب، وحرم عشرون مليون نفر من اليد والرجل، وأريق سبعة عشر مليون ليتر من الدم الخالص، وأصيبت البشرية بمضرة ١٢ مليون جنين ساقط.

٣ ـ ولا تختص هذه الخسائر بالجنود السوفييت، بل إن المقاتلين من سائر الدول فقدوا مثل ذلك من أعضائهم.

نحن نسأل الأسياد الأوربيين ومقلديهم وأذنابهم، ما هو السبب في استحياشكم وانتقادكم حد السرقة، وقطع اليد ـ وهو محدود في نظر الشيعة بالأصابع الأربعة، حيث يستثنى من القطع الكف والابهام، وكما قيل سابقاً إنه لم ينفذ خلال أربعمئة عام إلا ست مرات ـ لماذا تنتقدون ذلك، ثم لا تتنفرون ولا تنزجرون ولا تستوحشون من الأعمال الوحشية التي ألقت في وادي الفناء ـ وخلال مدة قصيرة ـ مجموع تلك الأعضاء والنفوس البشرية؟ لماذا يعتبر قطع اليد بعنوان حد السرقة ـ حيث كان من الإسلام ـ عملاً وحشياً لا يتناسب مع تمدن القرن العشرين، ولكن جميع تلك الفجائع والجنايات الصادرة من أمم الغرب، تعتبر عملاً متمدناً ومتناسباً مع تمدن القرن العشرين.

وقد يتصور البعض أن هذه التلفات إنما هي من أجل تطوير المستوى المعيشي، ومكافحة الفساد الذي كان قائماً، ولكننا لدفع هذه الشبهة:

أولاً: نعيد لذاكرتنا أن هذه العناوين الخدّاعة إنما وضعت لاستغفال وتضليل أذهان الناس العوام، ولم يكن في هذه الفجائع والمظالم سوى

الأغراض المادية، والمطامع الاستعمارية في معادن وثروات الأمم الضعيفة.

وثانياً: نضيف لذلك أنه على افتراض صحة هذا التصور، فهل وضعت الحدود والعقوبات في الإسلام لهدف سوى تصعيد مستوى الفضيلة، والوقوف بوجه الفساد والرذيلة؟

مع وجود فارق، وهو أن الإسلام لا يقطع إلا يد السارق، أما في الحروب فإن أعضاء أفضل الشباب وأليقهم، وبدون أي تقصير وأي ذنب تقطع، وفي الحقيقة إن الذنب يرتكبه الزعماء السياسيون، بينما تقطع أعضاء الشباب البريء» (انتهى).

* * *

كما أن من الواضح أن الآية الشريفة مجملة من حيث كيفية السرقة، وكيفية قطع اليد، وفي بيان ذلك يجب الرجوع إلى أهل البيت (ع)، وقد وردت في شرح وتفصيل كل واحد من الأمرين روايات عديدة، خلاصتها ما يلي:

شروط إجراء حد السرقة:

عدة أمور يجب اجتماعها وتوفرها حتى تقطع يد السارق، ومع فقدان أي واحد منها فإن الحد لا يجري.

١ ـ البلوغ: فيجب أن يكون السارق الذي يراد إجراء الحد عليه بالغاً شرعاً حين السرقة، والبلوغ يتحقق بأحد أمور ثلاثة:

نبات الشعر الغليظ فوق العانة، الاحتلام، تجاوز خمسة عشرعاماً في الذكور، وإكمال تسعة أعوام في الإناث.

وبناءً على ذلك، إذا سرق الطفل غير البالغ فإن الحد لا يجري عليه، وإنما يؤدبه الحاكم الشرعي ويعزره بما يراه مناسباً.

روي في صحيحة عبد الله بن سنان: سألت أبا عبد الله (ع) عن الصبي يسرق:

قال (ع): «يعفى عنه مرة ومرتين، ويعزر في الثالثة، فإن عاد قطعت أطراف أصابعه، فإن عاد قطع أسفل من ذلك». (وسائل الشيعة ـ كتاب الحدود).

٢ ـ العقل: فإذا سرق المجنون لا يجرى عليه الحد، وإنما يؤدبه الحاكم الشرعي بما يراه مناسباً، إذا كان فيه نفع وتأثير.

٣ ـ الاختيار: فإذا سرق نتيجة الإجبار أو الإكراه فإنه لا حد عليه.

٤ ـ أن يكون المسروق مالاً قابلاً للتملك، فإذا سرق ما ليس مالاً قابلاً للتملك كما لو سرق طفلاً حراً، فإنه لا حد عليه.

٥ ـ أن لا تكون قيمة المال المسروق أقل من ربع مثقال شرعي من الذهب الخالص، والمثقال الشرعي هو ثماني عشرة حمصة، وربعه هو أربع حمصات ونصف.

٦ ـ أن لا يكون المال المسروق مال ابن السارق أو عبده، فإذا سرق الأب مال ولده، أو سرق السيد مال عبده، حتى إذا كان مكاتباً فلا تقطع يده، أما بعكس ذلك لو سرق الابن مال أبيه أو أمه، فإن الحد يجري عليه، وأما إذا سرق العبد مال مولاه ففي إجراء الحد خلاف.

وقال بعض الفقهاء إذا سرق العامل مالاً لرب العمل فإن الحد لا يجري عليه، إلا أن المشهور بين الفقهاء هو عدم الفرق بين العامل وغيره.

أما سرقة الضيف من المضيف ففيها قولان، والأصح هو إجراء الحد.

وبالجملة لا فرق في إجراء الحد بين العامل، والضيف، وغيرهما.

٧ ـ أن لا يكون المسروق طعاماً في سنة القحط، كما روي عن الإمام

الصادق (ع): «لا يقطع السارق في سنة المحل (المحق) في شيء مما يؤكل مثل الخبز واللحم وأشباه ذلك». (وسائل الشيعة).

٨ ـ وإذا سرق المقاتل من غنائم الحرب التي ساهم في تحصيلها، فإنه يعفى من إجراء الحد.

٩ ـ إذا سرق الشريك من مال شريكه مدعياً بأن ذلك المال هو حقه ونصيبه، فلا حد عليه.

١٠ ـ ويعفى المتهم بالسرقة من إجراء الحد إذا انتقل المال المسروق إليه شرعاً، بشرائه من صاحبه، أو بإرث أو بغير ذلك، وأصبح مالكاً له قبل أن تثبت سرقته عند الحاكم.

١١ ـ ولا يجري الحد إذا ادعى المتهم بأنه لم يأخذ المال بقصد السرقة، وكان ذلك أمراً محتملاً في حقه.

١٢ ـ إذا كان المسروق من المحرمات فلا حد عليه، فإذا سرق خمراً أو لحم خنزير وأمثال ذلك لم يجب عليه الحد.

١٣ ـ أن تكون السرقة في مكان يتوقف الدخول إليه على إذن صاحبه، وعلى هذا فإن السرقة في مسجد، أو حمام، وهكذا في سائر الأماكن العامة لا توجب الحد.

١٤ ـ أن يسرق من مال حرز، والمراد بالحرز المكان الذي يحفظ فيه المال، فحرز الجواهر، والذهب، والفضه صندوق محكم، وحرز الفاكهة البستان وليس الشجر، وحرز الدواب الإصطبل، وحرز القماش والأمتعة الدكاكين والمخازن، وهكذا الجيب في باطن الملابس لا الظاهر، هو حرز النقود، وهكذا القبر حرز الكفن.

١٥ ـ أن يكون السارق هو الذي أخرج المال من الحرز، وهو الذي حمله، وعلى ذلك فإذا كسر الحرز ولكن شخصاً آخراً أخرج المال وأخذه فهنا

لا يثبت الحد على أحد، ذلك أن الذي كسر الحرز لم يسرق، والذي أخذ المال لم يأخذه من حرز، نعم إذا كان الذي أخذ المال قد شارك في كسر الحرز ثبت عليه الحد وحده، وإذا اشترك اثنان أو أكثر في كسر الحرز وأخذ المال، وكان كل واحد قد أخذ ما يعادل ربع مثقال ذهب استحقا إجراء الحد.

ومتى ما كسر الحرز ولكنه حمل على دابة وأخذه، أو اصطحب معه طفلاً غير مميز أو مجنون ليأخذ المال، لم يسقط عنه الحد، ذلك أن الطفل والحيوان والمجنون هنا هو بمنزلة واسطة حمل ومجرد آلة.

١٦ ـ أن يأخذ المال خفية بنحو لا ينكشف إلا بعد ذلك، وعلى هذا فإذا أخذ المال علناً، بالقهر والغلبة وغيرها، لا يجري عليه حد السرقة، بل إذا كان قد أخذه بالسلاح جرى عليه حد المحارب وإن لم يكن بالسلاح ثبت عليه التعزير.

١٧ ـ إذا تاب السارق قبل أن تثبت عليه السرقة عند الحاكم الشرعي، سقط عنه الحد.

١٨ ـ لأجل إثبات السرقة يجب أن يشهد عادلان أو عادل واحد مع يمين صاحب المال، أو يقر السارق مرتين، أما إذا أقر مرة واحدة ولم يستعد للإقرار مرة ثانية، فإن المال المسروق يؤخذ منه، لكن لا يجري عليه الحد.

١٩ ـ وشرط إجراء حد السرقة أن يتابع صاحب المال قضيته ويطالب بإجراء الحد، أما إذا عفا عن السارق بعد المرافعة، وبعد أن ثبتت عليه السرقة، أو أخذ المال منه وصرف النظر عن إجراء الحد، فإن الحد يسقط في هذه الصورة.

٢٠ ـ ذكر بعض الفقهاء أن السرقة إذا ثبتت بإقرار السارق مرتين، لا بالبينة، فإن حاكم الشرع يستطيع إعفاء السارق من إجراء الحد، لمصلحة يراها

في ذلـك، كما يـروي الشيخ في كتـاب التهذيب: أن رجـلاً جاء لأميـر المؤمنين (ع) فأقر بالسرقة، فقال له عليه السلام: أتقرأ شيئاً من القرآن؟ قـال: نعم، سورة البقـرة، قال: قـد وهبت يدك لسـورة البقرة، فقـال الأشعث: أتعطل حداً من حدود الله؟ فقال (ع): وما يدريك ما هذا؟ إذا قامت البينة فليس للإمام أن يعفو، وإذا أقر الرجل على نفسه فذاك إلى الإمام، إن شاء عفا وإن شاء قطع».

* * *

بعد اجتماع هذه الشرائط المذكورة، يتعين على الحاكم الشرعي إجراء الحد، ولا يحق لغيره إجراء الحد، ومضـافاً إلى ذلـك يجب إرجاع المـال المسروق إلى صاحبه، وإذا كان قد تلف أخذ مثله إن كان مثلياً، وقيمتـه إن كان قيميّاً، ويعطى لصاحب المال.

وإن فقد واحد من الشروط السابقة سقط الحد، وأخـذ أصل المـال إن كان موجوداً، ومثله أو قيمته من السارق وأعطي إلى صاحبه.

نعم، في بعض الموارد يجب تأديب السارق وتعزيره.

ومقدار التعزير وكيفيته تـرتبط بنظر الحـاكم، مثل المختلس، وهـو من يسرق المال خفية من غير حرز، ومثل المستلب، وهـو من يسرق مـال الغير علناً ويهرب به، ومثل المحتـال، الذي يـأخذ أمـوال الناس بتـزوير الأسنـاد كالصكوك المزورة.

ففي هذه الموارد؛ بعد إعادة أصل المال إلى صاحبه، يجب على حاكم الشرع تعزيره وتأديبه، وهكذا من يفتـح القبر لأجـل أن يسرق مـا يوجـد مع الميت، فإنه يجب تعزيره، وهكـذا من يسرق كفن الميت ـ إذا كـانت قيمته تعادل ربع مثقال أو أكثر ـ فإنه يجب إجراء الحد عليه.

يجب الدفاع عن المال والعرض:

لما كان السارق بمثابة المحارب، فإن صاحب المال يستطيع أن يدافع

عن ماله، وإذا انجر ذلك إلى قتل السارق فإنه لا ضمان عليه، فإن دمه مهدور، وإذا أراد السارق الاعتداء على نفس الإنسان أو عرضه، وجب عليه الدفاع مع مراعاة مراتب الدفاع (الأسهل فالأسهل)، ولا ضمان عليه لو انجر ذلك إلى قتل السارق.

ولا يبقى خفياً أن أحكام السرقة كثيرة، وأقوال الفقهاء في الشرائط العشرين المتقدمة مختلفة، وحيث كان نقل جميع تلك الأقوال خارجاً عن وضع هذا الكتاب، كما أنه في عين الوقت قليل الفائدة، نظراً لعدم إجراء الحدود الشرعية زمن تأليف هذا الكتاب، ـ وهو زمن حكومة الطاغوت ـ لذا نكتفي بهذا المقدار.

كيفية إجراء الحد:

مع اجتماع الشرائط يجب على حاكم الشرع أن يقطع يد السارق اليمنى وتبقى الكف والإبهام.

وإذا سرق عدة مرات ولم يجر عليه الحد، يكفي إجراؤه عليه مرة واحدة، كما أنه لو سرق بعد إجراء الحد عليه، ومع اجتماع الشرائط المذكورة، تقطع قدمه اليسرى من أطراف الأصابع وإلى نصف القدم، وتبقى باقي القدم ليمشي عليها، وإذا سرق مجدداً يجب أن يحكم عليه بالحبس الأبدي، كما أنه لو سرق للمرة الرابعة وهو في السجن يجب أن يقتل.

أجل، إن اليد التي يجب أن ترتفع بالدعاء وإظهار العبودية لله، وتحل مشكلات الناس، وتزيل الفقر والمذلة عن رؤوس الأيتام والضعفاء، وتضرب في صدور وأفواه أعداء الدين، اليد التي ـ بدل تحصيل تلك المفاخر ـ تتلطخ بالسرقة والجريمة، ثم لا تستطيع مع كل التسهيلات والتسامحات أن تنجو من العقوبة، مثل هذه اليد لا مناص من قطعها، وبقطع مثل هذه اليد نضمن الأمن العام للمجتمع.

دية اليد وحد السرقة:

اليد التي تقطع من دون جرم يجب أن يؤخذ من الجاني خمسمائة مثقال ذهباً ويعطى إلى المجني عليه، فماذا حدث حتى يجب أن تقطع هـذه اليد في مقابل سرقة ربع مثقال ذهب؟

إن عزة الأمانة هي التي جعلتها غـالية، وذلـة الخيانـة هي التي جعلتها رخيصة، **على هذا فاعرف حكمة الله**[1].

* * *

(١)

يــد بخمس مئين عـسجـد وديـت	مـا بـالهـا قـطعت في ربــع دينـار
عـزّ الأمـانــة أغـلاهــا، وأرخصهـا	ذل الخيـانة، فـافهم حكمـة البـاري

الرابع والعشرون من الذنوب التي ورد التصريح باعتبارها كبيرة (التطفيف)، وأصل حرمته ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع والعقل، وعد في رواية الأعمش عن الإمام الصادق (ع)، وفي رواية الفضل بن شاذان عن الإمام الرضا (ع) من الكبائر، حيث قالا عليهما السلام: «والبخس في المكيال والميزان».

وفي القرآن المجيد جاء صريحاً الوعيد عليه بالعذاب الشديد، واختصت بهذا الموضوع سورة من القرآن المجيد (سورة المطففين) حيث يقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾. ٨٣/١ - ٦.

صحيفة أعماله في سجين:

﴿إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾. ٨٣/٧ - ٩.

ومعناه أن مكانهم - نتيجة لأعمالهم السيئة - في سجين، وسجين واد في جهنم، أو أن أعمالهم مكتوبة في سجين، وهو دفتر أعمال الكافرين والفاسقين.

وفي وصية (شعيب) يقول: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ، وإِنِّي أَخَافُ عَلَيكُم عَذَابَ يَومٍ مُحِيطٍ. وَيَا قَوْمِ أَوفُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. ١١/٨٤ - ٨٥.

المطفف لا إيمان له:

بناءً على ذلك يستفاد من الآيات القرآنية أن المطففين لا إيمان لهم بيوم الجزاء، وحساب يوم القيامة، ذلك أنه إذا كان لديهم يقين بل ظن بالمسؤولية، وأنهم يحاسبون يوم القيامة، ويطالبون بكل نقص اقتطعوه من الناس، لم يقدموا على مثل هذه الخيانة، ولو كان لديهم إيمان لعلموا أنّ صاحب الحق إذا كان غافلاً وغير ملتفت للخيانة، فإن رب العالم حاضر ومراقب للأعمال(١).

خمس صفات وخمس بلايا:

جاء في (تفسير منهج الصادقين) أن رسول الله (ص) قال: «ما نقض قوم العهد إلا سلّط الله عليهم عدوهم.

وما حكموا بغير ما أنزل الله إلاّ فشا فيهم الفقر.

وما ظهرت الفاحشة إلاّ فشا فيهم الموت.

ولا طفّفوا الكيل إلاّ منعوا النبات، وأخذوا بالسنين.

ولا منعوا الزكاة إلاّ حبس عنهم القطر».

نصيحة أمير المؤمنين (ع):

حين كان أمير المؤمنين (ع) يفرغ من إدارة الحكومة، يأتي إلى سوق

(١) يقال إنه كان هناك قصاب عابد للأصنام، وكان حين يبيع اللحم يعطي زيادة فيه، فلما سئل عن السبب أشار إلى ما فوق رأسه، فرأوا صنماً فقال: لأجل هذا الصنم أعطي زيادة. وينقل عن آخر أنه متى ما أراد أن يزن البضاعة ينظر إلى صنمه لكي لا يبخس في البيع. فما أسوأ مسار أولئك المسلمين الذين يعتقدون بأن الله حاضر وناظر، ومع ذلك هم يبخسون في البيع أو يرتكبون سائر الذنوب.

حينما كان يوسف (ع) مع زليخا في حجرة واحدة، ألقت زليخا بقناعها على وجه صنم كان هناك قائلة: إني استحي منه، فقال يوسف (ع): إنك تستحين من صنم صنعته أيدي الناس، لا شعور له، فكيف لا أستحي من إله سميع بصير، حاضر ناظر، ثم فرّ من ذلك المكان ولم يلوث نفسه بارتكاب الذنب.

الكوفة ويقول: «يا أيها الناس اتقوا الله، وأوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين».

يوماً ما رأى رجلاً يزن الزعفران ويثقل الكفة التي فيها الزعفران، فعرف (ع) أن وزنه غير صحيح، فأخذ الزعفران من الميزان وقال: «أقم الوزن بالقسط، ثم أرجح بعد ذلك ما شئت».

بين جبلين من النار:

ورد عن رسول الله (ص) أنه قال: «يحشر الخائن في الوزن والكيل في قعر جهنم بين جبلين من نار، ويقال له زِنْ هذين الجبلين، فهو دائماً مشغول بوزنهما»[1].

يقول مالك الدينار:

مرض لي جار فذهبت لعيادته وكان يحتضر، ويصرخ ويقول: ينتظرني جبلان من نار، فقلت له: أي رجل، إنّ هذا يخيل لك، فقال: لا، بل هو كذلك، فقد كان لي ميزانان أعطي بالقليل منهما وآخذ بالزائد، وتلك عقوبة ذلك.

التطفيف في العدّ:

في حكم التطفيف في الكيل والوزن، التطفيف في العد، فما يتعاطى بالذراع والمتر كالقماش والأرض، التطفيف فيه بالعد أيضاً، فيصدق عليه أنه مطفف إذا أعطى سانتيمتراً واحداً أقل.

وما يتعاطى بالعد مثل بيض الدجاج، إذا أعطى أقل من المقدار المتفق عليه من دون علم صاحبه كان مطففاً، يشمله ما قيل في حق المطففين، كما بين ذلك الشيخ الأنصاري في (المكاسب المحرمة).

مدين لصاحبه:

تكون ذمة المطفف مشغولة للطرف الآخر بمقدار النقص في العطاء،

---

(١) الرواية ليست نصاً.

وإذا مات المشتري وجب عليه دفعه إلى ورثته حسب استحقاقهم، وإن كان لا يعرف المشتري أصلاً، تصدق به نيابة عنه (والأحوط أن يكون ذلك بإجازة الحاكم الشرعي)، وفي صورة الجهل بمقدار النقص، وجب عليه مصالحة المشتري بمبلغ ما، وفي حال وفاته يصالح مع ورثته، وإن كان المشتري مجهولاً أجرى المصالحة مع الحاكم الشرعي.

الاحتيال تطفيف أيضاً:

حقيقة التطفيف كما تقدم، أن صاحب المال لا يدفع للمشتري المقدار الذي وقع عليه التعامل من الجنس، بل يدفع له أقل من ذلك. وإن كان مساوياً له بحسب الكيل والوزن، إلا أنه خلط معه شيئاً آخر لا قيمة له.

مثال ذلك أن يبيعه مائة مَنٍّ حنطة ثم يسلمه مائة مَنٍّ، إلا أنه خلطه بخمسة أمنان من التراب، فيكون بذلك قد دفع إليه أقل من المطلوب بخمسة أمنان حنطة.

أو يبيع للمشتري عشرة أمنان حليباً، ويعطيه ذلك، لكن يخلطه بمنٍّ من الماء، فيكون بالحقيقة قد دفع إليه تسعة أمنان.

أو يبيعه علب الدهن بمقدار عشرة أمنان، والحال أنه يضع فيها نصف مَنٍّ من الأحجار.

أو يبيع القصاب مَنّاً من اللحم ولا يدفع أقل منه، وإنما يعطيه من العظام أكثر من المتعارف عليه.

أو يبيعه جنساً جافاً ـ بحيث يجب أن يزنه وهو في حالة الجفاف ـ لكنه يضعه في مكان مرطوب، أو يخلطه بمقدار من الماء ليصبح ثقيلاً.

فجميع هذه الموارد تطفيف وذنب كبير.

الغش في المعاملة حرام أيضاً:

إذا أعطى للمشتري مقداراً من جنس آخر قيمته أقل، وجعله جزءاً من

كل المبيع، ولكنه كان بنفس الـوزن المتفق عليه، كـان بذلـك قد غش في المعاملة.

مثال ذلك: يبيعه مائـة مَنٍّ من الحنطة الجيـدة، في حين أنه يضـع فيه عشرة أمنان من الحنطة المتوسطة، أو يبيعه مَنّاً من السمن الحيواني، ولكنـه يخلطه بمقدار من السمن النباتي، أو الشحم، ونظائر ذلك، فإن جميعه حرام وغش في المعاملة.

يقول الشيخ في المكاسب المحرمة: إن الأخبار الواردة في حرمـة الغش متواترة، من جملتها ما نقله الصدّوق، أن رسول الله (ص) قـال: «من غشّ مسلماً في بيع أو شراء فليس منا، ويحشر مع اليهود يوم القيامة، لأنه من غش الناس فليس بمسلم. . إلى أن قال (ص): «ومن غشنا فليس منا ـ قالها ثلاثاً ـ ومن غش أخـاه المسلم نـزع الله بركة رزقه، وأفســد معيشتـه، ووكله إلى نفسه»[1]. (عقاب الأعمال).

(١) جاء في كتاب دار السلام (العراقي) أن الثقة العادل الملاّ عبد الحسين الخونساري ـ وكـان عطاراً محترماً في كربلاء ـ مرض مرضاً عجز جميع الأطبـاء عن معالجتـه، حتى أنفق كل مـا لديـه في المعالجـة فلم ينفع، إلى أن ذهبت لعيـادته يـوماً وأسفت لحـاله ورأيتـه يقول لبعض أولاده: خذ الشيء الفلاني وبعه واصرفه علي لينتهي أمري، فإما أحيا أو أموت.

لما سمعت منه هذه الكلمات قلت له: لم أفهم هذا الكلام، فكيف يتضح حـالك ببيـع ذلك المال؟

حين سمع ذلك تحسر وقال: اعلم أني لم أكن في بـداية أمـري ثريـاً، وكان السبب في غناي وتحصيل ثروتي هو أن حمى شديدة أو مرضاً آخر أصاب الناس في كربلاء في السنة الفلانية، وبـدأ الأطباء مكـافحته بمـاء الليمون الشيـرازي، ومن هنا أصبـح ماء الليمـون ـ آنذاك في مدينة كربلاء ـ غالياً ونادر الوجود، وكنت أنا أمزج ماء الليمون بـالماء بمقـدار ما يبقى عطر الليمون موجوداً، ثم أبيعه بسعر ماء الليمون الخالص.

واستمـر الحال حتى أصبحت أنـا الوحيـد الذي لـدي ماء الليمـون، فكـل من أراد مـاء الليمون كانوا يرسلوه إلى دكـاني، ولم تمض فترة حتى أصبحت ثـرياً وصـاحب رأس مال مهم، وأصبحت أجـالس ذوي الألوف، وهكـذا إلى أن انتهت عاقبتي إلى مـا أنـا فيـه من السـوء. فأنفقت كـلّ ما جمعتـه حتى لم يبق لـدي شيء آخـر، إلا الشيء الفـلاني الـذي التفتّ اليوم إلى أنه هو الآخر من أرباح ماء الليمون المغشوش، فقلت: اذهب وبعـه لعلي أخلص.

وروي عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: مرّ النبي (ص) في سوق المدينة بطعام، فقال لصاحبه ما أرى طعامك إلا طيّباً، فأوحى الله إليه أن يدس يده في الطعام ففعل، فأخرج طعاماً ردياً، فقال لصاحبه: ما أراك إلا وقد جمعت خيانة وغشاً للمسلمين». (عقاب الأعمال).

وفي رواية الحلي قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن الرجل يكون عنده لونان من الطعام، سعرهما شتّى، وأحدهما أجود من الآخر، فيخلطهما جميعاً ثم يبيعهما بسعر واحد؟

فقال عليه السلام: «لا يصلح له أن يغش المسلمين حتى يبينه». (عقاب الأعمال).

وعن داود بن سرحان قال:

كان معي جرابان من مسك، أحدهما رطب والآخر يابس، فبدأت بالرطب فبعته، ثم أخذت اليابس أبيعه، فإذا أنا لا أعطى الثمن الذي يسوي ولا يزيدوني على ثمن الرطب، فسألت أبا عبد الله (ع) عن ذلك أيصلح لي أن أندّيه؟

قال (ع): لا، إلا أن تعلمهم، قال فنديته ثم أعلمتهم، قال (ع): لا بأس».

التطفيف مع الله ومع الناس:

بالرغم من أن التطفيف ـ الذي هو من الذنوب الكبيرة، حتى أن مكان المطفف في (ويل) وهو واد في جهنم ـ عبارة عن الدفع أقل من حق المشتري عند ما يبيع، واستلام أكثر من حقه عندما يشتري كما تقدم، إلا أن من الجدير أن يواظب الشخص المسلم في جميع أعماله سواءً مع الله أو مع الناس، ولا يكون مطففاً.

= يقول الراوي: لم تمض فترة طويلة حتى فارق الدنيا، وظل حبيساً لأولئك الذين باع عليهم ماء الليمون.

فكما أنه يرغب في استلام حقوقه كاملة من الله ومن الناس، فكذلك جدير به أن يسعى في أداء حقوقهم بنحو أكمل.

مثلاً: من حقوق العبد على ربه أن يرزقه ولا يقطع النعمة عنه، ويغيثه عند الاضطرار، ويستجيب دعاءه كما وعد تعالى بذلك، ومن حقوق الرب على عباده أن لا يتخذوا معه شريكاً، وأن يشكروا نعمته، وأن لا يستعينوا بنعمه على المعصية، وهكذا، إذن فمن جعل الشيطان والنفس والهوى شريكاً لله تعالى، وسار في طريقهم، غير مجتنب لمعاصي الله، ولا يشكر عشر واحدة من النعم التي لا تحصى، كيف يتوقع أنه بمجرد أن يقول يا الله يسمع جواب لبيك؟وكل ما يريد يعطى سريعاً، وإذا تأخرت عليه إجابة الدعاء أصبح غير راض عن ربه، مفترضاً أنه هو صاحب الحق على الله، والحال أنه تعالى هو القائل ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ٢ / ٤٠.

إن وظيفة العبد الإطاعة والشكر، وفعل الله هو أن يزيد النعمة لمن أدى حق العبودية وحق الشكر، وإن مثل هذا العبد يستطيع أن يطالب الله بالزيادة وبالوفاء بوعده تعالى.

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «الحمد لله الذي أدعوه فيجيبني، وإن كنت بطيئاً حين يدعوني، والحمد لله الذي أسأله فيعطيني، وإن كنت بخيلاً حين يستقرضني، والحمد لله الذي يحلم عني حتى كأني لا ذنب لي...». (دعاء أبي حمزة الثمالي).

بناءً على هذا فمن يقصر في أداء وظيفة العبودية، ثم يطلب من الله أن ينجز له وعده ـ قولاً وفعلاً وحالاً ـ خارج عن ميزان العدالة، وهو في الحقيقة مطفف.

ضع نفسك في موضع الآخرين:

وهكذا من هو جاد في مطالباته مع الناس ولكنه متسامح في أداء حقوقهم.

مثلاً: يتوقع أن لا يستغيبه أحد، وإذا استغابه أحد يتوقع أن يدافع عنه السامع، ويبعد عنه العيب، ولو سمع أن أحداً ذكره بسوء ـ حتى لو كان ذلك صحيحاً ـ ثم لم يدافع عنه السامع يتأذّ كثيراً، ويغضب عليهم، في حين أنه هو لا يمتنع عن ذكر عيوب الآخرين، ولا يتصدى للدفاع ورد الغيبة، ودفع العيب عن أحد، أو مثلاً: يتوقع إذا كانت لديه أية معاملة مع أي أحد، أن لا يخونه ولا يغشه ولا يدلس عليه، في حين أنه هو في معاملاته مع الناس ليس كذلك.

أو يرغب إذا استدان منه أحد أن يفي بدينه قبل حلول الموعد المقرر، ويرجعه إليه قبل المطالبة، أو يرجع إليه الأمانة التي أخذها منه سالمة صحيحة من دون أية خيانة فيها، إلا أنه شخصياً يتسامح في وفاء ديون الآخرين، أو يخون في مقام رد الأمانة[1].

يجب على الإنسان أن يفعل مع الآخرين كلّ ما يتوقعه منهم شخصياً ولا يكون متساهلاً، وجاء في الروايات التعبير عن هذا المعنى بـ (الإنصاف).

الإنصاف أفضل الأعمال:

عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «سيد الأعمال ثلاثة:

إنصافك الناس من نفسك، حتى لا ترضى بشيء إلا رضيت لهم مثله.

ومواساة الأخ في المال.

وذكر الله على كل حال، ليس بسبحان الله والحمد لله فقط.

ولكن إذا ورد عليك شيء أمر الله به أخذت به.

وإذا ورد عليك شيء نهى الله عنه تركته». (الكافي).

ميزان العدالة للجميع:

وبنحو كلي، فإن ميزان العدالة، والقاعدة الإلهية الكلية في رعاية حقوق

---

(١) استشهد المصنف هنا ببيت شعر فارسي للشاعر سعدي الشيرازي.

الناس هي هذه الجملة الواردة في وصية الإمام أمير المؤمنين (ع) لولده الحسن المجتبى، حيث يقول: «يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك». (نهج البلاغة).

لا أن تعتبر العمل حسناً لأنه صدر منك، وتعتبره سيئاً لأنه صدر من الآخرين.

وعلى ذلك فمن لا يتبع هذا الميزان الذي بينه أمير المؤمنين (ع) في أقواله وأعماله مع الناس هو إنسان مطفف، وخارج عن جادة العدل والصراط المستقيم، ومعدود من الظالمين.

لكل شيء مقياس:

لجميع الأمور الاعتقادية، والملكات النفسية، ومختلف أنواع القول والعمل، مقياس يجب أن يتطابق معه الاعتقاد والوصف والقول والفعل، لكي يتحقق العدل الحقيقي، كما يقول تعالى في سورة الحديد: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾** ٥٧/٢٥.

علي (ع) ميزان الأعمال:

ميزان الأشياء الموزونة هو القبان، وميزان الاستقامة والانحراف في البناء هو (الشاقول)، وميزان كيفية المعاشرة مع الناس ذات الإنسان، وميزان معرفة العقائد الحقة من الباطلة، والصفات الفاضلة من الرديئة، والخير من الشر، هو القرآن المجيد والعترة الطاهرة عليهم السلام، وبالأخص أمير المؤمنين (ع) كما نقرأ في زيارته (ع): «السلام عليك يا ميزان الأعمال».

إذن، يجب أن تكون كل الأحوال، والأقوال، والأعمال موازنة لحالاته، وأقواله وأعماله، لكي تقع صحيحة.

ومن يجعل أعماله وأقواله (ع) ميزاناً هنا، فإنه لا يعطل في ميزان الحساب يوم القيامة، ويعبر على الصراط كالبرق. ولكن من الصعب جداً الخروج من العهدة، والاستقامة على الصراط المستقيم، وعدم الانحراف عن ميزان العدل الإلهي، وعدم الذهاب باتجاه الإفراط والتفريط، ذلك أن تشخيص وتطبيق الموارد الجزئية على ميزان العدل أمر دقيق جداً، وأدق من الشعرة، ثم العمل على أساسه بعد تشخيصه أمر مشكل، أشبه بالسير على شفرة السيف القاطع، بل أصعب منه، ولذا فإن الجميع يطول وقوفهم في الحساب، ويقعون أثناء عبورهم على الصراط باكين مرتجفين، ويتهاوون في العذاب من طرفيه كما يتهاوى الخفاش على أطراف المصباح، كما يقول تعالى في القرآن المجيد: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً. ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ ١٩/٧١ ـ ٧٢.

* * *

(٢٥) أكل الحرام

الخامس والعشرون من الذنوب التي ورد التصريح باعتبارها كبيرة (أكل الحرام)، كما هو في حديث الشرائع عن الإمام الرضا (ع) في كتاب عيون الأخبار، وهكذا في رواية الأعمش عن الإمام الصادق (ع).

وفي موضعين من القرآن الكريم ـ سورة المائدة ـ عد أكل الحرام من صفات اليهود **﴿وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكلِهِمُ السُّحتَ لَبِئْس مَا كَانُوا يصنَعُونَ﴾ ٥/٦٢ـ ٦٣**.

وأكل السحت الذي يعد من الذنوب الكبيرة معناه أكل المال الحرام، والمراد بأكل المال الحرام مطلق التصرف به، سواءً بنحو الأكل والشرب، أو بنحو اللبس والسكن وغير ذلك، أو أنه لا يصرفه ولكنه يمنع صاحبه عن التصرف فيه، ففي جميع هذه الموارد يقال إنه أكل المال الحرام، كما أن المراد من أكل مال اليتيم ومال الربا، حرمة جميع أنحاء التصرف فيه، لا خصوص الأكل والشرب.

وبالجملة، لا شبهة في حرمة جميع التصرفات في المال الحرام.

والسبب في التعبير عن المال الحرام بـ (السحت) هو أن السحت بمعنى الزوال والانعدام، والمال المسحوت بمعنى المال المأخوذ، والمقطوع من جذوره، وحيث إن المال الحرام لا بركة فيه، ولا ينتفع المتصرف به، لذا عبر عن أكل الحرام بأكل السحت. وظاهر لفظ (السحت) الشمول لجميع أقسام المال الحرام، بمعنى أن أي مال يتصرف به الإنسان بطريق حرام غير مشروع هو من أكل السحت[١].

---

(١) في كتاب (الإسلام والمعضلة الاقتصادية) للسيد أبو الأعلى المودودي يقول المؤلف: =

رغم أن المعصية والعقوبة في بعض الموارد أكثر من بعض، بل إن بعضها بحكم الحرب مع الله ورسوله (ص)، كالربا، وبعضها بحكم الكفر بالله، مثل الرشوة، كما روى الصدّوق عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «كل شيء غل من الإمام فهو سحت، والسحت أنواع كثيرة منها ما أصيب من أعمال الولاة الظلمة، ومنها أجور القضاة، وأجور الفواجر، وثمن الخمر والنبيذ المسكر، والربا بعد البينة، وأما الرشا ـ يا عمار ـ في الأحكام فهو الكفر بالله العظيم وبرسوله». (خصال الصدق).

وقريب من هذا المضمون ما ورد في الكافي عن الإمام الباقر (ع)، وأيضاً عن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «السحت ثمن الميتة، وثمن الكلب، وثمن الخمر، ومهر البغي، والرشوة في الحكم وأجر الكاهن» (وسائل الشيعة).

ومن هذه الأحاديث ونظائرها يعلم أن كل أقسام المال الحرام سحت،

= إن الإسلام يقبل حق الإنسان في تحصيل أمتعة الحياة، ويؤمن بحريته الكاملة في طرق التكسب، وتوفير لوازم المعيشة، إلا أن الإسلام لا يسمح أبداً في أن يسلك الإنسان ـ من أجل توفير لوازم المعيشة ـ الطرق التي تفسد أخلاقه وتضعه في معرض السقوط والانحطاط، أو تجر إلى الضرر بالتمدن الإنساني، وتفسد نظام المدنية.

إن القانون الإسلامي لم يحرم فقط المشروبات الكحولية، والمواد المخدرة، وسائر الفواحش والمنكرات، بل حرم كل الطرق التي توصل إلى تلك النتائج، فصنعها، والتوسط فيها، وبيعها، وشراؤها، واستعمالها حرام أيضاً.

الإسلام بنحو عام لا يرى الزنى والفحشاء عملاً انسانياً، ولا يعد الرقص حرفة مشروعة، ولا يعتبر الغناء طريقاً صحيحاً للكسب.

لقد اعتبر الإسلام كل عمل يؤدي إلى منفعة شخص والإضرار بأشخاص آخرين أو بمجتمع بشري كامل جرماً، ويعده ذنباً، أو أوعد عليه في الدنيا بعقاب شديد وفي الآخرة بعذاب أليم، وذلك مثل تعاطي الرشوة، السرقة، ـ الرسمية وغير الرسمية ـ القمار، الربا، وكل معاملة ومعاطاة فيها غش، وهكذا احتكار المواد الغذائية، والبضائع التي يحتاجها الإنسان، من أجل أن تتصاعد أسعارها بنحو تؤدي إلى الضغط المعيشي، وصعوبة الحياة، وهكذا كل الطرق التي تجر إلى النزاع والحرب والجدل...»

والحرمة والعقوبة في بعضها أشد، وأكل الرشوة أسوأها، حيث إنها في حكم الكفر، وآكلها ملعون عن رسول الله (ص).

أقسام الرشوة:

الرشوة على ثلاثة أقسام:

١ ـ الرشوة في مقام الحكم.

٢ ـ الرشوة للوصول إلى أمر حرام.

٣ ـ الرشوة للوصول إلى أمر حلال.

القسم الأول: ـ الرشوة في الحكم:

هي أن يدفع للقاضي ليحكم بصالحه، أو يدله على طريق الغلبة، حتى لو كان الحق مع الراشي، وحتى لو حكم القاضي بالحق.

وكما أن أخذ الرشوة حرام، والتصرف بها حرام ومن الذنوب الكبيرة، فكذلك دفع الرشوة حرام أيضاً، والآخذ والمعطي ملعون.

قال رسول الله (ص): «لعن الله الراشي والمرتشي والماشي بينهما». (سفينة البحار).

وقال (ص): «إياكم والرشوة فإنها محض الكفر، ولا يشمّ صاحب الرشوة ريح الجنة». (سفينة البحار).

على أن دفع الرشوة إعانة على الإثم.

نعم، في صورة الاضطرار لا مانع منها، وهكذا في كل وقت يضطر الإنسان من أجل تحصيل حقه إلى الرشوة، فإن ذلك جائز، وإن حرم أخذها على المرتشي، كما أن التوسط في أخذ الرشوة، وإيصالها إلى المرتشي، أو التوسط في زيادتها ونقصها حرام أيضاً، وقد سمي الوسيط في الروايات بـ (الرائش)، وأيضاً لا فرق في الرشوة بين أن تكون مالاً كالنقد والأملاك، أو

منفعة كمنفعة الدار والدكان ونظائرها، أو تكون عملاً كأن يخيط للقاضي بعنوان الرشوة أو يبني له، وقد تكون الرشوة أحياناً قولاً، كمدح القاضي والثناء عليه لاستمالته حتى يحكم بصالحه، ولا شبهة في حرمة جميع هذه الأقسام.

الهدية والخمس بعنوان الرشوة:

ومن جملة موارد الرشوة المالية ما يعطى بعنوان الهبة والهدية أو المصالحة، لكن بقصد الرشوة.

أو ما يعطى بعنوان واجب كالخمس والزكاة، لكن يدفعه بعنوان الرشوة، فهو حرام أيضاً، ويبقى الخمس والزكاة ثابتاً في ذمته، ذلك أن شرط صحة أداء الخمس والزكاة قصد القربة، وهو غير موجود في الرشوة.

القسم الثاني من الرشوة:

هو ما يدفع للحاكم العرفي أو الظالم أو الرئيس ليستعين بقوته على ظلم شخص، أو ارتكاب معصية.

ولا شك أن هذا القسم من الرشوة حرام كالقسم الأول، وأكل للمال بالباطل، كما قال تعالى في القرآن المجيد: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ وتُدْلُوا بِهَا الى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً من أموالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وأَنْتُم تَعلَمُونَ**﴾. ٢/١٨٨.

نهى تعالى المسلمين في هذه الآية عن أمرين: أحدهما أكل المال بطريق غير مشروع، كالسرقة والخيانة، ، والآخر إعطاء المال للحكام والأمراء للاستعانة بهم في أكل مال الناس.

القسم الثالث: الرشوة الحلال.

والقسم الثالث من الرشوة، أن يدفع مالاً لشخص من أجل الاستعانة به لتحصيل حقه، أو دفع الظلم عن نفسه، أو للوصول إلى أمر مباح.

وهذا القسم من الرشوة حلال، وفي الحديث عن محمد بن مسلم قال: «سألت أبا جعفر (ع) عن الرجل يرشوه الرجل على أن يتحول من منزله فيسكنه، قال (ع) لا بأس». (وسائل الشيعة).

والمراد بالمنزل في هذه الرواية ليس هو الملك الشخصي وإنما منزل مشترك، وأوقاف عامة كالمسجد والمدرسة والزقاق والسوق وما شاكل ذلك.

بناءً على هذا فمن جلس في مكان من مسجد أو مشهد مشرف، أو أحد الطلبة الذي يجلس في غرفة من المدرسة إذا أعطاه الغير مبلغاً ليقوم من مكانه، فإنه لا مانع من ذلك.

سأل حفص الأعور الإمام أبا الحسن (ع): «إن عمال السلطان يشترون منا القرب والأداوي فيوكلون الوكيل حتى يستوفيه منا، فنرشوه حتى لا يظلمنا؟

فقال: لا بأس ما تصلح به مالك.

ثم سكت ساعة، ثم قال:

إذا أنت رشوته يأخذ أقل من الشرط؟

قلت: نعم.

قال: فسدت رشوتك». (وسائل الشيعة ـ التجارة ـ أبواب أحكام العقود).

وخلاصة معنى الحديث أنه يجوز دفع الرشوة من أجل دفع الظلم، والوصول إلى الحق، أما الرشوة من أجل عدم دفع حقوق الآخرين فهي حرام.

يكره أخذ الرشوة الحلال:

يجب أن يعلم بأن إعطاء الرشوة من القسم الثالث بعنوان الهدية، وبهدف الوصول إلى أمر مشروع وهدف حلال، وإن كان جائزاً، إلا أن

أخذها لا يخلو من كراهة. ذلك أنها هدية شبيهة بالرشوة، وما أكثر ما يكون أخذها سبباً مساعداً في تسهيل أخذ الرشوة بالقسمين الآخرين المحرمين قطعاً.

إذن يجب على الإنسان المتورع أن يجتنب عن القسم الحلال، لكي لا يتورط يوماً ما بالحرام، ويحتمل أن الحديث الذي ذكرناه ناظر إلى هذا المطلب.

عن أمير المؤمنين (ع)، يقول في تفسير قوله تعالى ﴿**أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ**﴾.

قال (ع): «هو الرجل يقضي لأخيه حاجته ثم يقبل هديته». (عيون أخبار الرضا).

وقد ذكر الشيخ الأنصاري في المكاسب عدة وجوه لهذا الحديث، من جملتها أن يتورع عن أخذ الهدية من ذوي الحاجات لكي لا يبتلى يوماً ما بالرشوة الحرام.

آثار أكل الحرام:

أكل الحرام يسلب البركة من المال، كما روي عن الإمام الصادق (ع): «من كسب مالاً من غير حله سلط عليه البناء والطين والماء». (سفينة البحار ص ٢٩٨).

أي يلقى في روعه أن يبني بناءً، فيصرف ماله وعمره في الماء والطين، مما لا نفع فيه لا لدنياه ولا لآخرته، وكأن تلك القطعة من الأرض مأمورة بأن تبلع أمواله.

إن أكل الحرام مانع عن قبول العبادة، كما ذكر ذلك في مقدمة الكتاب، وعن رسول الله (ص) أنه قال: «إذا وقعت اللقمه من حرام في جوف العبد لعنه كل ملك في السماوات والأرض». (سفينة البحار ـ المجلد ١ ص ٢٤٥).

وقـال (ص): «العبادة مـع أكل الحـرام كـالبنـاء على الـرمـل» (سفينـة البحار ١ ص ٢٢٩).

أي كما ينهار البناء من دون قاعدة، ولا يستفيد منه الباني شيئاً، فكذلك عبادة من لا يتورع عن الحرام، فإنه لا يستفيد منها شيئاً.

دعاء آكل الحرام لا يستجاب:

كما أن دعاء آكل الحرام غير مستجاب، كما قال رسول الله (ص): «من أكل لقمة حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة، ولم تستجب لـه دعوة أربعين صباحاً، وكل لحم ينبته الحـرام فالنـار أولى به، وإن اللقمـة الواحـدة تنبت اللحم». (سفينة البحار/١/٢٤).

وأيضـاً قـال (ص): «من أحب أن يستجـاب دعـاؤه فليـطيب مـطعمـه ومكسبه». (عدة الداعي).

وقال (ص): «طهر مأكلك، ولا تدخل بطنك الحرام». (عدة الداعي).

وقـال الله لعيسى بن مريم (ع): «قـل لظلمـة بني إسرائيـل لا تدعـوني والسحت تحت أقدامكم». (عدة الداعي).

أكل الحرام يسبب قساوة القلب:

الطعام الذي يأكله الإنسان بمنزلة البذرة التي تبـذر في الأرض، وعلى هذا فإذا كان ذلك الـطعام طـاهراً حـلالاً ظهر أثـره من الرقـة والصفاء على القلب، الذي هو بمنزلة سلطان البدن، وحينئذ لا يصدر من جوارح البدن إلا الخير والعمل الصالح.

وأما إذا كان الطعام خبيثاً حراماً أدى إلى وسخ القلب وسواده، فلا يؤمل منه الخير نتيجة ذلك، ولا تنفع معه الموعظة والنصيحـة، ولا تؤثر فيـه أكثر المشاهد رقة، كما قال الإمام الحسين (ع) ضمن خطبته بجيش ابن سعـد:

«فقد ملئت بطونكم من الحرام، وطبع على قلوبكم، ويلكم ألا تسمعون». (نفس المهموم).

وبالجملة فإن أكل الحرام يوجب ظلمة القلب وقساوته، وحينئذ لا يذعن للحق، ولا يتأثر بالموعظة، بل لا يمتنع عن ارتكاب أية جريمة[1].

أكل الحلال سبب لكل خير:

كما أن أكل الحرام سبب لكل شر وفساد، فكذلك لقمة الحلال سبب للخير، ومنشأ للحسنات، وقد وردت روايات عديدة في فضل الحلال، من جملتها عن رسول الله (ص) أنه قال: «العبادة سبعون جزءاً، أفضلها جزءاً طلب الحلال» (سفينة البحار/١/٢٩٨).

وقال (ص): «من أكل الحلال قام على رأسه ملك يستغفر له حتى يفرغ من أكله». (سفينة البحار/١/٢٩٩).

---

(١) ينقل عن أحوال شريك بن عبد الله القاضي أنه كان في البداية فقيهاً ورعاً، إلى أن أحضره المهدي العباسي وفرض عليه أن يقبل أحد ثلاثة: إما منصب القضاء، أو يكون مربياً لأطفال الخليفة، أو يأكل مرة واحدة من طعام الخليفة، فاختار أكل الطعام، واعتبره أسهل من الأمرين الآخرين، فأوصى الخليفة طباخه الخاص أن يحضر ألواناً متعددة من الطعام اللذيذ، فلما أكل شريك من ذلك الطعام، قال الطباخ: سوف لا يستقيم شريك بعد أكله الطعام، وهكذا حدث، فقد أثرت فيه تلك اللقمة الحرام حتى قبل العملين الآخرين: القضاء وتربية أطفال الخليفة.

يقال إنه حين كانت لديه حوالة، وأراد أخذها من بيت المال استصعب ذلك، فقال له الخازن: إنك لم تبعني حنطة حتى تصنع مثل هذا الصنيع في أخذها.

فقال له: نعم بعت ما هو أكبر من الحنطة، وذلك هو ديني.

ما أجمل مقالة بهلول حين أحضروا له مائدة الطعام من هارون الرشيد فردها ولم يقبلها قال له المأمورون: إنك لا تستطيع أن ترد هدية الخليفة، فأشار إلى كلب كان قريباً منهم وقال: ضعوا الطعام أمامه ليأكل منه.

فغضب المأمورون وقالوا: لا تحتقر هدية الخليفة!! فقال بهلول: لا ترفعوا صوتكم فلو عرف الكلب أن هذا الطعام للخليفة لأعرض عن أكله».

وقال (ص) «من بات كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً». (سفينة البحار/١/٢٩٨).

وقال أيضاً: «قال الله تعالى: من لم يبال من أي باب اكتسب الدينار والدرهم لم أبال يوم القيامة من أي أبواب النار أدخلته». (بحار الأنوار).

وقال أيضاً: «لا يكتسب العبد مالاً حراماً فيتصدق منه فيؤجر عليه، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار». (بحار الأنوار).

لا يريد الله لأحد رزقاً حراماً:

غالباً يتخيل من لا يتورع عن كسب المال الحرام أنه إذا صرف النظر عنه فإن وضعه المعاشي سوف يتدهور، ويعتقد أنه سيكون في أشد الحاجة والابتلاء، لذا يجب أن ننبه إلى هذه الملاحظة، وهي أن ذلك مجرد خيال نفسي ووسوسة شيطانية، وحكم العقل القطعي، وهكذا صريح الوعد الإلهي في القرآن المجيد، والروايات الكثيرة الواردة عن أهل البيت (ع) تؤكد أن الله تعالى قد ضمن لكل مخلوق رزقة، بمعنى أن رزقه من الطريق الحلال سوف يصل إليه قطعاً إن لم يستعجل، وكان صابراً قنوعاً، نعم، أحياناً يحصل الإنسان معاشه من الطريق الحرام بسوء اختياره، ويحرم نفسه من الرزق الحلال الذي قدره له الله. والروايات الواردة في هذا المجال كثيرة نكتفي بذكر واحدة منها ونختم المطلب.

لا يموت أحد حتى يستكمل رزقه:

خطب رسول الله (ص) بالمسلمين في المسجد الحرام في حجة الوداع فقال: «ألا إن روح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى يستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بمعصية الله، فإن الله قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً، فمن اتقى وصبر آتاه الله برزقه من حله، ومن هتك حجاب الستر

وعجل وأخذه من غير حله قص به من رزقة الحلال، وحوسب عليه يوم القيامة، كما نهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾. بأن تعجلوا الحرام قبل أن يأيتكم الرزق الحلال الذي قدر لكم». (عدة الداعي).

بحرم السارق من الرزق الحلال:

ورد أن أمير المؤمنين (ع) دخل المسجد يوماً وقال لرجل: أمسك علي بغلتي، فأخذ الرجل لجامها، ومضى وترك البغلة، فخرج أمير المؤمنين وفي يده درهمان ليكافئ الرجل على إمساك دابته، فوجد البغلة واقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لغلامه الدرهمين يشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال (ع): «إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد على ما قدر له». (لآلىء الأخبار).

* * *

مباحث الجزء الأول
من كتاب الذنوب الكبيرة

الموضوع	الصفحة
لمحة عن حياة الشهيد المؤلف	٥
تقديم	٢٠
التقوى طريق النجاة	٢٣
القرآن المجيد والتقوى	٢٣
التقوى في روايات أهل البيت (ع)	٢٤
حقيقة التقوى	٢٥
الذنب يحبط الأعمال الصالحة	٢٦
أهمية ترك الحرام في الروايات	٢٧
تقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة	٣٠
الشفاعة	٣٠
الذنوب الكبيرة تسلب الإيمان	٣٣
شيعة أهل البيت (ع)	٣٥
الولاية	٣٧
أقسام التقوى	٣٩

الباب الأول ـ الكبائر المنصوصة

الموضوع	الصفحة
١ ـ الشرك بالله	٥٧ ـ ٨٧
١ ـ التوحيد في مقام الذات	٥٨
٢ ـ التوحيد في مقام الصفات	٥٩

الموضوع	الصفحة

٣ ـ التوحيد في الأفعال ٦٢
التوحيد والتوكل ٦٨
التوحيد والتسليم ٦٩
التوحيد والمحبة ٧٠
٤ ـ التوحيد في الطاعة ٧٢
٥ ـ التوحيد في مقام العبادة ٨٠
٢ ـ اليأس .... ٨٨ ـ ١١٤
اليأس أكبر من كل الذنوب ٨٨
١ ـ سلب التأثير عن الأسباب ٩٠
٢ ـ إيجاد ما لا علة له ٩٢
٣ ـ سوء العاقبة ٩٣
٤ ـ حسن العاقبة ٩٤
اليأس ناشئ من الكفر والجهل ٩٧
علاج اليأس ١٠٠
١ ـ علاج اليأس في الأمور المادية الدنيوية ١٠٠
٢ ـ علاج اليأس في الأمور الأخروية المعنوية ١٠٧
٣ ـ القنوط من رحمة الله .... ١١٢ ـ ١١٤
اليأس فقدان الأمل بالدعاء ١١٢
سوء الظن سبب للعقوبة ١١٣
القنوط أسوأ من اليأس ١١٤
٤ ـ الأمن من مكر الله .... ١١٥ ـ ١٢٩
ما معنى مكر الله ١١٥
الاستدراج مكر أيضاً ١١٦
بماذا يكون اليأس من مكر الله ١١٧
وجوب الخوف والرجاء ١١٨

الموضوع	الصفحة

لا يكن الأمل سبباً للغرور ١٢٢
الخوف والرجاء يظهران في العمل ١٢٣
أمير المؤمنين المثل الصالح ١٢٦
٥ ـ قتل البشر: .... ١٣٠ ـ ١٣٧
العذاب الأبدي خاص بالكفار ١٣٠
دم المسلم وماله محترم ١٣١
إحياء جميع الناس ١٣٢
القاتل لا يموت مسلماً ١٣٢
الانتحار حرام ١٣٤
توبة القاتل ١٣٧
٦ ـ عقوق الوالدين: .... ١٣٨ ـ ١٥٧
الأخبار وعقوق الوالدين ١٣٨
الأخبار والإحسان للوالدين ١٤٠
الأم أجدر بالإحسان ١٤٤
حقوق الوالدين بعد الموت ١٤٧
موارد وجوب إطاعة الوالدين ١٤٨
حقوق الأبناء على الآباء ١٥١
البنت أجدر بالإحسان ١٥٣
الأب الروحي أجدر بالاحترام ١٥٤
البر بالأبوين الروحيين ١٥٦
٧ ـ قطع الرحم .... ١٥٨ ـ ١٧٧
قطع الرحم في الروايات ١٥٨
صلة الرحم واجبة ١٦١
الآثار الدنيوية لصلة الرحم ١٦٣
الآثار الأخروية لصلة الرحم ١٦٤

الموضوع	الصفحة
معنى صلة الرحم وقطعه	١٦٥
مراتب صلة الرحم	١٦٦
حد وجوب صلة الرحم	١٦٧
لا فرق بين المسلم والكافر	١٦٩
صلة الأرحام الروحيين	١٧٣
من هم الأرحام الروحيون	١٧٤
حقوق أخوة الإيمان	١٧٥
٨ ـ أكل مال اليتيم	**١٧٨ ـ ١٨٥**
أخبار حول هذا الذنب	١٨٠
الإحسان لليتيم	١٨١
الدقة في عمل اليتيم	١٨٣
علامة البلوغ	١٨٥
ما هو الرشد	١٨٥
٩ ـ أكل الربا	**١٨٦ ـ ١٩٩**
هل الربا كالمعاملة؟	١٨٧
الربا سبب الاختلاف الطبقي	١٨٧
آكل الربا محروم من الخيرات	١٨٩
ثواب القرض الحسن	١٨٩
مال الربا لا بركة فيه	١٩٠
محاربة الله ورسوله	١٩١
الربا والأخبار	١٩٢
القرض الربوي	١٩٣
الربا في المعاملة	١٩٥
لا ربا بين أشخاص	١٩٦

الموضوع	الصفحة
١٠ ـ الزنى	**٢٠٠ ـ ٢٢٠**
أسوأ طريق لدفع الشهوات	٢٠٠
الآثار الدنيوية والأخروية للزنى	٢٠٣
بعد النظر في الإسلام	٢٠٤
١ ـ الحجاب من ضروريات القرآن	٢٠٨
٢ ـ حرمة النظر للأجنبية	٢١١
٣ ـ تحريم الخلوة بالأجنبية	٢١٢
٤ ـ الحدود الشديدة	٢١٣
١١ ـ اللواط	**٢٢١ ـ ٢٢٦**
اللواط كفر	٢٢١
اللواط فاحشة وعمل قبيح	٢٢٣
١ ـ النظر إلى الأولاد بشهوة	٢٢٣
٢ ـ التقبيل بشهوة	٢٢٤
٣ ـ نوم رجلين أو امرأتين	٢٢٤
حد اللواط	٢٢٥
حكم وضعي	٢٢٦
١٢ ـ القذف	**٢٢٧ ـ ٢٣٣**
حرمة القذف	٢٢٧
حد القذف	٢٢٨
لا يجوز قذف الكفار	٢٣٠
الشتم حرام أيضاً	٢٣١
العفو أفضل	٢٣٣
١٣ ـ شرب الخمر	**٢٣٤ ـ ٢٥٣**
المضرات الطبية لشرب الخمر	٢٣٤
المضرات الخلقية	٢٣٥

الموضوع	الصفحة
الشراب وأخبار أهل البيت (ع)	٢٣٩
لا فرق بين القليل والكثير	٢٤٣
المسكر المائع نجس	٢٤٤
الجلوس على مائدة الخمر	٢٤٤
تناول المسكر للعلاج	٢٤٥
حد شرب الخمر	٢٤٩
مكافحة شرب الخمر	٢٥١
١٤ ـ القمـــار	**٢٥٤ ـ ٢٦٩**
١ـ اللعب بأدوات القمار مع الشروط	٢٥٨
٢ ـ اللعب بأدوات القمار من دون شرط	٢٦٠
٣ ـ اللعب بغير أدوات القمار مع الشرط	٢٦٢
٤ ـ اللعب بغير أدوات القمار من دون شرط	٢٦٣
١٥ ـ الاشتغال بالملاهي	**٢٦٥ ـ ٢٧٠**
الموسيقى وأخبار أهل البيت	٢٦٥
تأثير الموسيقى على الأعصاب	٢٦٨
١٦ ـ الغنـــاء	**٢٧١ ـ ٢٧٨**
١ ـ الغناء من الكبائر	٢٧٢
٢ ـ لهو الحديث هو الغناء	٢٧٢
٣ ـ قول الزور هو الغناء	٢٧٣
٤ ـ الغناء لغو	٢٧٤
٥ ـ الغناء يورث النفاق	٢٧٤
٦ ـ مجلس الغناء محل غضب الله	٢٧٤
٧ ـ الغناء يورث الفقر	٢٧٤
٨ ـ عذاب الغناء	٢٧٥
٩ ـ العلاقة بين الغناء والزنى	٢٧٦

الموضوع	الصفحة
حرمة الغناء من الضروريات	٢٧٦
الغناء في مجلس العرس	٢٧٨
١٧ ـ الكذب	**٢٧٩ ـ ٣٠٤**
الكذب من أكبر الكبائر	٢٧٩
القرآن المجيد والكذب	٢٨٠
مراتب الكذب	٢٨٥
١ ـ الكذب على الله والرسول والإمام	٢٨٦
٢ ـ الكذب في القسم والشهادة وكتمانها	٢٨٩
٣ ـ الكذب الضار	٢٨٩
الكذب بدافع المزاح والهزل	٢٨٩
المبالغة في القول ليست كذباً	٢٩١
ما هي التورية؟	٢٩٤
الإصلاح عبادة عظيمة	٢٩٨
الكذب في الحرب	٢٩٩
وعد الأهل	٣٠٠
اليقين صادق وكاذب	٣٠٤
١٨ ـ اليمين الكاذبة	**٣٠٥ ـ ٣١٥**
أقسام اليمين	٣٠٧
القسم الواجب	٣٠٧
القسم المستحب	٣٠٧
القسم المكروه	٣٠٩
القسم المحرم	٣١٠
كفارة اليمين الحرام	٣١٠
التوبة من اليمين الكاذبة	٣١٢
بطلان القسم في أمر مرجوح	٣١٣

الموضوع	الصفحة
١٩ ـ الشهادة الكاذبة	**٣١٦ ـ ٣٢٠**
الوعيد بالنار	٣١٧
يجب فضحه	٣١٩
لا تقبل شهادته	٣١٩
التوبة من الذنوب	٣٢٠
٢٠ ـ كتمان الشهادة	**٣٢١ ـ ٣٢٨**
لا ينبغي أن تؤثر العداوة على الشهادة	٣٢٢
لا يستجاب دعاؤهم	٣٢٤
يجب أن تكون الشهادة عن علم	٣٢٦
الضرر في محله لا يوجب الكتمان	٣٢٧
٢١ ـ نقض العهد	**٣٢٩ ـ ٣٤٢**
أقسام نقض العهد وأحكامها	٣٣١
١ ـ عهد الله مع الناس	٣٣١
٢ ـ عهد الناس مع الله	٣٣٢
٣ ـ عهود الناس مع بعضهم	٣٣٦
ناقضو العهد شر الدواب	٣٣٨
الغدر ينبع من الكفر	٣٤٠
لا وفاء للوعيد بالشر	٣٤٢
٢٢ ـ خيانة الأمانة	**٣٤٣ ـ ٣٦٢**
الخيانة وأخبار أهل البيت (ع)	٣٤٤
الخيانة تجلب الفقر	٣٤٥
تزداد وسوسة الشياطين	٣٤٦
أقسام الخيانة	٣٤٧
١ ـ خيانة أمانة الله	٣٤٧
٢ ـ خيانة أمانة الرسول (ص)	٣٤٩

الموضوع	الصفحة

٣ ـ خيانة أمانة الناس ٣٥٠

١ ـ التعدي على الأمانة ٣٥١

٢ ـ التفريط في الأمانة ٣٥١

٣ ـ المسامحة في رد الأمانة ٣٥٣

الله تعالى يمدح الأمناء ٣٥٥

المقاصة من مال الأمانة ٣٥٥

سر الآخرين أمانة ٣٥٨

٢٣ ـ السرقة .... ٣٦٣ ـ ٣٧٦

حد السرقة ٣٦٤

شروط إجراء حد السرقة ٣٧٠

يجب الدفاع عن المال والعرض ٣٧٤

كيفية إجراء الحد ٣٧٥

دية اليد وحد السرقة ٣٧٦

٢٤ ـ التطفيف .... ٣٧٧ ـ ٣٨٦

المطفف لا إيمان له ٣٧٨

خمس صفات وخمس بلايا ٣٧٨

التطفيف في العد ٣٧٩

التطفيف مع الله ومع الناس ٣٨٢

الإنصاف أفضل الأعمال ٣٨٤

لكل شيء مقياس ٣٨٥

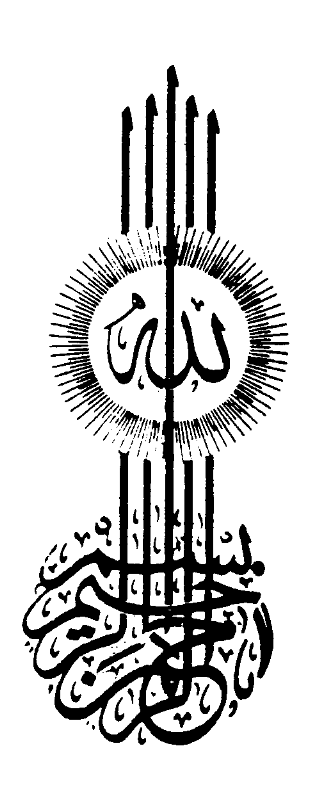
٢٥ ـ أكل الحرام .... ٣٨٧ ـ ٣٩٦

أقسام الرشوة ٣٨٩

١ ـ الرشوة في الحكم ٣٨٩

٢ ـ الاستعانة على الظلم أو المعصية ٣٩٠

الموضوع	الصفحة
٣ ـ الرشوة الحلال	٣٩٠
آثار أكل الحرام	٣٩٢
مباحث الكتاب	٣٩٧


بسم الله الرحمن الرحيم